

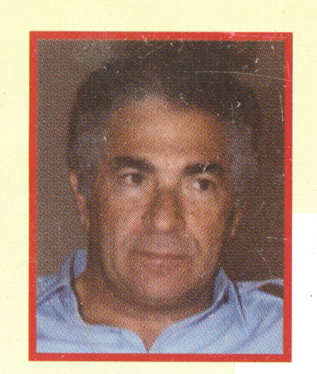
أنيس منصور

مكتبتنا
كنوز من المعرفة





www.nahdetmisr.com







لابد أن تكون أولى محاولاتى الأدبية هى نوعًا من محاولة الحديث مع النفس عن النفس؛ ولذلك وجدتنى أكتب مذكرات شخصية وأنا طالب فى المدرسة الثانوية. وقلبت فى هذه المذكرات فلاحظت أننى كتبت عن المدرسين والباعة والحلاقين والطلبة. وكنت حريصًا جدًّا على أن أجعل هذه المذكرات فى مكان بعيد عن الأيدى والعيون.

ولكن لماذا؟ وما الذى قلته؟

لا شىء أكثر من محاولة إبداء رأى فى كل الناس. وأذكر أن أول قصة كتبتها فى حياتى كان عنوانها «الفارس الذى وقع من فوق الحصان»، وكان عنوانها طويلاً غريبًا. واتجهت وأنا طالب فى الجامعة إلى دراسة الفلسفة وتخصصت فيها. ووجدتنى أكتب قصصًا رمزية..

وفى هذه المجموعة **«عزيزى فلان وقصص أخرى»** توجد رواية اسمها **«عريس فاطمة»** هذه الرواية أرهقتنى؛ لأننى أرهقت أبطالها. وعذبتنى؛ لأننى عذبتهم، وعندما حاولت أن أنهى هذه الرواية وقفت ، عجزت، وأحسست أننى فى مأزق.

أنيس منصور

Sunday
22 Jan 2012
My
Bierthday



أنيس منصور
الحائز على جائزة مبارك فى الآداب

عزيزى فلان

وقصص أخرى



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

اسـم الكتـاب: عزيـزى فـلان.. وقصص أخرى.
المـؤلـف: أنيـس منصـور.
إشراف عـام: داليـا محمـد إبراهيـم.
تاريـخ النشـر: يـنـايـر ٢٠٠٤م.
رقـم الإيـداع: 2003 / 21139
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2564-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالى: www.nahdetmisr.com الرقم المجانى 07775666

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

كلمة أولى

لابد أن تكون أولى محاولاتى الأدبية هى نوع من محاولة الحديث مع النفس عن النفس؛ ولذلك وجدتنى أكتب مذكرات شخصية وأنا طالب فى المدرسة الثانوية. وقلّبت فى هذه المذكرات فلاحظت أننى كتبت عن المدرسين والباعة والحلاقين والطلبة. وكنت حريصًا جدًّا على أن أجعل هذه المذكرات فى مكان بعيد عن الأيدى والعيون. ولكن لماذا؟ وما الذى قلته؟

لا شىء أكثر من محاولة إبداء رأى فى كل الناس، دون الحديث معهم أو وصف حالهم فى هذه الدنيا. وهذا يدل على الخوف الذى دفعنى إلى اتخاذ موقف عدائى من الجميع، أو موقف دفاعى من كل الذين حولى. فأنا وحدى. وأنا أقوم بمحاولات سرية. وهى سرية لأننى غير مطمئن إلى قدرتى على شىء.

وبعد ذلك لابد أن أكون قد حاولت القصة القصيرة التى تروى ما لم يحدث فى حياتى، وأنها تدور حول ما أتمنى أن يكون قد حدث..

ومعنى هذه القصص والمحاولات الشعرية أيضًا: أننى أدور حول نفسى، وأحصنها ضد الناس. فأنا فى حالة دفاع عن النفس، مع أن أحدًا لم يعتد علىّ، أو يعتدى على شىء أملكه.. ولا أذكر أننى كنت أملك أى شىء، وربما الشىء الوحيد الذى أملكه هى القدرة على إخفاء ما يخصنى، أو الرغبة فى التخفى. وفى التخفى أمارس حريتى فى الخوف من الناس. والوقوف ضدهم.

ولذلك لاحظت فى كل ما كتبته فى هذه الفترة - أى فى الأربعينيات - أننى أرثى لحالى، وأسخط على الناس. ومعنى ذلك أننى أقيم لنفسى حفلة تكريم تلمع فيها دموعى وسيوف الآخرين.. المهم أنها حفلة لامعة!

ولكن بلا مناسبة.. المناسبة فقط فى نفسى!

وأذكر أن أول قصة كتبتها فى حياتى كان عنوانها «الفارس الذى وقع من فوق الحصان» – وكان عنوانها طويلاً غريبًا. ولكنى وضعته هكذا. ولم أناقشه، ولا أحد بعد ذلك. والفارس الذى وقع هو إنسان آخر.. وهذا الفارس كان يمثل فوق

حصانه ويتفرج عليه إخوته. وفجأة وقع من فوق حصانه، وكانت تحت قدمى الحصان بئر (؟!) وفى هذه البئر سقط الفارس وظل يقرأ القصيدة رغم أنه كاد يغرق وآخر ما سمع الناس منه كان وهو يقول:

ويا بنت الأقاح إذا التقينا   تعانقت الأنامل فى يدينا

وهذا الشعر من نظمى، وهو كما ترى: مهزوز غريب فى مفرداته!

ولكن المهم أن الشاعر وقع فى البئر وهو ما يزال يحاول.. ولعلى لم أقصد ذلك.. ولكن الذى قصدته هو السخرية من الآخرين الذين يحاولون. وفى نفس الوقت سخرية من الناس الذين يستمعون إليه ولم يحاولوا إنقاذه، إما لأنهم لا يبالون، أو لأنهم يبالون ولكن مثل هذا الشاعر يجب أن يغرق. فكأننى عاقبت الشاعر الشاب - مثلى - على أنه اتجه إلى الأدب ولم يهتد إلى صناعة أخرى - ربما!

واتجهت وأنا طالب فى الجامعة إلى دراسة الفلسفة وتخصصت فيها. ووجدتنى أكتب قصصا رمزية.. أستعرض فيها قدراتها الفلسفية. وفى نفس الوقت أحدد فيها قرائى، من فاهمى الفلسفة فقط!

ولم أَشْرَع إلى أن أكون غامضا، فلا أحد يعنيه أمرى غامضًا أو واضحًا. وربما الوضوح هو الذى سوف يؤدى إلى أن يشاركنى الناس فى الفهم. وأن يكونوا فى القضية التى أعرضها. وهذا هو أساس الفن: أن يكون الناس طرفاً فى كل كلام. لأن كل كلام لهم وعنهم وبهم..

واتجهت إلى الآداب الغربية من كل نوع.. وعرفت الأدباء الألمان: جيته وشيلر وتوفاليس وهينه. وأول ما نقلته أننى حاولت أن أنقل فرحتى بهم إلى الناس.. أو أن يشاركونى فيهم.. أو على الأصح أن يكون الناس شاهدين على ما قمت به من مجهود.. ونشرت الكثير من القصائد والقصص والمقالات..

وعرفت الأديب الإيطالى البرتو مورافيا وذلك فى سنة ١٩٤٧ عندما اشتغلت بالصحافة. وأصبحت صداقتى له وثيقة. والتقينا أكثر من مرة فى مصر وروما وبرلين وهافانا. وكنت أول من نقل مورافيا إلى اللغة العربية. وترجمت له أكثر من مائة قصة قصيرة. نشرت جميعا.

ونشرت بعد ذلك عدداً من القصص فى جريدة «الأساس». وكانت من تأليفى. ولكن لم أستطع أن أقول إنها من تأليفى. فقد كنت صغيرًا على ذلك. ولا أحد يعرفنى؛ ولذلك قلت إنها من ترجمتى. وبذلك أبنى لنفسى كوخًا فى الطريق إلى القصر الذى ادعيت أننى نقلته إلى اللغة العربية.. فالذى يتجه إلى القصر، يرانى واقفًا عند بابه أدله عليه.. المهم أن أكون هناك أمام أو وراء أحد..

وفى «الجريدة المسائية» واصلت النشر والترجمة وادعاء التأليف أيضًا..

وفى «الأهرام» كنت أنشر القصة القصيرة كل يوم. وفى ذلك الوقت لم يكن مسموحا لى أو للذى فى مثل سنى وتجربتى فى سنة ١٩٥٠ أن يوقع بإمضائه على شىء. وكان الزملاء يطلقون على لقب الأستاذ «تمت».. وهذه الكلمة كانت النهاية اليومية لكل قصة قصيرة. أنها تمت! ونشرت فى الأهرام أكثر من مائتى قصة قصيرة. وأعترف أنها من تأليفى جميعًا ولكن جعلت أسماءها أجنبية، لتبدو أنها أيضاً أجنبية!

وفى «روز اليوسف» نشرت أنواعا من القصص الوجودى. ونشرت إحدى القصص المسرحية والمسرحية الروائية فى سنة ١٩٥٢ وقدمها الأستاذ إحسان عبد القدوس تقديمًا أخافنى.. تمامًا كما يركب الإنسان مصعدًا يرتفع به بسرعة. وبعدها يقف لينظر إلى الناس فى الشارع.. دخت.. فقد قال إحسان عبد القدوس وهو يقدمنى:إننى خليط ممتاز من العقاد وطه حسين والحكيم وسارتر.. وأننى أتوقع له مستقبلا باهرًا.. منتهى الكرم والتشجيع والأبوة!

وفى إحدى المرات استراح الأستاذ العقاد إلى قصة ترجمتها لتولستوى. وقال: أعجبنى فيها أسلوبك!

وانزعجت جدًا. فالأسلوب الذى يعجب به العقاد لابد أن يكون قريبًا من أسلوب العقاد نفسه.. وأسلوب العقاد قوى كالحديد.. منيع.. ولكنه ليس رقيقًا ولا سهلا ولا جميلا..

ولابد أننى حاولت أن أبدو فى تولستوى.. أو على الأصح حاولت أن ألفت القارئ إلى أننى أيضًا موجود إلى جوار تولستوى.. وأن تولستوى لم يَخْفِنى ـ من الخفاء ـ ولم يُخِفْنى ـ من الخوف ـ.. فأنا موجود على كل حال.. وعرفت عيوب الترجمة .. فهى نوع من التوكؤ على أكتاف الآخرين.. أو ركوب أكتافهم.. فأنا حى بالآخرين.. وليست لى حياة خاصة.

إذن معه حق كامل الشناوى فكان يلقى شعر شوقى وحافظ والمتنبى وناجى وابن المعتز وكنا نطلب إليه ذلك. ولكنه فى كثير من الأحيان كان يضيق بأن يكون مجرد «مرتل» أو «مطرب» أو «راوية»؛ لأنه هو أيضًا شاعر. وكان يجب أن تكون له هذه الصفة.

وأعجبنى الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى. وكانت قراءتى لكتبه سعادة غامرة. خصوصاً: السحاب الأحمر. وأوراق الورد. ورسائل الأحزان.. وكانت له عبارات بللورية. وكل واحدة مكثفة جميلة التراكيب غامضة المعنى. ولكن عباراته كانت مثل الفتيات الجميلات المتحجبات أو المحتشمات.. جميلة ومثيرة. وحاولت فى الإذاعة أن أبنى نوعًا من القصص على عباراته البديعة.. ولكن لم

أسترح إلى هذا الشكل المضحك من الكتابة. ولكنى كنت أحاول أن أجد الشكل الذى يريحنى. ولم يكن ذلك هو الشكل.

فدراستى الفلسفية والمنطقية والنفسية، قد أهلتنى لأن أكتب القصص الخفيفة. أى التى تدور فى داخل النفس. ووجدت نفسى راهبًا فى معابد دستويفسكى وموراڤيا وسومرست موم وغيرهم.. فهم أساتذة القصة والرواية فى العصر الحديث.. وأشجع الناس على الدخول فى أزمة وحلها. أو تعميق الأزمة وتجميلها. ووجدتنى أضع يدى وأذنى على كل شىء حولى وأسمع وأكتب. فكل شىء فى الدنيا: رمز.. وله كلام. والمطلوب من الكاتب أن يعرف كيف يسمع، لا كيف يكتب فقط..

والكاتب يجب أن يكون مثل الفيلسوف الوجودى الألمانى مارتن هيدجر الذى يقول عن نفسه: إننى أجلس خاشعًا عند قدمى الحقيقة.. لا أقول.. ولا أفتح عينى، وإنما فقط أنتظر أوامر سيدتى!

ولابد أن تكون محاولاتى الأولى فى القصة القصيرة رومانسية خالصة. وهذا طبيعى. وقد نشرت جزءًا من هذه القصص فى مجموعة قصصية اسمها «هى وغيرها». ففى مجموعة «هى وغيرها» توجد قصص رومانسية مرهفة جدًا. وفى آخر الكتاب قصص أخرى واقعية إذاعية تليفزيونية. فأنا لم أرفع عينى عن الميكروفون والشاشة. والمسافة الزمنية بين هذه النوعية من القصص تصل إلى ربع قرن. فالقصص الرومانسية كتبتها فى الأربعينيات. والقصص الواقعية كتبتها فى الستينيات. ولم أشأ أن أغير شيئًا. لكى أعرف فيما بعد، كيف كنت وكيف أصبحت .. إنها صور من شبابى ورجولتى..

ومعظم القصص التى نشرتها فى «الأهرام» عدت فنشرتها وأضفت إليها قصصًا أخرى من مجموعة لى اسمها «بقايا كل شىء». وهى مجموعة من القصص القصيرة جدًا جدًا ولكنها قصص.

وبعد ذلك اتجهت إلى كتابة المسرحية وبدأت بالمسرحيات المضحكة. وبدأت خائفاً متردداً. ومن مظاهر هذا الخوف والتردد أننى اعتمدت على الاقتباس أو التمصير الشديد. وتوالت أعمالى المسرحية التى ظهرت على المسرح وعلى الشاشة وفى الميكروفون. فكانت مسرحية «الأحياء المجاورة» التى قام ببطولتها لمدة ثلاث ساعات: حمدى غيث وسناء جميل. اثنان فقط. ولم يظهر أحد على المسرح وإن كان الاثنان يتوقعان دائماً مجىء الآخرين.. ومسرحية «حلمك يا شيخ علام» بطولة أمين الهنيدى وعقيلة راتب وسلامة إلياس. وجاءت مسرحية «مين قتل مين» بطولة أمين الهنيدى.. ثم مسرحية «جمعية كل واشكر» بطولة عقيلة راتب وتوفيق الدقن.

وظهرت مسرحيات مترجمة وكل هذه المسرحيات للأديب السويسرى الصديق فريد ريش ديرنمات. وكانت أولها: رومولوس العظيم بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل.. ثم مسرحية «الشهاب» بطولة د. إبراهيم سكر.. ثم مسرحية «سلطان زمانه» المأخوذة عن مسرحية «هبط الملاك فى بابل» لديرنمات أيضًا. بطولة عبد الله غيث..

ومسرحيات أخرى ترجمتها ونشرتها: مثل «الإمبراطور جونز» للكاتب الأمريكى يوجين أونيل. ومسرحية «بعد السقوط» للكاتب الأمريكى أرثر ميللر. ومسرحية «سواد عينيها» للكاتب الفرنسى جيرودو. ومسرحية «أمير الأراضى البور» للكاتب السويسرى الصديق ماكس فريش. وترجمت مسرحيات قصيرة كثيرة للأديب الفرنسى يوجين يونسكو. ومسرحيات قصيرة للأديب الأسبانى ارابال. ومسرحية «الأستاذ» تاران للأديب الفرنسى أداموف.

وكلها معاناة ومعايشات للأدب وأشكاله المختلفة ومحاولات؛ لأن أجد لى مكانًا أستريح إليه أو عليه.. ولا أقول: إننى استرحت. فأنا قليل الراحة كثير التعب. وكثير التقلب بين القوالب. ولا أعرف إن كان ممكنًا للفنان أن يستريح أو يهدأ أو يسكن.. لا أظن ذلك. لأن الفنان إذا سكن سكت. وإذا استراح راح. أو هكذا أتصور نفسى أن الفنان مثل الساعات الحديثة يمتلئ بالاهتزاز.. والاهتزاز لا يكفى وإنما الاهتزاز الذى يؤدى إلى الحركة.. إنه يحتاج إلى قوة نافثة نافخة تدفعه إلى فوق دائمًا..

وأنا أحاول ذلك فى كل مجال. وهذه هى متعتى. وأرجو أن تكون متعة القارئ أيضا.. أرجو..

وفى هذه المجموعة «عزيزى فلان وقصص أخرى» توجد رواية اسمها عريس فاطمة» هذه الرواية أرهقتنى لأننى أرهقت أبطالها. وعذبتنى لأننى عذبتهم. وعندما حاولت أن أنهى هذه الرواية وقفت. عجزت. وأحسست أننى فى مأزق. ومطلوب منى أن أنقذ نفسى وغيرى. وأن أجد لهذه البطلة حلاً. وتوقفت القصة. لأننى لا أجد الحل. فأنا لم أفكر فيه بدرجة كافية. ونسيت أن القصة، أية قصة، هى أكذوبة متفق عليها بين القارئ والكاتب. فالقارئ يعرف أنها لم تحدث. أو لم تحدث بالصورة التى يرويها المؤلف. ولكن موهبة المؤلف هى أن ينقلها ويجعل القارئ يشعر بها كأنها حدثت له أو لغيره من الناس. ومن بينهم المؤلف. ووجدت أننى نسيت هذه اللعبة الفنية. ولم أفكر حقيقة فى حل مشكلة البطلة. مع أن المعروف عن الكاتب أنه قد درس المشكلة ووجد لها الحل، كل ذلك قبل أن يكتب، ولكن المشكلة وتجميلها وحبكتها وتحليلها قد أسرتنى وسجنتنى عن

التفكير فى شىء آخر. وجعلت من هذه الرواية مصيدة أنيقة لفتاة مصرية رقيقة جميلة شابة.

وتوقفت عن إكمال القصة أربع سنوات. وبعد أربع سنوات استعرت ما فعله الفيلسوف الوجودى الأسبانى ميجيل أونامونو. فهو أيضا حاول فى إحدى قصصه أن يقتل بطل روايته. وإذا ببطل الرواية يطل من بين السطور ويقول له: وأنت بأى حق تريد أن تقتلنى؟! ويرد عليه المؤلف: أنا الذى خلقتك وأنا أقتلك! ويقول له البطل: ولكن هل تستطيع أن تدفع الموت عن نفسك. هل فكرت أنت لماذا تموت؟ وما دمت لا تعترف فلماذا لا تحاول أن تعرف.. إننى هنا أموت بلا سبب.. إلا لأنك حاقد على الأحياء.. وحاقد على الموت.. ولذلك تريد أن تلعب بالموت.. تقتل من تشاء وتحيى من تشاء.. كأنهم أخذوا رأيك فى حياتك ومماتك!

ويرتبك المؤلف. ولا يدرى ما الذى يفعله..

وأنا تعلمت شيئًا من ذلك. فقد قفزت البطلة من روايتى وحاكمتنى. وسألت عن متاعبى. ووجدت أننى لا أعرف كيف أحلها ولا كيف أخرج منها. وقالت البطلة: إذا كنت لا تعرف كيف تحل مشاكلك فكيف تحل مشاكلى؟! ثم إنك أخذت مآزق صعبة.. لا يعرف أحد أن يخرج منها.. فكيف لم تتمكن من المشاكل أو ما تستطيع أن تحله.. تمامًا كما فعل مثل.. مؤلف شرلوك هولمز وارسان لوبان وقصص جورج سمنون الفرنسى وقصص أجاثا كريستى الإنجليزية. كيف لم تعرف ذلك.. ولم أكن أعرف شيئًا من ذلك!

وأنهيت الرواية بانتصار البطلة على المؤلف.. وإن كان المؤلف هو الذى كتب كلمات البطلة أيضًا. ولكنه انتصر على نفسه.. وهو المنهزم أيضًا. وهو الذى أوجد المشكلة وهرب من الحل، أو عثر له على حل، أو على حيلة!

وفى هذه الرواية أصور حيرتى وعذابى وأن المشاكل أصعب مما يبسطها المؤلفون. وأعقد مما نتصور.. وليست الحلول كلها إلا نوعًا من الحلول المعجزة، أو الحلول السعيدة..

ولايزال الكاتب يحاول طوال عمره أن يجد حلا لشىء، فإذا وجده استراح إليه، ولحظة الراحة، هى لحظة السعادة التى تسبق أزمة جديدة.. وهكذا..

أنيـــس منصور

القاهرة مارس ١٩٧٣

□□□

فى شارع السلام

شارعنا عبارة عن أسرة كبيرة. عدد سكانه لا يزيد على مائة شخص. بيوتنا متجاورة جدًّا وبعض البيوت نصل إليها عن طريق بيوت أخرى – ورغم أن هذه البيوت مصنوعة من الطوب والحجارة إلا أننا نشعر أنها مصنوعة من الزجاج.. فكلنا نعرف عن أنفسنا كل شيء.. فأنا عندما أجلس فى غرفتى.. أقصد غرفتنا – أستطيع أن أقول لك أن السيدة التى تسعل فى آخر الشارع هذه هى زوجة الفكهانى.. إنها ستسعل خمس دقائق وبعد ذلك ستصرخ، وبعد ذلك سيجىء زوجها وتدور معركة حامية جدًّا.. ولن يتدخل أحد من الجيران بين الرجل وزوجته؛ لأن هذا يحدث كل يوم.. وكلنا نعطف على هذه السيدة المسكينة.. فقد مات ابنها عندما كان يتعلق بأحد الأتوبيسات .. وفى بعض الأحيان نتدخل لفض هذا النزاع بدافع الشفقة، لا على هذه الأسرة المسكينة، ولكن خوفًا على سيدة أخرى عصبية تعيش فى البيت المجاور؛ لأنها تشكو من الأرق الدائم..

وأستطيع أن أميز أصوات الأطفال.. وأصوات الكلاب.. وأعرف بالتأكيد أن الكلب الأبيض الوحيد فى شارعنا ينبح فى الساعة الحادية عشرة مساء عندما يعود صاحبه من العمل فى أحد أقسام البوليس.. وأشياء أخرى كثيرة أعرفها وأنا فى مكانى.. فحارتنا كتاب مفتوح.. أو أسطوانة تدور بلا توقف.. أسطوانة يمشى فوقها الناس كالإبر.. أما البيوت الضيقة فهى الميكروفون الذى يضخم الصوت حتى يصل إلينا.. كل شيء نعرفه وقت حدوثه.. ونستطيع أن نتنبأ بحدوثه.. ولذلك عندما نلتقى، فمن النادر أن يدور بيننا أى كلام.. لأننا نعرف كل شيء.. ما حدث.. وما سيحدث..

أذكر أن أحد أقاربى زارنى وأقام فى بيتى أربع ساعات.. طبعًا ليس فى استطاعته أن يبيت عندنا.. لأن البيت ضيق وأولادنا كثيرون.. وقد حدث أن أهانته زوجتى عندما حاول أن ينام مرة هربًا من الأمطار الغزيرة فى إحدى ليالى الشتاء.. وقد لاحظ قريبى هذا أشياء كثيرة وهمس فى أذنى قائلا: يا فلان أعرف

أنك رجل طيب وأنك تحب الناس.. ولكن الدنيا غيرتك.. فأنت لم تعد تضحك.. ولم تعد تروى النكت.. بل لاحظت أنك تكشر فى وجوه الناس فما الذى جرى لك؟

إنه لا يصدق أن العلاقة التى تربطنا نحن سكان هذا الشارع، علاقة نسمعها ولا يراها أحد، إنه لا يصدق أن الكلام بيننا قد انتهى.. لا كلام.. لا سلام.. لا قصص تروى، لا أخبار.. لا شيء نريد أن نعرفه، لا شيء يريد أن يعرفه أحد.. فأنا أعيش فى بيتى، وفى كل البيوت الأخرى.. إن بيتى يشبه جهاز الراديو الذى يلتقط كل الموجات التى تصدر عن البيوت الأخرى لحظة إذاعتها فورًا.. ولا أعرف ماذا أفعل.. هل أنظر فى عيونهم.. هل أوقفهم لكى أسألهم؟ أسألهم عن ماذا؟ هل أقدم لهم قريبى؟ ومن هو قريبى؟ وأية فائدة وراء ذلك؟.. إننى أعرف أن هؤلاء الناس مشغولون عنى بأنفسهم، وأنا مشغول عنهم أيضًا.. وأنا أعرف أن قريبى هذا يحب التظاهر.. إنه يحب أن أعمل له مهرجانا فى شارعنا.. أن أقول للناس إنه يملك بيتا وحديقة وعنده ست أبقار وأربعة أولاد وزوجة تملك قطعة أرض وأنه يقضى شهرًا كل صيف على ساحل البحر.. وأنه اشترى سيارة جديدة.. وأنه يطمع فى أن يكون عمدة القرية.. وأن عضو مجلس الأمة الذى يمثل المنطقة يعتمد عليه، يعتمد على نفوذه الأدبى..

وقريبى هذا يحمل معه حقيبة مليئة بالصور وبعض السطور التى نشرتها الصحف عنه.. ومعه صورة قديمة مهلهلة لا يعرضها إلا بصورة مسرحية.. إنها صورته مع إحدى كواكب السينما عندما ذهبت إلى هذه القرية لالتقاط أحد الأفلام.. وعندما أطلب إليه أن يطلعنى على هذه الصورة فإنه يمتنع.. ويتظاهر بأنها بقايا ذكرى هناك أليمة.. وإنه يريد أن يدفن الماضى.. وأنا أعلم أنه لم تكن هناك ذكرى، ولم يكن هناك ماض.. وأن زوجته لم تهدده بالانفصال بسبب هذه الصورة، وأن علاقته بعضو مجلس الأمة لم تبلغ هذه الدرجة من السوء بسبب هذه الممثلة الحسناء.. وأشياء أخرى يريدنى أن أرويها لأبناء «شارع السلام» الذى نسكنه..

لقد أمضى قريبى هذا ساعتين فى بيتى حائراً بين النافذة والباب.. يبتسم للمارة، ويبتسم للجيران ويحاول أن يخترع وسيلة للكلام مع أى أحد وسيلة للإعلان عن نفسه.. إلا أنا لم أشجعه ولم أقف أمامه.. ولكن النتيجة كانت مخيبة لآماله.. فالناس آذانهم مملوءة بالكلام، ونفوسهم مسدودة عن الكلام، والهموم

تشدهم إلى الأرض.. ولكن قريبى هذا كان أكثر ألما.. فأنا لم أعطه الفرصة التى تناسبه.. الفرصة التى تجعله يقف كأنه مرشح دائرة انتخابية لملجأ الصم البكم فيصرخ قائلا:

ليس هنا مكانى.. مكانى فى القرية.. فى مزرعتى وفى سيارتى وبين أولادى.. وأتباعى.. إلخ.

هذا الكلام الذى لا أحب أن أكرره..

وأمس وأنا عائد إلى البيت أحسست أن معالم شارعنا قد تغيرت.. كأن الناس ينتظرون مرور موكب أو مهرجان.. فكل النساء والأطفال ينظرون من النافذة.. ولا يتكلمون كأنهم فى أعلى التياترو فى أحد المسارح.. وكانت الساعة الخامسة مساء.. حتى الكلاب لم يكن لها نباح.. مع أن كلب الحلاق ينبح عادة فى الخامسة عندما يعود ابن الحلاق من المدرسة وقد جمع بعض قطع العظام من أمام دكاكين الجزارة. فلابد أن شيئًا خطيرًا قد حدث.. طبعًا لا أستطيع أن أنظر إلى كل هذه الوجوه، وإذا نظرت فإننى لا أستطيع أن أفهم شيئاً.. فنحن نعتمد هنا على الآذان أكثر من العيون..

ولكن إحساسى بأن شيئًا خطيرًا قد حدث جعلنى أتطلع إلى وجوه الجيران.. كلها تتطلع ناحيتى أنا.. إذن لابد أن شيئًا قد حدث فى بيتنا.. ليس الذى حدث وفاة أحد من أبنائى.. وإلا لنزل كل هؤلاء الناس ووقفوا أمام بيتنا وراحوا يبكون.. وليست حادثة انتحار فزوجتى مصرة على أن تعيش بعدى بأى ثمن!.. ولما اقتربت من البيت تطلعت ورائى فوجدت الوجوه تلاحقنى.. فلم يصعب على أن أستنتج أن الكارثة التى وقعت فى بيتنا سببها واضح جدا..

وأنا – عادة – أدخل بيتنا من بيت آخر.. فنحن لا نطل على الشارع وإنما لنا نافذة جانبية تطل على بيت يطل على الشارع.. وفعلا نحن لسنا من سكان هذا الشارع كما يقول بعض أصدقائى.. وبيتنا لا يلتفت إلى الشارع وإنما ينظر إليه بجانب عينه..

وصعدت الدرج.. ووجدت الباب مفتوحا ونظرت إلى الشماعة فلم أجد البالطو الذى ترتديه زوجتى.. فعرفت أنها خرجت.. وأن خروجها لابد أن يكون لسبب خطير جدًّا.. وزوجتى لا تستطيع أن تخرج من البيت، وترتدى البالطو الجديد إلا إذا كان الأمر غير عادى.. ثم أن زوجتى لم تترك أولادنا فى البيت، وأنا أستبعد أن

تكون قد ذهبت لأمها وأنها ستعاود الكلام عن الطلاق وتعاود من جديد الكلام عن ميل بختها، وسوء حظها معى..

وفى جانب آخر من الغرفة وجدت قريبى هذا نائمًا على الأرض وهو يتنفس بصوت مرتفع.. ولما اقتربت منه فتح عينيه ثم هب واقفًا وراح يصرخ ويقول: هل تظن أنى فقير مثلك.. هل تظن أننى نسيت كل ما فعلته لك ولأولادك.. من الذى أعطاك هذه البدلة.. من الذى أعطاك السلفة فأدخلت زوجتك المستشفى؟.. والخاتم الذهبى فى يد زوجتك ممن اقترضت ثمنه؟.. كيف تهيننى زوجتك وتتهمنى – بالأنانية.. هل نسيت يوم اعتقلك البوليس ومن الذى أفرج عنك..

ومضى يقول أشياء كثيرة أوجعتنى ومعظمها كاذب. ولكن الخمرة حطمت قيود الأدب والشهامة وراح الكلام يتدفق من فمه كالماء من حنفية مكسورة.

لقد فضحنى هذا القريب. وعرف أهل شارعنا ما لم يعرفوه فى عشر سنوات عنى وعن زوجتى..

وفى جانب من الغرفة وجدت الدبلة الذهبية ملقاة على الأرض.. وعرفت أن زوجتى جمعت أولادها وملابسها وذهبت إلى أمها تندب حظها الأسود معى، وتندب بختها وآخر صبرها على فقرى وعلى أقاربى..

والمشكلة فى بيتى هذا هو أن زوجتى هى الأخرى تريد منى أن أتحدث عن فضلها وعن تدبيرها وعن حياتى وكيف كانت فراغًا قبلها، وكيف أنها أصبحت ممتلئة بعدها..

الآن عرفت ماذا جرى فى بيتى الصغير.. فقريبى هذا يريد أن يتحدث عن نفسه وعن فضله علىَّ أنا وزوجتى وعلى كل الناس..

وزوجتى هى الأخرى تريد أن تتحدث عن نفسها وعن فضلها على أنا وأولادى.. وقريبى لا يطيق أن يتحدث أحد غيره.. وزوجتى كذلك..

وحدثت الفضيحة وانفتحت نافذة غرفتنا وجاء قريبى ونشر كل ملابسنا القذرة، الجديدة والقديمة..

وخرج قريبى – وجلست أنتظر عودة زوجتى، فهى لا تعلم أن أمها قد ماتت منذ أسبوعين، وأننى أخفيت عنها ذلك حتى لاتصاب بانهيار.. وحتى لا تصيبها الأزمة النفسية فتحاول قتل طفلنا الصغير كما فعلت ذلك مع طفلنا الأول..

دنياى الصغيرة

العالم الذى نعيش فيه محدود جدًا..

أوله: مكتب البريد. وآخره: مقهى صغير عند حافة الترعة.. والوجوه التى تتحرك فى هذا العالم محدودة أيضًا.. فنحن نعرف كل سكان القرية. وكل شىء عنهم.. وأستطيع وأنا جالس أمام الباب فى أيام الصيف أن أدير أنفى يمينا فأعرف ماذا يطبخ العجوز الذى يسكن بجوارى.. وأدير أنفى يسارًا فأعرف كمية الحطب التى استهلكتها الأرملة العجوز وهى تعد الأرز المفلفل لها ولابنتها.. وفى الليل يوقد مصباح هزيل فى بيت أمامنا.. هذا المصباح موضوع على السلم حتى يعود صاحب البيت من عمله فى قرية أخرى.. وفى البيت الذى وراءنا لا يوجد مصباح واحد مضىء فصاحب البيت رجل بخيل جداً مع أنه أغنى أغنياء هذه القرية..

وهذا البخيل هو «المثل» الذى تضربه القرية وهى تتحدث عن الدنيا وعن سخافة المال، وعن زوال النعمة.. فكل واحد من سكان القرية يقول للآخر:

ماذا أخذ من الدنيا.. إنه يعيش كأنه فقير.. يأكل كأنه شحاذ، ويلبس كأنه عاطل.. ويخاف من الناس كأنه مجرم!

وأنا لا أعرف ماذا يقال عنى..

لقد سمعت زوجتى مرة تقول إننى أنا الآخر أحد الأمثلة التى يضربها الناس فى الإسراف فيقولون:

– إن يده وجيبه مثقوبان.. إنه يكره المال.. إن الفلوس عصافير فى يده.. وكلها تطير عند أول حركة.. إنه يأكل ويترك أولاده جائعين.. إنه يتأنق ويترك زوجته مريضة!

ولا أظن أن هذا الكلام صحيح.. فقد قالته زوجتى فى حالة ثورة.. والمرأة عندما تثور لا تدرى ماذا تقول.. وامرأتى عاطفية.. وعصبية أيضًا.. وقد سمعت فى ساعات رضاها أجمل قصائد المدح.. وفى ساعات غضبها ألقت على رأسى بالكلام كالحجارة .. وأشك أيضًا فى أن الناس يقولون عنى هذا الكلام.. فلست شخصًا يلفت

العين.. وليست وظيفتى شيئًا يطمع فيه الناس.. والفلوس التى أتقاضاها محدودة جدًا.. دائمًا أعطيها لزوجتى.. وإذا اشتريت شيئًا فيكون ذلك عندما تمرض زوجتى.. وزوجتى تمرض كثيرًا.. ولذلك أنا أشترى كثيرًا، وأتلقى اللعنات كثيرًا..

وأهم شيء تفعله زوجتى عندما تصحو من مرضها أن تحاسبنى على كل ما فعلت قبل ذلك.. وتهاجمنى وتؤنبنى كأننى المرض الذى أصابها، كأننى السعال الذى مزق صدرها، كأننى الزكام الذى سد الدنيا عليها.. كأننى الكيس الرملى الذى يتمرن عليه الملاكمون والذى تسن عليه لسانها وتجرب فيه أسنانها!

والحقيقة أن موقف زوجتى هذا قد حيرنى كثيرًا.. ولكنى إنسان كتوم.. أسمع ما يؤلمنى ولا أتأوه، أرى ما ينغصنى ولا أتوجع..

وفى يوم سألت زوجتى: ألم نتزوج عن حب؟ هل خدعتك؟ هل كذبت فى أقوالى؟ هل سلبت قلبك من أحد؟ ألست أعطف عليك؟ ألست أنام عند قدميك؟ أما أزال أحبك؟

وتبكى زوجتى..

ولكنى قررت أن أعرف سر هذه الثورة من حين إلى حين..

وعدت أقول لها:

– لابد أن أعرف.. إن هذه الدموع لا تمنعنى من السؤال.. ولن تمنعك من الجواب.. إن دموعك لا تدل إلا على نشاط فى عينيك.. لابد أن تجيبى.. لابد.. أرجوك!

وقالت زوجتى كلاما لم أفهمه.. قالت كلامًا كثيرًا نصفه سعال، ونصفه الآخر دموع.. وفى دموعها هاجمتنى واتهمتنى بالقسوة عليها وإننى لا أرحمها وهى مريضة.. ولكنى ذهبت إلى مأذون القرية وهو رجل مثقف ونقلت له ما قالته زوجتى وطلبت منه أن يدلنى على طريق..

وفوجئت بأن المأذون هو الآخر قد انضم إلى زوجتى واتهمنى بالغباء والبلادة وإننى رجل قاس على زوجتى.. وإننى رجل مسرف.. أضيع أموالى كلها.. وأن المرض الذى أصاب زوجتى سببه إهمالى أولا، وإسرافى ثانيًا..

وحاولت أن أروى لرجل الدين تاريخ حياتى وتاريخ حبى.. وأطلعه بصراحة على ما أكسبه من أموال. ولكن الرجل لم يقتنع.. ولا أنا أيضًا.

وهو أيضًا يتهمنى بسوء الأدب لأننى أناقش زوجتى وهى مريضة.. إنه لا يعلم أنها عندما تصحو فإننى لن أستطيع مناقشتها، ولن أستطيع حتى الدفاع عن نفسى.. إن كل كرة دموية فى جسمها تتحول إلى كرة من نار تنزل فوق رأسى..

إن جسمها الهزيل يصب كل قواه فى لسانها.. كل نشاطه كل حيويته.. ويلتف لسانها وكلامها حولى.. وأختنق فى الصمت وأغرق فى الدموع..

مستحيل أن يعرف المأذون عن حياتى أكثر مما أعرف.. مستحيل أن أكون أنا هكذا ظالمًا سيئ الأدب مسرفا.. مستحيل أن أكون هكذا دون أن أدرى..

ولكن الذى كان يهمنى هو إرضاء زوجتى فهى فقيرة مثلى.. وقد تعذبت مثلى.. فأنا الذى عذبتها فى ولادة طفلنا الأخير.. إنها لا تريد الأطفال.. أما أنا فمجنون بالأطفال.. ليست لى إخوة.. وصديقى الذى كنت أحبه قد سافر إلى القاهرة بعد أن عشنا عشرين عامًا لا ننفصل..

إن عالمنا المحدود قد ضاق.. وازداد ضيقًا..

كأن الدنيا كلها حوض من الماء.. هذا الحوض ظهر فى قاعه ثقب واسع.. ويبدأ الماء يتسرب من الثقب..

ووقفت فى وجه الدنيا التى بدأت تهرب منى.. وتزوجت وبدأ ماء الحوض يرتفع.. وتلعب فيه ثلاث أسماك صغيرة هى أولادى.. ووقفت مع زوجتى نتطلع إلى الحوض وإلى هذه الأسماك نطلب من الله المزيد.. أو على الأصح أطلب أنا من الله المزيد..

والمزيد من الأولاد.. معناه المزيد من آلام زوجتى.. المزيد من مشاغلها.. ومن متاعبى أنا أيضًا.. فهى تمرض وأنا أنفق، وهى تصحو وأنا أتعذب من صحوها.. لأن صحوها كله لوم وتأنيب وتعميق لمعنى الذنب فى حياتى..

ومصيبتى أننى أحب الأولاد.. رغم أننى فقير.. إن عندى ثلاثة من الأطفال.. ومع ذلك تجد كل أطفال البيوت المجاورة يلعبون أمام بيتنا.. وكل هؤلاء الأطفال أقدم لهم الحلوى والهدايا.. وزوجتى تثور. لا أستطيع أن أرى طفلا على صدر أمه دون أن أقترب منه وأقبله.. وزوجتى تثور.. وبعض الأزواج يثورون..

وكل نساء القرية يعلمن أننى أحب الأطفال.. ويعلمن أن حبى لا حدود له ويعلمن أن سيرتى فى القرية نظيفة.. وإننى عندما أقبل طفلا فلا هدف لى وراء ذلك..

وقد فهمت من رجل الدين أن هذا الحب غير الطبيعى للأطفال هو الذى أتعس زوجتى.. إنها سعيدة من شدة الغيرة.. إنها تعيسة؛ لأنها لم تفلح فى أن تقضى على هذا الحب الشديد لكل طفل.

لقد قال لى رجل الدين: إنه لا شىء يتعس الزوجة إلا إحساسها بأن زوجها ليس لها.. بكل عواطفه واهتمامه..

وفى يوم عدت إلى البيت ووجدت عددًا كبيرًا من أبناء القرية واقفين أمام البيت.. وصرخت بأعلى صوتى: أولادى؟ أين أولادى؟

ولم أنس وأنا أصرخ أن أداعب طفلا على صدر أمه! ولم أعرف الوجوه الأخرى.. ولم أر وجه الأم التى تحمل هذا الطفل.. وأنا عادة لا أرى وجوه الأمهات..

وعندما دخلت بيتنا وجدت زوجتى ملقاة على الأرض وحولها ملابسها.. وبعض أدوات الطعام.. وحولها أكداس من الورق المحترق.. وفى ركن البيت وجدت أولادى الثلاثة قد أمسك بعضهم ببعض من شدة الخوف..

واتجهت إلى أولادى وعانقتهم وسألتهم:

ماذا حدث؟..

وقال ابنى الأكبر أن أمه ضربته وبكى الثانى.. وبكى الثالث أيضا.. وبكيت.. وتطلعت إلى زوجتى فى حيرة وفى غيظ.. واجتمع نساء القرية حول زوجتى وأنهضوها وظهر رجل الدين بالباب ونادانى.. واتجهت إليه أنا وأولادى .. وقال لى:

– اترك هذا البيت فورا.. اذهب إلى أخيك فى العاصمة.. لقد حصلت لك على إجازة لمدة أسبوعين.. إن حياتك فى هذا البيت تعذب زوجتك!

ولم أفهم ما هى جريمتى.. ولم أفهم ما الذى فعلته زوجتى.. ولماذا أخذت ملابسها وأحرقت كل أوراقى وضربت أولادى..

وهمس رجل الدين فى أذنى:

– ألم تذهب إلى بيت فلان؟

لقد ذهبت إلى بيت هذا.. فقد أوشك ابنه الصغير أن يغرق فى الترعة.. فحملت الطفل إلى أمه.

وسألنى العمدة:

– هل نسيت أن هذه الأم كانت خطيبتك يومًا ما..

والحقيقة أننى نسيت..

إننى لا أرى إلا الأطفال ولا أشعر إلا بالحب لهم..

وأمام إصرار المأذون وراحة زوجتى.. اتجهت إلى العاصمة.. ومشيت فى الطريق وحدى..

الطريق الذى مشيت فيه من القرية محفوف بالأطفال الأبرار.. بالملائكة الصغار.. ومشيت وجريمتى أن قلبى يدق لهؤلاء الملائكة .. أبنائى وأبناء غيرى من سكان القرية!

□ □ □

بيتنا الجديد

كنت أسأل أمى كثيرا رغم أنها لم تكن تجيب عن أسئلتى إلا بيديها .. مرة تضربنى على وجهى، ومرة تضع يدها على فمى.. وكنت أبكى.. ولكنى لا أتوقف عن الأسئلة.. وتعلمت من الضرب والصراخ أننى لا يجب أن أسألها عن والدى وأين هو وماذا يعمل ولماذا لا أراه؟!

لقد كان هذا السؤال هو أقسى الأسئلة جميعا.. وكان أصعبها.. ولم يكن له إلا جواب واحد.. هى أنها تضربنى وتلعننى وتطردنى!

ويبدو أن أبى لم يمت.. فأمى لا تعمل – ومع ذلك معها بعض الأموال – وبين الحين والحين تذكر أبى وتتحدث عنه.. وخصوصا يوم الجمعة عندما تذهب لزيارة إحدى قريباتها، وأبقى وحدى فى البيت مع أخى الأصغر..

ولم أكن أفهم لماذا تهتم أمى بهذا الأخ الصغير فهو قطعة من اللحم الأحمر.. لا يتكلم ولا يمشى ولا يبيع الفاكهة مثلى .. وقد حاولت أن أوقفه على قدمين أكثر من مرة.. ولكنه سقط منى، وظل يبكى حتى عادت أمى.. ولم تكد تحمله بين يديها حتى سكت.. وخشيت أن يروى لها ما حدث.. ولكنه لم يفعل؟..

ولم أكن أعرف لماذا لا يحلو لأمى الكلام عن أبى إلا عندما ترضع هذا الطفل الصغير.. لم أكن أفهم ما هى العلاقة بين رضاعة هذا الطفل وبين أبى.. طبعاً لم أحاول أن أسأل أمى.. ولكنى تعودت على هذه القصة المكررة كل يوم.. وكلما رفعت رأسى واتجهت بعينى ناحية أمى وهى ترضع أخى، طلبت منى أن أنهض وأحمل سلة الفاكهة وأذهب فى طريق السيارات..

وفى بعض الأحيان كنت أرى أقارب أمى من الريف يجيئون لزيارتنا.. وعندما نقترب من البيت، تطلب منى أن أذهب بعيداً عنها إلى الشارع. وعندما كنت أعود إلى البيت أجد أمى قد ارتدت ثوبا نظيفا وأعدت طعاما شهيا.. ويبدو أن هذا

الطعام قد جاء به هؤلاء الضيوف، ولكن أمى كانت تؤكد أنها اشترت هذه الأطعمة من السوق..

وقد تعلمت الدروس الأولى فى حياتى كلها هنا فى طريق السيارات.. تعلمت أن الذى يتعرض للسيارات تدوسه.. وتعلمت أن الذى يضع كل فاكهته فى سلة واحدة، تكون خسارته أكبر من الذى يضعها فى أكثر من سلة.. وتعلمت أن الزبون يحتاج إلى من يذهب إليه وإلى من يقنعه بضرورة هذه الفاكهة له.. فحاجتى لا قيمة لها عنده.. ولكن المهم حاجته هو إلى الفاكهة.. وأعظم ورقة يجب أن ألف فيها الفاكهة هى الابتسامة الحلوة، حتى لو كنت جائعا مريضا مرهقا..

وتعلمت شيئًا آخر قدرت أن أسأل أمى عنه.. فأنا أعرف أن الناس لا يعيشون على الفواكه.. فهى شيء يأكلونه بعد الطعام العادى.. ومن الممكن ألا يتناولوا الفاكهة.. فهى شيء كمالى جدًّا.. ولكن هذا الشيء الكمالى هو الذى يجعلنى أشترى ما هو ضرورى.. والبائع الذكى هو الذى يقنع الزبون بأن الكماليات ضروريات..

وفى الطريق العام عرفت أن وجهى شاحب وأن يدى متسخة وأن ملابسى ممزقة.. وفى الطريق سمعت عبارات كثيرة أوجعتنى.. لقد سمعت طفلة تنظر من نافذة السيارة وتقول: إنه لا ينظف يديه بلسانه كما تفعل قطتى الصغيرة..

وحاولت هذه الطفلة أن تمحو أثر هذه العبارة من أذنى بابتسامة رقيقة.. ولكن هذه العبارة بقيت لاصقة فى أذنى.. وظللت أغسلها كل يوم بالماء.. ولكنها ظلت فى مكانها الأليم من نفسى؟!

وعرفت فى الطريق العام أنه من الممكن أن أغسل يدى وأغسل ملابسى وأضىء وجهى بابتسامة. ولكن هناك شيء لم أستطع أن أتحكم فيه.. يبدو أن نظراتى لها معنى خاص.. نظراتى متساءلة متسولة.. إننى لم أمد يدى لأحد.. ولكن نفسى وروحى وتعاستى تمد نظراتى إلى الناس.. فتصبح رموش عينى كلها أصابع ليد لا يراها أحد.. تسأل الناس أن يشتروا.. أن يرحمونى أنا وأمى.. أن يرحمونى من أمى.. حتى أمى أدركت هذا لذلك كانت تطلب منى أن أبعد عن البيت عندما يجيء الضيوف.. إننى أضع يدى وراء ضهرى وأمى تعد لهم الطعام كأننى أخاف أن تفلت أصابعى من يدى فتخطف الطعام.. مع أننى أكتفى بتقليب الطعام بنظراتى!

وتعلمت أن العيون هى نافذة النفس.. وأننى مهما حاولت أن أسد هذه النافذة بيدى.. بابتسامتى.. بالفاكهة.. فإن نفسى تطل من عينى.. وتفضحنى!

وفى الطريق كنت أجلس على كوم طوب وأعرض فاكهتى، وذات يوم جاءنى رجل عجوز وقال لى كلاما كثيرا ينتهى بين لحظة وأخرى بعبارة: باركك الله .. وعندما عدت إلى البيت رويت لأمى ما قاله هذا العجوز.. لقد قال: إن الناس لا يعرفون ما ينفعهم .. إنهم يفضلون عصير البرتقال على البرتقال نفسه ويفضلون عصير التفاح الفاسد على التفاح نفسه..

وكررت هذه العبارة كثيرا حتى لا أنسى منها شيئًا..

وعندما عدت إلى البيت كانت أمى مشغولة بأخى الصغير.. ورفعت صوتى أروى عبارات هذا العجوز..

وكانت أمى تطلب منى أن أسكت.. فأعود أروى لها نفس الكلمات.. ولكنها مضت ترضع أخى بلبنها، ثم ترضعنى بقصتها الطويلة عن أبى.. إنها ترضعنى بكراهيتها لأبى الذى لا أعرفه ولا أدرى ماذا يعمل ولا متى يجىء إلى هذا البيت؟!

وفى يوم أمطرت السماء.. فعدت إلى البيت وأشارت أمى إلى أحد الأركان.. فاتجهت إليه، وأخفيت رأسى بين رأسى وتظاهرت بالنوم.. وسمعت أمى تروى لسيدة صديقتها أن أبى زارها اليوم – وكنت أتمنى أن أراه – وروت لها وهى تبكى أن أبى َصفعها وركلها..

وكدت أرفع رأسى من بين رجلى لولا أن أمى راحت تبكى.. أما سبب هذه الزيارة فهو أن أبى علم أن أمى قررت أن تعمل لتعاونه فى حياته.. ولكن أبى رفض قائلا: إن العمل يرهقها ويضعف صحتها. وفيه ضرر على الطفل الصغير!

وعلى غير العادة لم يكن وجه أمى كئيبا وهى تروى قسوة أبى.. ولم أعرف إن كانت أمى سعيدة بقسوة أبى عليها.. ولم أستطع أن أفهم طبيعة أبى هذا.. هل هو يحبها ويشفق عليها ثم يبكيها فى نفس الوقت.. هل الحب الشديد كالقسوة الشديدة؟.. لا أعرف.. ولكن أمى تضربنى رغم أنها تحبنى.. وعندما أبكى، فإنها هى الأخرى تبكى!

وحاولت أن أسأل أمى إن كان أبى غضب منها، وأنه لن يعود حتى لو بقيت أمى فى البيت بلا عمل.. ولكن أمى رفضت أن تستمع لى وكانت تشير لى أن أجلس فى الأركان بعيدًا عن الثقب الذى ينزل منه المطر..

وسمعت من أمى أن والدى أحضر لى بعض الأدوية.. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة أدوية.. وسمعت أمى تنطقها بطريقة خاصة.. كانت تنطقها على مهل..

كأن هذه الكلمة من نوع غريب يجب أن تخرج من الفم بصورة غريبة.. وهنا رفعت رأسى لأرى الأدوية.. لقد كانت فى قرطاس وكانت عبارة عن حبوب ملونة وتحت هذه الحبوب يوجد نوع من الدقيق الأبيض اللامع.. وأشارت أمى إلى جانبها الأيسر وقالت: قلبى يؤلمنى.. ثم إلى جنبها الأيمن وإلى ظهرها وإلى عنقها.. وراحت تسعل..

وتوقعت ما يحدث عادة مع هذا السعال.. توقعت أن تروى أمى لهذه الزائرة سيرة أبى وكيف عذبها وأنه نقلها من بيت والدها.. ذلك البيت الواسع الذى كان به أناس كثيرون.. أخواتها وأولادهم.. وعشرة من الخدم.. وكيف أنها كانت تنام حتى العاشرة.. وكيف أنها كانت تنام فى حضن أمها.. لا بعيدا عن ابنها.. وأشارت الى الثقب الذى ينزل منه الماء فيفصل بينى وبين أمى.. إنها كانت تجد الطعام والشراب.. وإنها كانت حقيقة لا تعرف الولادة.. والرضاعة.. وكانت تنام ملء عينيها، فلا تنظر إلى الباب ولا تنظر إلى النافذة.. ولا تصحو من عز النوم على صوت الرياح وهى تدق بابنا، ولا على صوت الرعد وهو يهد سقفنا.

وكنت أتخيل بيت أمى.. أتخيله كبيرا.. وأتخيل أبوابه عالية ونوافذه واسعة.. وكنت أندهش كيف أن أمى لم تمت من الأسلاك الكهربائية، وأن الفيضانات سببها أنابيب المياه. ولم أكن أفهم حاجة الناس إلى المصابيح الكهربائية فى البيوت مادامت هناك أشعة الشمس، ومادامت هناك مصابيح فى الشوارع.. ولم أكن أفهم حاجة الناس إلى أنابيب المياه فى البيت مادامت موجودة فى الشارع..

ولكن أمى كانت تبكى على اختفاء هذه الأسلاك وهذه الأنابيب من بيتنا هذا.. وفى إحدى الليالى نفذ البرق من ثقوب السقف فصحوت مذعورًا من النوم وظننت أن المصابيح قد ركبت فى بيتنا فجأة..

واتجهت إلى أمى أسألها إن كانت ستأخذنى إلى بيت والدها.. وبكت أمى كثيرًا فى تلك الليلة، ولم أسألها بعد ذلك عن الأسلاك والأنابيب أو أذكر لها شيئاً عن بيتها!!

وفى يوم رأيت أمى من بعيد.. وكنت قد أغفيت قليلاً.. وبسرعة نظرت إلى سلة البطاطا.. وبسرعة عددت ما بها.. ثم تلمست فى جيبى ثمن البطاطات الخمس التى بعتها. ونظرت إلى أمى.. لقد كانت تشير إلىَّ من بعيد أن أعود إلى البيت

فورا.. ونهضت ونظرت إلى السلة مرة أخرى.. وتأكدت من العدد ومن عدد القروش التى فى جيبى..

وفى البيت وجدت رجلا لم أره من قبل.. كان جالسا إلى جوار أمى.. وأمامه سلة كبيرة بها بعض الخبز الكبير وبعض الفاكهة وفى فمه سيجارة.. ونظرت إلى أمى أسألها من يكون؟!

وقالت وهى تنظر إلى أخى الصغير: إنه أبوك..

ونظرت إلى وجهه ولم أفهم معنى أبى.. ما معنى أبى؟.. ولكنه قال بسرعة وبصوت غليظ.. ولكن سرعان ما استرحت إليه: نعم أبوك.. وفى كل مرة كنت أجىء إلى هنا كنت أجدك نائما.. تعال..

ونظرت إلى أمى.. وكانت مشغولة بأخى الصغير.. واقتربت منه ووجدته يلف ذراعين غليظتين حولى.. فقد كانت ذراعاه كغصون الشجر.. وضغط على جسمى وارتميت على صدره.. وأحسست أن بشرته تشكنى فى عنقى.. ثم أحسست بأنفاسه الساخنة.. وكانت المفاجأة.. لقد قبلنى!!

وتخلصت من ذراعيه ونظرت إلى أمى.. ثم نظرت إليه.. فلم أفهم شيئًا.. فوجهه جامد أسمر، مغطى بالشعر من الجانبين.. ولكنه قال بصوته الغليظ الذى أستريح إليه: آسف يا ولدى.. انتهى كل شىء الآن.. سنرحل من هنا!

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة «سنرحل» .. ولكن إلى أين؟؟ ولماذا؟ ومن الذى سيرحل؟ وسألته إن كان هو وأمى سيرحلان وأننى سأبقى مع أخى الأصغر.. وضحك وابتسمت أمى.. وعاد يقول: كلنا سنرحل.. بعد ساعات.. وستذهب إلى المدرسة.. فأنت رجل الآن!

ولاحظت أن أمى رفعت رأسها ورمقتنى بنظرة قاسية.. فقد سألتها يوما لماذا لا أذهب إلى المدرسة؟.. وكان ردها المألوف هو الضرب والطرد.. وقد خشيت أمى أن أروى هذا لأبى.. ولكننى لم أفعل!.

وفى الليل جاءت عربة يجرها حصان.. وركبت أمى وعلى صدرها أخى.. ثم وضعت رأسى على صدرها.. وأحسست بشىء من الدفء ونمت..

وفى الصباح سمعت عبارات غريبة من أبى.. سمعت أن المدينة التى سنعيش فيها اسمها بيوت العمال.. وسمعت كلمات غريبة مثل المساكن الشعبية.. والجمعية التعاونية.. وسمعت أنه سيدفع إيجارًا رمزيًا.. وكلمات أخرى لم أفهمها..

ونزلت من العربة وتعلقت بملابس أبى وحملنى على صدره.. وصعدنا سلّمًا.. وجعلت أدق الجدران بيدى.. لقد كانت جافة جامدة.. وكان لونها أبيض لامعا.. كأنها مصنوعة من الدواء الذى تتعاطاه أمى ضد السعال والقلب وآلام الظهر والجنب.. وفى الطابق العلوى وقفنا .. وأخرج أبى مفتاحًا من جيبه.. وفتح الباب ودخلنا .. وكانت هناك مقاعد.. وكان هناك سريران.. وهناك مصابيح وأنابيب للمياه.. وظللت أبكى عند رؤيتها وأغمض عينى عندما يضىء النور أياما عديدة..

وقد ضبطنى أبى أكثر من مرة وأنا أنهض من فراشى وأدق الحائط بيدى.. ولكن الجدران لا تلين تحت ضرباتى.. ولاحظت أن أمى لم تتعاط الدواء الذى اشتراه أبى.. ولم أفهم السبب..

وفى مرة تسللت من الفراش واقتربت من أبى وهمست فى أذنه ولاحظت أن أمى هى الأخرى قد صحت من نومها وأنا أقول له: هل هذا البيت يشبه بيت أمى الذى كانت تعيش فيه؟!

ولكن أمى اقتربت منى ولأول مرة عانقتنى.. ولم أعرف سر هذا التحول كله.. هل الإنسان إذا انتقل من السكن فى بيت من الصفيح إلى السكن فى بيت من الحجارة يتغير.. إن أمى لا تجيب عن هذا السؤال، ولكن أبى كان يهز رأسه: نعم!..

ولم أعد أسمع من أمى القصص الطويلة عن بيت والدها، ولم تعد تقول عباراتها التى ترددها كأنها أغنية جميلة.. لم تعد تقول: إن الطيور لها عش، وإن الوحوش لها وكر!

أما بيتنا الجديد فهو حجرة واحدة كبيرة.. كنا نشيع فيها الدفء.. كنا فيها أسرة لأول مرة.. أما أنا فكنت أسكن فى ثلاث حجرات.. فى هذه الحجرة وفى قلب أمى وقلب أبى.. وكانت غرفتنا الواحدة كأنها قلب كبير.. قلب متين.. يحمينا من الرياح والرعد والبرق والخوف والبرد.. وكان يجمعنا .. وكنا أيضًا نحميه بالتقارب، بالدفء، بالحنان، بالحب..

لقد عرفت لأول مرة أن أمى لم تكن تكره أبى.. إنها تحبه.. إنها تسبقه إلى النهوض من الفراش وتضع حذاءه أمام سريره.. إنها تضع كوبين من الزجاج .. إنها تحبه.. وأنا أيضًا جعلت أحبه تمامًا كأنه أبى.. الذى لم أره!

□ □ □

خطأ لغوى

كنت أحب هذا الرجل؛ لأننى كنت فى حاجة إلى صداقته.. وكرهت هذا الرجل جدًّا؛ لأنه كان سببًا فى خراب حياتى، وتشريد عواطفى.. واليوم أحبه جدًّا؛ لأنه اعتصر قلبى دموعًا عليه، فقد أحيا فى نفسى عذاب أبى، ومرض أمى، وقسوة الأيام علينا..

قصتنا باختصار.. أننا صديقان.. من قرية واحدة.. أعطتنا الطبيعة كل شىء.. أعطتنا ترعة واسعة، وخضرة الحقول، وابتسامة الزهر، وامتلاء الثمار، أعطتنا صحة قوية.. فكيف لا تكون قلوبنا قوية صحيحة.. وكيف لا يسكنها الحب والخير والسلام..

وكان أصدقائى يسخرون منى ويقولون عنى أننى عبيط. وأنا لا أنفى عن نفسى هذه الطيبة الشديدة.. وكثيرًا ما كنت أجلس وحدى وأتساءل لماذا يصفوننى بالعبط. فأجد فى مناسبات لا تشرفنى عندما يسألنى الواحد منهم: كم كأسا من الخمر تستطيع أن تشرب فى الساعة؟! كم مرة كسبت فى لعب الورق؟ كم مرة نمت خارج بيتك؟

ويبدو أن إجاباتى على هذه الأسئلة هى التى أثارت هذه الصفة المشهورة بأننى ساذج واقتنعت أن الناس يعز عليهم أن يقولوا عنى أننى فاضل أو شريف أو متزن أو عاقل.. ولذلك يشوهون هذه الصفات بكلمة ساذج.. أو عبيط..

وسأروى لكم قصتى هذه لتعرفوا إن كانت سذاجة منى أو طيبة.

المطلوب منكم هو وضع فاصل أو حائط بين هاتين الكلمتين. إنصافا للحق ولرجل عاش طوال عمره يصلح هذا الخطأ اللغوى ويحاول أن ينبه الناس إلى هذه الفوارق اللغوية والمعنوية الدقيقة بين الكلمات..

صديقى هذا الذى أتحدث عنه يعمل معى فى مزرعة فواكه. كل شىء حولنا جميل وله رائحة.. وكان كلامنا تقليدًا للطبيعة الحلوة التى حولنا.. وكلامنا عن الدنيا التى طعمها حلو ورائحتها حلوة أيضًا..

وفى يوم قلت لصديقى: يا أخى أريد أن أتزوج.. لقد وجدت أمس فتاة تسكن فى قرية مجاورة تعجبنى.. سمعتهم ينادونها خديجة.. طويلة.. شقراء.. وعيناها رماديتان. ولها ابتسامة نادرة. وعندما نظرت إليها ابتسمت فى أدب ورقة.. ابتسامة تشبه سياجا من الفضة بينى وبينها.. وقلت له: عندما يكون عندى بعض المال فى نهاية الموسم سأذهب إليها..

وقال صديقى: وأنا أتمنى أن أتزوج وأن أجد الفتاة التى أقاسمها التفاحة والبرتقالة والكوب والطبق وننظر إلى مستقبلنا من نافذة واحدة ونسرع إلى الباب لنفتحه معا لطفلنا الصغير.

كلام حلو قلناه كثيرًا.

لا أعرف الأسباب التى أدت إليه.. قد تكون الطبيعة الحلوة حولنا.. قد تكون النسمة الباردة التى مرت بنا جعلتنا نشعر بحاجتنا إلى الدفء.. قد يكون جلوسنا معًا دائمًا فى مجتمعات كلها من الرجال دون أن تكون معنا فتاة جميلة.. قد يكون مللنا الخفى من مجتمعات الرجال.. قد تكون السن الكبيرة التى بلغناها سرا.. لقد تجاوزنا الثلاثين نحن الاثنان.. كل شىء جائز..

وانتقل صديقى إلى مزرعة أخرى.. فقد وجد هناك أجرًا كبيرًا.. وباعدت بيننا الأيام فلم نلتق إلا نادرًا.. ومضى عام واثنان وثلاثة.. ولم أر صديقى هذا.. وجدت أصدقاء غيره.. وتغير كلامنا وتنوعت موضوعات الكلام.. والاجتماعات تبدلت.. فالكلام مثل الكرة.. بعض الناس يلعبونها باليد وبعضهم يلعبونها بالقدم.. وبعضهم ينقلونها من رأس إلى رأس.. فالكلام يختلف باختلاف الناس ولكن صديقى كان أحسنهم جميعًا.. كان أقربهم إلى طبيعتى الطيبة أو الساذجة كما يقولون.. طبيعتى الحزينة قليلا..

وفى موسم جمع القطن قابلت صديقى القديم.. وكانت أذنى متلهفة على فمه.. تريد أن تسمع بالتفصيل ماذا حدث له.. فوجهه لامع.. باسم.. سعيد.. صحيح البنية.. ملابسه نظيفة.. وفى يده دبلة ذهبية.. لقد تزوج.. كل هذه العلامات اللامعة تدل على وجود امرأة فى حياته.. إننى أرى أصابعها فى كل شىء..

قلت له: طبعًا تزوجت؟

فهز رأسه أن نعم..

قلت: وعندك طفل؟

فرفع يده إلى أعلى وأشار بأصبعين يعنى طفلين..

قلت له: ولدان أو ولد وبنت؟

فقال: بنتان جميلتان..

كانت سعادته لا حدود لها.. لقد تزوج..إنه أعز أصدقائى.. وهو سعيد.. وأمسكت يده بين يدى كأننى أريد أن تنتقل السعادة منه إلىَّ.. كأن السعادة معدية.. كأنها تنتقل باللمس..

وتعشينا معا فى ذلك اليوم..

ومد صاحبى يده فى جيبه وأخرج صورة زوجته وابنتيه.. أسرة سعيدة جدًّا.. وفجأة أحسست أن قلبى تمزق.. أن صاحبى هذا كأنه سحب كل الهواء الموجود فى المطعم وأننى أختنق مرة واحدة. إنها صورة نفس الفتاة.. صورة خديجة التى حدثته عنها.. خديجة ذات العينين الرماديتين.

وحاولت أن أفهم شيئًا من صديقى.. لم أفلح.. لم أر على وجهه دهشة.. لم أر على وجهه شفقة.. كل شىء فى وجهه سعيد.. أما أنا فأكاد أجن.. وأسأل نفسى هل من الممكن أن يرتكب إنسان جريمة مروعة وضميره مستريح؟ ممكن؟.. كان فى نيتى أن أروى حكايتى.. ومأساتى.. وكيف أننى فى السنوات الماضية تقدمت إلى فتاة فرفضتنى وقالت بصراحة: أنت عبيط.. والناس يقولون: إننى عبيط.. لخمة.. لبخة.. خيْبان.. وكيف أننى تقدمت إلى فتاة أخرى.. وأننى تعلقت بها.. ودفعت لها الكثير من أموالى القليلة.. مائة لمرض أمها.. وخمسين لمرض أختها.. وعشرين لفستانها.. وعشرة لمرض أمها وبعد ذلك عشرة لأختها الصغرى.. أموالى كلها ضاعت..

وفى النهاية اكتشفت أنها كانت تسكن عند سيدة عجوز ويسكن معها أخريات.. وكلنا يعرف معنى هذا السكن! واكتشفت بعد ذلك أن زوجها مات.. وأنها وعدت بالزواج كثيرين.. وفى هذه الحوادث المتوالية لم أتمكن من التفكير فى أحد.. لا فى ذات العينين الرماديتين ولا فى غيرها.. ولكن عندما قابلت صديقى أحسست أن الأرض اتسعت بيننا.. وانشقت وتحولت إلى نهر به ماء قاتم.. أسود.. يغلى.. والدخان يحجب الرؤية أمامى..

كرهته.. كرهته..

ولم أنتبه إلا بعد وقت طويل أنه لا داعى لكراهيته.. فأنا لم أتقدم إلى هذه

الفتاة.. ولم أتكلم معها.. ولم أخطبها .. وسبقنى هو إليها.. وكان من الممكن أن يتزوجها أى إنسان آخر لا أعرفه. ولكن هذا الكلام لم يقنعنى.. فأنا لا أذكر هذه الحادثة، وأحيانًا أسميها المأساة، إلا وقلبى يعلو ويهبط كأننى أركب زورقا والنهر ماؤه طين يغلى وله دخان كريه.. أو دخان اسمه الكراهية.

ونسيت حقدى كله.. نسيت حقدى عليه.. إن هذا الحقد عليه أو الحقد على الدنيا التى منها صاحبى هذا قد أعمانى.. أصمّنى.. زكمنى.. فهو أصبح الدنيا كلها.. وكرهت الدنيا كلها..

وفى موسم البرسيم قابلنى صديقى.. وتحير قلبى بين ضلوعى.. فهو صديق طيب.. وزواجه هذا لم يكن يقصد به الإساءة لى أو إغاظتى.. فهو ينسى أنى حدثته يوما عن هذه الفتاة التى صارت زوجته.. تحير قلبى بين صداقتى وبين زواجه.. ولم يفلح البرسيم المبلل حولنا فى أن يطفئ حرارة صداقته لى.. وكراهيتى له.. عيناه تلمعان بالحب والسعادة.. وعيناى نار أطفأها الرماد الأسود.. أطفأها الحقد عليه وعلى الناس..

وتتابعت بعد ذلك حوادث متعددة فى ذلك اليوم واخترنا جانبا من الحقل.. ورحت أنا وصديقى نتمشى.. وكان المكان بعيدا نائيا وفجأة اصطدم صديقى بجذع شجرة وسقط.. وتلفّت ورائى فوجدته عاجزًا عن الوقوف.. ووجدت الدماء تتساقط من ركبته واقتربت منه، ومددت يدى إلى ساقه.. فوجدتها قد تمزقت.. وتلفّت حولى فلم أجد أحدًا يعاوننى.. ولا أستطيع أن أصف ما جرى لى فى داخلى.. صداقتى.. كراهيتى.. شفقتى.. خديجة.. الفتيات اللاتى تعذبت معهن.. ابنتاه.. شماتتى.. وقلت له وأنا لا أدرى ما أقول: إن زوجتك ستكون تعيسة.. خديجة الطويلة الحلوة.. ذات العينين الرماديتين.. هل تذكر أنى حدثتك عنها أول مرة.. هل تذكر أنى كنت أريد الزواج منها.. وتزوجتها أنت.. ماذا تقول لها؟.. وابنتاك؟.

ولأول مرة أرى فى عينيه حقدا وكراهية ودهشة.. ولأول مرة أرى فى عينيه.. أرى كراهيته .. أرانى فيه.. صورة مخيفة كريهة.. صورتى.. صورته.

ومددت له يدى ورفعته.. وأسندته على ذراعى.. وهو يئن ويصرخ: اتركنى.. أنت لا تحبنى.. أنت تكرهنى.. أنت شامت.. أنت تريد أن ترانى أعرج، أنت تريد أن ترانى أتساند على عصا خشبية.. على الجدران.. أنت تريد أن ترانى عاجزًا.. وقد

عاقبتنى الأيام على جريمة لم أرتكبها.. اتركنى إننى أكرهك، ليس هذا حبا.. ليست هذه شفقة منك إنها أقسى العقوبة.. غاية الشماتة.. اتركنى أيها المجرم.. أيها المجنون!

ولا أعرف إن كان الذى يقوله صحيحًا.. ولكن أشعر أن فيه شيئًا من الحقيقة.. من كراهيتى، من رغبتى فى التشفّى. فكلامى فيه شر..

والحقيقة أننى كنت أنزف كراهية.. وهو ينزف دما..

وفجأة جمدت برودة البرسيم دمه وجمدت هذه الحادثة كراهيتى.. وتحجرت الدموع فى عينى، والشفقة فى قلبى.. الشفقة عليه وعلى زوجته.. وعلى سعادته.. وعلى ابنتيه.. وتصورت زوجته وتخيلت ابنتيه تقفان إلى جوار سرير أبيهما تلعبان وبين الحين والحين تتساءلان عما حدث لأبيهما..

كلما تصورت ذلك حزنت عليه.. عليهما. عليهم جميعًا.. على الصديق الذى كادت تنكسر ساقه.. والذى كرهته.. لقد جرحت ساقه أما أنا فكلى جريح.. كرهته، ففقدته.. وكرهنى ففقدنى.

وصديقى اليوم ليس فى نفس القرية.. وسمعت أنه أسعد مما كان.. لقد ازداد تمسكه وحرصه عليها.. وازداد إيمانا بالله الذى وهبه الصحة والسعادة مرة أخرى. وشاء الله أن يبعث له بصديق ينقذه.. وشاء الله أن يجعل قلب هذا الصديق يرق له.. ويحمله على كتفه إلى زوجته وابنتيه.

وسمعت أنه لم يعد يردد كلمة عبيط عندما يتحدث عنى.. فلعله قد اقتنع أخيرًا بالفارق الدقيق بين العبيط والطيب.

وقد استرحت إلى كل ما أسمعه عن صديقى هذا.. وأرويه للناس ومع ذلك يؤكد الناس أننى.. برضه عبيط!

□ □ □

من غير نهاية

آه.. لو كانت أفكارى وعواطفى ملفوفة.. كلها على هيئة بكرة خيط.. لها أول ولها آخر.. ولها اللون الذى يعجبنى.. آه.. لو كنت أستطيع أن أرتب هذه الخيوط بالشكل الذى يعجبنى..

آه.. لو كنت أعرف ما يدور فى عقلى.. وفى قلبى.. وفى معدتى.. إننى كثيرًا أتلخبط فى مشاعرى فأحس بالصداع فى معدتى.. وأحس بالمغص فى عقلى.. وبالقرب من قلبى.. إننى لا أعرف أين يوجد الحب ولا أين توجد الكراهية.. ولا أين يوجد الجوع والعطش.. إننى أعرف أن الطريق إلى العقل يمر بالمعدة وبالقلب ولكن أنا لا أعرف أول هذا الطريق ولا نهايته.. فنحن نأكل، ولكن عملية الأكل هذه عملية عقلية.. والشعور باللذة مسألة عقلية.. والشعور بالارتياح للذين نجلس إليهم عند الأكل مسألة عاطفية.. مسألة قلبية..

فبأى شىء نأكل.. بالقلب؟ بالعقل؟ بالمعدة؟ لا أعرف.

وأمس جلست أرتب أفكارى.. حاولت أن أجعل قلمى هو البكرة.. وحاولت أن أجعل أفكارى وعواطفى هى الخيط المزدوج.. ولم أفلح فى ترتيبها.. وإنما أمسكت هذه الخيوط على هيئة عقد.. وحاولت أن أحل عُقدى واحدة .. واحدة.. وكل إنسان فى الدنيا له عشرات العقد.. وهذه العقد هى نتيجة صراعنا الدائم بين ما نريد وما نستطيع.. بين الذى نريد أن نحققه.. أن نكسبه.. أن نفوز به.. يعنى بين أحلامنا وآمالنا وبين الذى نستطيع أن نأخذه من أنياب الناس وأظافر المجتمع..

فنحن نريد والمجتمع يقاوم أحلامنا.. فكل إنسان فى جيبه ملاليم.. ويريد أن يشترى العمارات الكبيرة. وعجزنا عن تحقيق الذى نريده. هو الذى يعقدنا.. هو الذى يجعلنا نشعر بأننا عاجزون.. فاشلون فنكره القادرين.. ونحقد على الناجحين.. وعلى السعداء وعلى غيرنا من الناس.

وهذه العقدة هى التى تغرى الخيوط بأن تلتف حولى وتتعقد.. وتتعقد.. ويصبح كل إنسان شخصًا معقدًا.. يعذب كل إنسان معه وحوله.. ويتعذب هو الآخر..

بدأت أعد العقد التى عندى فوجدتها كثيرة لا نهاية لها.. كالعقد الموجودة فى أى بلوفر .. فى أى بدلة فى أى فستان.. ولولا التفاف الخيوط بعضها حول بعض لاستحال وجود أى ثوب.. فالعقد هى أساس أى نسيج.. أى شىء نرتديه.. أى شخصية ندخل فيها..

وبدأ الكلام يدور بينى وبين نفسى أو بينى وبين العقد الكثيرة التى هى نفسى.. وعندما أتكلم مع نفسى فإننى أكون أقل أدبا.. يعنى أرفع الكلفة جدًا بينى وبين نفسى..

فقلت: قل لى بقى يا حضرة.. ما هو تفسيرك لرجل كبير زى حضرتك ومعه لعبة صغيرة.. عروسة.. حصان.. شخشيخة.. وفى جيوبه حمص.. ولب.. ما تفسيرك يا حضرة الأستاذ؟

ورددت على نفسى: ما هو قصدك..؟

قلت: طبعا أنت عارف قصدى.. عاوز تفسير لهذه الحادثة الطريفة المضحكة.

وكان ردى: تسميها مضحكة..

قلت: آسف أنا قصدى أنها.. تسيل الدموع.. دموع الضحك.. دموع الأسف.. إنها دموع تسيل لمجرد ذكر هذه الحادثة.. حادثة واحد فى يده شخشيخة.. واحد كبير فى السن..

وكان ردى: اسمع.. هناك نظرية فى علم النفس تقول: إن الانفعالات الشديدة تجعل الإنسان يتحول إلى طفل صغير.. فالرجل عندما يخاف فإنه يصرخ كالطفل.. ويهرب كالطفل.. والرجل عندما يفرح يتحول إلى طفل.. يبكى من شدة الفرح ويرقص كأنه طفل.. وهذا الذى حدث أخيرًا وأنت تسميه يبعث الضحك هو نوع من الرجوع إلى الطفولة.. فالحب الشديد.. والكراهية الشديدة.. كل ما هو شديد.. كل ما هو عنيف يضربنا كالكرة.. فنرتمى فى أحضان شبكة الجول.. شبكة الطفولة.. تعيدنا إلى «اللفة».. إلى صدر الأم.. إلى الطفولة.. فالرجل عندما يحب فى سن كبيرة فهو مسكين يا سيدى.. إنه يصبح طفلا.. كل شىء فى الدنيا حوله يصبح صغيرا.. الناس يصبح عددهم قليلا جدًا لا يزيدون عن أمه ومرضعته.

والبيت يصبح غرفة واحدة وقلمه إن كان كاتبًا، يصبح بزازة لا تفارق فمه.. بزازة لا تكتب.. بزازة لا تنطق لا تقول شيئا.. لأنه هو لا يقول شيئا..

قلت: إلى هذه الدرجة.. هل من الممكن أن تؤدى أشياء صغيرة تافهة إلى هذه الانفعالات الكبيرة كتحويل رجل إلى طفل.. وتحويل غنى إلى شحاذ.. وتحويل جبل إلى صحراء مليئة بالرمال.. وتحويل قلم ملىء بالحبر والديناميت إلى بزازة أو زجاجة شفافة كل ما فيها سائل له لون واحد..

.. وكان ردّى: طبعا أنت تعرف الذى سأقوله.. وهو أنه لا يهز الدنيا غير الأشياء الصغيرة..

أشهر قنبلة فى الدنيا هى القنبلة الذرية.. الذرية نسبة إلى الذرة.. أى إلى الجسم الصغير جدًّا الذى لا تراه العين.. فإذا انفجرت. أنت تعرف النتيجة..

وقطرات الماء عندما تنزل من السماء.. إنها تهد الجبال.. فالعكارة التى نراها فى النيل .. عند الفيضان إنها الذرات التى سحقتها مياه الأمطار..

والمطر هو دموع السماء.. والعكارة هى دموع الجبال أيضًا..

والانفعالات الشديدة.. هى النار التى تحول الماء إلى بخار وهى النار التى تذيب الحديد.. أعصابك الحديدية.. وهى النار التى تحيل عينيك الجامدتين إلى مصابيح حمراء.. هى النار التى تأكلك فتصبح أفكارك دخانًا.. وكلامك شرارًا وتجعل كل شىء يؤلمك ويوجعك..

قلت: أيوه فكرتنى.. إننى ألاحظ أن كل شىء يوجعك.. كل شىء يؤلمك.. كأن أعصابك خارج جلدك.. كأن شعر جسمك هو أعصابك .. أو كأن كل شعرة فى جسمك هى «إيريال» يتلقى كل شىء من الخارج ويوصله إليك بسرعة.. أو كأن هذه الشعرات تتحول إلى إبر توجعك.. أو كأنك فقير هندى.. فبدلا من أن ينام على سرير من المسامير فقد وضع المسامير فى جلده؛ ليصبح كل مكان سريرا له.. فالمسامير فى جسمه والسرير فى أى مكان.. أو كأنك جمعت كل الأبر الموجودة.. فى الناس وغرستها فى نفسك.. كأنك المسيح الذى تحمل الآلام نيابة عن البشر.. قل لى بقى إيه حكاية الألم الشديد الذى تعانيه.. ثم ما هى حكاية الاحتقار الواضح الذى تخفى فيه آلامك.. كأن آلامك قطعة من القماش الأحمر وضعتها فى كيس من النايلون الأسود..

وكان ردى: نعود إلى حكاية العجوز الذى أحب.. لا يمكن أن يكون هناك رجل

عجوز يحب دون أن يكون فى هذا الحب بعض الاحتقار.. لنفسه أو لغيره.. فهو أولا يحتقر نفسه؛ لأن الحب جعله يهبط إلى هذه الدرجة؛ لأن الحب جعله يضع الحمص والسودانى فى جيبه.. ويجعل تصرفاته أيضًا كتصرفات العيال الصغار.. وهذا هو الذى يجعل العجوز يحتقر نفسه.. وهو فى الوقت نفسه يحتقر الفتاة الصغيرة التى يحبها.. يحتقرها؛ لأنها مصدر عذابه.. يحتقرها؛ لأنها جعلته يتحول إلى طفل غير محترم.. أمام الناس وأمام نفسه.. وهذا هو الأهم؛ ولأنها لا تقدر حبه لها.. لا تقدر التضحية الشديدة التى قام بها.. لا تقدر الثمن الذى دفعه من كرامته.. فالحب هنا كالنار التى تجعل ماء الوجه يتبخر.. تجعل الكرامة تتحول إلى دخان فى الهواء.. تسمح لى أضرب لك أحد الأمثال.. المثل «مش ولابد» ولكنه صحيح: ما هو أحب شىء إلى الذباب؟.. العسل طبعًا.

والذبابة تقع فى العسل.. وتحاول الخروج من العسل مع أنها تحب العسل.. ولكنها لا تحب أن يمسك العسل بأرجلها ويجعلها عاجزة عن الحركة .. ولا تزال تقاوم.. وتقاوم حتى تموت.. تموت أحلى ميتة.. ولكن العسل الذى تحبه قاس عليها كأنه وحش قاتل لايزال يقتلع أرجلها وأجنحتها.. حتى يجردها من كل عناصر الحياة.. مع أن العسل هو حياتها هو جنتها هو فردوسها الذى تحلم به.. ويتحول الفردوس إلى كفن.. إلى نعش.. إلى قبر .. إلى عزرائيل .. وهذه الذبابة تحب العسل.. وتحتقره.. وتكرهه.. فهذا العجوز يجب أن يجعل كل عواطفه ملفوفة.. ففى هذا النايلون الأسود حب مع الاحتقار.. مع الاحتقار لشخص المحب وللشخص المحبوب.. هل فهمت؟ إيه تانى عايز تعرفه منى وعنى؟

قلت: والحل.

وكان ردى: حل إيه؟

قلت: حل هذه العقد.

ورددت: كل هذه العقد لا يمكن أن يكون لها حل.. وأنا لا أفكر فى حلها.. وإنما أتركها تحل نفسها بنفسها.. وأنا أفضل أن أعيش فى فرن من الانفعالات الشديدة التى تجعل أعصابى تذوب ودموعى تسيل وعينى فى لون الشفق.. على أن أعيش وأموت جامدا.. أفضل أن أتحول إلى ذرات كالجبل على أن أبقى صحراء مفككة.. كلها رمال وليس لها شكل.. ولا حجم ولا أول ولا آخر.

إننى لا ألوم النار ولا ألوم نفسى.

قلت: ولا تلوم الاحتقار.. احتقارك لنفسك .. أو لغيرك.. ولا مانع عندك من أن تكون كهذا العجوز.. يلعب بالكرة أو البلى.. أو البزازة.. أو تلعب به الكرة والبزازة.

وكان ردى: عندى مانع.. عندى مانع أن أصبح كيسا من النايلون الأسود وليس فى داخله أى شىء.. عندى مانع أن يكون كل شعورى هو احتقارى لنفسى أو لأى إنسان..

قلت: اسمع أنت مش معقد شوية؟

ورددت: كل إنسان كده.

قلت: والخلاصة.

وكان ردى: أنا أتمنى أن أكتب قصة طويلة.. أروى فيها كيف حدث فجأة أن عجوزا - وأنا مصر على أن يكون المحب عجوزا أحب فتاة.. ونقطة الخلاف بينهما ليست فارق السن.. فالمرأة عندها من مخاوفها وتجارب جنسها كله ما يجعلها تستطيع أن تقف مع أى رجل.. فى أى سن على مستوى واحد.. فالفتاة فى أى سن تستطيع أن تكون شريكة لأى رجل.. فى أى شىء أو أى معنى.. ونقطة الصراع بينهما ستكون فى شىء صغير جدًا تافه.. يبدو تافهًا.. إنها تريده أن يكون صعبًا.. أن ينطق بصعوبة.. ألا ينطق بكلمة الحب أبدًا.. ألا يقولها مهما كانت الظروف.. إنما تريد أن تغتصب منه هذه الكلمة.. أن ترى حروفها على مر السنين على وجهه.. على لسانه.. إنها لا تريد أن تسمع كلمة الحب.. ولا أن تراها.. ولا أن ترى مقدماتها.. تريد أن تحسها ولا تراها.. أن تتوهمها.. أن تتخيلها.. أن تحلم بها.. ولذلك فهى تنقله إلى الجو الجميل.. فإذا رأت الحروف الأولى للحب هربت منه وهربت به.. ويتعذب هو وتتعذب هى من أجله.. وتعود إليه تتمسح فيه.. وتبكى لأنها لا تسعده ولا تعرف كيف. ولا تعرف لماذا تحب الحب.. وتكره كلمة الحب.. تحب الحنان وتكره كلمة الحنان.. أما هو فمشكلته أنه يريد أن يسمع منها كلمة الحب.. أن يسمع منها كلمة الحنان.. يريد أن يرى الوجه الذى يحبه وقد تبدلت عليه كل ألوان الحب.. كل حروف الحب.. فينزل شعرها على وجهها «كالألف واللام» وينفتح فمها «كالحاء».. ويطبع هو قبلة تكون كالنقطة تحت الباء..

يريد أن يلصق على وجهها ورقة كتبت فيها كلمة الحب ملايين المرات.. يريد أن يصبح كلامها كله مكونًا من حرفين.. حاء وباء.. كل الحروف الهجائية لا

تهمه.. كل الكلمات لا تهمه .. يهمه فقط هذان الحرفان وتصبح مشكلته أنه يريد أن يسمع الكلمة التى تكرهها هى..

وهو ينقلها إلى الجو الحلو لكى تقولها.. وهى تنقله إلى نفس الجو لكى يهم بالكلام ولا يقول.. نار.. نار يدخلها برجليه.. نار تهرب منها هى برجليها وبرجليه.. نار تجعل الحديد يتلوى والماء يغلى.. والعجوز يتحول إلى طفل.. والطفل يلهو ويلعب.. كالعيال..ويبكى كالرجال..

قلت: وبعدين؟

ورددت: إلى هنا توقفت العقد بين يدى.. إننى أبحث عن نهاية.. بعض الناس يكتفون بهذا القدر من القصة والباقى يغمرونه فى النوم أو فى النسيان.. إنهم لا يريدون أن تنتهى.. أو يحاولون أن ينسوا أنها بدأت وينسون بالنوم الطويل. وينسون بالسهر الطويل. وبالخمر الكثيرة.. وبالدوخة المستمرة فى العمل الشاق أو الدوخة التى يصبونها فى أقراص منومة.. أو أكواب منومة.. أو فى دخان ملون.. إنهم يصبحون كالجبال التى تختفى قممها فى السحاب الأسود.

وكان ردى: وبعدين قل لى أنت.. أعمل ايه؟

قلت: أحسن حل هو أن تكتب.. وأعظم حبر فى الدنيا هو سواد الليل والدموع.. اكتب حتى إذا لم تكن هناك فائدة..

وكان ردى: سأكتب..

وأضيفت عقدة جديدة.

□ □ □

ثلاث قصص

فى طريق الهرم.. وأمام قصر كبير.. تقابلنا صدفة وكان قد مضى وقت طويل لم تلتق عيوننا..

صدرى ارتفع وقلبى تعلق به.. كأنه طفل صغير يمسك بطرف فستان أمه.. ويشب على رجليه.. كانت هى وصديقة لها. وسأروى لك.. كيف صورنا نحن الثلاثة هذه الدقيقة الواحدة أمام باب القصر.

- ١ -

أنا قلت:

مشيت فى الشارع.. السيارات تروح وتجىء.. كنت أتعثر كأننى ريفى لبس الحذاء لأول مرة.. لم أنظر ناحيتها فقد مضت الأيام التى كنت أرى أننى صاحب الحق الوحيد فى النظر إليها.. فى أن أضعها فى عينى.. وأمنع عيون الناس عن مشاركتى فى هذا الحق.. اختلست النظر إليها.. حلوة.. أنيقة. اقتربت منها عند مدخل الباب أحسست فى لحظة.. وأنا إلى جوارها.. أننا عروسان. وفى لحظة أخرى أن المدعوين يضربوننا بالطوب.. وأننا نجرى.. ونجرى .. وفى لحظة أخرى أحسست أن فستانها له ذيل طويل.. وأن جاكتتى لها ذيل طويل.. وأن صديقتها التى تمشى وراءنا تمسك الذيلين.. كأنها عربجى ونحن حصانان.. أو حماران فى عربة قديمة.. «وهات يا ضرب».. ونحن نجرى.. يمينا وشمالا.. وامتدت يد غليظة تقول: .. الله.. يا ألف نهار أبيض.. عادت ليالى الهنا.. ليالى الفرح..

كان هذا صوت صاحب القصر.. عندما رآنا نحن الاثنين..

وشعرت بالخوف من كلامه..

وأحسست بهزة فى كل جسمى..

وأحسست بها فى يدى.. يدى تأكلنى.. كأن كلامه أصبح خطًا من خطوط حظى..

وجاء العرق فغسل كل الخطوط وحمدت الله.

-٢-

هى قالت:

رأيته.. إنه نفس الوجه.. نفس الملامح.. لايزال مهملا فى لبسه.. على وجهه نفس التكشيرة .. نظر لى كأنه يتوقعنى مع أننا انفصلنا منذ عشر سنوات.. نظراته كانت خاطفة.. لا يمكن أن يكون قد رأى شعرى أو وجهى أو فستانى.. دلوقت بيفهم فى الموضة.. حتى إيده كانت باردة.. كأنه كان يضعها طوال الوقت على لوح ثلج.. إنه لا يزال مكسوفا منى.. خجولا..

وضحك .. ضحك ليخفى ارتباكه.. وتطلعت إلى فمه لأسمع منه كلمة واحدة.. بعد كل هذه المدة ماذا سيقول.. فتح فمه وانطلقت منه هذه الرصاصات التى لم تخطئ قلبى.. من خمس سنوات لم أمش فى شارع الهرم..

قالها وضحك..

قلة ذوق.. إنه لم يتغير..

معنى عبارته هى أنه كان هنا.. وكان هنا بعد أن انفصلنا.. وأنقذتنى طوبة فى الأرض.. اصطدمت بها وكدت أسقط على الأرض.. وتظاهرت بالوقوع.. ولف ذراعه حولى.. وشعرت أن كل جسمى يريد أن يبصق على ذراعيه.. واحتقرت هذا الشعور فى جسمى .. ولُمت نفسى على كراهيته.. وعلى احتقاره وأشرت إلى صديقتى التى لم يكلمها ولا كلمة وعرفت أنه لم يتغير. فلو كانت فى حياته امرأة لها قيمة لغيرته.. ولكن يبدو أن أحدًا لا يهمه ولا هو يهم أحدًا. ودخلنا فى الزحام واختفينا نحن الثلاثة..

ومات شعورى بين أصابع المدعوين!

- ٣ -

وصديقتها قالت:

عندما نزلنا من التاكسى فوجئنا به.. إنه واقف مكانه تمامًا كأى رجل شرقى

لم يتقدم نحو الباب يفتحه لنا.. وانتظرنا حتى نقترب منه ونحن كان شعورنا شرقيا أيضًا.. سعينا إليه.. مدت صديقتى يدها.. ونظرت إليها.. كل شيء يدل على أنهما سعيدان.. وجهها فى لون الورد وعيناها نجوم.. وقوامها طويل.. إن قلبها يعلو كالأسانسير.. يصعد بها إلى فوق..

وهو باسم.. وعندما يضحك يصبح طفلا.. وعندما يرتبك يصبح طفلا.. إننى تمنيت أن أضمه إلى صدرى كأنه ابنى الصغير.. وأقول له:

سَد .. يا حبيبى سَد.. تعال عند ماما .. أيوه شاطر..

وجاء ضوء إحدى السيارات فى وجهه فأخفى وجهه وهو فى الواقع يخفى خجله مع أنه لم يمد يده ناحيتى فقد «اتلخم» عندما رأى صديقتى .. ولكنه مد يده وكانت يده باردة والمثل يقول: إذا كانت اليد من ثلج فالقلب من نار..

ومشى الاثنان جنبًا إلى جنب.. وزغرد قلبى.. ونمت وحلمت.. وتخيلت نفسى أتحزم وأرقص عشرة بلدى.. وأرمى نفسى على المقعد الذى يجلسان عليه فى زفاف كبير. ولاحظت أنها هى التى مدت يدها ولمست يده ولم تبق طويلا. كأنها لمست قطعة من النار أو كأنها لمست الرجل الخطأ.. واستغرقتنى ذكرياتى يوم مشيت أنا الأخرى هنا ومددت يدى وعصرت يده ومشينا ووراءنا كل القاهرة. بيوتها وسهراتها وأمى المريضة. وسرحت ونسيت همومى كلها إلى أن جاء أحد رجال الشرطة وقال: قدامى أنت وهو.

وتمنيت ساعتها لو كان هذا الشرطى هو المأذون الشرعى..

ودخل الاثنان أمامى وفى الزحام افترقنا..

وقابلتها عند الخروج. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسألها عن شيء..

لقد كانت حزينة!

***

أنا: لقد كانت دقيقة واحدة كل واحد منا رآها بشكل ولون وطعم.

□ □ □

ابن فلان

دخل الخادم وأعلن أن العربة بالباب. فانتفضت أمى، وتعلقت بى قالت: يا بنى لايزال هناك متسع من الوقت.

فقلت: إننى أرى أن أقوم بكل شىء اليوم، لا غدًا. وهذه الساعة، وليست الساعة التى تليها. إننى أصبحت رجلا، ولابد أن أكسب الشهرة والمجد، وإذا لم تستهونى الشهرة الآن، فمتى إذن، أريد أن يسمع الناس بى فى كل مكان، أريد أن أكون فى كل أذن، وفى كل عين، وعلى كل لسان وفى كل كتاب..

ولم أقل لأمى إننى أريد أن أكون حلم الفتيات، وأن تكون الفتيات أحلامى وواقعى ودنياى..

وقالت أمى: ولكن ماذا يكون مصيرى أنا..؟

قلت: لابد أن تكونى سعيدة. وأن يملأ الفخر قلبك حين تتحدثين عن ابنك العظيم.

وقالت أمى: فماذا أفعل إذا قتلوك؟

قلت: إن الحياة حلم سخيف. إننى أحلم بالمجد. أريد أن أكون من هؤلاء الخالدين. لا تخافى.. فسأعود إليك بعد سنوات أعظم رجل فى بلدنا.. سأكون يوما ما إنسانا محترمًا.. يرانى كل إنسان فيقف محييًا، ويمد يده مسلمًا، ويكون سعيدا حين أصافحه.. وسأتزوج ابنة خالتى.. وسأكون سعيدًا.

وقالت أمى: ولكن لماذا تفعل ذلك الآن؟ ألم يترك لك أبوك مالا وأرضا.. ابق إلى جانب أمك وأختك وخطيبتك.

ثم نهضت أمى إلى النافذة وفتحتها وقالت: لا تفارق هذا الجمال الذى خلقه الله لك.

ووقف الخادم بباب الحجرة، والحزن والقلق على وجهه. ووقف وراءه كل من فى البيت.. تقدم الخادم يبكى، وتقدمت أختى تمسك بيدى.. ولكننى تركت هؤلاء

جميعًا، ودنوت من العربة.. لا أفكر فى أحد.. لا أفكر فى أمى ولا فى أختى ولا فى الخدم ولا فى كلبى الذى أحبنى وأحببته..

انطلقت العربة فى طريق طويل، وجلست أحلم بالناس جميعًا.. أحلم بالناس بما رأيت وما سمعت.. ولكننى أقفلت النافذة المفتوحة على الماضى القريب، واتجهت إلى مستقبلى، إننى الآن فى الطريق إلى العمدة.. أنه صديق لأبى وهو رجل مثقف وكانت له أحلام هو أيضًا.. وهو الذى سيقدمنى للمجتمع فى العاصمة.. سأعطيه نفسى.. وهو حر فى أن يتصرف فيها.. إن شاء جعلنى تاجرًا أو فاجرًا أو مهندسًا.. أو حتى أديبًا.. هكذا أوصانى أبى قبل أن يموت..

وبلغت بيت العمدة.. ودخلت وانتظرت فى القاعة ورحت أتطلع إلى الصور المعلقة على الحائط.. كلهم عظماء التاريخ فى الحرب والسلم والعلم والفن والأدب.. ورحت أحلم من جديد.. وقلت لنفسى: أريد أن أكون هكذا: صورة على كل حائط فى كل بيت.. وصورة فى كل كتاب، وتمثالا فى كل ميدان.. وأن أقتسم التاريخ مع سعد زغلول وطه حسين وعرابى.

***

وبينما أنا جالس هكذا انفتح ورائى باب صغير.. ورأيت رجلا شاحب اللون، واضح الشيخوخة فى ملابس بيضاء، وأشار إلىَّ.. وتقدمت منه.. وطلب إلىَّ أن أقفل الباب ورائى.. ونهض الرجل وهو يرتجف.

وقال: اسمع يا بنى إننى أرى فيك شبابًا ذكيًا.. وعندى إحساس داخلى لا أدرى سببه .. وهذا الإحساس يدفعنى إلى أن أروى لك قصتى.. لن تصدق هذه القصة ولن يصدقها أحد.. ولكن بعد ساعات ستعلم ويعلم الناس أنها صحيحة.. أنت تعلم أننى رجل غنى.. وأن أبى كان تاجرًا كبيرًا، وكان جميل الصورة، والصوت.. وكان قوى البنية.. وكنت إذا سرت فى طريق أشار الناس إلىَّ وقالوا هذا ابن فلان.. وإذا جلست فى مكان قالوا: إنه ابن فلان.. ولا أكاد أمضى فى حديثى مع أحد من الناس حتى يتحدثوا عن أبى وعظمته وماضيه.. وما كان له من مواقف .. فى الحرب والسلم وفى التجارة وفى المغامرات.. وضقت بهذا كله وقررت أن تكون لى حياتى الخاصة.. قررت أن أعيش باسمى أنا.. قررت أن يشير الناس إلىَّ ويقول واحد منهم: لابد أن أباه يفخر به.. لابد أن أمه سعيدة.. لابد أن زوجته تعيش فى قمم التاريخ..

وامسك يدى فى رفق ومضى يقول: وسمعت فى ذلك الوقت أن هناك سيدة عجوزا تعمل فى السحر، وتتصل بالأرواح، ولم أؤمن بشىء من هذا فى ذلك الوقت. ورويت لها عذابى، وهوانى على الناس.. لا تنس أننى رجل متعلم.. ولكن الرغبات والأحلام تجعل الإنسان ساذجًا.. وتجعله يركب الخرافات من أجل الواقع الأفضل!

وقالت العجوز: أنا أعطيك الشهرة.. على أن تدفع عشر سنوات من عمرك.. ونزلت لها عن عشر سنوات من عمرى..

ولسبب لا أعرفه اشتغلت بالتجارة، ونجحت نجاحًا هائلاً وأصبحت أشهر من أبى.. «ولكنى مللت هذه الحياة.. فذهبت إلى العجوز من جديد، قلت لها: أريد مالا كثيرًا.. قالت أعطنى عشر سنوات أخرى.. وأعطيتها عشر سنوات .. وتدفق المال من اليمين والشمال.. وأحسست أننى أقف على جبل من الذهب.. وأننى بعيد عن الناس.. وأن جبال الذهب لا ينبت عليها العشب ولا الحياة.. وأن لونى قد أصبح فى لون الذهب، أصفر، وأن قلبى فى صلابة الذهب، جامد..

«وطلبت من العجوز.. أن تعطينى الخيال والذكاء؛ لكى أكون أديبًا.. ووافقت العجوز الساحرة على أن أدفع لها عشر سنوات ثالثة من عمرى.. وأعطيتها عشر سنوات.. وأخرجت للناس عشرين كتابًا إنها قصص ومسرحيات وقصائد.. إن الناس يقرءونها ويمثلونها على كل المسارح.. والحفلات تقام لى فى كل مكان.. كل ذلك فى وقت قصير.. والناس جميعًا فى دهشة من أمرى.. فى أمر التاجر الناجح، والغنى الكبير، والأديب العظيم.

ثم مضى الرجل يقول: فماذا كانت النتيجة؟».

وسكت الرجل طويلا.. وراح ينظر إلى الأرض، وإلى السقف.. ومن النافذة..

وعاد ليقول: جاءتنى العجوز أمس تطلب منى أن أرحل معها إلى العالم الآخر.. إن عمرى قد انتهى.. فقد كان مقدرًا لى أن أعيش ٦٥ عامًا. لقد تقاضت منى ثلاثين عامًا لهذا المجد والمال والشهرة.. وكل هذا المال والمجد والشهرة قد استمتعت بها خمس سنوات.. وكانت مفاجأة..

وطلبت من العجوز أن تمهلنى بعض الوقت، فلمَّا رفضت أعطيتها مالى كله فمنحتنى ساعة وأعطيتها شهرتى، فأعطتنى ساعة أخرى.. وطلبت منها أن تجمع كتبى من البيوت، ومن المكتبات، وأن تمحو اسمى من رءوس الناس

جميعًا.. فوافقت أن تعطينى ساعة.. ثم عطفت علىَّ، ورَثَتْ لعذابى وهوانى، وأعطتنى ساعة أخرى..

إننى الآن سعيد بهذه الساعات الأربع من عمرى.. إننى لأول مرة فى حياتى أرى الدنيا حلوة، أرى الطبيعة جميلة، أرى أن الحياة تستحق أن يحياها الإنسان، وأرى أن الخيال ضلال، وأن المال زائل، وأن السعادة تنبع من نفوسنا، ولا يمكن أن يشتريها أحد من الناس بأى ثمن..

وفتح الرجل الباب، وانطلق يقفز كالأرنب.. فلم أتمكن من اللحاق به..

***

وعدت إلى مكانى.. ورأيت العمدة.. وكان يعلم بقدومى.. فعانقنى بحرارة، وقال آسفًا: إننى لم أكن بالقصر عندما حضرت.. وإنما كنت أبحث عن أخى الأصغر.. إنه مريض.. مريض بأحلام وهمية.. يحلم بالمجد والشهرة والمال.. وقد اختل رأسه بسبب هذا المرض.. فهو دائم الهذيان.. إنه يصرخ دائمًا، ويقول: لم يعد لى من عمرى سوى أربع.. أربع ساعات فقط.

ثم دنا العمدة منى وقال: والآن يا بنى .. دعنا نتكلم فى موضوعك، ستسافر معى غدًا إلى العاصمة، لكى أقدمك هناك إلى أشهر رجالنا.

ولكن صوتًا مدويًا فى نفسى قال: لا..

وتلعثمت وقلت هامسًا بصوت منخفض: لا. لن أسافر، أشكرك.

وقال العمدة: ماذا؟ تقول لا؟! إنك ستبلغ المجد الذى تنشده فى وقت قصير.. اسم أسرتك، ونفوذى، ونقودى.. كل هذا سيجعلك فى عشر سنوات فى قمة الشهرة.. عشر سنوات فقط.

فقلت: عشر سنوات.. أنا لا أضيع عشر سنوات هباء.. أنا أفضل أن أزرع الأرض وأن أروى الزرع.. وأعيش بين الفلاحين.. أفضل هذا كله على أن أملأ رأسى بالهواء، وقلبى بالأوهام..

وفوجئ العمدة بكلامى.. وحاول أن يذكرنى بما كتبته له فى خطاباتى.. ولكننى اتجهت إليه، وقلت: سيدى العزيز، أنا أشكرك.. لقد قررت أن أعود إلى أهلى.

وكانت كل كلمة قالها الرجل العجوز ترن فى أذنى، وتملأ عينى، وتدق قلبى.. كل ما قاله أذكره وبقوة.. إننى لا أفكر فى شىء سواه.. ولا أسمع شيئًا سواه.. كلام العجوز وصوته وصورته.. كل ذلك يملأ رأسى، وقلبى معًا.

وفى نفس اليوم ركبت العربة عائدًا إلى البيت.. فرحًا طائرًا، وكان الطريق جميلا، كأننى لم أره من قبل.. وكان طويلاً.. يمتد هادئًا بين بيت العمدة وبيتنا.. وكانت الأشجار أكفًا ضارعة، تدعو كل إنسان أن يعيش نافعًا هادئًا مسالمًا.. سأعيش هكذا.. سأعيش كالأشجار.. سأنشر ظلّى على كل الناس، وسأجعل أغصانى بيوتا للطيور، وسأكون إنسانًا.. لا شبحًا واهمًا.. وهذا هو بيتنا.. وهذا هو السلم.. وقفزت من العربة ونزعت حذائى.. وأحسست بالحجر وبالتراب.. أحسست بالأرض بعد أن عشت فى السحاب حالمًا فى ضباب كثيف، وصعدت الدرج.. هذه أمى، وهذه أختى، وقطتى، كلبى.. هذه هى الحياة.

وكان أول نبأ تلقيته فى المساء هو أن العمدة مريض.. لم يبرح فراشه يومًا كاملا.. إنه يضرب يده برأسه، ورأسه بالحائط.

لقد مات أخوه.. لقد كان الرجل العجوز الدرويش أخاه.. وبكيت عليه.. لقد أنقذنى من رحلة وهمية إلى عالم خرافى.. عالم زائل كله.. لقد أنقذنى هذا المجنون من الجنون..

لقد مات هذا الرجل ليهبنى حياتى وعمرى، لقد مات ليردنى إلى أهلى.

وفى اليوم الثالث كنت أنا وابنة خالتى عروسين نشرب الحياة من كأس واحدة نقش عليها كلمة صغيرة جدًا اسمها: السعادة!

□ □ □

دماء لا تجف

كان فى بلاد الصين فيلسوف، وكان لهذا الفيلسوف شعار واحد هو: أن أعيش فى سلام مع الناس.

وفى يوم ذهب هذا الفيلسوف إلى المقابر. وكان يجد فى زيارة المقابر لذة عقلية. فنهاية كل الناس هى القبور ينامون فيها متجاورين عراة، ويُتركون وحدهم بلا حراسة.

وكان كلما سأله أحد عن سبب زيارته إلى القبور قال: إنما أردت أن أطمئن على المكان الذى سأبقى فيه إلى الأبد، دون أن أؤذى أحدًا ودون أن يؤذينى أحد!

وفى يوم رأى سيدة جميلة قد أمسكت مروحتها الكبيرة، وراحت تحركها يمينا وشمالا بصورة عصبية، فوقف إلى جوارها وأحنى رأسه وقال: سيدتى هل تسمحين لى أن أسألك عن شىء؟

فقالت: تستطيع.

قال: لماذا أنت جالسة هنا بملابسك الجميلة، ومروحتك الفخمة، وكل شىء حولك تراب وعظام وفزع؟

قالت: لقد مات زوجى، ذلك الأحمق. وكان قد اتفق معى قبل موته على ألا أتزوج إلا إذا جفت دماؤه. وأنا هنا أحاول بهذه المروحة أن أتعجل تجفيف الدماء، وقد مكثت على هذه الحال عشرة أيام طويلة عريضة، تعبت يدى، وكلَّت أصابعى ونفد صبرى ولاتزال هذه الدماء تروح وتجىء فى عروقه!

ومد الفيلسوف يده، وقال: سأساعدك يا سيدتى.

وأمسك المروحة واستطاع بقوته السحرية أن يجفف الدماء التى فى الجثة. ولم تجد السيدة خيرًا من المروحة، هدية له على هذا العمل الكبير الذى أنجزه.. فأعطتها له.. وعادت السيدة إلى بيتها.

وعاد الفيلسوف مهمومًا شقيًّا بما رأى وما سمع.

وقابلته زوجته قائلة: ماذا حدث؟.. حب جديد؟.. زوجة جديدة؟ أيها العجوز! من أين لك هذه المروحة؟ وما اسم هذه السيدة الغنية؟ وأى شىء أعجبها فيك؟ شعرك الأبيض أو قامتك القصيرة، أو صلعتك الذابلة أو كلامك الممل الذى يبعث اليأس.. انطق يا حضرة الفيلسوف وإلا حزمت متاعى، وتركت لك بيتك الحقير المظلم الذى عشت فيه على أمل أن تتحسن حالتك.. ولم تتحسن .. ويبدو أنها لن تتحسن أبدًا! ولم يرفع الفيلسوف رأسه عن الأرض. وبصوت هامس حزين روى لها القصة..

وثارت الزوجة، وقالت: هل تظن أن المرأة لا وفاء عندها.. إن المرأة رمز الوفاء. إنكم يا معشر الرجال لا تعرفون الوفاء.. فأنت مثلا كم امرأة تزوجت؟!.. إننى الزوجة الرابعة. ماتت لك ثلاث زوجات. وسأموت أنا أيضًا.. وستتزوج بعدى. هذا هو الوفاء عندكم! وبعد ذلك تتهمون المرأة بالعقوق، ونكران الجميل، وتنشرون ذلك فى الكتب، وتجدون من يصدقكم من الرجال ومن النساء أيضًا!

وسكتت الزوجة ثم عادت تقول: هل تظن أنك إذا مت اليوم أو غدًا، سأتزوج من بعدك، هذا مستحيل.. سألبس السواد، سأُضرب عن الطعام ولن تجف لى دمعة، ولن أتحدث إلى رجل، ولن أفتح عينى على إنسان له شارب مهما كان ماله، ومهما كان جماله، وسأكره كل كلمة فيها حروف كلمة فيلسوف!

وتلفتت الزوجة إلى الفيلسوف، فإذا بوجهه قد جف، وإذا بالدماء قد هربت، وإذا بالفيلسوف ملقى على الأرض.. جثة هامدة خامدة!

لقد مات..

وحزنت الزوجة على زوجها، وعلى الحياة الهادئة الآمنة التى عاشتها معه ووضعت جثمانه فى كفن، ووضعت الكفن فى غرفة الاستقبال، وأغلقت الباب عليها عشرين يومًا.

وفى يوم دق بابها شاب فى الثلاثين من عمره.. جميل، عليه مظاهر الأناقة والثراء.. وأحنى رأسه، وقال: لقد اتفقت مع الفيلسوف قبل وفاته على أن أكون تلميذًا له، وأن أقيم فى بيته، وأن أنفذ تعاليم فلسفته تنفيذًا كاملاً.. ولكن الموت سبقنى إلى الفيلسوف العظيم.. فجئت أشاطرك الحزن، وأشد على يدك وأدعو السماء أن تهبك السلوان فلقد كان الفقيد عزيزًا علينا أيضًا!

وفوجئت الزوجة بإخلاص هذا الشاب، ودعته إلى بيتها وقدمت له الطعام.

وطالت الجلسة وروى لها الشاب تاريخ حياته، وعذابه فى وحدته. وكيف أنه لم يجد الفتاة التى تحبه وتعطف عليه. وأنه سيظل هكذا وحيدًا إلا إذا شاءت السماء أن تسوق إليه امرأة تحمل له السعادة والحب وراحة البال..

وقدمت زوجة الفيلسوف نفسها. وقالت: إننى أقبل أن أكون زوجة لك.. إننى أستطيع أن أحقق كل آمالك!

وأطرق الشاب بعض الوقت. ثم قال: وأنا موافق على الزواج وموعدنا بعد خمسة أيام.

وخرج الشاب وبعد خمسة أيام بعث بخادمه إلى زوجة الفيلسوف. ودخل الخادم البيت، فإذا بالورد فى كل مكان والستائر معلقة على النوافذ، والأبسطة تغطى الأرض، وفوق هذا كله وقفت زوجة الفيلسوف أنيقة سعيدة كأنها شابة فى العشرين من عمرها..

وتقدم الخادم إليها قائلا: إن سيدى له شروط قبل أن يتم الزفاف.

قالت الزوجة: سأحقق له كل هذه الشروط..

فقال الخادم: أول الشروط: أن ينقل جثمان زوجك من البيت. فإن رائحته تفسد العرس! وثانيًا: إن سيدى يريد أن يعرف إن كان زوجك قد أوصاك بعدم الزواج بعده أم لا! وثالثهما: إن سيدى لم يستطع أن يأتى معه بالمال الكافى، ويطلب إليك أن تعاونيه فى تكاليف الزفاف!

وقالت أرملة الفيلسوف فورًا: الشرط الأول سأحققه حالا.

وأمرت خادمها أن ينقل جثمان الفيلسوف إلى مكان قريب من النهر، وأن تلقى عليه بعض الأعشاب وغصون الأشجار.

ومضت تقول: والشرط الثانى أحققه فورًا، وأعرض عليك وصية زوجى، إنه لم يذكر شيئًا عن حياتى بعده..

وأخرجت الوصية من جيبها وقالت: لم يشأ الفيلسوف أن يتحدث عن شىء.. إلا عن الحقل والبيت، وكلبه الصغير.

وعادت تقول: والشرط الثالث أسهل الشروط جميعًا. فقد ترك زوجى مالا وأرضًا وبيتًا، ورصيدًا من الحيوانات والغلال وأموالا كثيرة.

وانطلق الخادم يخبر سيده بكل هذا.

وفى المساء جاءها الشاب وفتحت له الباب، واستقبلته بالبخور والعطور

والألوان البهيجة فى الستائر والأبسطة ولم يكد يمد يده إليها حتى سقط على الأرض مغشيًا عليه.

وانزعجت الأرملة وصرخت وهى تسأل خادم العريس: ماذا حدث؟ هل يصاب عادة بمثل هذا الإغماء؟ وماذا نفعل له الآن؟ هل نستدعى الطبيب؟ هل ننثر عليه ماء الورد؟ هل أحرق حوله البخور؟

ووقف الخادم يقول: لا شىء من هذا يا سيدتى. إن علاجه معروف، وهو أمر سهل علينا فى بلادنا، ولكنه فى هذه البلاد صعب يستحيل تحقيقه.

فقالت الزوجة: قل لى ما هو العلاج؟

وقال الخادم: كان هذا العلاج سهلا فى بلادنا. فإن والده العظيم كان يأتى به فى دقيقة واحدة. أما فى هذه البلاد فليس لنا سلطان ولا نفوذ، إننا غرباء يا سيدتى الأرملة الصابرة والعروس الفاتنة!

واتجهت الزوجة إلى الخادم وأمسكته من ملابسه وهى تقول له: تكلم أيها الجبان تكلم أيها البليد. ما هو العلاج؟ تكلم وإلا قتلتك!

وقال الخادم: علاجه أن نحصل على مخ إنسان مات منذ أربعين يومًا، ثم نضع هذا المخ فى النبيذ ونقدمه للعريس شرابًا دافئًا. هذا هو العلاج. أرأيت كيف أنه علاج صعب فى هذه البلاد؟ لقد كان والده العظيم يحصل على ذلك بسهولة.

وقالت الزوجة: عندى هذا العلاج.. لقد مات زوجى منذ ٣٩ يومًا هل ينفع زوجى علاجًا للأمير؟

وأجاب الخادم: من المؤكد أن هذا المخ ينفع فى العلاج!

وانطلقت الزوجة إلى حيث يتمدد جثمان زوجها.. ونقلت النعش إلى البيت، وأمسكت سكينًا وراحت تدق به أخشاب النعش.. ولم تكد ترفع أحد الألواح حتى وجدت زوجها جالسًا ينظر إليها. فصرخت وتجمدت فى مكانها.

فقال لها الفيلسوف: لماذا جئت بى إلى هنا؟

قالت: لقد سمعت أصواتًا فى داخل النعش. فقلت لنفسى ربما عادت إليه الروح، والروح كثيرًا ما تعود إلى أجساد الطيبين من الناس.

وقال الفيلسوف: وما هذه الملابس الجديدة التى تلبسينها؟

فقالت: أردت أن أكون جميلة فى عينيك بعد هذه الأيام الطويلة التى فارقتنى فيها.. أردت أن يكون أول شىء تقع عليه عيناك جميلا.

وسألها الفيلسوف: وهذه الشموع ما سببها؟

فأجابت الزوجة: إنما أردت أن أزف نفسى إليك من جديد. أردت أن نكون عروسين للمرة الثانية.. والزواج السعيد هو الذى تتجدد فيه شهور العسل. واليوم هو أول شهر العسل الثانى فى حياتنا..

وسألها الفيلسوف: ولكن لماذا لم تتركى نعشى فى الغرفة كما أوصيتك؟

ولم تعرف الزوجة ماذا تقول.

ونهض الفيلسوف وأطفأ الشموع واحدة بعد واحدة.. وترك شمعة واحدة. وأشار إلى زوجته أن تنظر يمينها. ونظرت الزوجة فوجدت الشاب وخادمه. وتطلعت إلى جهة اليسار، فلم تجد زوجها.. ثم التفتت إلى اليمين فوجدت زوجها. وتطلعت إلى اليسار فلم تجد الشاب ولا خادمه..

وأدركت الزوجة أن الزوج والشاب لا يجتمعان. فإما الزوج وإما الشاب.. وظلت الزوجة تدير رقبتها يمينا وشمالا حتى داخت .. وتوقفت فجأة.. وانطلقت إلى غرفتها وأمسكت حبلا طويلا وشنقت نفسها به.

أما الفيلسوف فقد أحرق البيت كله.

وراح يعيش بين المقابر، وكلما رأى سيدة معها مروحة راح يهز رأسه ويضحك ويهمس بصوت منخفض: لن يمضى وقت طويل حتى يجف دم هذا الميت.. ويجف دم هذه السيدة أيضًا أمام مروحة سيدة أخرى..

إننا بدمائنا نجفف دماء الآخرين.. ولا نهاية لدماء الآخرين!

□ □ □

شبر أرض

فى يوم من الأيام تمنيت أن أكون فلاحًا.. عندى قطعة أرض وجاموسة.. وبعض الدجاج.. وأن يكون لقطعة الأرض سور من الخشب يجعلنى أعيش فى عزلة عن الناس.. فلا تمتد يد إلى أشجارى.. أو حيواناتى أو طيورى.. وتخيلت أننى أستطيع أن أمارس حريتى فى أرضى.. أقف على هذه الأرض.. فلا ينازعنى أحد.. فلا يقول أحد: أنت واقف عندك ليه؟

سأكتب على هذه الأرض اسمى عشرات المرات.. سأضع صورتى.. سأزرع الأرض.. سأجعلها حديقة أو.. لا أزرعها فأجعلها زريبة.. أنا حر فى أرضى وفى حيواناتى وفى نفسى. ومنذ أكثر من عشر سنوات قبضت مكافأة مالية كبيرة.. وذهبت مع صديق فنان لنشترى قطعة أرض وكان ثمن المتر قرشا واحدا..

وكنت سعيدًا لأننى سأصبح مالكًا.. سأصبح من ذوى الأملاك.. سأقف على باب مزرعتى وأقول للناس: أنت هناك ليه؟ وبدلا من أن أقول هذه العبارة سأطلق كلابى على الناس.. نفس الكلاب التى مزقت ملابسى وأنا أتسلق الأشجار وأسوار الحدائق..

ولما ذهبت إلى الأرض وجدتها عارية جافة.. إنها قطعة من الصحراء.. من الفراغ.. أرض وهمية كأنها فى إحدى الروايات.. أرض يمكن أن أتخيلها فقط.. إذن لا داعى لشرائها؛ لأننى أستطيع أن أتخيل أرضًا أوسع وأجمل منها.. وعدلت عن الشراء..

وماتت على لسانى عبارات: بتعمل أيه عندك؟ أنت ياللى هناك.. ابعد عن شجرة التفاح.. يا... سيب المعزة.. يا ...

وكانت طفولتى كلها فى الريف.. طفولة حزينة فقيرة.. كنت أنتقل من قرية إلى قرية كأننى شجرة كل يوم ينزعونها من أرض.. ويزرعونها فى أرض.. الأرض ثابتة والشجرة حائرة..

وأحياناً تكون الأرض جافة وأحيانًا لينة.. ولكن الشجرة لم تستقر على مزرعة.. على مالك.. وربما كان هذا أحد الأسباب التى جعلتنى لا أزال قلقًا.. لا

أزال أتوقع أن الأيدى تقلعنى من الأرض وتزرعنى فى الرمل أو فى الصخر أو فى الماء.. وحتى عندما كانت هذه الشجرة «أى أنا» لا تجد من يقتلعها.. فإنها تتولى قلع نفسها بنفسها.. تتحول أغصانها إلى أيد طويلة.. هذه الأيدى تقطف الثمار وتمزق الأوراق.. ثم تقتلع الساق والجذور..

وأحيانًا تتحول أزهار هذه الشجرة إلى أفواه تبتلع كل الفراشات الحلوة التى تقترب منها.. شجرة متوحشة تهرب منها الفراشات والطيور.. ولا تجد من يزرعها إذا اقتلعها أحد..

هذا الانتقال الدائم هزنى ولايزال.. كنت أمشى وراء أبى كالمعزة التى كانت تمشى وراء الزعيم الهندى غاندى.. كنت أمشى إلى أماكن لا أعرفها.. وعشت فى شك دائم.. الطريق لا أعرفه والبلاد لا أعرفها.. والحكمة من وراء هذه «الدوخة» لا أعرفها وكانت كل الطرق مزروعة.. وكانت كل الطرق خضراء وكرهت المزروع والزارع.. كرهت الأخضر الذى يتحول إلى أصفر والأصفر الذى يتحول إلى تراب والتراب الذى يتحول إلى أخضر.. يملكه الناس.. ولا أملكه..

كانت هذه هى حياتى فى الريف.. كل يوم فى بلد.. كل يوم فى بيت.. كل يوم على شجرة أو تحت شجرة.. حياة كلها بالإيجار .. حياة تبدأ اليوم وتنتهى غدًا.. ومع الغد يجىء صاحب البيت ومعه أحد رجال البوليس يطالبنا بالدفع أو الحبس أو الشارع.. وكانت الشوارع طويلة ملتوية..

لم أتمكن من أن يكون «لى» شىء.. لم يكن «لى» أحد أو مكان أو بيت أو أرض أو شجرة أو معزة.. لم أتمكن طوال حياتى من وضع كلمة «لى» فى أى عبارة أتحدث بها عن نفسى..

غريب؟! نعم.. غريب عن الناس ليس لى بينهم أحد.. انتقالنا الدائم لم يمكنى من أحد.. ولم يمكن أحدًا منى.. لم يربطنى ولم يربط غيرى..

كنت أقرأ عبارة: وجدت لى مصدرًا حنونًا أستريح إليه أو عليه وجدت لى صدرًا.. إلى آخر هذا النوع من العبارات.. وكنت أندهش؛ لأننى لم أجد صدرًا ولا ذراعًا.. ولا حتى أصبعًا.. فى يد ..

أصبعًا تجفف دمعة أو قطرة عرق.

غريب يرانى الناس غريبًا.. وأنا أعذرهم وإن كانوا لا يعذروننى..

وكنت أقول لنفسى: بل الناس غرباء أقولها بينى وبين نفسى.. وكنت أندهش

لتصرفات الناس.. حبهم يدهشنى .. كراهيتهم لا تدهشنى.. صداقتهم تخيفنى.. عداوتهم تجعلنى أطمئن إلى أفكارى..

وحين يفتح الناس أبوابهم أو قلوبهم أحتار..

وإذا أغلقوا أبوابهم فى وجهى أو ورائى شعرت بالراحة والاطمئنان على أفكارى.. وكل هذه الأفكار التى أراها اليوم سوداء دارت فى نفسى أو داخت فى نفسى وأنا فى طريقى إلى كلية الزراعة بالإسكندرية.. فقد دعتنى الكلية لإلقاء محاضرة.. رأيت ألوف الطلبة فى كليات زراعة القاهرة والإسكندرية وأحسست بالرعب.. فكلهم خبراء.. كلهم فلاحون عن علم..

وكنت فلاحًا عن طمع.. عن جهل.. فتبددت كل أحلامى أمامهم.. بحثت عن لسانى فلم أجده.. كان يتخبط فى حلقى كأنه كرة فى ملعب الإسكواش.. وأنا أحاول أن أنفخ فيه.. أن أدفعه من حلقى.. ولكن حلقى تحول إلى غرفة غاز.. اختنق فيها لسانى..

ولم أعد قادرًا على التعبير.. كل ما فى رأسى صور غير منظمة.. أحاول أن أجمعها فى ألبوم واحد.. نسيت الأرض نسيت الزرع.. والقلع.. نسيت صورتى وأنا أرتدى الجلباب وأتمدد على إحدى المصاطب واضعا ساقًا على ساق.. فإذا جاءت الشمس أخفيتها عن وجهى بقدمى أو بيدى.. وكلما قفزت دجاجة أو حمامة فوق رأسى ناديت بأعلى صوتى: يا ناعسة حوشى عنى الفراخ.. أنت يا ولية.. وناعسة هذه زوجتى طبعًا.. لها ستة من الأولاد.. وقد وعدتها بألا يزيد أطفالنا على تسعة بأية حال.. كل هذا نسيته وأنا واقف أمام الطلبة.. ولكن ذاكرتى كانت تروح وتجىء كحرارة التليفون.. أحيانًا أضع يدى على خدى.. كأننى أضع سماعة التليفون فأسمع التاريخ ثرثارًا فى أذنى.. وأحيانًا أجد مجرد وشوشة أو مجرد وش بلا كلام..

وتذكرت أننى بدأت أتعلق بالفلسفة.. بدأت أبرر كل تصرفاتى.. أو أبرر عجزى عن أى تصرف.. عن الاستقرار واعتراف الناس بى.. أريد أن أكون ابنًا شرعيًّا لأى بلد.. لأية قرية.. أن أشعر بأننى ورقة فى شجرة معروفة لا تمتد إليها يد أحد أو رجله.. وبدأت أتفلسف.. فالفقراء.. والغرباء.. والضائعون كلهم فلاسفة..

ثم كرهت آمالى وأحلامى..

كرهت أن تكون لى أرض.. أن تكون لى شجرة واحدة؛ لأننى لن أملك هذه الشجرة وإنما هى التى ستملكنى.. هى التى ستربطنى إليها.. وتجعلنى أنام تحتها.. وأعيش لها.. وأعيش بها.. وأكره الناس وأحبهم من أجلها.. وتصبح هى كفاحى وميدان قتالى.. وتكون هى غاندى وأنا المعزة التى تمشى وراءه.

لكل سكان سنغافورة وكل ضيوفها..

وكنت أحد الضيوف ودفعت مبلغا من المال.. وأعطونى «شهادة تمليك» ووقف ورائى فى الطابور عشرون ألفًا من الوطنيين والأجانب.. أما مساحة الأرض فهى لا تزيد على عشرين ألف متر..

فأنا أملك مترًا مربعًا من الأرض.. برضه كويس.

إنه مكان أقف فيه فلا يقوى إنسان على أن يخرجنى منه.. أستطيع أن أقف فيه على يدى أو على رجل واحدة.. أنا حر..

وقبل سفرى من سنغافورة.. قرأت فى الصحف أن عدد الذين اشتركوا فى شراء هذه الأرض بلغوا مائتى ألف.. يعنى المتر الذى كنت أحلم به قد نقص إلى شبر.. ولابد أن توجد فى هذا الشبر ولو شجرة واحدة..

وثرت على الحكومة.. ووعدنى وزير البلديات بأننى إذا عدت إلى سنغافورة فى العام القادم فسيكون من حقى أن أناقش الحكومة..

وأنا أعيش اليوم على هذا الأمل.. وعندما أذهب إلى هناك سأعلق لافتة على هذه الشجرة وأكتب عليها كلمتين.. لا معنى لهما عند أحد الناس.. ولكنهما عندى هما «عدة الشغل».

هما جراب الحاوى.. سأكتب على الشجرة: أنيس منصور!!

□ □ □

قطرة لبن فى ليلة مظلمة

الليل يكتم أنفاس المدينة الكبيرة.. كل شىء مظلم أسود.. الشوارع كالسطور المشلفطة.. والناس كلمات قليلة تروح ولا تجىء.. والأضواء فقط غير مستقرة على حروف هذه الكلمات.. والنوافذ شحيحة بخيلة.. لا تلقى إلا بالقليل من الضوء الشاحب.. كأنه ظلال باهتة.. ظلال بيضاء..

وصوت من بعيد.. صوت حذاء .. مدبب متباعد الوقع.. خطوات طويلة لساقين طويلتين لفتاة شقراء عند جانب من الشارع تقف .. ليس من الضرورى أن يكون هناك سبب مهم يستوقفها .. فليس الشىء المهم هو الذى يستوقف الناس.. ويشغلهم.. أشياء صغيرة جدًا ممكن أن تشغلهم.. أو قطعة من الشحم البنى اللون تسد الأذن فتحول بينها وبين انفجار قنبلة.. إن يدك مهما كانت صغيرة من الممكن أن تحول بينك وبين الشمس.. إن قطعة صغيرة عند جانب من هذا الشارع من الممكن أن تستوقف هذه السيدة وتأخذها وتجعلها تنسى كل ما حولها.. عشرات السيارات اعترضت طريقها.. عشرات الكلمات تساقطت حولها.. عند صدرها وساقيها.. وشعرها وأذنيها.. ولكن «مواء» هذه القطة الصغيرة البيضاء عند جانب الشارع.. قد استوقف كل شىء فيها فلم تعد ترى ولا تسمع ولا تلمس ولا يهمها شىء سواها.. سوى هذه القطة.. هذه الكرة البيضاء.. هذه اللفافة التى تشبه منديلا متكورًا.. منديلا ألقته سيدة بعد أن بللته بدموعها.. بشفتيها.. بعرق حاجبيها.. بعطر أذنيها.. فالقطة الصغيرة ترتجف .. وهى فى مهب الهواء.. هواء من هذا الشارع.. وهواء من الشارع الآخر.. وعطر هذه السيدة أو عطر المنديل الملقى فى الطريق.. إنها فى مهب الهواء.. فى دوامة عطرية .. إنها الدوامة الوحيدة فى هذا البحر الأسود من الليل.

وفى ضوء السيارات الخاطف أصبحت الصورة واضحة الآن.. القطة بيضاء وقد استقرت على صدر السيدة الأبيض أضافت إلى صدرها ارتفاعًا ثالثًا.. والسيدة فستانها على قدِّ جسمها.. لفظ مطابق لمعناه..

وهى لامعة كأنها أنبوبة فلورسنت تحترق.. ووراءها ظل رجل.. ففى الليل كل شىء ظلال.. له حذاء أبيض.. كأنه قطة بيضاء.. لولا أن الحذاء يمسح الأرض.. كأنه أستيكة بيضاء تمحو سواد الليل.. أو نشافة تحاول أن تمتص بحرًا من الحبر الأسود.. أو كفكرة واضحة فى قصة غامضة.. أو كبارقة أمل فى يأس مطبق.. إنه حذاؤه الأبيض.. حذاء كالذى يحمله بابا نويل.. حذاؤه هو الذى لفت إليه القطة وحاملة القطة.. حذاؤه وليس هو.

لم يدر بين الاثنين كلام ولا كلمة ولا ابتسامة.. فى الليل تبدو كل الوجوه عاجزة عن الابتسام.. والعيون عاجزة عن اللمعان.. ولكن لم يكد يرى فتاة طويلة حلوة.. وقد ضمت ذراعيها وصدرها.. ضمت نفسها كلها على هذا الشىء الصغير.. حتى اقترب منها واقترب .. ووجد تفسيرًا لبكاء القطة.. لابد أنها فى حاجة إلى مثل هذا الدفء .. ومثل هذا الحنان الأشقر ومثل هذا الاهتمام الدافئ فى ليلة باردة.. والقطة تموء.. لابد أنها جائعة..

وكان مفهومًا بسرعة أنه يجب على الرجل أن يبحث للقطة عن طعام.. عن كوب لبن.. قطرة لبن.. ولكن أين قطرة لبن فى المدينة الكبيرة.. فى ليلة العيد..

كل شىء مظلم.. الشوارع سوداء.. كأنها جلد ثعبان أسود.. البيوت سوداء كأنها ظلام متجمد.. الضياء سوداء.. أين قطرة لبن فى قلب هذه المدينة.. والمدينة الكبيرة حيوان ضخم.. بقرة سوداء.. جاموسة سوداء.. أرجلها عمارات وأبراج .. ولكنها حيوان بلا أثداء.

ولابد أن يعتصر الرجل أثداء المدينة الكبيرة ليجد ما يملأ معدة حيوان صغير.. نائم على صدر كبير فى جانب شارع مظلم.. والليل بارد ولكن المدينة حيوان كبير منقرض.. متوحش.. جامد.. كأنه تمثال ضخم ميت.. وإن كان يسكنه عدد من الأحياء.. كأنه جثة.. كأنه مقبرة..

أين قطرة لبن.. قطرة لبن كأنها ضوء وسائل.. فى هذا الظلام البارد.. والناس يترنحون وعيونهم فى لون كاساتهم.. فى لون سجائرهم.. فى لون جروحهم.. فى لون علامات المرور.. فى لون خاتم الفتاة وشفتيها.. والشارع طويل ممدود.. بارد.. لامع كأنه المدفع الأسود الذى يطلق قرص الشمس.. كل فجر..

والقطة البيضاء كطائر أبيض مهيض الجناح.. التصق بثوب الفتاة وثوبها أبيض مشقوق.. كأنه مصباح مكسور أبيض وتحته أبيض.. آه لو ماتت.

والمدينة الكبرى ما هى؟ شوارع.. بيوت.. كبارى.. ولكن كالمدينة الكبيرة.. لا تستطيع رغم أن لها ثديين.. آه لو عثرت على هذه القطة فى الريف لأطعمتها.. فكل البيوت بها لبن وبها أناس كالقطط.. يمشون إلى جوار الحائط.. يتعثرون فى الأقدام تنقصهم الصدور الحانية.. هناك فى الريف حيث يكون الظلام ثوبًا شفافًا.. من ورائه تبدو النجوم..

إنهم فى الريف يعرفون السماء.. لاتزال لهم صلة بالسماء.. ولايعرفون الأرض.. ولكن القطة لا تموت بينهم.. وفى المدينة لا يرون السماء ولا يعرفونها.. ويرون الأرض ويحسبونها ويقيسونها وفى زحمة الحساب والقياس تموت قطة.. مليون قطة من كل لون.. ولولا أن هذه القطة على صدر فتاة.. ما انطلق رجل يبحث لها عن طعام.. إنه يبحث لنفسه عن طعام.. إنه يطعم قطة ليرضى امرأة.. فإذا رضيت أطعمته هو.. قطة صغيرة جائعة فى مدينة كبيرة.. لا تشبع ولا تجوع.. فهى تأكل ناسها وناسها يتآكلون .. أنياب وأسنان تأكل بعضها البعض. وكل أبناء المدن الكبرى وحوش.. تروس فى جهاز كبير تتآكل ولكن هذه القطة أقوى من المدينة.. أعظم من المدينة.. لها قيمة لها شخصية.. حتى لو كانت جائعة.. حتى لو ماتت والمدينة الكبرى ما هى. شوارع.. بيوت.. كبارى.. ولكن لا يوجد شارع واحد مهما ضغط عليه الليل ومهما لسعه البرد يستطيع أن يموء.. يستطيع أن يحرك ذيله. يستطيع أن يجوع.. أن يموت من الجوع.. أو يموت من الشبع. إنها أقوى من أسد قصر النيل.. من كوبرى قصر النيل.. من الهرم.. إنها حيوان.. حى يتألم.. يجوع.. ويموت.. ولكن الهرم عاجز عن أن يموء..

ولكن قطة صغيرة تموء.. بل إن البرغوث الذى فى أذن القطة أقوى من الهرم.. إنه يقفز من أذن القطة إلى ذيلها.

إن الهرم لا يستطيع .. ولا .. المدينة الكبيرة..

والقطة الصغيرة لا تعرف كم هى قوية.. كم هى عظيمة.. إنها مشغولة إنها مأخوذة..

إنها مسلوبة.. كل ما ينقصها ملعقة لبن.. إنها تطلب اللبن.. محيط من الظلام العميق.. إنها تطلب ملعقة من النور السائل.. عند سفح جبل من الليل.. الطويل الشامخ.. إنه طلب لا معقول.. ولكنها جائعة وكل ما يطلبه الجائع معقول.. وكل ما يطلبه الخائف معقول..

لكن المدينة الكبيرة لها عقل آخر.. وفلسفة المدينة لا تعرفها القطة الصغيرة على صدر الفتاة.. والقطة تموء والليل يبدد صوتها.. وهى تموء كأن صوتها يطارد صداه..

والمدينة حيوان ضخم بارد جامد اسمه.. اللامبالاة.. والقطة تحاول برجليها أن تخربش «اللا» من كلمة اللامبالاة .. لعل أحدًا يبالى.. ولكن الشاب لم يعد.. والفتاة تنتظر سعيدة بهذه الأمومة.. مشغولة بالأمومة عن جوع القطة.. والشاب مشغول عن جوع القطة بإرضاء الفتاة.. والمدينة مشغولة عن الاثنين .. عن الثلاثة.. بملايين غيرهم..

والملايين ناموا متجاورين.. كقطة إلى جوار فأر.. إلى جوار كلب .. إلى جوار مقبرة.. فى قصة لا معقولة!

□□□

«صمغ .. الأرض صمغ.. والهواء صمغ.. وملابسنا ملتصقة.. وأفكارنا «محزقة» وأنا أريد.. الخلاص منك.. وأنت أيضًا.. أنت تصرخ.. من قيودي.. وأنا أيضًا.. وأنفاسنا صراخ.. مني.. وصراخ عليك».

عزيزى فلان

يا من كنت عزيزى

صحوت من نومى ثائرة عليك. ولا أعرف ما هى ثورتى.. ولا لماذا ثرت عليك إننى إناء يغلى.. إن أفكارى منكوشة أريد أن أسويها.. فأجعل بعضها لك.. وبعضها عليك.. والذى أشعر به لا تعرفه.. ولا يمكن أن تكون قد شعرت به.. إننى أحاول أن أغوص إلى أعماقى.. إن هذه العبارات تشبه فتلة أدخلتها فى داخل زجاجة لكى أتصيد غطاءها.. نعم. أريد أن أتلمس الطريق إلى أعماقى.. بيدى.. وبرجلى وبعقلى.. وبقلبى.. أريد أن أجعل جسمى كله ترمومترًا.. ألقى به فى الإناء الذى يغلى.. أول ما يخطر على بالى هو أننى أشعر فى بعض الأحيان أننى لا أعرف.

حياتى كلها فى هذا الإناء.. وأنا الترمومتر..

أريد أن أجعل من شعر رأسى سنارة.. ألقى بها فى أعماق حياتى. لأصيد فكرة واحدة.. هذه الفكرة هى لماذا قررت أن أنهى العلاقة بينى وبينك وبين كل الرجال..

كيف أتملص منك.. أراك قريبًا جدًّا.. أراك فى صحوى وأراك فى نومى.. وأسمع صوتك دائمًا وأرى خيالك دائمًا.. ورائحتك فى أنفى إننى أكره أن تكون هكذا قريبا منى.. أنت لا تترك لى مسافة.. يجب أن تكون هناك مسافة بينى وبينك أن أجلس بعيدة عنك أن تكون صورتك بعيدة عن عينى وصوتك.. لا أريد صوتك هكذا مطبوعًا على أذنى فأنت قريب جدًّا وأنا أكره هذا الاقتراب الشديد.. هل تعرف ما الفرق بين الحر والعبد؟

بين الطليق والمقيد.. الفرق بسيط جدًّا إنه المسافة..

فالسجين مثلا يعيش على مسافة صغيرة جدًّا من كل الذين حوله.. فهو يعيش فى غرفة ضيقة لا تتسع أبدًا.. يعيش مع غيره من المسجونين فى مساحة

صغيرة.. والمسافة بينهم صغيرة دائمًا.. كل واحد منهم يسمع الآخر دائمًا.. ويشم رائحته دائمًا.. وإذا تكلم واحد منهم فى نومه فالباقون يسمعونه.. إن السجين لا يستطيع أن يفر من قيوده.. من الجدران.. من عيون وآذان وأنوف وخيال الذين حوله.. إنه سجين أكثر من مرة.. سجين فى عيونهم.. فى آذانهم.. وفى أنوفهم.. وفى عقولهم أنه هو السجين.. وهو أيضًا السجان. فهو يقيد غيره وغيره يقيده..

أما الإنسان الحر.. الطليق. فهو الذى يستطيع أن يجعل المسافة بينه وبين كل الناس كما يريد.. يستطيع أن يقرب منهم وأن يبعد عنهم مترًا.. وألف متر.. وأن يبعد عن العين أيامًا وعن الأذن شهورًا.. فالإنسان الطليق هو الذى يتحكم فى المسافة التى بينه وبين الناس.. ولذلك فأنا معذبة مضطهدة.. فالعزلة التى فرضتها أنت علىَّ.. جعلتنى أعيش فى الظلام جعلتنى أعيش فى الرطوبة، أصبحت سوداء النفس، أصبحت سوداء وأنت الرجل الأبيض..

إن شيئًا واحدًا يؤلمنى الآن وأنا أكتب لك، هو أننى لا أقول هذا الكلام.. وأرى قطرات العرق على جبينك إن عرق جبينك هو دموع أفكارك وهى تبكى تحت شعرك الأسود..

تمنيت أن أراك تبكى.. أن أرى دموعك.. عرقك.. أى شىء يرهقك يتعبك ينتقم لى منك..

وشىء آخر يؤلمنى أيضًا هو أننى أتخيل نفسى أتحدث إليك وأنت تعرق وأنا أنظر إلى فمك وهو يتحرك كفم الأرنب يعلو ويهبط.. فى بلاهة لا معنى لها وأرى رأسك وهو يتراجع للوراء.. كما تتراجع البندقية فى يد الصياد لكى تطلق ضحكة كاذبة..

ولكى تفتح فمك عن أسنان صدئة.. أسنان صفراء.. أسنان عفنة.. إننى لا أتصور كيف كنت تحدثنى وكيف كانت أذنى تقبل منك هذا الكلام الذى يخترق هذه الأسنان التى تشبه أعواد البوص.. فى أحد مستنقعات الريف، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أبعد عنك .. لا لأننى أريد أن أبقى إلى جوارك، ولكن لأنك ملتصق بحياتى .. فى كل مرة أحاول أن أبعد بالذوق.. باللين.. بكلمة تدميك.. بعبارة تؤلمك.. بإهمالى لك.. لم أفلح أبدًا.. كنت أتصور أن هذه الكلمات تشبه الشحم الذى يضعه السباحون على أجسامهم لينجوا من الغرق.. ولكن النتيجة دائمًا هى أن هذا الشحم يتحول إلى صمغ.. يشدك إلى حياتى .. وأحاول الخلاص. الهرب. الإفلات، ولكن لا فائدة.. حاولت أن أجعل كلامى جافًا كالطوب يحطم الزجاج الرقيق الذى بينى وبينك حاولت أن أجرح كرامتك .. ولكن المحبين ليست لهم

كرامة.. حاولت أن أسخر من أهلك وأقاربك ولكن المحبين بلا أسر.. حاولت أن أجعل الدين حائطا.. كل يوم أضيف له طوبة.. وحجرًا لعله يعلو ويعلو.. ويفصل بيننا.. ولكن ماذا أصنع مع رجل صناعته تسلق الجدران والأشجار والشعبطة على المبادئ والأخلاق.

الآن فقط فهمت لماذا «ينشى» الناس فى الهند ملابسهم.. لماذا يضعون النشاء فى القمصان والبنطلون؟!

عرفت السبب أن النشا هو وحده الذى يجعل القميص لا يلتصق عندما يعرق الإنسان..

وقد حاولت أن أجعل كلامى كله جافًا.. كالقمصان المنشاة حتى لا تلتصق بى.. حتى لا ترتبط بى.

حتى تتمزق الخيوط الأليمة التى تلفها حولى ولا فائدة..

نظرت إليك فى إشفاق وحاولت أن أساعدك.. هل تعرف أننى عرضت عليك صديقاتى واحدة.. واحدة .. حاولت أن أحول عينيك عنى.. حاولت أن أحول أذنى عنك.. أريد أن ترى هذه العبارة ابتسامة على وجهك.. حاولت أن تبتسم .. لا تخش شيئاً لن أرى أسنانك الصفراء وابتسامتك الصفراء.. وبياض عينيك الذى أصبح أصفر .. اضحك فلن أكون هناك..

هل تعرف إن إحدى صديقاتى قالت لى إنك ظريف ولطيف.. وإن التى تجلس معك لا تمل الحديث معك. فعندك قصص وحكايات ونوادر تجعلها تنسى أنك فى الثلاثين.. هل تعرف أن إحدى صديقاتى تقول عنك إنك أنيق.. إنك شيك فى ملابسك وألوان ملابسك.. وعباراتك وإحساسك بمن حولك..

هل تعرف أن إحدى صديقاتى رأتك وأنت تبتسم فارتعدت كلها وكادت تموت رغبة فى قبلة من شفتيك..

هل تعرف أن إحدى صديقاتى قررت ألا تراك؛ لأنها لا تستطيع أن تقاوم عينك الجارحة ولمعانها الأثيم.. تصور هذا كله لا أراه ولا أصدقه ولو فرضنا أن هذا كله صحيح فإننى لا أشعر به. لا أراه.. إننى أراك ممسوحًا إننى أراك باهتًا. تافهًا. أنا آسفة ولكن هذا شعورى أننى أراك قديمًا كأبى. جامدًا كأخى. كريهًا كأنك كنت زوجى ثم طلقتنى وتركت لى خمسة من الأطفال بلا طعام ثم طعنت شرفى فادعيت أن بعض هؤلاء الأطفال ليسوا أولادك.. ولكن الذى يحيرنى هو أننى لا

أريدك وفى نفس الوقت لا أريد أحدًا آخر يستولى عليك لا أريد فتاة أخرى تخطفك.. فأنت مصدر عذابى وأنا أحب عذابى معك.. فهذا العذاب هو أكبر عقاب لى على أننى ارتبطت بك.

عقاب لى على أننى لم أفكر كثيرًا يوم عرفتك.. فأنا أستحق عذابك؛ لأننى أستحق العقاب..

منذ أيام تمنيت أن أموت.. وقبل أن أموت طلبت إليك أن تلبس كرافتة سوداء مدى الحياة وأنك وافقت وطلبت إليك أن تتزوج.. وسمعتك تقول مستحيل.. وطلبت منك مرة. ومرة. ووافقت وسمعتك تقول حاضر..

وطلبت منك إذا أنجبت فتاة أن تعطيها اسمى.. وأن تحبها.. وسمعتك تقول إن شاء الله.. ولم أعرف سبب مطالبى هذه كلها إلا الآن.. فأنا أريد منك أن تلبس هذه الكرافتة السوداء طوال حياتك.. وهذا سيحزن زوجتك الثانية.. سيحطم قلبها ستشعر دائما أنك كنت تحبنى.. أننى حقيقة وأنها هى وهم.. أننى حية وأنها شبح.. وابنتك التى ستحبها وستعطيها اسمى ستكون قمة التعاسة لأمها فهى ابنتها ولكن اسمها هو اسم الزوجة الأولى.. والكرافتة السوداء واسم البنت الصغيرة وحبك لى وحبك لابنتك التى لها نفس الاسم.. كل هذا سيصبح جنازة لى ولزوجتك الثانية..

فأنا أريدك حيًّا.. وأريدك ميتًا.. ومع ذلك لا أريد أن تمسك بك.. أريد أن أهرب منك.. أريد أن تكون المسافة بينى وبينك كالمسافة بين السماء والأرض.. لا يقطعها صاروخ الأمل.. مسافة متباعدة وتزداد بعدًا بلا أمل.. حاولت أن أساعدك كما فعلت الفتاة المسكينة «اريان» هذه الفتاة المعروفة فى أساطير اليونان.. كانت تحب شابًا حبسوه فى سجن.. وهذا السجن فيه مليون غرفة.. كل غرفة لها باب مفتوح على غرفة أخرى.. وظل الشاب سنوات يدخل من غرفة ويخرج من غرفة.. واستطاعت «اريان» أن تأتى بخيط وتضع طرف الخيط فى يد حبيبها.. والطرف الاخر فى يدها.. وطلبت إليه أن يتبع الخيط حتى الباب الخارجى.

وخرج حبيبها من السجن وعندما خرج من السجن رأى فتاة أخرى فركع عند قدميها وماتت «اريان» .. إننى أتمنى أن أخرجك من هذا السجن.. وأن أراك تركع عند قدمى أية فتاة أخرى.. لن أموت لن أموت.. سأعيش لقد تعبت من سجنك .. من سجنى لك.. ومن سجنك لى..

صحيح أن الحب مرض كنت أضحك فيما مضى عندما أقرأ «نشيد الإنشاد» فى

الكتاب المقدس.. إن هذا النشيد يردد عبارة جميلة رائعة.. لم أفهمها إلا الآن.. هذه العبارة تقول: «إننى مريضة حبًا إننى مريضة» إنها مريضة من شدة الحب.. إن الحب مرض.. نعم. إنه مرض.. فالذى يحب لا يرى إلا شيئًا واحدًا.. ولا يسمع إلا شيئًا واحدًا.. إنه كالمريض ينصحه الأطباء بتناول طعام خاص.. لا يخرج عنه وأنت مريض بى لا ترى غيرى.. الدنيا كلها خالية من الناس.. الدنيا مليئة بى وأنا مريضة بك.. ومرضى بك جعلنى مريضة ككل الناس.. ومريضة بكل الناس..

الحب مرض إنه يصيب الناس بعمى الألوان.. إننى لم أعد أتبين علامات المرور فى حياتى.. لا أعرف الفرق بين الأحمر والأصفر والأخضر. إنك تشبه عسكرى المرور.. كلامك كله صفير وصراخ فى أذنى.. إن قلبى يمشى على الشمال وعقلى يمشى على اليمين.. وأنا تعبت من المشى فى منتصف الطريق.. وأحيانًا أراك كالساحر الهندى تنفخ فى مزمارك فأتلوى كالأفعى فوق المسامير..

ألم تسأل نفسك مرة: من أنا بالنسبة لك..؟ أنا سألت نفسى كثيرًا: من أنا.. ولماذا نحن هنا وكرهت كلمة «نحن» .. كرهت الكلمة التى تجمع بيننا.. إنها تشبه المنديل الذى يربطه المأذون حول يدى أبى وأبيك معلنًا أن الزواج قد تم.. إن أباك وافق على زواجك.. وأبى وافق على زواجى.. ولا رأى لى ولا رأى لك.. أكره هذا المنديل الملفوف.. فالمنديل لا يلتف حول يد إلا إذا كانت جريحة.. ولا يلتف حول يدين إلا إذا كانت هناك جريمة.. أنت مجرم –لا تؤاخذنى – وأنت تحوم حول الجريمة.. أنت ترى صورتى وتبكى من قلبك فأنت القاتل وأنا القتيل.. وجريمتك بلا دماء.. فأنا القتيل الذى يمسك بيده قلبى الذى يتمزق.. ويمسك بيد أخرى عقلى الذى اختل.. وأنا مجرمة أيضًا وأنا أحوم حول الجريمة.. وأنا أحوم حولك.. لأننى أنتظر العقاب الرهيب لك.. لن أقتلك وإنما أنت الذى ستقتل نفسك.. إن حربًا داخلية تدور فى أعماقك.. أنت ترانى وتتعذب .. وكل يوم يزداد عذابك.. أنت تحاول أن تقتلنى وتموت من بعدى.. ولكن ستموت أنت قبلى وسأراك ميتًا.. وهناك فقط أستطيع أن أبعد عنك.. أن أجعل المسافة بينى وبينك كما كانت من قبل..

بعيدة.. بعيدة..

ولكن قبل أن أبعد ستبصق عينى دمعة على جثمان أنانيتك..

***

ملحوظة: هذه النقط الكثيرة هى دموع نزلت من فمى.. أو بصقات سقطت من عينى..

حلم ليلة شتاء

فجأة.. أظلمت الدنيا.. فجأة انسحب النور من الغرفة.. أشعة الشمس تسللت من النافذة ومن تحت الباب..والشعاع الذى كان يتمدد على المرآة.. انتهز فرصة نومى وانطلق كأنه لص..

نعم. كان الضوء لصًّا.. لقد أخذ معه كل ما فى الغرفة.. لم يعد فيها مقعد ولا مرآة ولا ملابس، لقد اختفى كل شىء حولى.. حتى يدى التى كنت أمدها.. أصبحت أشعر بها ولا أراها.. يدى هى الأخرى أصبحت ذكرى يد.. ذكرى عضو كان هنا.. معلقًا من كتفى..

أشعة الشمس سرقت كل ما فى الغرفة.. وتركتنى وحدى فى ظلام بارد.. حتى ذراعى لم أعد أراها ولكنى أحسها مبللة تتدلى من كتفى..

حتى ساقى لم أعد أراها إننى أشعر بها.. فى حالة إغماء تحت الغطاء.. ذهب النور.. ذهب الدفء وبقيت وحدى فى رطوبة مظلمة.. حتى أفكارى لم أعد أراها.. إن رأسى مقفل.. رأسى كنافذة سقط عليها المطر فلا أستطيع أن أفتحها إلا بصعوبة.. أفكارى ضعيفة عاجزة.. كمجموعة من الكتاكيت سقطت فى الوحل أسمعها ولا أراها.. وأراها ولا أعرف كيف أمد لها يدى.. وأمد لها يدى ولا أستطيع أن أنقذها..

بدأت أدق رأسى بيدى.. كأننى أدق بابا صلبا.. لا أحد يرد.. لا أحد يستجيب.. الباب صفيق وأهل البيت ناموا.. ماتوا من البرد لا أعرف كيف حدث هذا.. لا أعرف كيف فتحت عينى فلم أجد أحدًا سواى.. وكان لابد أن أبقى ساعة قبل أن أفكر فى أن أترك الفراش وأنزل إلى الشارع.. ولا أعرف كيف مرت هذه الساعة.. كانت طويلة لقد أغمضت فيها عينى.. ورحت أتفرج على فيلم غريب يجرى فى داخلى.. كانت الحوادث تجرى وأنا أجرى أمامها أستعجل النهاية..

كنت كأننى فى سينما من الدرجة الثالثة.. كل الناس حولى يصرخون

ويتخانقون.. ويتزاحمون على المقاعد .. وهناك معركة بين بائع السميط وبائع السودانى.. وفجأة جلس أحد المتفرجين فى المقعد الذى أجلس فيه وصرخت ولكنه اعتذر قائلاً: لا مؤاخذة يا حضرة أصلك مش باين.. وبدأ العرض.. ولم أتبين الشاشة بوضوح.. ومن الغريب أننى وجدت صورتى على الشاشة.. ووجدتنى أجلس مع (ف) ووجدتنى أقول لها: حاولت ولم أفلح.. حاولت أن أغير نفسى.. حاولت أن أدخل فى هذه الملابس الضيقة.. حاولت أن أنسخط وأصبح طفلا.. لكى أرتمى على صدرك.. وأنام.. وأبكى.. المهم أن أكون طفلا.. المهم أن أهرب من عمرى.. من سنى.. من همومى.. من شعرى الأبيض.. من المصير الذى ينتظرنى.. أسنانى التى تتساقط من: الخوف من المرض.. من الخوف من الفقر.. المهم أن أكون طفلا على صدر أحد.. على صدر الأيام.. تطعمنى.. وتسقينى.. وتهزنى حتى أنام.. وأنام.. ولا أصحو أبدا.. لأننى جائع إلى النوم.. حاولت هذا.. ولكن كان صدرك كبلاط الحمام.. كان صدرك كأرصفة الشوارع.. وكانت يداك مقشات تكنسنى وتجرحنى.. حاولت أن أكون طفلا دون أن أنام على صدرك واكتشفت أنك تكرهين الأطفال.. وكانت نظراتك كرابيج على وجهى.. وعلى قلبى.. لم أكن أعرف أنك هكذا قاسية.. ولم أكن أعرف أننى هكذا ضعيف.. ولم أكن أعرف.. ولكنى لا أموت.. لا أموت إذا فتحت عينى ولم أجدك.. ولا أجوع إذا مددت يدى ولم أجد طعامك وإذا وضعت رأسى ولم أجد صدرك.. وإذا أدنيت أذنى ولم أجد صوتك.. الناعم.. لا أموت.. لا أنت ولا غيرك.. قادر أن يميتنى.. وسأقدم لك برهانًا على ذلك!!

ولما نهضت.. لا أعرف لماذا نهضت ولا أعرف ما هو البرهان الذى سأقدمه لها.. لكى أدلها على أننى لا يمكن أن أموت.. لا أعرف ولكن أحد المتفرجين ضربنى على رأسى.. وطلب منى أن أجلس؛ لكى يشاهد أحداث الفيلم وأحسست أننى أعرف صاحب هذا الصوت..

أحسست فعلا كأننى بطل هذا الفيلم.. وأننى قد دعوت نصف الحاضرين كما يحدث فى العرض الأول لأى فيلم جديد وفكرت أن أقول له: أنت لم تدفع مليما فى هذه التذكرة.. أنا الذى دعوتك.. ولكنى فضلت أن أسكت.. فأنا أريد أن يرانى الناس.. أن يعرفنى الناس.. فحضورهم لمشاهدتى على الشاشة.. هو أحسن تحية لى.. تمامًا كالكاتب الذى يتمنى أن يقرأ له كل الناس.. ولا يضايقه أن يطلب

الناس نسخة من كتابه هدية.. فالمهم عند الكاتب ليس المكسب المادى.. ولكن المكسب الأدبى.. أن يعرفه الناس هذه هى ثروة الأديب.. إنه يعيش فى أفواه الناس.. إنه يستمد حياته من الصوت والصدى.. صوت الناس وهم يرددون اسمه.. وصدى صوت الناس فى الصحف والإذاعة .. إن الأديب جائع مشهور.. والفنان دايخ مشهور.. ولذلك لم أشأ أن أتشاجر مع هذا المتفرج الذى منعنى من متابعة الفيلم..

ثم ينقطع الفيلم وتبدو الشاشة بيضاء.. مرة أخرى وفجأة يبدأ الفيلم.. وأجد فتاة أعرفها على الشاشة.. ولم أكن أعرف أبدًا أنها اشتغلت بالسينما.. ولكن أعرف أنها تحب الظهور.. إنها تريد أن تهرب من شخص واحد بأن تلقى بنفسها فى بحر الفن.. لتغرق فى الفن.. لتتحول من إنسان إلى سمكة.. إنسان يخاف من الماء إلى سمكة تموت إذا خرجت من الماء.. أعرف هذا الوجه ولكن لم أكن أعرف أنها كانت جميلة هكذا..

إنها خرجت من الشاشة ومدت يدها ناحيتى.. وتعلقت فى ذراعها وانتقلت من مقاعد المتفرجين إلى شاشة العرض.. وسألتها من الذى أتى بك إلى هنا.. منذ متى؟..

وكانت أصوات المتفرجين تقول: صوت.. مش سامعين.. وصرخت فى الجمهور: أنا مش سامع هيه بتقول إيه.. صوت.. مش سامع..

ضحك الناس ونزل الستار.. وجدتنى أمشى معها ذراعى فى ذراعها.. وخرجنا من السينما إلى الشارع.. وجلسنا معًا فى شارع معظم أشجاره غريبة..

فروع الأشجار كأنها سيقان تدلت من السماء.. المنظر غريب.. وسألتها: أحنا فين دلوقت.. أحنا ميتين ولاّ إيه؟ أرواح يعنى؟

قالت: أيوه.. قلت: طيب وليه أنا معاك.. اشمعنى أنت بس.. يعنى علاقتنا قبل الموت ما كنتش ولابد..

قالت: علاقتك أنت.. يمكن أنا بالنسبة لك لا شىء.. لكن أنت بالنسبة لى كنت شيئًا.. وهذه هى الغلطة الوحيدة التى ارتكبتها فى حياتى.. أسأت التقدير غلطت فدفعت ثمنًا غاليًا لشىء رخيص جدًا.. شىء لا يساوى حاجة.. لقد اكتشفت هنا أننى لم أكن أحبك.. كان مجرد ميل.. مجرد محاولة لملء الفراغ الذى تركته المرحومة أمى.. ففيك شبه كبير جدًا من المرحومة ماما..

ودهشت أنا لهذا الشبه بينى وبين أمها.. لم أكن أعرف ذلك وقلت لها: لكن إحنا متنا إمتى.. يعنى أنا مت إزاى.. أنا شخصيًا مش عارف.. أنا كان نفسى أعرف إزاى الواحد يموت.. إزاى ينتقل من هنا لهنا.. يمكن حانعرف الحكاية دى بعدين.. قالت فى دهشة: أنت بتقول إحنا متنا.. أنا اللى مت لكن أنت لسه.. قلت: إزاى..

قالت: أنت ناديت اسمى.. وأنا جيت لك من مكان بعيد.. لا أعرف من أين أنت ناديتنى.. وعالم الموت هنا يسمع أصواتًا غريبة.. لكننا زى محطات الإذاعة كل واحد منا مضبوط على أصوات معينة..

قلت لها: وأنا ناديتك ليه.. أنا أعرفك من عشر سنوات ولا أذكر أننى أفكر فيك أبدًا.. نسيتك خالص.. مش فاهم حاجة.

ونهضت ووجدتها طويلة عريضة.. وراحت تطول.. وتطول.. ثم مدت ذراعين طويلتين قويتين. وأمسكتنى ورفعتنى فى الهواء.. وألقت بى على الأرض.. وهى تقول: عاوز تفهم.. عاوز تفهم.. كل حاجة عاوز تفهمها.. إيه آخرة الفهم.. يا أخى ريّح نفسك..

ونزلت من فوق إلى تحت.. قطعت مسافة طويلة كالتى يقطعها الصاروخ قبل أن ينفجر.. ولكنى انفجرت.. تمزقت إلى دموع.. دموع ساخنة.. وكان قلبى كالمضخة.. تعلو وتهبط وترفع الماء الساخن إلى وجهى.. وشعرى.. وصدرى وعينى.. وكانت المخدة تحت رأسى مبللة.. كان رأسى يروح ويجىء عليها.. كأنه جثة فى بحيرة ساكنة.. وبصعوبة شديدة سحبت ذراعى من تحت المخدة.. وحركت ساقى من تحت الغطاء.. وفى الظلام تسللت يدى إلى المصباح.. وتعثرت فى جسم بارد.. فى زجاجة.. وفتحت الضوء ورأيت المقاعد والمرآة غارقة فى ضباب الفجر.. ورأيت الزجاجة التى انفجرت حباتها فى رأسى.. أوهامًا وأحلامًا.. لم يبق فى زجاجة الحبوب المنومة ولا قرص!

□ □ □

رسالة منها..

سيدى..

هذه رسالة أخرى أبعث بها إليك.. وهذه الكلمات ليست إلا أوراقًا تتساقط من شجرة حياتى.. حياتى فى فصل الخريف.. كل ما أذكره اليوم أن هناك مسافة بيننا.. هذه المسافة لم تختف أبدًا..

كانت فى البداية ومازالت فى النهاية.. إذا كنت نسيتها فأنا أذكرك بها فأنت تنسى وكل الرجال ينسون.. أما نحن فلا ننسى شيئًا.. لمعة العين نذكرها.. لمسة اليد نذكرها.. لا ننسى الكلمة التى يقولها الرجل فى الوقت المناسب.. لا ننسى اللهفة التى يبديها الرجل.. فى الموقف العسير.. أما أنتم أيها الرجال فتنسون دائمًا..

أنتم.. لا.. ترون المسافة التى بيننا وبينكم.. إنكم تحاولون تقريب المسافات بين الرجل والمرأة.. بالود.. بالعنف. بالخطف.. بالعدوان.. بالحب. أنتم تكرهون المسافة.. أنتم الذين اخترعتم القاطرة.. والطائرة والصاروخ.. إنها وسائل للقضاء على المسافة بين الناس.. بين البلاد.. بين الكواكب.. أما نحن فنرى المسافة وننساها ونؤمن بالمعجزة .. نؤمن بأن الحب هو أكبر معجزة..

هو أسرع من الصاروخ.. هو أقوى من الرجل الذى صنع الصاروخ.. أنتم تقطعون كل مسافة بالصاروخ .. ونحن نقطعها بالحب.. أنتم تريدون الوصول إلى القمر بالعقل.. نحن نصله بالقلب.. يكفى حبى لأحد المخترعين لأسافر معه فى صاروخ ظل يصنعه فى عشرات السنين.. وحبى لم يستغرق سوى ثانية.. هذه المسافة التى كانت بينى وبينك من البداية هى السن.. أنت فى الثلاثين وأنا فى العشرين.. إننى لا أنسى ذلك اليوم.. الذى رأيتنى فيه ونظرت.. كان على وجهى تاريخ ميلادى.. كأنك تريد أن تعرف الساعة التى ولدت فيها.. لقد كنت سعيدة أننى صغيرة السن.. وازددت صغرًا.. إن أعظم تحية تتلقاها امرأة هى أن

تنقص سنها ووزنها.. وقد تلقيت منك هذه التحية.. ولكنك رفعت عينيك بالتحية ومضيت..

عرفت فى تلك اللحظة أن الرجال فى سنك يشعرون بأنهم كبروا ويكرهون أنهم كبروا.. ولكنى أحب الرجل الذى يكبرنى .. بعقله.. بتجاربه.. أحب الرجل الذى يشعرنى أننى صغيرة.. أصغر منه وأصغر من أى إنسان.. المهم أن أكون صغرت.. يضعنى فى جيبه.. ويضعنى فى عينه.. لقد أحسست بهذه المسافة بيننا.. واستغرق إحساسى لحظة واحدة.. ومشيت أنت.. ومشيت أنا.. أنت إلى طريقك وأنا إلى المدرسة.. وتشاء الصدفة أن أنتقل إلى بيت يجاور بيتك ورأيتك كثيرًا.. وفكرت فيك كثيرًا.. ولا أعرف ما الذى كان يدور فى رأسك.. لكن أراك تطبق عينيك عندما تراني.. كأنك تطبق كتابًا لا تريد أن تقرأه.. كأنك تقفل نافذتك فى وجهى.. كأنك تطفئ نور الأمل أمامى.. وكانت بيننا هذه المسافة.. وكانت الدهشة هى التى توسع هذه المسافة.. وفى يوم بلغنى أنك سألت عنى.. ولم يبلغك أننى سألت عنك.. وعرفت كل شىء عن بيتك.. عن أهلك.. عن مشاكلك.. بل إننى سمعتك وأنت تنادى بصوت منخفض على والدتك.. ثم ارتفع صوتك.. ثم ارتفع وانقطع.. وعرفت أنك وجدت بيجامتك على الأرض أمام سريرك.. لا تستطيع أن تتصور ما الذى شعرت به فى تلك الليلة..تمنيت أن أراك فى ملابسك.. أن أرى وجهك الساخط الغاضب.. وتمنيت أن أرى وجهك وقد ارتاح على المخدة كطفل صغير.. وتمنيت أن أضع يدى تحت خدك.. وأضع خدى على خدك كأنك ابنى.. وتخيلت نفسى أدق بابك.. وتخيلتك تمشى على أطراف أصابعك تفتح الباب.. وتخيلت أمك تصحو على صوت الباب.. وشعرت بالفزع ونظرت إلى وجهك.. وتطلعت إلى كلمة تخرج من فمك تنقذنى من حيرتى.. وسمعت من فمك كلمات كثيرة.. أخرجتنى من حيرة.. وأدخلتنى فى حيرة.. ونمت ودموعى مثل رأسك.. تمددت على المخدة.. ونمت ونامت على وجهى تلك الصور.. جامدة بلا حركة.. كأنها فيلم أخرجناه من الكاميرا.. وألقيناه على الأرض .. فيلم أسود جاف.. بارد وميت.. بلا حركة..

وبلغنى أنك عرفت أن هناك مسافة أخرى بيننا هى الدين.. دينك.. ودينى.. الدين لله.. القلوب ليس لها دين.. نظراتى إليك ليس لها دين.. حيرتك ليس لها دين.. الشوق ليس له دين.. الحزن ليس له دين.. الإحساس بالحرارة وبالبرودة..

الخوف والفرح ليس لهما دين، ولكن القدر هو الذى وضع هذه المسافات.. هذه النقط بينى وبينك.. وأنا لا أعرف معنى القدر.. ما هو القدر.. هو الذى يفصل بيننا لماذا؟ من الذى يستفيد من هذه الفرقة.. من الذى تسعده تعاستنا.. من الذى يفرحه شقاؤنا.. إنه القدر نفسه.. إنه يريد أن يبين لنا أنه قوى.. بس كده.. إن أى شىء أقوى منا.. إن الحائط الحجرى الذى يفصل بيننا أقوى منا.. إن شهادة ميلادى.. وشهادة ميلادك أقوى منا.. إن مخاوفنا سدٌّ بيننا.. أنا لا أعرف هذا القدر.. لماذا يقرب بيننا .. ويبعد بيننا.. لماذا يجعلنا أصبعين فى يد واحدة.. لماذا يجعلنا يدين فى جسم واحد.. لماذا يجعلنا توأمين فى دنيا واحدة.. إنه القدر.. إنه الشىء القوى الذى نحسه.. ولا نعرفه.. ونعرفه ولا نحبه..

وجاء القدر مرة أخرى وألقى فى طريقى شابًا فيه ملامحك.. وفيه شىء أقوى من ملامحك.. فيه التعبير عن هذه الملامح.. كل ملامحه تتكلم وتريد.. كل ملامحه تمتد ناحيتى.. وتناديني وتهزنى.. تهز قلبى النائم وتوقظه وتفزعه.. ثم تهدهده.. ثم تعانقه ثم تجعله ينام ويحلم.. وفى أحلامه تفزعه.. تخيفه.. توقظه وتثيره وتسخره لينام.. شىء أقوى من ملامحك.. وكان هذا الشاب هو أحد أصدقائك.

لا أعرف لماذا تحب الفتاة شابًا كان صديقًا لشاب آخر كانت تريده أو تحبه.. ربما لأنه قريب منه.. ربما لأنه قريب منه وبعيد عنه.. وأحببت صديقك.. لقد انتقلت خطوة بالقرب منك فاخترت رجلا قريبًا منك..

اخترته ووقفت إلى جواره ولكن بعيدًا عنك.. إنه بينى وبينك.. وأنا أقول إننى ازددت قربًا منك..

وأنت تقول بل ازددت بعدًا..

أنا أقول إننى أحب صديقك.. يعنى أحب كل ما هو شبيه بك.. أحب كلمات صديقك الذى أعرف أنك ترددها.. أحب كلام صديقك عنك.. أحب اثنين فى وقت واحد.. الرجل الذى اختارنى والرجل الذى لم يخترنى.. وإنما اخترته أنا.. وكان فى استطاعته أن يجعلنى له لو أراد..

وأنا أقول لنفسى: كان يقدر إذا أراد.. كان يريد إذا أحب.. كان يحب إذا تشجع.. كان يتشجع إذا أحب.. كان يقدر إذا تكلم.. وكان يتكلم إذا تشجع.. كان يستطيع.. كان يستطيع لو أنه تكلم..

ولكنه لم يتكلم.. نعم لم تتكلم.. وأنا لا أعرف السبب.
وجاء القدر الذى حرت فى أمره.. جاء القدر وباعد بينى وبينك.. بين صديقك وبينك.. وسافرنا إلى مكان بعيد.. سنة.. وسنة.. وفى كل سنة يكون لنا طفل.. صورة صغيرة من صديقك.. صورة صغيرة من صديقك الذى هو صورة منك.. إن أولادى هم أحفادك.. تصور أنك الآن جد أولادى.. وكنت أحلم بأن أكون أمك.. وبعدت المسافة بين الأم الحالمة وابنها الجاد الشارد.. بعدت مئات الأميال.. وألوف الأيام تفصل بيننا..
إلى أن كان ذلك الذى لا أنساه.. أنت لا تعرفه.. ولكننى عشته وبكيته ولا أزال أبكى.. فى ذلك اليوم لم أكن أحلم بأن أكون هكذا قريبة منه.. ولم أكن أحلم بأن أكون هكذا بعيدة عنك.. إنه يوم مروع يا سيدى..
لم يكن فى نيتى أن أخرج من البيت.. فى تلك الليلة.. شعور غريب كان يشدنى إلى البيت.. شعور غريب نعرفه نحن النساء.. وكلنا نحسب له.. أنتم لا تعرفونه.. فنحن أحيانًا نشعر كأن هناك صفيرًا فى الأذن يحذرنا من شىء.. كأن هناك يدًا تلتف حول قلوبنا .. أو حول أعناقنا من داخلنا.. ونشعر نحن النساء أنه يجب أن نبقى فى البيت.. أن ننتظر هذا الشىء الكريه.. أن نتفادى الالتقاء به فى الطريق.. ألا نعطيه الفرصة فينفرد بنا.. هذا الشعور لم أكترث له.. هززت كتفى فسقط منى هذا الشعور الثقيل.. كأنه تراب نفضته بعيدًا عنى.. ونزلت من البيت.. وفى الشارع عاودنى هذا الصفير وهززت أذنى وطردت هذه البعوضة بعيدًا عنى..
وعلى النيل جلست مع زوجى.. ونصب الظلام حولنا خيمة.. وفى الخيمة تعلقت فوانيس.. والفوانيس لها رموش من الضوء.. والرموش لا تهتز إنها جافة.. والفوانيس عيون لا تتحرك.. كأنها مدفأة كبيرة حمراء وكأننى فى حلم.. لقد نظرت فى نار الفانوس.. ورأيت الرموش تلتف حولى.. وتسحبنى إلى داخل الفانوس وأمشى فى طريق طويل.. سرداب ملتهب.. وأمشى بلا هدف.. ولكن السرداب يهبط بى.. وأتصبب عرقًا.. ولا أسمع حولى أى شىء.. ولكن قلبى يعلو ويهبط..
كل هذا وأنا جالسة إلى جوار زوجى.. وفى السرداب ازداد الظلام.. وضاق السرداب.. وكنت أسمع من يناديك تمامًا كذلك اليوم منذ سنوات.. يوم سمعت من يناديك.. والتفت أنت فوجدتنى وابتسمت.. كأننى أنا التى ناديتك ومددت يديك

وسلمت.. وسألتنى عن زوجى وعن أولادى.. وأخذت يدك بسرعة.. قبضت يدك.. كأنك قبضت روحى.. إننا نحن النساء أرواحنا فى أيدينا.. فى أظافرنا.. يدك تقتلنى وتحيينى.

وعينك تميتنى وتبعثنى.. ما أسهل حياتنا وما أسهل موتنا.. ولكنكم أيها الرجال لا تصدقون.. وفى السرداب سمعت من يناديك.. واتجهت أنا ناحية الصوت.. وانطلقت بأقصى سرعتى وسقطت..

وسقطت على صدر زوجى.. وسمعت زوجى يتلهف على يدى.. وعلى صدرى وعلى فمى.. ويهزنى يوقظنى.. كم تمنيت أن أفعل هذا أمامك.. أن أفتعل هذا معك.. أن أرمى نفسى تحت قدميك.. أن أسقط من النافذة وأرى الفزع فى عينك.. أن أجعلك ترى دموعى.. آه لو عرفت لهفة دموعى ليدك.. تمنيت أن أبكى فلا تجد منديلا معك.. فتمسحها بيدك.. وصحوت من حلمى من غيبوبتى.. إن هذا المرض يعاودنى من حين إلى حين.. إنه فقر الدم يجعلنى أنتقل من الواقع إلى الخيال.. فى لحظة واحدة.. فأنا نصف حية.. ونصف غارقة.. ونصف واعية.. ونصف حالمة بك.. واعتدلت فى جلستى لأرى الفوانيس مصفرة جامدة.. كأنها حبات خرز وأخذت تكبر وأرى ضلوعها السوداء.. وأرى فى ظلالها البعيدة شبحك.. رأيتك بوضوح.. هذا وجهك.. هذه جلستك.. ثم هذا صوتك.. كان معك عدد من الرجال.. وكانت تجلس إلى جوارك فتاة.. وكاد عقلى يضيع منى بحثًا عن ملامح هذه الفتاة.. ورجع لى عقلى.. عندما عرفت أن هناك مسافة بينك وبين هذه الفتاة.. إنها تجلس بالقرب منك على منضدة..

واعتدلت أنت فى جلستك.. وكدت أفقد عقلى عندما نظرت ناحيتى..

وتمنيت أن أقوم وأحطم هذه الفوانيس.. التى سلطت أضواءها على عينك وجعلتك تضع هذا المنظار الأسود.. وطلبت من الجرسون أن يرفع هذه الفوانيس.. والآن أراك بوضوح.. وأنت ترانى بوضوح..

وكدت أجن.. إنك تنظر ناحيتى ولا ترانى..

إننى لم أتغير إلى هذه الدرجة.. نهضت أنا من مكانى ومررت بالقرب منك..

ناديت الجرسون بالقرب من أذنيك.. كدت أرتطم بك..

وتمنيت أن أسقط إلى جوارك.. ولا أعرف لماذا أمسكت نفسى حتى لا أسقط .. ليتنى فعلت..

عدت إلى زوجى ونبهته إلى أنك هناك.. ونهض زوجى ووقف بالقرب منك ونظرت إليه ولكنك لم تفعل أى شىء..

ونظر زوجى إلى الأكواب التى أمامك.. ليست خمرًا..

ووضع يده على كتفك..

وأمسك رأسك.. وأدنى رأسه من وجهك.. وهنا فقط نهضت تعانق زوجى وأنا أغمض عينى.. أنت تعانق زوجى وتقبله..

أما أنا فنظرت إلى الفوانيس.. ووجدت نفسى فى السرداب..

وسمعت زوجى يحدثنى .. ويحدثنى عنك.. وعرفت أن مسافة أخرى قد أضيفت إلى المسافات الطويلة السابقة..

إن نظرك قد ضعف.. نظرك قصير لا يرانى.. كأننى فى نهاية الدنيا.. لم أعد أصبعًا فى يد.. ولا قدمًا فى جسم.. وإنما أصبع قطعت.. وألقيت على الأرض.. أصبع بلا حياة.. وعرفت أخيرًا ونهائيًا معنى القدر.. عرفت أنه يعيش على تعذيب الآخرين.. المحبين..

« ... »

□ □ □

شجرة على ترعة

أن أكون شجرة على شاطئ هذه الترعة.. بالذات هذا أملى.. والترعة ضيقة معوجة.. كحاجب عين ضبطوها وهى تغمز لفتاة حلوة.. وماء الترعة قليل.. إنه يشبه الطين.. والعشب فوقه يشبه الموج.. كأن معدة الترعة مقلوبة.. وبين الحين.. والآخر تجىء وزة بيضاء وترمى بنفسها فى الموج الأخضر.. أو الماء الأسود.. كأنها تعبث بفكرة الانتحار.. أو كأنها ريشة فى يد رسام غشيم.. أو رسام سريالى يريد أن يمزج الألوان البيضاء والخضراء والصفراء فى عينين عسليتين.. أو كأنها تريد أن تلصق نفسها ببرواز من العشب؛ لتبدو كأنها لوحة بارزة.. أو كأنها تمثال نصفى لوزة ظهرت فيها أعراض إنسان قرفان من دنياه.. وبين الحين والحين يجىء فلاح يمشى وراء جاموسته.. أو يمشى معها.. الاثنان مربوطان بعضهما ببعض ولا تعرف أيهما الذى يسحب الآخر.. الفلاح الذى يمسك الحبل أو الحبل الذى يمسك الفلاح.. وينظر بعين أو برأس أو برقبة.. أو بجسم مهدود إلى الترعة ولا يرى الوزة.. ولكن يلمح الهواء الذى يخرج من خياشيم سمكة.. ويحدث بالونات صغيرة بين الأعشاب.. ويهز رأسه وهو يعنى أن يهز كتفه.. لسبب آخر لا علاقة له بالوزة.. ولكن له علاقة برغبة عاجلة فى الهرش.. وبنظرة أخرى إلى الشمس التى تدحرجت فوق الأشجار البعيدة.. والمحيطة ببيت واحد من الناس.. هذا الواحد ليس فى حاجة إلى أن يمشى حافيًا.. ولا يتعجل الهرش فى كتفيه.. وهذه البالونات بين العشب لا تلفت نظره.. ولكن يلفت نظره صوت الوزة وهى تحت السكين ثم وهى فى الطبق.. فوق كوم من الأرز.. كوم مرتفع يشبه أكوام التبن المجاورة لبيت واحد آخر.. والكوم مرتفع وعليه ظهرت بقع سوداء متحركة.. هذه البقع هى أناس وكلاب.. احتموا فوق التبن من التراب.. مع أن التبن ليس إلا.. ترابًا.. أبيض ناعم الملمس..

ولا تزال الجاموسة تسحبه كل يوم.. وتسحبه.. والوزة تلقى بنفسها فى الطين..

وتستحم من جديد ويزول الطين.. لا لنظافة الوزة ولكن للزيت الموجود فى ريشها.. إن هذا الزيت طبقة عازلة كأنها كيس نايلون.. كأنها كلمات الشرف والتقاليد.. وأيمانات المصطفى.. التى تحول بين الفلاح وبين أن يمد يده إلى أشجار البرتقال أو إلى حقول الخس.. أو إلى البيض الذى يجده تحت الأشجار.. إن هذا الزيت ليس حول يده ولا حول ذراعه.. ولكن هذه الطبقة الزيتية فى داخله.. جوه.. فى أعماقه.. إنه لا يعرف حتى كلمة الأعماق.. ولكن من المؤكد أن هذا الزيت عند قلبه.. أو وراء معدته بمسافة كبيرة.. قد تكون هذه المسافة شبرًا أو ألوف الأشبار.. ولكنه هناك.. إن هذا الزيت ينير له دنياه.. تمامًا كما ينير المصباح عندما يمتلئ بالجاز.. هذا الفلاح أيضًا كالوزة.. مهما ألقى بنفسه فى العشب.. وفى الطين.. فإنه لا يمكن أن يتسخ منه شىء.. يده فقط.. ورجلاه فقط.. ولكن أعماقه كريش الوزة.. أعماقه بيضاء.. ناصعة البياض.. وهذا البياض الناصع تسحبه هذه الجاموسة السوداء.. تمر به بالقرب من كوم التبن.. ومن بعض الكلاب النائمة.. ومن النوافذ التى تنبعث منها أصوات غريبة.. أصوات معدنية.. حلل.. وأطباق.. وسكاكين.. كانت بالأمس مليانة.. ثم اختفى الطعام فى بطون أصحابها.. بالهنا والشفا.. إن الله هو الذى أعطى ولابد أن تكون هناك حكمة فى أن يعطى بعض الناس.. ولا يعطى أكثر الناس.. يعطى الناس الطعام فيغسلون أيديهم.. ويمسكون بأيديهم النظيفة.. سكاكين وملاعق.. وأطباقًا..

ويختفى الطعام فى بطونهم.. ولا يعطى الكثير من الذين يهرشون ويمسحون عرقهم فى دموعهم وبشفاه عليها طين وملح.. وكلمات جمدت وماتت ودفنت هى: نشكره.. ونحمده.. وكله رضا.. ومكتوب علينا كده.. والستر.. إلى آخر الكلمات التى تجمد وتموت.. وتدفن عفنة فى أفواه مشققة فيها رائحة البرسيم.. والسريس.. ولها لون الأرض المشققة.

أن أكون شجرة على هذا الجانب من الترعة.. وأرى هذا الفلاح ومئات مثله.. وهذا البيت وعشرات مثله.. وكوم التبن.. والكلاب.. وأصوات الملاعق المعدنية.. وأن أمسح هذه الجثث المدفونة وراء أسنان هذا الرجل.. وأن أفتح فى رأسه طاقة من النور.. وأن أقطع الحبل الذى يربطه بالجاموسة.. وأن أدفعه هو أمامها.. ولا يهم أن تمشى وراءه أو لا تمشى.. المهم أن يمشى أمامها ولو مرة.. أن يمشى إلى الأمام ولو على سبيل التمرين.. ولو على سبيل التخويف.. ولا يهمنى أن أكون

نوعًا معينًا من الأشجار.. ولأكن مثل شجرة توت.. إنها هدف دائم لطوب العيال الصغار. أن أكون شجرة جميز.. إنها هدف العيال أنفسهم يتشعبطون عليها ويرمون ثمارها دون أن يأكلوها.. والغربان تنعق.. وأنا أكره صوت الغربان.. وأكره لونها.. وأكره مشيتها ولكن أحب أن تفعل هذه الغربان بشجرتى كما فعلت فى سفينة نوح.. عندما أطلقها نوح ليعرف يوم الطوفان إن كانت الأرض قريبة.. وأطلق غرابًا وطار الغراب حتى تعب.. وعاد يدخل من إحدى نوافذ السفينة.. وأقفل نوح سفينته.. تمامًا كما أطبقت نفسى على نفسى.. على حيوانات ضارية.. وحيوانات هينة.. وبعد أيام أخرى أطلق نوح غرابًا.. وبعد ساعات عاد الغراب وفى فمه غصن زيتون.. وأدرك نوح أن الأرض قريبة.. وأن السفينة الوحيدة فى العالم سترسو بكل من فيها من زوجات وأبناء وحيوانات ذكور وإناث.. وأن النجاة من هذا الطوفان قد اقتربت.. وأن الغراب هو الذى حمل البشارة.. غصنًا من شجرة زيتون.. على أرض قريبة.. ولو كان هذا الغراب يطير ويعود.. ويحمل غصنًا من أغصان النجاة لعانقت كل غربان الدنيا.. بأغصانى وأوراقى.. ولكن الغربان لم تعد تهوى إلى الأرض.. منذ وقع الطوفان.. لقد عدلت عن القيام بأدوار المرشدين فى قنوات الحياة..

أن أكون شجرة.. شائكة.. غصونها حراب.. وأوراقها دبابيس.. وبذورها رءوس مسامير محددة.. لا يقترب منها أحد.. الطيور تهرب منها.. الأفاعى.. والزواحف التى أخافها تخاف منها.. الناس لا يقربون منها.. كل ورقة من أوراقى .. كحيوان القنفذ.. شائكة.. متحركة.. لا تمسكها يد..

وأتمنى أن تكون هذه الشجرة بالقرب من هذا البيت.. الذى يملكه واحد من الأقلية.. التى تملك البيوت التى تخرج منها هذه الموسيقى الغربية. فى ساعة معروفة من النهار والليل. موسيقى معدنية لها رائحة.. موسيقى أوتارها شوك وسكاكين. وطبولها أطباق. وعازفوها خدم حفاة. ولكن أجسامهم مليانة. يشربون السمن ويقرشون السكر. وإذا ناموا تقلبوا على جوانبهم كأن المراتب القطنية توجعهم.. ففى جيوبهم فلوس معدنية ومفاتيح كبيرة. هذه الفلوس وهذه المفاتيح هى التى تحول بينهم وبين الراحة فى النوم. إن هؤلاء قد نسوا النوم فوق الدبش على الترعة وتحت الشجر ولكنهم مع ذلك.. حفاة.. عراة.. ولكنهم يتعذبون من أقدامهم.. التى تصطدم بالأحذية والقباقيب. ولكن لا تلبسها. وعراة

لا يلبسون شيئا جديدا. وإنما يلبسون القديم النظيف المرقع. يلبسون ما خلعه صاحب البيت وأولاده. وأحيانًا تكون الهدوم قصيرة. وأحيانا تكون ضيقة. وأحيانًا نشرونها على أغصانى أو على أشواكى ليتهم يفعلون لمزقتها.. وهلهلتها.. وباعدت بين خيوطها.. كما باعدت بينى وبين الناس.. والحيوان.. والطيور والهدوم. وبذلك يصبح كل شيء بعيدًا عنى. أرى الناس ولا أخافهم. يخافنى الناس ولايقربون منى.. وبذلك تتحقق لى عزلة مخيفة.. تخيفنى أنا أيضًا.. فكل أوراقى وأشواكى ليست إلا شفاهًا مضمومة ممطوطة. مضغوطة فى قرب وعدم اكتراث.. وتظل ممدودة مشدودة من الأمام كأنها مخالب أو كأنها مناقير طيور جارحة.. إلى أن يجيء يوم يرتفع صوت صفير غريب.. لا هو صوت.. ولا رائحة له. ولكنه صوت صفير لعصفور صغير يعلن الربيع وحينئذ تلين له الأشواك والمخالب..

وتتحول إلى .. أوراق .. ناعمة خضراء لينة..

وتصبح الأوراق ستارًا أخضر.. مظللة خضراء يأوى إليها الإنسان .. والحيوان.. والطيور..

ويكتشفها هذا الفلاح.. هذا الواحد من ألوف الفلاحين..

ويسند ظهره المقوس على جذعى.. ويربط الجاموسة فى رجليه حتى لا تهرب.. وتنام.. وينام.. وتمر بالقرب منه وزة أى وزة.. وتنقر فى صدره فيهرش بسرعة.. ويمضى فى حلمه.. يزحف على دنيا النوم كما تزحف دودة خضراء على عود خس..

فى يوم شم النسيم.. ألقى بالقرب من هذه النافذة نافذة هذا البيت.. أحد البيوت القليلة بالقرب من هذه الترعة.. المعوجة كحاجب فتاة ريفية.. مكحل.. فوقه منديل.. بأوية.. فيه عطر غالٍ جدًا.. عطر اشترته من البندر.. عطر اسمه «الزمن هنانى»..

ليتنى شجرة على هذه الترعة.. ولو ليوم واحد.. ليته هذا اليوم..

□ □ □

قصة حبيبى

كأننى فتحت عينى فى قرص الشمس.. وكأن قنبلة انفجرت فى أذنى.. فأنا لا أرى بوضوح ولا أسمع إلا ضوضاء.. ماذا حدث لى؟ لا أعرف.

إنه شاب كأى شاب فى الدنيا.. ولكن قلبى تعلق به لا أعرف لماذا.. ولا متى.. ولا كيف.. وأحسست فجأة أنه شىء مهم جدًا بالنسبة لى..

وإننى لابد أن أراه كل يوم.. أو أسمع صوته على الأقل.. أما التفكير فيه فهذا يحدث ليلا ونهارًا.. وكلما شعرت بالضيق فى البيت أحسست به هو أكثر.. شعرت أنه هو الذى سينقذنى.. أنه هو الذى سيرحمنى.. من عذابى مع أمى وأبى وإخوتى.. ولكن كيف يخلصنى هو.. طبعًا لم أفكر أبدًا فى ذلك.. إن مجرد التفكير فيه يريحنى .. ولكنى لا أعرف اسمها لشعورى هذا.. حب؟ مجرد ميل.. استلطاف.. احترام.. إعجاب.. لكنى فى نفس الوقت أكره شعورى نحوه.. أكره شعورى بأننى أحببته كده مرة واحدة.. إننى أشعر كأنه اغتصبنى.. كأنه دخل قلبى بالقوة.. كأنه لم يستأذن فى الدخول.. وإنما ضرب الباب برجله..

وأحيانًا أقول لنفسى إننى لا أعرف لى رأسًا من رجلين.. كل يوم أقابله كل يوم أراه.. كل يوم أكلمه وأنا لا أزال فى هذه الدهشة.. إننى لا أستطيع الابتعاد عنه.. هذا هو شعورى بالضبط.. أريد أن أكون بجواره فقط ولكن لماذا..؟

فى الحقيقة لا أسأل نفسى أكثر من هذا.. أريد أن أسأل الناس كلهم عنه.. وأسألهم عنى أنا.. هذا المولود الذى أحمله فى قلبى أريد أن أجد له اسما.. أريد أن أفرّج الناس جميعًا عليه.. أقول لهم هذا هو ابنى . وهذا هو أبوه.. أريد أن أسمع رأيهم فى هذا الحب.. ولا أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا..

وفى يوم ذهبنا إلى حفلة.. هو ذهب قبلى وأنا ذهبت مع إحدى صديقاتى، بعد وقت طويل حتى لا يرانا أحد.. حتى لا يعرف أحد أن بيننا شيئًا..

إننى كالتى وجدت أسورة من الذهب فى الطريق ووضعتها فى منديلها.. وألقت

بالمنديل فى حقيبتها. وبعد ذلك ذهبت إلى تجار «الصاغة» لتسألهم عن ثمن هذه الأسورة. كل واحد يقول كلمته. هذا يرفع الثمن وهذا يخفضه وكلهم يضاعفون من حيرتى وارتباكى.. حيرتى وارتباكى..

سألت الفتاة التى إلى جوارى وأنا لا أعرفها: مين والنبى الواد الحليوة اللى هناك ده..؟

ونظرت لى ببعض عينيها وقالت: هو فين ده يا حبيبتى؟ فأقول لها: الواقف هناك جنب الشباك.

وتقول هى: ده..؟ حليوة..؟ حكمتك يا رب.. فين بقى حلاوته.. عينه الضيقة.. شعره الأكرت.. التفتفة وهو بيتكلم.. بلا حسرة اللى ما فى حد يسر الخاطر..

كل كلمة من كلماتها كالسكين يقطع خيوط قلبى وأنظر إليه من جديد.. وأحاول أن أرى هذه الأشياء.. التى قالت لى عنها.. فلا أجد منها شيئًا.. ثم لنفرض أن هذا هو شكله.. إنه يعجبنى.. ما دخلها.. هى ما دخلها أم لسان طويل. وأنظر إليها هى مرة أخرى وأقول فى نفسى: ويعنى أنت اللى عِدلة.. واللى يشوفك وأنت واقفة يقول عليك قاعدة.. وصدرك ماله كده.. زى ما تكونى مخبية عيل صغير تحت فستانك الجربان.. شوفى نفسك انت..

وأبتعد عنها وأذهب لأناس آخرين.. إننى كالتى قامت باستفتاء وتريد أن تعرف رأى الناخبين.. إننى لا أريد أن أؤثر على الناخبين.. أريد أن أسمع رأيهم فيه بحرية..

وفى كل مرة أقترب من بعض المدعوين والمدعوات أندهش جدًا لأنهم لا يتكلمون عنه.. أندهش عندما لا أجد اسمه يتردد على ألسنتهم.. إننى أتصور أنهم يجب أن يفكروا فيه.. أن يتكلموا عنه.. أن يتركوا الطعام والشراب وينظروا إليه فقط.. ولكنى كنت وحدى مشغولة به.. ومن حين لحين أنظر إليه فأجد بعض الفتيات يسلمن عليه.. وأشعر بالضيق من هذا السلام باليد.. لماذا لا تبتسم كل واحدة من بعيد لبعيد يعنى لازم اللمس باليد.. لازم يعنى.. وأتمنى أن يكون لى فى ظهرى عيون تراه زيادة.. تمامًا كالعنكبوت يا بخت العنكبوت.. إنه يستطيع أن يرى فى كل الاتجاهات.. وكلمة عنكبوت هذه لم تعجبنى .. فالعنكبوت تخرج منه خيوط رفيعة يمكن تقطيعها.. يمكن أن ينفخها الإنسان فتطير.. وأفكارى تشبه هذه الخيوط. ونظراتى تشبه هذه الخيوط.. إننى عاجزة أمامه وعاجزة معه.. ولا أعرف كيف أفر من عيون الناس ولا من أيدى الفتيات.. إننى أفضل أن أكون كدودة الحرير التى تفرز

من فمها خيوطًا جميلة. ومن هذه الخيوط الجميلة أنسج فساتين جميلة وأرتديها عندما أقفل باب غرفتى.. وأحلم بأننى أنيقة.. أنيقة له.. وجميلة له.. وعروس له..

وأسمع ضحكاته تملأ المكان فأتلفّت وأنا ضاحكة مثله.. دون أن أعرف السبب.. فأجده واقفًا مع أصدقائه.. إنهم يتكلمون فى أشياء لا أعرفها.. ولكن لا شك أنه سيد الموقف.. أنه أحسن من يتحدث.. أجمل من يضحك.. أروع من يسكت.. طبعًا هو أحسن من بابا.. وماما.. وأخى.. طبعًا لاشك.. وأسمع فى رأسى صوت ماما وهى تقول لى: ماله أخوك يا بت.. ماله أبوك يا بت..

وأقول فى نفسى: يا سم!

وأخيرًا قررت أن أبتعد عن هذا الجو.. لقد تعبت أعصابى.. إننى أخشى أن يسمعنى الناس وأنا أكلم نفسى.. أخشى أن أناديه بأعلى صوتى إننى أريد أن أناديه وأقول: حبيبى أهوه.. عريسى أهوه.. إيه يعنى سيعرف الناس أننى أحبه.. وإيه يعنى أنا أريد أن يعرف الناس ذلك.. سيقولون إننى مجنونة. ولكن سيقولون إنه شاب تموت فيه البنات.. وهذا يرضينى.. هذا يملأ قلبى بالإعجاب له.. طبعًا أموت فيه والناس مالها.. مال الناس بىَّ.

وقررت أن أذهب إليه وأقول له: ياالله نخرج.. ثم أعود وأقول لنفسى: وهو أنا دخلت معاه..

وفجأة أنظر إليه وكأننى فتاة أخرى.. فأجد العرق على وجهه.. عرق. مع أن النوافذ كلها مفتوحة.. عرق؟

لابد أنه مكسوف.. مكسوف من إيه..؟ إذا كانت الرجالة بتنكسف. أُمَّال إحنا نعمل إيه.. مكسوف وعامل جرىء.. عامل طويل اللسان.. عامل راجل.. إن هذه الجرأة ليست إلا محاولة لتغطية الخجل الحقيقى.

وقد رأيت أنه أتْخن مما تصورت.. وأنه أقصر مما كنت أراه قبل ذلك.

ثم البنت التى بقى إلى جوارها.. وكأنه يرفرف عليها بأجنحته.. كأنه خائف عليها.. خائف عليها من إيه.. دا شكلها يقرف.. هل هذا النوع اللى يعجبه من البنات.. فيها إيه.. مش شايفة..

وأخرجت المنديل من جيبى وتمنيت أن يكون هو فيه..

ثم بصقت.. وقلت بصوت هامس وأنا أترك المكان: أنت فاكر نفسك إيه.. دا حتى مناخيرك كبيرة.. وانت عامل زى بابا..

قل كلمتك وانتظر

عزيزى..

لا أعرف من الذى قال.. قل كلمتك وامش.. كنت أردد دائمًا هذه العبارة ولا أفكر فى معناها كثيرًا.. كنت أرى فيها حكمة ذهبية.. فالإنسان يجب أن يقول كلمته.. أن يدلى برأيه.. ولا يهمه ماذا يحدث بعد ذلك..

وأنا أرى هذه الحكمة قاسية جدًا. بل أراها مجرمة.. فالكلام أنواع وألوان.. هناك كلمات يجب أن أقولها وأقف.. أقولها وأنام إلى جوارها.. أو أقولها وأهرب بأقصى سرعة.. من قال إن الكلمة: قشر لب أو قشر بطيخ.. إنه شىء خطير إن قلته ومشيت.. ولكنى تسمرت فى مكانى.. بل إننى بنيت قاعدة من الأسمنت وأقمت فوق القاعدة بيتًا كبيرًا.. وفوق هذا البيت أقمت برجًا للمراقبة أرقب منه حركات النجوم والأفلاك فى سمائك يا لغزا حيرنى.. يا شعاعًا تائها بين ملايين الأجسام والأسماء.. مع أن السبب: كلمة.. إن الله خلق العالم كله بكلمة.. كلمة واحدة.. لقد قالها للعالم: كن.. فكان هذا العالم الذى أنت صورة صغيرة منه.. هل تستهين بكلمة.. هل تقولها وتمشى.. تمشى على فين؟ وتمشى إزاى؟ وأنا والنار التى أصابتنى.. والشظايا التى مزقتنى والأمل الذى يشدنى وراءك.. واليأس الذى يبعدنى عنك.. كلمة نعم .. إن الله نفسه كلمة.. ولكن أى شىء ليس فى هذه الكلمة.. كل شىء وأكثر من كل شىء وهى كلمة.. حتى لو كنت تعودت على هذا الكلام حتى لو تعودت أن تلقى بهذه الكلمة فى وجه كل فتاة.. حتى لو تعودت أن تلقى بهذه القنبلة الدامية.. أو هذه البذرة النامية.. ألا تحب أن ترى آثار ما فعلت يداك.. ألا تحب أن ترى آثار ما غرست يداك.. ألا تجد فى ذلك أية رغبة.. أى حب استطلا ع .. ألا تحب أن ترى نفسك فى صورة أخرى.. هل تعرف لماذا يوجد جمال فى هذا العالم؟ ألا تعرف لماذا يوجد فى هذا العالم رجال ونساء؟ السبب يا سيدى هو أن الله قد نظر إلى الدنيا بعد أن خلقها.. تطلع إلى ما فعلت يداه.. فكان الجمال.. والكمال.. والقوة.. والأمل..

وأنت.. ألا تحب أن ترى بعض ما فعلت يداك.. ألا تزال تؤمن بأن الإنسان يجب

أن يقول كلمته ويمشى.. قلها وامش.. ولكن قبل أن تمشى انظر وراءك .. انظر وراءك تجدنى وراءك دائمًا.. إننى.. إننى لست وراءك وإنما مشدودة بخيوط لا تراها.. ولا تعرفها.. إنها خيوط الكلمة التى قلتها.

وبعد ذلك ماذا حدث لنا.. بل ماذا حدث لى أنا.. حدث ما لا تعرفه.. حدث أننى أسمعك.. ولا أعرفك.. أننى أراك ولا أكلمك.. أننى أقرؤك ولا أعرف من أنت. كل شىء من بعيد.. بعيد عن الأذن. بعيد عن العين.. بعيد عن العقل. ولكنك لست بعيدًا عن القلب.. فأى شىء هذا الذى يربطنا. أى شىء هذا الذى يجمعنا.. أى شىء هذا؟ قربك بعيد.. لأن المسافة التى بيننا لا أستطيع أن أقطعها.. لا أستطيع أن أجعل فمى أقرب إلى أذنك.. لا أستطيع أن أجعل مكانى أقرب إليك.. وبعدك قريب.. لأننى أستطيع أن أراك ولا ترانى.. أن أكلمك ولا تعرفنى.. أن أقرؤك أن أكتب إليك. فكل خطاب أبعثه إليك.. هو يدى.. هو كفى.. التى أمدها إليك لتقرأنى فيها.. هو الحمام الزاجل الذى أكتب على جناحه كل يوم تفسيرًا لهذه الكلمة.. إننى لم أنته بعد من تفسيرها..

كلمة واحدة.. هذه الكلمة تشبه رأس المال الكبير.. إنها كل يوم تتزايد.. كل يوم تضاف إليها أرقام جديدة.. إنها أموال استثمرتها فى الشركات.. إنها أموال متحركة بين عقلى وقلبى.. بينى وبينك.. بينى وبين العالم كله..

كلمة.. كلمة.. تنمو فى الظلام وحدتى الرطبة.. الظلام يجعلها تكبر وتنمو.. لأنها كالوطاويط.. كلمة مرتجفة خافتة لا يعرفها أحد ولا يراها أحد.. لأنها تنمو فى الرطوبة كالسمك.. تروح وتجىء فى نفسى.. إنها كالأشباح تفزعنى فى وحدتى وكلها كلمة واحدة يا سيدى.. تقول إنها قشرة لب.. ولكنها سقطت فى يد جائعة.. سقطت فى قلب جائع وليس فى قلبى إلا المعجزات.. إنها عندما سقطت تحولت إلى شجرة كبيرة فجأة.. وعلى الشجرة طيور تغنى وتردد اسمك.. وتحتها جلست أنت.. وأخجل أن أصف لك ماذا كنت تفعل تحت شجرتى.. كنت تقول نفس الكلمة لفتاة أخرى وقامت النار فى نفسى واشتعلت الشجرة.. ولكن الطيور كانت تأكل هذه النيران أولاً بأول.. حتى لا تسقط عليك وحتى لا تتبخر الكلمة من فمك.. فهل شعرت بذلك؟ أبدًا..

هل تعرف قصة البحارة السبعة الذين سافروا على باخرة فى المحيط. هذه القصة كتبها كاتب إنجليزى اسمه «كونراد».. لقد قرأت هذه القصة فيما مضى ولم تعجبنى.. لم أجد فيها نفسى.. لم أجدنى بين البحارة.. لم أر خيطًا يربطنى بهم ولكن أمس فقط عرفت أننى أحدهم.. بل أنا الوحيد الذى بقى حيًّا.. وليته لم يبق.. هؤلاء البحارة يا سيدى نفد طعامهم كله ولم يبق أمامهم شىء.. إلا الهواء والماء.. وأخشاب السفينة ولكن الجوع مجرم.. الجوع كافر.. بكل دين وكل مبدأ..

الجوع الذى أحس أن قشر اللب هو ديك رومى.. هذا الجوع جعل بعضهم يأكل البعض.. ففى أول يوم أكلوا واحدًا منهم ومازالوا كذلك حتى لم يبق سوى قائد السفينة فذبح البحار الوحيد وظل يعيش عليه أياما. وعاش البحار وأشباح الضحايا لا تفارقه أبدا. أشباح الذين قتلهم وأكلهم وهم يصرخون.. قتل أصدقاءه وأحبابه.. قتل الذين ضحوا من أجله ولم يبق إلا هو والبحر والأشباح.. إن البحر أمامه صافٍ هادئ.. مثلك ولكنه ناعم كملايين السيوف.. لامع كالسراب متموج كملايين الأفاعى.. ولم يبق إلا هو وجوعه.. وخوفه. أنا هكذا يا سيدى حاربت الخوف منك.. حاربت التعلق بك.. حاربت النار فى قربك.. حاربت النار فى بعدك.. حاربت ثقتى فيك.. حاربت عدم ثقتى فى نفسى.. إلى أن كانت هذه الكلمة فقتلت هؤلاء جميعًا.. قتلت كل ما فى نفسى.. وظللت جائعة.. خائفة على ظهر سفينة دامية فى بحر عميق.. والسبب كلمة قلتها أنت ومشيت.. وبقيت أنا أقلب فيها.. أنت قلت الكلمة وكأنك رميت حجرًا. وماذا فى حجر.. لا شىء.. وانحنيت.. نعم. انحنيت كثيرًا.. ومددت يدى إلى الحجر. لقد وجدته قطعة من الماس.. وظللت أقلب فيها وأنظر إلى السماء.. أبحث عن طاقة القدْرِ التى تلقى بالماس عند أقدام الناس.. وثرت بعد ذلك.. ثرت على نفسى.. وعلى الناس.. وعلى الماس .. وعلى طاقة القدر. كيف شغلتنى قطعة الحجر عنك. لقد نظرت إليها فوجدتها حجرًا. نعم حجرًا. فإذا فكرت فيك أجد كل شىء حجرًا لا قيمة له. فأنت الذى له قيمة.. أنت الذى كلامه سحر.. وترابه تبر.. وأحجاره ماس.. ولكن عندما وجدتك قد مشيت. تلفّت إلى الحجر فوجدته ماسا.. وجدته حجرًا كريمًا.. أكرم منك. أنت الذى يقول ويمشى.. ويمشى ولا يقول.. ألست ترى أننى أقول كثيرًا.. إنه أقل كثيرًا جدًّا مما أريد أن أقول لك.. وبينى وبينك تليفون طويل لا تعرف أنت مداه.. فأنت لا تعرفنى ولا ترانى وأنا لا أريد منك شيئا.. ولكن لأنك رجل تهتم بالأدب وبالكلام.. وصناعة الكلام.. أردت أن أشير إلى أهمية معنى كلمة واحدة.. كلمة واحدة بين ألوف الكلمات التى تسمعها وتقولها.. إننى أصحح معنى كلمة ولا أصحح عاطفة.. فالعواطف ليس لها تصحيح لأن كل عاطفة صحيحة.. كل عاطفة صادقة. إن القلب لا يرى.. إن القلب بلا عيون.. ولكنه لا يخطئ.. إنه كالشمس لا عيون لها.. ولكن بغيرها لا يرى الإنسان والحيوان..

أعترف لك لقد جاء دورى لأتعذب منك.. بكلمة واحدة.. وأى عذاب أكثر من أن أكتب لك هذا الكلام..

أما الآن فقد قررت أن أفتح أذنى.. وعينى.. وعقلى.. وقلبى على لا شىء.. يا لا شىء..

□ □ □

لا شىء ينتهى..

اتفق الاثنان على أن تنتهى هذه العلاقة. لم تكن علاقة.. بل شىء أطول وأعمق. ليس الذى يربطهما قيدًا من الحديد أو من الحرير. إنما هو شىء أرق وأكثر حرارة.. إنه خيط رفيع كالذى يربط الجنين بأمه.

واتفق الاثنان على قطع الخيط.. وعلى أن يتباعدا.. وألا يفكر الواحد منهما فى الآخر.. وألا يتحدث عنه.. وأن يمسحه من ماضيه.. وأن يفقد ذاكرته.. وأن يبدأ حياته بعد قطع هذه العلاقة. وإذا رأى الواحد منهما الآخر فى الطريق.. فلا يجب أن يحييه.. وإنما يتجاهله.. وأن يتعود هذا التجاهل. حتى يصبح التجاهل جهلاً.. والتعود عادة.. وأنزل كل منهما سماعة التليفون.. وسحب هو الغطاء على وجهه ونام. وسحبت هى غطاء من الدموع على وجهها. ونامت الدموع ولم تنم هى.. إنها لم ترد أن تبكى. ولكن الدموع نزلت وحدها. من أين؟ ولماذا؟ كأن هذه الدموع تريد أن تجرى وراءه.. أن تتعلق به.. أن ترده إليها.. أن تجعل المسافة البعيدة بينهما.. قناة ملاحية. أو كأنها أرادت أن تطفئ النار فى صدرها.. النار التى اشتعلت فى قلبها. ولكن الدموع حارة.. ملتهبة هى الأخرى. إن النار فى صدرها قد تحولت إلى بخار.. والبخار قد تقاطر وأصبح دمعًا.

وكان الاتفاق بينهما هو أن يحتفل الاثنان بهذا الوداع الطويل.. أو بهذا الانفصال.. أو بهذا الطلاق. إنه طلاق لأنه كان زواجًا روحيًا.. وهذا هو الزواج الحقيقى.. وهناك ملايين الأزواج قد وقفوا جميعًا أمام المأذون.. وامتدت أيديهم ووقعوا وثيقة الزواج. والحقيقة أنها وثيقة طلاق.. نعم لقد عاشوا جميعًا فى بيت واحد.. فى غرفة واحدة.. فى سرير واحد.. بل فى جانب من سرير واحد.. ومع ذلك كانت قلوبهم جميعًا فى أماكن أخرى.

فالزواج هو زواج القلب.. وليس زواج الجسد.. وكانا زوجين.. وكان المأذون هو الحب.. وهو المأذون الذى لا يراه أحد.. ولا يحتاج إلى شهادة الشهود.. ولا موافقة الأب أو الأم.. أو الدين أو الدولة.

كان زواجًا روحيًا.. وكان الاتفاق أن يتم الطلاق بينهما كما تم الزواج.. كانا لابد أن يلتقيا وكأنهما اثنان من الجنود.. يقفان على جانبى خط الهدنة.. كان يجب أن يتصافحا بلا تعانق.. وأن يمد كل منهما يده للآخر.. يعطيه صوره وخطاباته وهداياه.

وقالت لى:

تصور هذا يحدث .. تصور.. إننى لا أستطيع أن أتصور هذا.. إننى لم أستطع أن أنظر إلى وجهه.. أن أنظر إلى عينيه وشفتيه. هل هذا ممكن هل هذا حقيقى.. إنه يمثل.. إنه يهزل.. لماذا لم يقتلنى.. لماذا لم يضربنى بالرصاص. لقد طلبت منه ذلك. طلبت منه أن يقتلنى فإننى عشت من أجله. وتمنيت أن أموت بيده. إننى أفضل الموت بيده أيضًا.. تصور هذا الوجه يكذب.. هذا الابتسام خداع. هل هذا ممكن.. حرام.. حرام.. كل هذا دفعة واحدة: حرام وأتحمل أنا هذا وحدى..

وجلس الاثنان وجهًا لوجه. وعلى حافة النيل. وهى لا تدرى بشىء. ولا تعرف إن كانت على الأرض أو على السحاب..

كيف يمكن أن يحدث هذا كله.. ولكنه حدث..

امتدت يد الشاب وأخرج من جيبه خطابات.. زرقاء.. وصورًا.. ونزع من يده ساعة.. ووضع آلة تصوير بالقرب من الساعة.. وفتح حافظة نقوده.. وأخرج صورة صغيرة لهما قد أخذت بالقرب من الهرم. وأغمى على الفتاة. وعندما أفاقت بعد أيام قالت لى: هل يمكن أن تتصور أننى كنت أشعر أننى أتمزق قطعة قطعة.. كلما أخرج من جيبه ورقة أو صورة.. أحسست أنه نزع قلبى.. فهو ينزع قلبى من جيبه الشمال.. وعقلى من جيبه اليمين.. لقد كنت أعيش فيه.. وهو الآن يطردنى عضوًا عضوًا.. كأننى أحد السكان فى عمارة.. وكأنه صاحب البيت.. وكأننى لم أدفع الإيجار عشر سنوات. فليس أمام صاحب البيت إلا أن يلقى بأثاث بيتى من النوافذ.. تصور أن هذا الأثاث هو أنا.. أنا السرير.. أنا المقعد.. أنا الوسادة اللينة.

ثم أنا الخادمة التى تحرص على هدوء هذا البيت. لم يعد لى شىء الآن.. ولا بعد الآن. وبعد هذا كله.. إنها لا تعرف ماذا حدث أثناء هذا كله. ولا قبل هذا ولا بعده. إنها فى دوامة. إن الدنيا كلها تدور حولها. وتميل بها يمينًا وشمالاً. إنها تغمض عينيها حتى لا تقع على الأرض. مع أنها واقعة على الأرض. بل تحت الأرض. بل أصيبت بهذيان.. لقد نظرت تحت قدميها فوجدت قطة سوداء..

فصرخت وارتمت على المنضدة.. لقد تصورت أن هذه القطة هى قلبها.. وأن قلبها هرب منها. إنها تريد هذا القلب .. إنه خزانة أسرارها وحياتها. ليس لها مستقبل ولكن لها ماض. إنها لا تريد شيئًا أكثر مما عندها. وإنما تريد أن تحتفظ بما لديها. ومنذ اليوم ستقول فى يوم من الأيام كان لى قلب.. ولى حب.. وكان لى شباب وشاب.

كانت الكلمة الواحدة معناها دنيا جديدة.. كلمة واحدة منه تكفى.. بل الحرف الأول من أية كلمة يكفى.. إننى أؤمن بأن الله قد خلق العالم بكلمة واحدة. فعندما قال له: كن.. كان هذا العالم. لقد كان حبيبى يقول لى أى كلام كنت أصدقه. وكنت أحوله إلى روايات.. وقصص أعيش عليها. الكلمة ترفع ستارًا ووراء الستار قصة تنقلنى من يقظتى إلى أحلامى. إلى يقظة أخرى وأحلام لا نهاية لها.. إننى لم أعد أسمع هذا الكلام. ولن أسمعه. انتهى كل شىء..

ولم ينته فى الحقيقة أى شىء..

إنه لم يساعدها على أن تنساه.. لم يساعدها على أن تكرهه.. على أن تلعنه.. على أن تجد سببا معقولاً لهذا الطلاق أبدًا.. لماذا بقى مهذبا حتى النهاية.. لماذا لم يكن وقحًا. بل لماذا لم يكن مجرمًا.. لماذا لم يلق بالصور والخطابات فى وجهها.. لماذا لم يسخر منها أمام الناس.. لماذا لم يجمع كل ما لديه ويرميه فى النيل. لم يفعل شيئًا من هذا..

وإنما كان يبتسم وكأنه أحد السفراء.. يقدم أوراق اعتماده إلى رئيس دولة جديدة. حتى الابتسام احتفظ به. ولكنها استطاعت أن تتأمل ابتسامته.. إن وجهه أبيض.. لايزال أبيض.. إن عينيه صافيتان.. لم تعرفا السهر ولا الدموع.. ولا الأرق.. لم تسهرا أبدًا من أجل أحد.

لقد نام أمس طوال الليل.. بينما هى لم تعرف النوم.. لا أمس ولا قبل أمس بعشرات الأمسيات.. وابتسامته تملأ كل وجهه.. ولكنها لم تر وجهه جميلاً ولا ابتسامته جميلة.. إنها رأت البياض والحمار فى وجهه.. كأنها بقع من الدم على منديل أبيض.. سقط من يد مجرم.. نعم من يد مجرم.. وأنه هو المجرم.. وهذا المنديل الأبيض هو حياتها.. هى الصافية النقية. وهذه الدماء هى الماضى الأليم الذى تركته فى حياتها.. دماء لا تغسلها مياه؛ لأنها دماء فى أعماقها. دماء تنزف فى مكان لا تصله الأيدى ولا الماء.. ولا الصابون.. دماء فى قلبها.. إنه مجرم.

ولكن حتى هذه الكلمات لم تستطع أن تقولها.. إنها تبكى على أدبه ورقته. وتقول لى: ليته كان وقحًا معى.. ليته ضربنى.. ليته طردنى.. بل ليته قتلنى. إنه علقنى بين الحياة والموت.. إننى الآن كالذى يجلس على الكرسى الكهربائى.. ينتظر الموت..

وابتسامته.. هذه هى الأمل الوحيد فى أن أموت.. إنها الكهرباء التى ستنتقل من الأسلاك إلى الكرسى الذى أجلس عليه. وصدمة واحدة.. أتحول بعدها إلى اللون الأسود.. الذى ملأ خطاباتى له..

ولم تنته هذه العلاقة.. وكيف تنتهى؟

كأنها خاصمت الهواء وغضبت من الماء.. ولكن كيف تهرب من الهواء.. وتستغنى عن الماء.. إنها تستطيع أن تحبس نفسها عن الشارع.. عن الحدائق.. عن دور السينما.. عن المطاعم.. عن الملاهى.

حيث الهواء دافئ، ملوث بالدخان والعطر.. وتبقى وحدها فى البيت.. حيث الهواء أيضًا..

لم ينته أى شىء.. بل بدأ شىء جديد.. إن الحب كان يملأ حياتها.. يملأ حياتها كلها.. إنها لم تكن تتصور أبدًا ذلك..

لقد كانت تتصور أن الحب هو الفستان.. الفستان «المحزق» على حياتها.. إنه يضم حياتها ويضغط عليها. ولكن اكتشفت أن الحب هو الجسم.. وليس الفستان وأنها بلا جسم. وأن فساتينها ليست إلا الغلاف الخارجى لحبها.. ليست إلا الغلاف الغازى الذى يحيط بالأرض.

ولم تكن تتصور أن هذا الطلاق الروحى سيشمل حياتها.. كانت تتصور أنه يحطم قلبها.. ويدوخ عقلها.. فقط.. أما بقية حياتها فستمشى عادية دون أن يدرى بها أحد.

ولكن حدث ما يحدث أيام الغارات الجوية.. والانفجارات.. فالقنابل عندما تسقط فى مكان تتحطم فيه البيوت.. وتنتقل الشظايا إلى بيوت أخرى. بل إن هناك بيوتًا بعيدة جدًا. لا تصلها الشظايا ولا القنابل، تتحطم وتنهار وتطير أبوابها.. ونوافذها.. لماذا؟

لأن الانفجار قد سحب الهواء من الأماكن البعيدة.. واندفع الهواء يلبى نداء النار والدمار.. ويشد وراءه الأبواب والنوافذ.

شيء كهذا حدث لها:

الدموع وضغط الدم. والكبد.. والإضراب عن الطعام.. والأقراص المنومة.. والهذيان والانتحار..

ثم إحساس غريب جدًّا..

هذا الإحساس بدأ يغمرها، ويدفعها إلى أى اتجاه.. كأنها زورق قد انقطع الحبل الذى يربطه بالشاطئ. فأية موجة تضربه.. وأى شاطئ يصده.. وأى عصفور يهبط عليه.. أى شيء وأى إنسان.. وأى وقت وأى كلام.. كل الناس ككل الناس..

لا معنى لهم ولا قيمة..

إنها الآن تشعر بالحرية المطلقة.. كأنها فقدت شهادة ميلادها.. وجواز سفرها.. ووظيفتها. وليس لها حق الانتخاب. لم تعد مواطنة مصرية.. ولا مواطنة فى أى بلد. بل لم تعد أختًا ولا بنتًا لأحد. إنها لم تعد تشعر بأنها ذكر أو أنثى.. إنها أصبحت لا شيء.. فقد كان حبها كل شيء.. ولم يعد لها أى شيء.. لا الاسم ولا اللقب ولا الوطن.. وهى اليوم بلا مشاكل؛ لأنها فقدت العقل الذى تشعر به.. والقلب الذى تحس به. إنها حرة من هذه القيود جميعًا.

أنا أعتقد أنها سعيدة.. فالسعداء هم الذين لا يمشون على ساقين اسمهما: العقل.. والقلب..

وإنما الذين يطيرون أو ينزلقون على الحياة.. بلا قيود ولا حواجز. إن أعظم وأروع تجربة فى الدنيا هى تجربة الحب الذى لا ينجح.

□ □ □

خرجت ولم تعد

بدون سابق إنذار خرجت زوجتى من البيت ولم تعد منذ ستة شهور. لم أفهم لماذا فعلت ذلك. لا أدرى أى شىء دفعها إلى هذا التصرف العجيب. ما الذى أغضبها. وإذا كان هناك شىء فلماذا لم تقل كلمة واحدة.. لقد عشنا معًا سنتين كاملتين بلا خوف ولا شجار. لقد هربت زوجتى من البيت وجمعت أشياءها كأنها خادمة وجدت فرصة لأجر أحسن فى بيت آخر.

وفى ذلك اليوم ذهبت إلى السوق. وأنا أحب الذهاب إلى السوق لأشترى كل شىء بنفسى.. فأنا أحب البيع والشراء والمساومة.. وأحب أن أعرف أسعار كل شىء.. وأنا أفهم فى اللحوم والطيور والفواكه..

واشتريت فى هذا اليوم حبلاً لستارة غرفة الطعام، وتنقلت بين عشرات المحلات لكى أجد الحبل الملائم بالسعر الملائم. وعند الظهر عدت إلى البيت واتجهت توًا إلى غرفة الطعام وقارنت بين لون الحبل ولون الستارة. ولاحظت أن على مفرش المائدة خطابًا ودواة وقلمًا وبقعة من الحبر. ومددت يدى بحكم العادة ونزعت المفرش وحملته إلى المطبخ وعصرت عليه بعض الليمون وغسلته بالماء.. ثم وضعته على المائدة بعد زوال البقعة وتذكرت الخطاب ووجدته موجهًا لى وفتحته ووجدت صاحبته هى زوجتى إنها تقول:

أعددت لك كل شىء.. ونظفت لك البيت.. وأنا ذاهبة إلى أمى.

ومرت لحظات دون أن أفهم شيئا.. ماذا حدث؟

ولماذا ذهبت إلى أمها؟ ولماذا لم تذكر السبب؟ وبحكم العادة أيضًا أمسكت الخطاب ووضعته فى درج المكتب.. وبدأت أفكر.. ولكننى لم أصل إلى شىء..

***

ووضعت قبعتى على رأسى وخرجت إلى الشارع، وفى الطريق جعلت أستعرض حياتى مع زوجتى: ما الذى فعلته لها حتى تتركنى هكذا.. وبصورة

قاسية. وفكرت فى عيوبى.. كأن أكون خائنًا لها.. أو حتى أبسط العيوب.. فلم أجد شيئًا..

وقلت لنفسى: ليس هناك أى عيب.. فأنا لم أكن مفتونًا بالنساء أبدًا.. فأنا لا أفهم المرأة ولا المرأة تفهمنى.. ومنذ تزوجت لم يعد للمرأة أى مكان فى حياتى.. لدرجة أن زوجتى كانت تحيرنى عندما تقول لى: افرض أنك أحببت امرأة أخرى.. ويكون ردى دائما: مستحيل.. إننى لا أحب سواك.. وسيبقى هذا الشعور مدى الحياة!

ورنت عبارة «مدى الحياة» فى أذنى، وتذكرت أن هذا الرد لم يسعدها.. بل على العكس رأيت على وجهها بعض القلق ورأيتها تلتزم الصمت. وعدت إلى التفكير مرة أخرى.. وساءلت نفسى عما إذا كان السبب هو النقود.. هل أنا بخيل معها؟.. أبدًا!.. إننى ألبى كل طلباتها.. والحقيقة أننى لست سخيًا جدًا معها.. وأعتقد أنها ليست فى حاجة إلى مال.. وحتى لو طلبت منى فأنا على استعداد لأن أعطيها أى شىء.. كما أننى لم أكن قاسيًا عليها أبدًا.. فنحن نذهب إلى السينما مرتين فى الأسبوع.. وإلى النادى مرتين فى الأسبوع.. نتناول الچيلاتى أو القهوة.. ونشترى مجلتين مصورتين فى الشهر.. ونشترى صحيفة يومية.. وفى الشتاء نذهب إلى المسارح.. وفى إجازة الصيف نسافر إلى شاطئ البحر..

وفيما يتعلق بالملابس فلا مجال للشكوى إطلاقا!

وعندما تحتاج زوجتى إلى ملابس، أو جوارب أو مناديل فأنا على استعداد دائمًا.. وأذهب معها إلى المحلات، وأعاونها على اختيار ما تريد.. وأدفع ثمن كل شىء بلا ضجة وبلا احتجاج. ولم أناقشها مرة واحدة فى الأسعار أو فى التردد على عشرات المحلات التى تصر عليها!

ويجب أن أقول إنه بعد السنة الأولى من زواجنا لم تحتج زوجتى إلى فساتين، وإنما كنت أنا الذى أذكرها بحاجاتها إلى هذا أو ذاك. وكانت تقول إن لديها الملابس من العام الماضى، فلا داعى لشراء ملابس جديدة.. وإنها مختلفة فى ذلك عن كل النساء، إنها لا تهتم بالملابس!

ومعنى ذلك أنه ليست هناك متاعب عاطفية أو مالية.. ولكن هناك ما يسميه علماء النفس: عدم توافق الأمزجة..

والآن أسأل نفسى: ولكن ما معنى هذا التعبير بالنسبة لنا؟ فنحن لم نتشاجر مرة واحدة فى خلال سنتين.. وإنما كنا دائما على وفاق. ولو كان هناك عدم

توافق بيننا لظهر فى تصرفاتنا.. غير أن زوجتى لم تعارضنى.. أبدًا.. كما أنها لم تكن تتكلم كثيرًا.. وعندما كنا نجلس ليلاً فى النادى أو فى البيت لم تكن تفتح فمها إلا نادرًا، بل كنت أنا الذى يتحدث طوال الوقت.. وأنا لا أنكر هذا، فأنا أحب الكلام، وأحب أن أستمع إلى نفسى وأنا أتكلم، وخصوصًا إذا كان الشخص الذى أتكلم إليه حبيبًا إلى نفسى.. وطريقتى هادئة وصوتى لا يعلو ولا ينخفض وإنما ينساب بصورة معقولة.. وإذا هاجمت شيئًا مزقته من أعلاه ومن أسفله ومن كل ناحية. والأشياء التى أحب الكلام عنها هى الأشياء المنزلية.. وأحب أن أتحدث عن أسعار الحاجيات، عن ترتيب أثاث البيت، عن المطبخ، عن التدفئة. إلى آخر هذه الأمور.. ولا أتعب أبدًا من الكلام عن هذه الأشياء، وأجد متعة كبرى عندما أعيد وأزيد وأضيف حججًا جديدة.. ولنكن منصفين، فإن هذه الموضوعات هى التى يمكن أن تتناقش فيها مع امرأة!!

وكان من عادة زوجتى أن تستمع إلىّ باهتمام، أو هكذا كان يبدو لى. وحدث مرة واحدة عندما كنت أشرح لها تركيب السخان الكهربى، وكيف يعمل، اكتشفت أنها ذهبت لتنام.. فأيقظتها قائلا: هل مللت هذا الكلام؟.. فأجابت: لا. وإنما أنا متعبة، لم أنم جيدًا ليلة أمس..

فالأزواج عادة لهم بعض الأصدقاء يخرجون معهم للنزهة. أما أنا فأصدقائى هم جميعًا زوجتى.. لا أتركها لحظة واحدة، وإنما ألازمها دائمًا، حتى عندما تطبخ زوجتى.. فأنا أحب المطبخ، ومن عادتى أن ألبس الفوطة وأدخل المطبخ لأساعدها لأنى قادر على عمل أى شىء.. أقشر البطاطس، والفول، وأعد السلطة، وأعصر الطماطم.. وأساعدها.. كثيرا ما كانت زوجتى تقول لى: اصنع هذا أو ذاك فعندى صداع وأريد أن أنام. فأذهب إلى المطبخ، وأستعين بكتاب الطهى وأخترع أطباقًا جديدة!

ومن المؤسف أن زوجتى لم تكن لها شهية جيدة للطعام، وقد تخلت عنها شهيتها نهائيًا أخيرا لدرجة أنها لم تكن تمد يدها إلى أى طعام.

.. وأذكر أنها فى إحدى المرات قالت لى – على سبيل الفكاهة طبعا –: من المؤسف أنك ولدت رجلاً، فأنت ست بيت من الدرجة الأولى!

وكما قلت من قبل إننى لا أتركها أبدا، ولا حتى عندما تزور صديقاتها أو أمها.. ولا حتى عندما تذهب لتتعلم اللغة الإنجليزية.. لأننى مرتبط بها أشد

الارتباط لدرجة مضحكة.. فمرة، ونحن فى المقهى، نهضت زوجتى ونهضت وسرت وراءها، ووقفت وراءها ولم أسمعها وهى تقول بصوت منخفض: هذه دورة مياه السيدات!!

وفى الحقيقة لم نكن ننفصل على الإطلاق!

وظللت أفكر فى هذه الأشياء طوال الطريق، حتى قادتنى قدماى إلى دكان أبى. وهو محل لبيع الأشياء النادرة. وأبى رجل مازال شابًا.. شعره أسود، وتحت شاربه ابتسامة لم أفهمها أبدًا، وربما سببها أنه تعود التعامل مع الناس الطيبين.. ولذلك فهو لطيف ومهذب.

وأمى التى تعرفه جيدا تقول:

– إنه يخفى أعصابه بعيدًا فى أعماقه!

ودخلت المحل.. ودخلت الغرفة التى تقع فى الخلف حيث يوجد مكتب والدى ووجدته يكتب فى دفتر الحسابات ويلعب فى شاربه، وينظر لى بعدم اهتمام.. ولم أكد أراه حتى قلت له وأنا ألهث: أبى، إن زوجتى تركتنى.

فتطلع إلى وجهى وهو يبتسم وقال: لكن كيف حدث هذا؟!..

ورويت له القصة بتفاصيلها، وقلت له: إننى مضطرب، حائر لا أعرف السبب الذى من أجله تركتنى زوجتى..

وقال أبى متحيرًا: وأنت لا تفهم السبب؟ فقلت: لا..

ولزم الصمت لحظة ثم قال متنهدًا: ولدى إننى آسف.. ولا أدرى ماذا أقول لك.. فأنت ولدى وأنا أعاونك وأحبك، ولكن زوجتك هذه من شئونك الخاصة..

فقلت: هذا صحيح، ولكن لماذا تركتنى؟

وهز أبى رأسه قائلاً: لو كنت فى مكانك لما فكرت فى الأمر طويلاً وعميقًا.. دعها.. فما يجدى لو عرفت السبب..

وقلت: إن الأمر مهم جدًا.. أكثر من أى شىء فى الدنيا.

.. وفى هذه اللحظة دخل اثنان من الزبائن.. ونهض أبى، وذهب للقائهما قائلا: تعال فيما بعد، لنتحدث فى ذلك.. إننى مشغول الآن..

ولم يكن بيت حماتى بعيدًا عن هذا المكان. وفكرت فى أنها هى وحدها التى تستطيع أن تفسر لى خروج زوجتى من بيتى.. وذهبت إلى هناك، وصعدت الدرج، وأدخلونى فى الصالون، وبدلا من أن تجىء زوجتى، جاءت أمها. وهى الأخرى

تملك محلاً تجاريًا، وهى امرأة لا تحتمل.. شعرها مصبوغ أسود، ووجنتاها فى لون الزهر وابتسامتها كريهة مصطنعة.. وترتدى فستانًا له بلوزة حمراء.

وعندما رأتنى قالت بتودد كاذب: ماذا تصنع هنا؟

فقلت: أنت تعرفين لماذا جئت.. فزوجتى تركتنى..

فقالت: نعم هى هنا يا ولدى العزيز. فما الذى أستطيع أن أفعله لك إنها أشياء تحدث فى كل بيت!

فقلت: أهذا هو كل ما عندك من إجابة؟

ونظرت إلىَّ طويلاً ثم سألتنى: هل أخبرت والديك بشىء؟

– نعم قلت لأبى.

– وماذا قال لك؟

– أنت تعرفين ماذا يقوله والدى عادة.. فقد قال لى إنه لا داعى لأن أهتم كثيرًا بهذا الأمر.

– إنه على حق يا ولدى العزيز، لا تذهب بعيدًا فى تفكيرك.

– ولكن قولى لى بحق، لماذا تركتنى؟ ماذا فعلت لها؟ لماذا لا تخبريننى؟!

وبينما أنا أتحدث إليها غاضبا، وقعت عيناى على المنضدة.. وكانت مغطاة بمفرش، وعلى المفرش زهرية ليست فى المكان اللائق.. ودون تفكير نظرت إليها ووضعتها فى منتصف المائدة.

فقالت: براڤو عليك! أنا لم ألاحظ ذلك ولكنك لمحتها بسهولة.. تستطيع الآن أن تذهب يا ولدى!

ونهضت هى ونهضت أنا أيضًا، وأردت أن أسألها إذا كان من الممكن أن أرى زوجتى.

ولكن عرفت أن هذا مستحيل.

وكنت خائفا من أن أرى زوجتى وأفقد وعيى، وأتهور فأقول كلامًا سخيفًا..

وخرجت، ومنذ ذلك اليوم لم أر زوجتى، وربما تعود فى بعض الأيام عندما تتأكد أنه ليس من السهل أن تجد زوجًا مثلى ولكنها لن تدخل عتبة هذا البيت ما لم تفسر لى لماذا تركتنى؟!

إننى فى حيرة شديدة. لا أعرف لها سببًا معقولاً!

□ □ □

بفلوس

.. لأسباب لا أعرفها بوضوح.. قررت أن أتزوج فتاة أصغر منى بعشرين عامًا.. لم أرها بوضوح.. ولكن رأيتها فى الشارع. حاولت أن أعاكسها فلم ترد. أو أنها استجابت لمعاكستى.. وشعرت بشىء عابر. ربما كان نسمة سعادة. وزمان كانت السعادة عندى كالرياح.. عاصفة.. كانت تشيلنى وتهبدنى.. ولكن الذى لمسته عندما ابتسمت هذه الفتاة.. كان كالإبر.. المصنوعة من الحرير. كانت كشىء يخربشنى برفق.. شىء يخربشنى بأظافر من المطاط.. يخربشنى على سرير هزاز.. تحت شجرة فى حديقة واسعة.. أملكها أو أتخيل نفسى أملكها. هذا ما حدث.

وفجأة أحسست أن هذه الإبرة من مادة أصلب من المطاط.. من مادة أصلب من الحديد.. الذى يلتف حوله المطاط.. فى السيارات.. وذلك عندما نظرت هذه الفتاة.. وهى تبتسم ابتسامة عريضة.. ثم تحولت إلى ابتسامة ضيقة مختصرة.. معتذرة. أقول عندما نظرت إلى الشعر الأبيض فى رأسى.. نظرت إلى شىء أحاول أن أنساه.. هذه الأيام. فعندما يصل الإنسان إلى مثل سنى.. يحاول أن ينسى شهادة ميلاده. أى ينسى متى ولد. ويتفادى أن يقابل كل زملائه. فإنه عندما ينظر إلى زملائه.. يرى بالضبط كم بلغ من العمر.. ومنذ أيام قابلت صديقا لى فى الأسانسير.. ورأيت صورته ورأى صورتى.. وكدت أرقع بالصوت.. وأقول: يا دهوتى.. راحت علينا..

ولكنى حاولت أن أبدد هذا الصوت المكتوم.. فشددت على يده بقوة.. قوة شابة. وهو لاحظ ذلك فكاد يكسر أصابعى.. وأنا لاحظت ذلك فقاومت ونزل الدم من أصابعنا.. وضحكنا ضحكات فاضحة .. فاضحة لخداعنا لأنفسنا..

لقد كبرنا واللى كان كان..

ولهذه ولأسباب أخرى ربما كان الدافع لها أن هذه الفتاة التى أتحدث عنها.. لم تحترم منظرى بما فيه الكفاية.. وربما لأنها قاومت ولأن مقاومتها جعلتنى

أشعر لأول مرة أن هناك مسافة بينى وبينها.. أن هناك حاجزًا.. وأن هذا الحاجز غليظ ومتين.. وأن هذا الحاجز مكتوب عليه بحروف من نار وواضحة لكل إنسان.. شهادة ميلاد حضرتك.. أى حضرتى أنا..

ولكن شيئًا فى داخلى قال: إن هذه الفتاة لك.. ولم أسأل نفسى عن هذا الشىء أو عن هذا الصوت. إن كان صوتى أنا أو صوت ضميرى.. أو صوت الشيطان.. أو أنه صوت واحد يركب أكتاف مجموعة من الناس لا أعرفهم فى مظاهرة كبرى هى خلاصة فشلى فى الحياة والحب. لا أعرف ولكنه صوت غليظ. وأصابع غليظة.. ويدفعنى من الداخل ويدفعنى بشىء من الجهل. ولذلك تعثرت وأنا أتجه إليها وأمد لها يدى. وكانت يدى مبللة بكسوفى. ولا أعرف لماذا يكون كسوفى مبللا هكذا.. لماذا لا يكون أصفر اللون أو أحمر اللون. هناك أناس كسوفهم له صوت.. وأناس كسوفهم له عرق.. وأناس كسوفهم له لون.. وأعتقد أننى هذه الأنواع كلها..

فعندما رأيت هذه الفتاة انكسفت منها بصورة ملونة.. وانكسفت من صديقتها التى تكبرها بصورة مبللة.. وانكسفت من صديقى الذى كان معى بصورة صارخة.. ورغم هذا كله مددت لها يدى.. ومددتها أيضا لوالدها.. الذى هو أكبر منى ببضع سنوات والرجل طيب ومتدين.. وهو يعرف أن الله قد هدانى وأننى أعود إلى بيتى فى ساعة مبكرة وأننى أقرأ.. وأننى فى الأيام الأخيرة كثير البكاء أو أكاد أصل إلى البكاء.. وأننى كثيرًا ما أشكر الله الذى أعطانى القدرة على أن أدخل السعادة على الناس الذين أحبهم وأننى يجب أن أتحول من عصفور بلا عش إلى طائر له عش.. وهذا الصديق رغم أن ابنته صغيرة وحلوة وشابة.. ولا تزال على وش الربيع وأنا على وش الخريف أو التخريف.. فإنه يرى أن الصديق يجب أن يضحى من أجل صديقه.. أن يضحى بابنة السادسة عشر عامًا ويلقى بها بين من يكبرها بعشرين عاما. وسألنى أبوها: تاب الله عليك..

قلت: إيه رأيك؟

– أنا أرى هذا وأنا كنت على يقين أن هذه نهايتك..

– تسميها نهاية تماما كالموت.

– إذا كانت كلمة النهاية لا تعجبك.. إذن ليكن اسمها بداية.

– أنا لا أتضايق من تسميتها نهاية.. أبدا.. إننى أسأل هل هى نهاية فعلا لحياة لا أعرف لها معنى واضحًا؟ وهل هى بداية لحياة لا أعرف لها معنى أيضًا؟

لم يكن عندى وقت لأفكر فى نفسى.. وليست عندى رغبة فى أن أفكر فيها.. إننى أعيش خارجى.. إننى أمد مشاعرى إلى الخارج.. وأكبش من هموم الناس.. وأعود إلى نفسى وتتقلب معى متاعب الناس الذين أعرفهم والذين أقرأ عنهم وأتبنى قصص الناس وأربى أحزان الناس وأنفق عليها وأعيش منها.. وأعيش لها.. ولا أعرف ما الذى سيحدث بعد ذلك.

– اطمئن.. إن ابنتى قادرة على أن تقلب لك حياتك إلى جنة ونار.

أعوذ بالله..

– ستجعل النار وراءك.. والجنة أمامك.

– ولكنى كبير.

– إنها الموضة.

– أعرف أن الموضة أن تتزوج الفتاة رجلا أكبر.. وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك تتزوج!

– تتزوجه هو..

– تقصد أنها تستمر فى الزواج منه.

– طبعا الزواج مجهود متواصل. إن أحدا لا يتزوج أحدا مدى الحياة. إن وثيقة الزواج عقد تجدده المتاعب والمشاكل.. والخلاف والوفاق والصلح والخصام والأولاد.

وكلام آخر دار بينى وبين والدها.. ولأسباب غير واضحة أيضا هرشت شعر رأسى.. وعلى فكرة كان فى رأسى شعر كثير ولكنه الآن سقط.. وليست لسقوط الشعر أية علاقة بتقدمى فى السن ولا علاقة بحيويتى.. فأنا من هذه الناحية إيدك والأرض.. وأنا عندما قابلت أحد أصدقائى من الأطباء.. وسألته عن سر هذا الضعف قال لى: اسمع.. أنت تعرف أكثر من غيرك.. وسألته وكأننى مريض لا يعرف شيئًا فى الطب. وعلى فرض أننى طبيب عيون فإننى أفهم المبادئ الأولية فى نظام الجسم. وقلت له: يعنى إيه.. عاوز تقول مفيش فايدة.. يعنى مفيش داعى للزواج، لا يمكن إن شاء الله كده أربع سنين. وقال لى الدكتور: إذن لازم تغير رأيك.

سألته وأنا لا أفهم: فعلا ماذا يقصد.. تقصد أنه لا داعى لأن أتزوج؟ أنت مجنون..

فأجاب: أقصد أنصحك أن تتزوج سيدة فى سنك.. أو أكبر منك قليلا.. لست أول عاقل ولا آخر مجنون.

وضايقنى الدكتور بكلامه وقلت: لن أكون آخر عاقل ولا آخر مجنون.. لابد .. لن أتراجع .. إننى أستطيع بشكل ما أن أكون زوجا.. إننى أستطيع أن أجعل زوجتى الشابة.. أشيك فتاة فى مصر.. لن تستطيع أى فتاة أخرى من صديقاتها اللاتى تزوجن شبابا صغارا ذوى دخل محدود، أن يشتروا لها الفساتين الأنيقة ولا السيارات الكبيرة ولا الأثاث الفخم.. ولا الخواتم.. لا شىء من هذا. وأنا أعرف المرأة تفضل الرجل الذى يعطيها المظهر اللى يجنن على الشاب الذى يقبلها طوال الليل.. ثم يجعلها تبدو بالنهار أمام الناس وكأنها مضروبة ألف شلوت. إن الفستان المبهدل أو الرخيص أكثر من ألف شلوت.. أنا أعرف ذلك بتجربتى مع النساء وهذه التجارب أنا أعرفها.. ولابد أن والدها قد روى لها الكثير عن شقاوتى.. وأنا أحتاج إلى هذه السمعة؛ لأنها مظاهرة حارة تسبقنى إلى البيت.. إلى قلب الفتاة الصغيرة. أما إذا كانت هذه الفتاة لن تنبهر بسمعتى واسمى وفلوسى.. فأنا قادر طبعًا.. قادر على أن أكسر أنفها.. عندى عشرات الطرق.. أستطيع أن أحرمها من الفلوس.. أحرمها من الفساتين.. أقطع رجل صديقاتها. يجب أن أجعلها تتعود على المظهر.. على الحفلات.. حتى إذا منعتها من الظهور إذا منعت عنها الناس الذين يقولون لها: إيه الأبهة دى.. إيه الشياكة دى.. أنت أشيك واحدة فى العيلة. حتى إذا منعت عنها هذه الكلمات فإنها ستركع عند قدمى. وفى هذه اللحظة أملى شروطى. أنا راجل صاحب تجارب.. وهى عصفور صغير وقع فى مصيدتى.. فى شبكتى.

ويدور بينى وبين نفسى هذا الحديث السخيف.. الذى لا أعرف له سببا.. والذى لم أحاول أن أعرف لماذا يدور.. لماذا لا يتوقف.. لماذا لا يتغير.. ولماذا هو بايخ هكذا.. سؤال: وأنت عاوز تعذب البنت دى ليه.. عملت لك إيه.. بينك وبينها إيه.. يا بايخ.. دى فى سن بنتك.. مالك ومالها.. صعبان عليك إن واحدة تفرح بشبابها.. وأنت يا عجوز يا كندوز.. يا أبو مناخير زى الكوز.. يا أصلع.. يا أقرع.. يا دكتور عيون.. يا أعمى.. ليه مفرحتش بشبابك.. بس عمال تحوش فلوس.. فلوس.. فلوس.. تبنى بيوت وتبيع بيوت وتهد بيوت.. تاجر.. فاجر. ما بلاش.. طب يا أخى اشتغل مقاول أحسن لك.. وأنت تطلع عنين الناس بدل ما تفتح عنيهم علشان يشوفوا الناس المعقدين من البشرية اللى زى حضرتك. ويكون الجواب أحيانا انكبس ولا أعرف كيف أرد. ولا ما الذى أقوله وأكتفى بأن أهز رأسى وأمصمص شفتى كأننى

موافق على كل هذا الكلام.. الذى أسمعه.. ويحرجنى ويوجعنى.. من أول رأسى حتى أطراف قدمى.. وخصوصا فى بطنى.. ثم أفتح فمى. وأقول: لازم أعمل حاجة زى كده. يعنى ما ليش نفس أعيش. يعنى أموت. افرض يا أخى أنى غلطان.. نسيت أتجوز.. نسيت أعيش يا أخى.. خلاص كفرت.. افرض أنى كفرت.. وعاوز أتوب.. وأنت تتصور أن الجواز ده مش عقوبة.. طبعا تأديب.. بهدلة.. سؤال: بتقول بهدلة؟! وأنت إيه يا أخى زنقك على البهدلة.. ما تخليك كويس.. خليك حر نفسك.. أنا لو منك.. أنا أجيب أجمل بنات الدنيا وأشغلهم خدامين فى بيتى.. فى فيلا أبنيها لنفسى.. أجيب خادمات من سويسرا يغسلوا رجليك اللى زى الطين.. يحطوا ماء الياسمين على قرعتك.. يعموا عنيك بماء الورد.. ويشيلوا طقم أسنانك.. ويحطوا بدله طقم من الذهب والفضة.. السنان ذهب والضروس من فضة.. وتجيب لك بنت واحدة وتربطها بالسلاسل فى الأرض وتخليها تعيش خدامة لك.. ولا أحد حيسألك.. وبالشكل ده تنتقم من الناس كلها.. وتحرم هذه البنت من أنها تعيش.. من أنها تتجوز أى راجل.. وتفضل طول عمرها خدامتك.. أنت وأولادك. طبعا حيكون عندك أولاد منها. فأنت يادوبك تقدر تبقى أب لأولاد كام سنة كده.. وبعدين احنا عارفين. جواب: ولا كلمة أقدر أقولها.. حاقول لنفسى إيه.. طبعا أسكت وببرود غريب وصفاقة منقطعة النظير.. هذا رأيى فى نفسى. وبعد ذلك أذهب وأفتح النافذة حتى يتبدد هذا الكلام أو يخرج من أنفى أو يخرج صداه من المكان الذى أجلس فيه.

وبعد ذلك قررت أن أزور والدها وأناقشه من جديد.. وذهبت إلى والدها.. وعلى الباب قابلتنى الفتاة.. ياخبر يا ناس.. حلوة.. عنيها إيه.. وجهها إيه.. وابتسامتها إيه.. وعقلها والله خسارة يا واد إذا لم تتزوجها. ولم تكد تفتح الباب.. حتى صرخت فى وجهى.. كأننى عفريت.. أو كأننى جئت أتزوجها بالقوة. فى حين أن والدها قد أفهمنى أنه يتحايل كل يوم عليها. والحقيقة أن هذا ما أقوله لنفسى وللناس.. أقوله لنفسى ولا أستطيع أن أقوله للناس.. وكان فى يدها كوب من العصير وهى تشربه بطريقة خاصة.. ولا أعرف لماذا تمنيت أن أشرب الكوب منها وبنفس الطريقة.. ومددت يدى.. وأنا أمد يدى دائما.

فقد وصلت إلى السن التى يتحول فيها الإنسان إلى أطراف..

أو تتحول كل أطرافه – أيوه جميع أطرافه – إلى يد واحدة تتسول كل شىء..

ومددت يدى لآخذ الكوب وصرخت البنت وقالت: طبعا العصير بارد حيكسر إيه تانى.. أسنانك وتقدر تغيرهم..

وجلست أمام والدها والبرودة قد سرت فى نفسى وقد جمعت كل قواى.

وما تبقى من حرارة.. لكى أجد مبررا لرفض هذا الزواج.. لكى أقول لوالدها إننى عدلت لأننى سأسافر إلى الخارج.. وأن والدتى مريضة.. ولأنى لا أستطيع أن أتزوج فى هذه الظروف.. ولأن منظرى سيكون مضحكا.. ولأننى اتفقت مع إحدى مريضاتى وقد كنت وعدتها منذ زمن بعيد بالزواج وقد جاءت.. هى وأمها وأختها.. ووالدها وذكرونى بوعدى الذى كان أمام شهود.. والذى سجلته فى خطاب.. وفى مكالمة تليفونية مسجلة ولا مفر.. ثم إن هناك فضيحة حدثت.. وفضيحة لواحد فى مثل سنى ومركزى.. أعتقد أن هذا شىء لا يرضيه.. كصديق.. وكوالد لزوجته المقبلة.. أو كان من المفروض أن تكون زوجة مقبلة.. وجلست أمامه ومسحت عرقى.. ولابد أن هذا العرق كان واضحا جدا لدرجة أننى رأيت الفتاة قد أتت بمنديل.. وأمها أتت بمنديل.. وأخاها أتى بمنديل.. وتقدمت صديقاتها بفوطة.. وتقدمت الخادمات ببشكير حمام.. كل هذا لكى أجفف عرقى..

أو هكذا تصورت أو تخيلت.. ومددت يدى.. ومددت يدى مرة أخرى؛ لأننى لا أعرف إن كنت مددتها أول مرة.. وقلت له وقلت له مرة أخرى.. نفس هذا الكلام الذى سأقوله الآن:

– أفتكر أنى لا أستطيع..

وبسرعة قاطعنى: أعرف.. أيوه وأنا مؤمن بأنك رجل عاقل..

فقلت له.. وقلت له مرة أخرى نفس هذا الكلام.. أقصد أنه لا داعى لزواجنا.. ومد يده وأمسك يدى لكى يمدها لتصافحه وتضغط على يده فى امتنان وشكر وهو يقول: كده.. أنا برضه قلت كده.. يا شيخ بلا جواز بلا غيره..

وقلت له: أنا برضه كنت عاوز أقول كده..

وهنا يجب أن تنزل المناديل والفوطة والبشكير.. كما ينزل الستار على المسرح.. وهنا يجب أن يبكى كل الحاضرين من أهل العروس.. ويقولون فى صوت يشبه الاحتجاج: ليه بس.. إحنا كنا عاوزين نضحك عليك شوية!

□ □ □

كانت النهاية

عزيزى..

أنت تعرف قصة شمشون ودليلة.. إن شمشون هو الذى هدم المعبد. ولكن قصتى هى أن دليلة هى التى هدمت شمشون.. وبعد ذلك قام شمشون إلى المعبد فحطمه.. دليلة هى أنا.. والمعبد هو حبى لك.. الذى بنيته.. فكرة.. فكرة.. وحلما.. حلما.. فى سنوات. ولكن عندما رأيتك أمس.. انتهى كل شىء.. ليس هذا الخطاب اعتذارا ولكنه شهادة وفاة حبى..

هل تتصور أننى ظللت طوال الليل سهرانة.. أنهض وأجلس.. كلما رأيت صورتك أمامى.. نهضت إليها وعانقتها وظللت هكذا طوال الليل. لم أفارق صورتك ولم يفارق الأرق عينى.. حتى كان الصباح ورأيتك.. ويا ليتنى لم أرك.. ليتنى.. لم أصدق أبدًا أنك أنت.. أبدا لم يخطر ببالى أن أرى بياض أسنانك ينتقل إلى شعرك. لم أتصور أنك كبير هكذا. لم أتصور أن كل هذا العرق يتساقط من وجهك.. كأنك جئت لمقابلتى على ظهر عربية رش.. لم أتصور أن ملابسك هكذا مكرمشة.. حتى حذاءك كان عليه تراب. لم يخطر لى هذا على بال. لقد اخترت لك فى خيالى أحسن الملابس.. وأروع الكلمات.. وأجمل النظرات.. ونسيت فى خيالى أن أضع بعض قطرات العرق.. فالعرق نتيجة التعب.. والتعب نتيجة العمل.. والعمل للرجال.. لم أتذكر هذا ورأيت حيرتك.. ورأيت الكلام وهو يتصادم بعضه مع بعض فى فمك.. إنه كثير ولكنه يخرج من فتحة ضيقة. أحيانًا كنت أتمنى أن أمد يدى إلى حلقك أعاون الكلمات على الخروج. رثيت لحالك.. رثيت لحالى أنا بعد هذه المقابلة..

هل تذكر أننى تساندت على الحائط ونحن واقفان ووضعت يدى على جنبى.. ولعلك لم تر ذلك.. بل أؤكد لك أنك لم تلاحظ شيئًا.. لقد أحسست بدبوس يشكنى ومددت يدى أتلمس مكان الدبوس.. فى ملابسى.. إنه أبعد من ذلك.. إنه تحت الجلد.. هناك فى قلبى.. دبوس بارد.. الدبوس اسمه: خيبة الأمل.. الدبوس نفذ إلى قلبى.. فانهار تماما.. كالمسمار الذى يدخل فى عجلات السيارات. فتميل السيارة

على جنبها.. وتتوقف عن الحركة. وكان ذلك شعورى بالضبط. «أين كلامك الحلو» ولا كلمة.. أين ضحكتك التى كنت أعيش عليها ساعات.. ولا ابتسامة.. أين أفكارك الجميلة.. ولا فكرة.. أين صورتك.. ولا أنت هنا.. كأنك لم تحضر وإنما بعثت مندوبا عنك.. حتى المندوب لم يكن فيه جمال سيده ولا روعته.. لا شىء منه أبدًا.. إلا بعض كلماته.. بعض حركاته.. وأحيانًا نبرة صوته. بل إننى أرى مندوبك.. ليس صورة صغيرة منك.. وإنما هى بطاقة بيضاء فيها كلمة واحدة.

ولولا أنك تعرف الكثير مما أقوله.. تعرف الكثير عنى.. لقلت إنك إنسان آخر. ولولا شىء ثان أيضًا. عندما رأيتك راح قلبى يدق. وقلبى لا يكذب.. إن حاستى الشم والسمع عنده قويتان جدا لا تخيبان مع الأسف. ولم يكن قلبى يدق.. وإنما كان ينبح كالكلاب البوليسية.. عندما تتعرف على الجانى. لا تتصور أبدًا أننى وقفت أتفرج عليك.. أبدًا إننى عاونتك.. إننى طلبت منك أن تقول لى ما وعدتنى به. لقد وعدتنى فى التليفون أن تهمس فى أذنى بشىء جميل. طلبت منك أن تهمس به أيضًا ولكن بعيدًا عنى.. لا أريد أن تلمسنى.. وهذا العرق لا أريده. طلبت منك أن تصرخ بهذا الشىء.. تمنيت أن أرى فمك وهو يقول لى شيئًا. وتمنيت أن أرى عينيك وهما تسبقان كلامك.. كأنهما أنوار المطارات تروح وتجىء.. لتهدى الطائرات إلى أرض المطارات.. تهدى ألفاظك إلى أذنى.. تمنيت ذلك وليتك لم تحقق لى هذه الأمنية.. فقد رأيت أسنانك الصفراء ورأيت هذا الكلام يخرج منها وأحسست بالقرف.. لا أفهم كيف تكون لإنسان أسنان صفراء أو سوداء.. أى شىء أكله هذا الإنسان.. أى شىء شربه. لابد أنه طين أو وحل. ولم أتصور أبدًا أن يخرج هذا الكلام من هذا الطين كالديدان. أو كالضفادع تقفز على أذنى. وحاولت أنت أن تكون لطيفًا معى.. أن تذكرنى بسعادتى التى عشتها معك.. عشتها معك فى التليفون.. ولكن أوجعنى هذا كله.. فطلبت إليك أن تحدثنى عن البورصة.. عن المحلات التجارية الجديدة.. عن صناعة الأحذية فى مصر.. عن أى شىء إلا الكلام الذى كان يسعدنى.

كأننى أريد أن أحتفظ به لنفسى.. لا أريد أن أسمعه منك بلا تليفون. لا أن أراه يزحف مذبوحا بين شفتيك. لا أريد أن أحس به وهو يتشعبط على أذنى كرجال المطافئ.. يحاول إخماد النار التى فى نفسى.. فكرت أن أقول لك أى شىء وأتركك.. فإننى لا أقوى أبدا أن أراك تنهار.. أن أرى صورتك تتهدم.. عينا.. وراء أذن.. وراء أنف.. وراء قلب.. عقلى يقول: امشى.. وقلبى يقول: انتظرى.

وأحيانًا أسمع كلمتى: امشى وانتظرى.. ولا أعرف من الذى يقولها.. عقلى أم قلبى؟ إن فى نفسى فرحًا.. ومأتمًا.. متجاورين.. وأسمع الأغانى فى نفسى وقد اختلط

بعضها ببعض.. ففى أذنى أغنية تقول: افرح يا سبعى عقلى يتحزم ويرقص.. وقلبى يتحزم ويقول: ماكنش يومك. ستقول عنى مجنونة.. يمكن.. لكن أنا سعيدة مع ذلك. فأنا لم أكن أعرف طريقة لأتخلص من هذه العلاقة الخرافية التى تربطنى بك. علاقة ليس لها أول ولا آخر.. إننى مسافرة مع رجل لا أعرفه.. وبجواز سفر لا أعرف إن كان صحيحا أو مزورًا.. بل لا أعرف إلى أين نحن مسافران وقد أعطيتنى هذه الفرصة. فرصة اختفائك عن عينى.. وباختفائك أنزل من القطار وأحمل حقائبى.. وأرمى جواز السفر.. أعود إلى بيتى.. إلى البكاء عليك وعلى نفسى.. على دليلة التى هدمت معبدا كان فيه شمشون هو الإله.. ومددت يدى إليك أودعك.. وهنا أحسست بأننى قد ارتكبت جريمة قتل.. قد دفنت إنسانًا حيًّا فى قبر أحمله معى ليلا ونهارًا..

هذا القبر هو قلبى.. هو أنا.. أحسست أننى كالقطة التى أكلت أولادها من الخوف عليهم.. أكلت أولادها لتنقذهم من الحريق. أو كالذى أحرق بيتا ليتخلص من فأر صغير.

بل أحرقت نفسى.. انتحرت..

فأنا لم أكن واحدة وإنما كنت اثنتين فى وقت واحد.. وإحدانا قتلت الأخرى.

اعذرنى فأنا لم أتصور أبدا أنك كالناس.. لم أتصور أبدًا أنك تتعب وتمرض وتخجل وتتكسر ملابسك.. ويتسخ حذاؤك.. ويبتل جبينك.. اعذرنى.. بل أنا لم أفكر أبدًا فى شىء كهذا.. كله.

فالإنسان لا يفكر أبدًا إن كانت ذراعه معلقة من كتفه.. ولا يفكر إن كانت ساقه لاتزال عنده.. أو أن قلبه لايزال هناك.. لم أفكر أبدًا.. إن كنت موجودًا أو غير موجود.. قويًا أو ضعيفًا.. إننى أملأ بك عينى وأذنى.. وقلبى وحياتى وفكرى.. ولا أسأل نفسى أبدًا إن كنت مرتدية ملابسى.. أو لا.. فأنا أعرف أنها هناك حتى إذا لم أشعر بها.. وكذلك أنت.. أعرف أنك هناك.. ولا أدرى إن كنت قصيرًا.. أو طويلاً.. شابًا أو عجوزا.. لا أعرف.. لا أعرف..

وبعد أن تركتك أحسست أن رأسى اصطدم بالحائط..

إننى أفقت.. قد انفجرت فى رأسى فكرة عجيبة جدًّا..

فانزعجت عندما رأيتك.. وخطر لى أن يكون هذا هو شعورك.. أيضًا عندما رأيتنى..

وأدركت أنى كنت متعبة فى الليلة الماضية.. وأننى لم أنم.. وأنا عندما أتعب.. يظهر كل هذا على وجهى.. على كلامى.. إذن لقد انهدمت أنا أيضًا..

إذن فأنا أمشى فى جنازة اثنين ماتا من أول نظرة..

ليتك لم ترنى.. وليتنى لم أرك.. والسلام.

« ... »

وراء الباب

لن أنسى ذلك اليوم. فقد بدت الأمور كلها صعبة عسيرة.. كأنها مجموعة من الخيوط امتدت إليها يد غريبة فعقدتها كلها فى وقت واحد. وكان من المفروض أن أحلها دفعة واحدة ولم أستطع طبعًا..

كان هذا كله فى أحد أيام عطلتى الأسبوعية. كنت لا أزال فى البيت. لم أرتد ملابسى.. لم أقرأ صحف الصباح.. لم أتناول قطرة من فنجان الشاى أمامى.. لم أضف كلمة واحدة بعد أن قلت لزوجتى:

– صباح الخير..

بل إننى قلت هذه العبارة دون أن أنتظر من زوجتى أن ترد علىَّ.. وعندما يتزوج الإنسان؛ فإنه يفعل أشياء كثيرة بحكم العادة، بحكم الذوق.. ولا ينتظر عليها ردا أو شكرا – وليس هذا هو المهم على أية حال – وفجأة بدأت الخيوط تهتز، وبدأت أشعر أن الأصابع السحرية أخذت تتسلل إلى الخيوط لتربط كل اثنين معًا.. وفجأة رأيت زوجتى تقول:

– ماذا جرى.. إنك رأيتنى من قبل ولم تقل لى صباح الخير.. إنك لا تنسى.. إنك لا تعرف النسيان.. إننى سمعت أنك الابن الوحيد الذى يحمل كل صفات أمه!.

وعندما سمعت كلمة «أمى» هذه تنبهت فعلا.. ولكننى لم أرد عليها.. ومضت زوجتى تقول بنفس اللهجة كأنها تلميذة حفظت درسا وراحت تكرره لنفسها حتى لا تنساه:

– افرض أننى نسيت أمس أن أضع لك ملابسك.. فهل هذا معناه أن تعاقبنى فى اليوم التالى.. وطبعًا ستعاقبنى اليوم بتجاهلى.. وفى اليوم التالى بتجاهل الأولاد.. وفى اليوم الرابع قد لا تعود إلى البيت.. وأنا أعرف طبعًا أين تذهب عندما تغضب.. أنا أعرف وأنت تعرف.. ولولا أننى أعرف طباعك لقلت إنك تتعمد إغضابى لتذهب إليها.. أنت تعرف من هى.. إنها لاتزال جميلة.. طويلة.. سمراء..

شعرها ذهبى.. عيناها زرقاوان.. لم تضع عليها منظارا كمنظارى الغليظ.. لم تنجب أطفالا.. لم تلد على يد «الداية».. لم تعرف النوم فى المستشفيات.. وحيدة لايزورها أحد.. ويتجاهلها زوجها أحيانًا!.

وبدأت زوجتى تبكى.. ولعلك تلاحظ كيف ربطت زوجتى المشاكل كلها فى خيط واحد.. وجعلت هذا الخيط يلتف حول عنقى، حول حياتى كلها.. والسبب هو أننى صحوت من النوم شارد الذهن فقد نسيت الأوراق فى مكتبى.. ودارت فى رأسى فكرة تقول:

إننى لم أقفل درج مكتبى بعناية.. ومنذ أيام وقعت سرقة فى الشركة.. اختفت أوراق مهمة.. وأحس كل موظف أنه من المحتمل أن تقع له نفس المصيبة.. وتكون النتيجة أن تلقيه الشركة فى عرض الطريق هو وزوجته وأولاده..

إنها مخاوف عادية جدا.. ومن الممكن أن تحدث لأى إنسان.. وقد سيطرت هذه الفكرة على رأسى طوال الليل.. وأنا من عادتى أن أطوى نفسى على همومى. ولا أروى شيئًا منها لزوجتى.. تعلمت ذلك بالتجربة.. ولذلك زوجتى تسىء فهم كل شىء؛ لأنها لا تعرف من حياتى إلا القليل جدًّا.. وأنا راض بهذا.. راض بأن تسىء فهم القليل الذى تعرفه، وأحمد الله أنها لا تعرف الكثير.. فيؤدى إلى خراب البيت والعمل.. وفى هذا اليوم لم أكد أفتح عينى.. حتى أحسست كأننى فتحت درج مكتبى وأحسست أننى أفتش فى أوراقى، فلا أجد بعضها.. ودار رأسى ولم أعد أشعر بشىء.. لا بنفسى ولا بزوجتى.. وربما أكون قد نظرت إليها، وربما أكون قد حملقت فيها دون أن أدرى أو دون أن أراها.. فظنت زوجتى أننى كذا وكذا.. كما رويت لك من قبل.

ولم أتذكر أبدًا أننى جئت إلى البيت ليلا فوجدت زوجتى نائمة.. ولم أتذكر أبدا أننى لم أجد ملابس النوم فى مكانها.. والحقيقة أننى لم أجد طعامى ولا شرابى.. ولا مصباح الباب الخارجى مضاء.. وقد اصطدمت بالمقاعد.. ووجدت بعض التراب قد تسلل إلى المنضدة الكبيرة.. كل ذلك أحسست به فى الليل.. وكنت أقول فى نفسى: إن زوجتى مسكينة.. إنها وحدها مع ثلاثة من الأولاد، وبلا خادمة.. إنها تتعب وترهق نفسها جدًّا.. وحاولت عبثا أن أقنعها بأن نصف هذا المجهود يكفى، وأنها يجب أن توفر نفسها من أجل أولادها وأننى أستطيع أن أعاونها فى بعض أمور البيت.. فأغسل الآنية، وأغسل ملابس الأطفال.. وأعلم ابننا الأكبر القراءة والكتابة.. ولكن زوجتى أصرت على أن تعمل كل شىء.. وكثيرًا ما

تشاجرنا وفى كل مرة كنت أنا المغلوب.. وكانت زوجتى تنتصر علىَّ بدموعها وضعفها.. ومن الذى يستطيع أن ينتصر على امرأة طيبة ساذجة تسىء فهم كل شىء، وحولها أطفال يبكون عندما تبكى أمهم، فأبدو أنا معتديًا غاشمًا.. مهما كان الحق معى، فأنا ظالم قاس جبار لا يرحم.

وكنت أسكت فى كل مرة.. وفى ذلك اليوم الذى أحدثك عنه ماذا تتصور أن أفعل.. أنت تتوقع منى أن أروى لك كيف استخدمت القسوة معها.. فقد كان كلامها كالسحب التى تراكمت وأصبحت سوداء كثيفة.. ونزلت الأمطار والأوحال فى لحظات.. طبعًا أنا لم أنطق بكلمة واحدة.. وهذه صفة جديدة اكتسبتها من الزواج.. فالذى يتزوج يترك الكثير من عاداته أمام الباب كأنها حذاء قديم أو كأنها الطين الذى يعلق بالحذاء.. ستقول إننى ضعيف الشخصية، وتقول إننى أجد لذة فى معاملتها القاسية.. وأقول لك هذا رأيى فى نفسى أول الأمر.

وفى ذلك اليوم أحسست أن هذا هو رأى زوجتى فى شخصى الطيب فقررت أن أبين لزوجتى أننى لست ذلك الهزيل التافه.. فقلت لها:

– اسمعى.. إننى لم أعد أحتمل مثل هذا الكلام.. إن عندى عشرات المشاكل.. وليس البيت وأنت وأولادك كل ما فى رأسى.. واليوم إجازتى.. فلا تفسدى هذا اليوم، إننى أنتظره منذ ثلاثة أسابيع.. وأنت نجحت فى إفساد أسبوعين متواليين.. أريد أن أذهب..

وصاحت زوجتى قائلة:

– أنت تذهب إلى ابنة خالتك.. وهل فى هذا شك.. هل تظن أننى نائمة.. هل تظن أننى بلهاء.. هل تظن أننى لا أضع يدى فى جيبك.. لقد وجدت صورتها.. صورة لم أرها من قبل.. هذه هى التى تريد أن تستمتع بيوم إجازتك من أجلها.. أما أنا.. أنا الخادمة التى رضيت بالحياة معك.. أنا التى شربت المر ولم تتكلم، عرفت المرض ولم تتأوه، ونام على صدرها طفل مريض.. درجة حرارته مرتفعة يهذى بعبارات غريبة.. هل تعرف ماذا يقول ابنك.. إنه يقول: «أريد أبا غير هذا يا ماما.. أريد واحدًا يلعب معى».. هذا هو كلام ابنك.. إنه لا يراك ولا يعرفك.. لا يشعر أنك موجود..

واستمر كلام زوجتى على هذا النحو ساعة.. تناولت فى هذه الساعة كل مشاكلنا ومتاعبنا منذ تزوجنا.. وقبل الزواج وبعد الزواج.. ولماذا رضيت بزواجى، مع أن هناك شبابا أغنى وأجمل منى.. وكيف أنها خدعت فى مظهرى.. وعلى الرغم من

هذا كله فإننى لست راضيًا.. ولا مقدرًا لمجهودها فى خدمتى وخدمة أولادى.. هى دائمًا تقول: «أولادك.. أولادك».. كأنها ليست أمهم.. وهى عندما تتحدث عن أدبهم تقول: أولادى. وعندما تتحدث عن سوء أدبهم تقول: أولادك..

طبعا أنت تريد أن تعرف منى، ماذا فعلت بعد ذلك؟ ماذا يمكن أن أفعله بعد ذلك أو قبل ذلك.. والجواب: لا شىء طبعًا.

فقد اتجهت إلى طفلنا الثالث وكان مريضًا فعلا.. درجة حرارته عالية.. إن زوجتى قد أخفت عنى مرضه.. ولكنها أطلقت هذه القنبلة فى الوقت المناسب.. إن زوجتى جاهلة لا تقرأ ولا تكتب.. ولكن لها «تكتيكًا» عجيبًا فى معاملتى.. ولا أدرى من الذى علمها فن الحرب هذا.. لا أدرى.. إننى فى بعض الأحيان أقف أمامها معجبا بأساليبها وحيلها الغريبة.. أنسى فى قلب المصيبة أن أدافع عن نفسى.. دائمًا أصفق للبطل.. إننى مثل ضباط الإنجليز فى العلمين كانوا يعلقون صورة القائد روميل الذى سخر منهم وهزمهم وغلبهم بحيله، ويبهرهم بفنه العسكرى، رغم أنه أراهم النهار فى قلب الليل.. كنت أعجب بأساليب زوجتى.. وكانت تسمى إعجابى بها ويفنها العسكرى فى محاصرتى والاستيلاء على نقودى، وهزيمتى بأننى بارد الأعصاب.. وأننى لم أكن هذا قبل الزواج.. وأننى أكرهها.. تصور أننى أكرهها.. والحقيقة أننى أحبها جدًّا.. ولكن لا أعرف كيف أعبر لها عن حبى..

وفى ذلك اليوم حاولت أن أكون رجلا عمليًّا وصاحب حجة ومنطق.. فقمت من الفراش وفتشت فى جيوبى فلم أجد الصورة.. وسألتها عن الصورة.. فقالت: مزقتها.. طبعًا مزقتها..

وجننت.. وكدت أرتكب عملا أحمق.. وتماسكت فى آخر لحظة. واغتاظت زوجتى لأننى لم أثر.. لم أشتم.. لم ألعن.. لم أحطم بعض ما فى الغرفة من أدوات..

وقلت لها: هل تعرفين.. إن هذه الصورة هى صورة أمى أيام كانت فى العشرين من عمرها.. واليوم ذكراها.. فقد ماتت منذ عشر سنوات.. هل تعرفين أننا يجب أن نزور قبرها اليوم؟.

ويدأ الخلاف بينى وبين زوجتى على موضوع لا يخطر على بال.. لقد ثارت زوجتى لأننى لم أخبرها من قبل.. كيف أخبرها بالله عليك.. هل أعطتنى فرصة لكى أكلمها.. هل أعطتنى فرصة لكى أشرح لها ما فى جيبى وما فى عقلى وما

فى قلبى.. إنها تقطع كل الطرق التى تتجه ناحيتى.. فعلمتنى كيف أتجاهلها، وكيف أهملها نهائيًا.. وفى هذا اليوم ثرت عليها ولعنتها.. وارتديت ملابسى وخرجت من البيت.. وقررت أن أزور أمى وحدى.. وذهبت إلى محلات الزهور وأخذت باقة من الزهور وحملتها.. واتجهت إلى حيث يوجد قبر أمى..

وفى الطريق جعلت أفكر فى مكتبى الذى ربما تركته مفتوحًا.. وفى طفلى المريض.. وفى متاعب زوجتى.. وفى حياتى التى تزداد تعقيدًا يوما بعد يوم.. وأحسست كأننى طفل صغير.. وأننى فى حاجة إلى نصيحة أمى.. فقد كانت هى التى تنصحنى وتوجهنى.

فقد كنت وأنا طفل أرى أمى أعقل الناس وأعظم الناس.. وكنت أعتقد أنها تعرف كل شىء فى الدنيا.. حتى عندما دخلت المدرسة كنت أسألها فى الحساب وفى الجغرافيا.. وكانت أحيانًا لا تجيب، فكنت أقول إنها تريد منى أن أعتمد على نفسى.. وعرفت بعد ذلك أن أمى لا تعرف القراءة والكتابة..

وفى ذلك اليوم جلست أمام قبرها.. أفكر فى حالى.. وتذكرت فجأة يومًا أغضبت أمى.. ورأت أمى حيرتى الشديدة.. فأنا أريد أن أعتذر لها، ولا أدرى ماذا أفعل.. وابتسمت أمى وضمتنى إلى صدرها، وقالت لى: يا ولدى.. عندما تغضب من ماما.. هناك حل واحد لكى تصالحها.. وأشارت إلى جبهتها.. وذهبت إلى أمى وقبلتها؛ وأنا أبكى وهى تبكى.. وقمت من فورى .. ووضعت الزهور وعدت إلى البيت.. وقلت فى نفسى سأجرب سياسة أمى هذه فى إصلاح زوجتى.. ولم أدر لماذا كانت عودتى إلى البيت بطيئة فى ذلك اليوم..

ولم أكد أضع المفتاح فى الباب، وأرسم ابتسامة على وجهى، وأمد ذراعى لأعانق زوجتى، حتى وجدتها هى الأخرى وراء الباب.. وفوجئت بأنها وضعت يدها على فمى وعانقتنى بذراعها الأخرى وهى تقول: هكذا كنت تفعل مع أمك.. فلماذا لا تجرب هذه السياسة مع زوجتك أيضًا..

وعانقت زوجتى.. وبكيت.. أما أطفالنا فكانوا قد صحوا وتعلقوا بى. حتى طفلنا الصغير كان مشرق الوجه.. أين مرضه؟ أين حرارته العالية؟ لا أعرف ماذا حدث.. إنها عبقرية زوجتى!

□□□

كلنا أمهات..

كان ذلك فى أوائل الصيف، عندما دخلت الخادمة دون أن تفتح فمها، وجلست إلى جوار زوجتى. ومالت عليها، وسألتها عن السر فى أننا ننجب الكثير من الأطفال. وزوجتى امرأة ساذجة، ولذلك فهى صريحة، تقول كل ما يدور فى رأسها ولا تعرف كيف تخفى مشاعرها، ولا كيف تحترس فى الإجابة. ولذلك كان ردها هكذا: السبب بسيط جدًا، لو كان عندنا مال لذهبنا إلى الأطباء واشترينا عقاقير، تقتل الأطفال قبل أن تولد..

والحقيقة أننى ضقت بهذا الرد، وعاتبت زوجتى على أنها قالت الحق، وعلى أنها قالت الحق للخادمة، وعلى أنها لا تعرف كيف تحاور وتداور فى الرد على مثل هذه الخادمة الثرثارة..

وأحسست فجأة أننى فعلا أب لستة من الأطفال، وأن السابع فى الطريق إلينا. وبدأت أتذكر أيام شبابى، عندما كنت أتسلى بقراءة المصائب والكوارث التى تنشرها الصحف.. كنت أقرأ حوادث السرقة والقتل، وحوادث السيارات والحرائق. وكنت أقرأ بعض العبارات التى لم تفارق ذاكرتى حتى الآن.. مثل هذه العبارة: إن فلانا يبعث على الرثاء.. أو يبعث على الشفقة.. أو أنه مسيل للدموع..

ولم أكن أتصور أبدًا أن هذه العبارة قد أعدتها الأيام لتكون ثوبًا ألبسه أنا وزوجتى وأولادى، ولم أكن أتصور أننى سأتحول مع الأيام إلى إنسان يبعث على الرثاء والشفقة والأسى والدموع.

***

وكانوا يقولون عن فلان أنه يسكن بيتا ضيقًا، ليس له من البيت إلا الاسم. واليوم أسكن أنا فى غرفة طولها وعرضها كالمرتبة، ومعى ستة من الأطفال. وإذا أمطرت السماء، تلقينا المطر قطرة قطرة ونحن نتكوم فى الأركان، وأقتسم الأولاد مع زوجتى، هى ثلاثة وأنا ثلاثة.. حتى تصفو السماء.

وكنت أقرأ أن الزوجة عندما تريد أن تتخلص من أطفالها فإنها تتخذ قرارًا إجراميًا بقتل الطفل أو إجهاضه. ولكننى أنا وزوجتى اتخذنا قرارًا إجراميا، وهو أن نحمل الطفل ونلقى به فى إحدى الكنائس.. وهناك يجد الطفل من يعوله وينفق عليه ويرحمه من فقرنا وجوعنا ومرضنا.

وخرجت أنا وزوجتى وحملت هى طفلها على صدرها.. وسرنا فى أحد الشوارع وجعلنا نتطلع إلى المحلات التجارية.. وكان الطفل يتشبث بأمه؛ وكأنه يعرف ماذا سيحدث له. وبعد لحظات وجدنا إحدى الكنائس.. ودخلت زوجتى وطفلها، وكنت أسير خلفها من بعيد. والكنيسة ضخمة والأضواء حالمة، وهناك رطوبة وعطور وهمس خفيف. ودخلت فتاة جميلة أنيقة شعرها أصفر وعيناها زرقاوان وعلى صدرها وردة كبيرة واتجهت بسرعة نحو المذبح، وأحنت رأسها، ورسمت العلامة التقليدية بيدها على صدرها، وخرجت دون أن تلتفت إلينا.. وقبل أن تخرج من الباب الكبير إلى الشارع التفتت زوجتى وقالت: أنا لا يمكن أن أعطى ابنى لمثل هذه الفتاة. إنها لا تنظر إلينا ولا تعبأ بنا. مستحيل أن أعطيها ابنى. لقد جاءت إلى الكنيسة لتصلى، وبعد ذلك تلهو وتلعب. أبدًا لا أعطيها ابنى. هيا بنا!

واتجهت إلى شارع جانبى ضيق.. ووجدنا كنيسة أخرى، وكان القس يخطب فى المصلين. وكانت الكنيسة ممتلئة بالمصلين. والمقاعد الخلفية خالية. ودخلت زوجتى ودون أن ترسم علامة الصليب على صدرها اتجهت إلى المقاعد الخلفية.. ووضعت طفلنا على مقعد خال، وتركته مغطى بملابس ممزقة وألقت عليه نظرة ثم انطلقت نحو الباب الخارجى، وكأنها تمشى على المسامير، وكنت قد سبقتها إلى الشارع. وفى هذه الأثناء تقدمت منها سيدة عجوز بملابس سوداء، إنها خادمة الكنيسة. وقالت لها: يا سيدتى لقد نسيت شيئًا على مقعدك.

وقالت زوجتى: أشكرك.. لقد نسيت شيئًا.. بل كل شىء لو تعلمين! وعادت زوجتى ووضعت طفلها على صدرها وخرجت إلى الشارع، وسمعتها تقول فى صوت البائع الذى لا يجد مشتريا لسلعته: إن أحدًا لا يريد طفلنا.. لا أحد.. محكوم علينا أن نربى أطفالنا. لا أحد يريد هذا المسكين!

وكان لابد أن نبحث عن كنيسة ثالثة..

ووجدنا كنيسة خالية تمامًا من المصلين.. ومن القساوسة لا أحد فيها. ودخلت وراء زوجتى ورأيتها تتلفت يمينا «وشمالا». وكنت أرى فى عينيها قرارًا

نهائيًا.. ووضعت زوجتى الطفل على أحد المقاعد، وخرجت مسرعة إلى الباب.. وفى هذه اللحظة جعل الطفل يبكى ويصرخ. وطفلى صوته غليظ. ويقال إن صوته يشبه صوتى، أو يشبه صوت خاله.. لقد حان موعد رضاعة الطفل. وانطلقت زوجتى تجرى وتبكى نحو طفلها وتضمه إلى صدرها، وتعرى صدرها وترضعه. وفى هذه اللحظة تقدمت منها إحدى خادمات الكنيسة.

وسمعت منها هذا الحوار:

قالت الخادمة: إن هذا حرام.. لا تعرى صدرك فى الكنيسة.. وقالت زوجتى: ليس حرامًا، إن العذراء مريم نفسها ترضع طفلها.. وصورها معلقة على كل حائط..

وقالت الخادمة: هذا صحيح.. ولكن هل أنت مثلها؟

وقالت زوجتى: كلنا أمهات..

وهذه المرة وجدت الحق فى جانب زوجتى.

ولكن الخادمة أصرت على خروج زوجتى. وخرجت وطفلها يرضع.. وجلست بالقرب من إحدى النافورات.. ونام الطفل. ثم نهضنا نبحث فى مكان آخر. وفى الطريق تعثرت قدم زوجتى.. وصحا الطفل. وعرفت أنها قد تعبت من السير، وجلسنا مرة أخرى. وجاء الليل. وأقفلت الكنائس أبوابها وخفت أن أقول لزوجتى: هيا بنا. فأنا أعرف أنها عندما تكون متعبة، يصبح التفاهم صعبًا!

ولم أستطع السكوت فقلت لها: اسمعى لقد تعبت.. ولا أستطيع أن أنقل قدمى.. ولا أن أنقل فكرى..

وكان ردها: أعرف.. ولكن هذا ابنك.. ودمك.. ولحمك.. هل نلقى به فى الطريق كالكلاب.. أهذا ما تريده.. إننى أعرفكم كلكم.. إن الرجال سواء.

ثم قالت كلمة لا أستطيع أن أنطق بها.. وهى كلمة لا تسر الرجال..

ولم أسكت طويلا فقلت لها: إذن عودى إلى البيت! ولا تنسى أن الغرفة لا تتسع لكل هذا العدد.. إنها تضيق بميكروبات الشتاء.. وباعوض الصيف..!

ولم تنطق زوجتى بكلمة واحدة.

ونهضنا واتجهنا إلى شارع كبير. ولمحنا عربة فخمة تقف وحدها. ونظرت زوجتى إلى داخل العربة. لم تجد أحدا.. واقتربنا منها.. إنها عربة زرقاء كبيرة، تتسع لعشرة من أولادنا. وامتدت يد زوجتى إلى الباب الخلفى وفتحته. وألقت بالطفل.. ودفعت الباب وراءها بهدوء..

ولكن زوجتى خشيت أن يتسرب الهواء إلى الطفل.. فعادت ودفعت الباب بعنف.. وتحرك الطفل وابتسم ورفع يديه فى الهواء.. وبكت زوجتى وجلست على الرصيف بالقرب من العربة..

وسحبتها من ذراعها وقلت لها: هيا بنا..

ولكن جاء ردها هكذا: غدا سأذهب إلى الملك، وأطلب منه هذا الطفل.. أو أطلب منه أن يعاوننى فى استرجاعه.

وقلت لها: لم يعد هناك ملك.. هيا بنا..

وعادت تقول: إنه يبتسم.. إنه يضحك.. إنه يكلم نفسه.. لا يمكن أن أتركه وهو يبحث عنى.. لابد أن أرضعه حتى ينام مرة أخرى.. وعندما ينام سألقى به..

واتجهت زوجتى إلى السيارة وفتحت الباب. وفى هذه الأثناء تقدم صاحب السيارة ومعه زوجته وراح يصرخ قائلا: امسك الحرامية! امسك الحرامية!

أمسك زوجتى وقال لها: ماذا أخذت؟ ماذا سرقت؟

فأجابت: إنما أخذت ما يخصنى.

وسألها الرجل متحديا: وأنت ماذا يخصك؟

فأجابت: هذا طفلى! هل تستطيع أن تأتى بمثله أنت وزوجتك هذه.. انظر!

ورفعت زوجتى الغطاء عن وجه الطفل. لقد كان يبتسم. وكاد الرجل يتخلى عنها. ولكن زوجتى عادت تقول: إياك أن تلمسه.. سأصرخ.. سأجمع الناس حولنا.. وأقول لهم.. إن هذا الرجل يريد أن يسرق ابنى.. ابعد عنى!

واحمر وجه الرجل، واختفى فى سيارته.

وحملت زوجتى طفلها تداعبه وتبكى.

وسرت وراءها فى طريقنا إلى البيت.

□ □ □

رجولة تعيسة

سمعت فجأة أنه قد وصل إلى مكان لا يعرفه أحد. ذهبت إلى مكتبه قالوا:

– إنه فى إجازة..

وفى البيت يقولون إنه فى إجازة .. ولكن إجازته طالت.. مضى شهر لم يبعث بخطاب لأمه.. وفى الشهر الثانى شاهده بعض الناس فى مكان بعيد.. وفى الشهر الثالث أذاع الراديو أنه ألقى محاضرة موضوعها «الأخلاق عند بعض الحشرات».. العنوان غريب.. والموضوع غريب.. وإذا عرفنا أنه تخرج فى كلية الهندسة وأنه لا علاقة له بالحشرات ولا بعادات الحشرات ازدادت دهشتنا..

ولما ذهبت إلى زوجته أسألها تفسيرًا لكل هذا.. وجدتها أكثر منى دهشة.. ولكن عندما نظرت إليها، اعتقدت أنها تعرف شيئًا ما.. ولاحظت الزوجة أننى أريد استدراجها فى الكلام.. ولم أضيع وقتى.

قالت: إنه صديقك، وأنت تعرفه قبل أن أعرفه..

قلت: أعرفه.. هذا صحيح.. ولكن مقدمات هذه الإجازة والغياب الطويل.. وحرصه على ألا يعرف أحد حتى أنت.. ونشاطه الغريب.. كل هذا ألا يدل على شىء؟!

قالت: أنت تعرف أنه شاذ..

وأحسست أن هناك شيئًا.. وأحسست أن زوجته تعرف كل التفاصيل ولكنها لا تريد أن تقول شيئًا.. وعرفت منها عنوانه..

وزوجته هذه سيدة طويلة، شقراء، ممتلئة.. وفى عينيها خبث وعناد.. وهى من النوع الذى لا يعدل عن رأيه.. ولا يقتنع بأى رأى آخر.. وأنا لا أنسى كيف أنها عندما تزوجت أصرت على ألا تصافح والديه.. مع أن أحدهما مريض، وأنه قطع رحلة طويلة لكى يلقى عليها نظرة ويبارك هذا الزواج.. ولا أنسى أنها أصرت على أن أسير معها هى وزوجها فى ساعة مبكرة من الصباح، رغم أننى كنت متعبا، وعرفت السبب فيما بعد وهو أنها تحاول أن تتفادى الكلام مع زوجها لأنهما

اختلفا من أول ساعة.. وكان الخلاف بينهما سياسيا، ثم انتهى إلى تفضيل نوع الكلاب على نوع آخر.. وانتهت المناقشة إلى أن والدته «هو» أحسن من والدتها من ناحية الذوق فى الملبس، وأنها صاحبة أجمل وأطيب ابتسامة وأصدق ابتسامة..

وكان رد الزوجة:

– لا توجد امرأة لها ابتسامة صادقة..

وكان رد الزوج: إذن ابتسامتك لم تكن صادقة.. يوم نظرت إلىَّ فى الأوتوبيس.. كان كذبا..

واختلفا.. وكان لابد أن أبقى لأحمى هذا الزوج من الفضيحة وكانت هى صاحبة هذه الفكرة العنيدة.. ومن أجل صديقى بقيت..

فهى من هذا الطراز من الناس الذى يحشو رأسه بالطوب والحجارة..

وقررت أن أذهب إليه بنفسى ودون أن أخبر أحدًا.. ولا حتى هذه الزوجة.. وصديقى هذا طيب القلب.. ولكنه كتوم.. إن مشاكله كلها يخفيها فى أعماقه تمامًا، كالماء فى جوف الأرض.. وهذا الماء يجرى فى الأعماق.. وبين الحين والحين ينفجر على هيئة نافورات وآبار.. وأحيانًا يكون باردًا وأحيانًا ساخنًا..

وصديقى هذا لم ينفجر إلا مرة أو مرتين.. ولأسباب معقولة جدًّا.. فزوجته عندما تدعو إلى بيته أناسًا لا يعرفهم.. ويكون وجودهم مفاجأة له.. لا شك أنه يثور.. وعندما تخبره زوجته فى آخر لحظة أنها مدعوة إلى عشاء عند أناس تعرفهم هى.. ولا يعرفهم زوجها..

ولكن الذى جعل الماء ينفجر أخيرًا ساخنًا مليئًا بالوحل هو أنه فى يوم عاد إلى البيت فوجد أمه تبكى.. لقد حضرت الأم من بلد بعيد.. ولم تكد تصل إلى البيت حتى انسحبت الزوجة.. واخترعت أسبابًا تافهة.. وتركت الأم وحدها.. فى بيت كل حجراته مقفلة..

وهو مع ذلك إنسان طيب القلب.. تدل ملامح وجهه الدقيقة جدًّا على أنه عصبى وأنه ذكى.. وتدل مشيته الهادئة على أنه فى حالة تربص.. وفى الحقيقة أنه هادئ جدًّا.. ولا يثور إلا نادرًا.. وليس عصبيًّا، وإنما يتحكم فى أعصابه، ومشيته الهادئة، سببها أنه يشكو من الكبد.. ولا أعتقد أن مرضه هذا قد ثقل عليه.. ولا أعتقد أن هذا المرض الثقيل قد دفعه إلى اعتزال الناس، والفرار منهم، والحياة مع الحشرات..

ولكن لا أستبعد أن يدفعه شذوذه – كما تقول زوجته – إلى الزهد والتصوف..

ويوم قررت أن أزوره ركبت القطار.. وظللت طوال الطريق أستعرض حياتنا معًا.. كيف أننا من قرية واحدة.. وكيف أننا ذهبنا إلى المدرسة معًا.. وكيف أننا كنا نحلم ونحن صغار بمناصب كبيرة فى الدولة.. وكان هو يصر دائمًا على ألا يشتغل فى الحكومة.. وكان أمله أن يفتح دكانا لبيع الأسلحة والمواد المتفجرة..

وكنا نسخر منه.. ونتهمه بأنه مجرم حرب تحت التمرين.. وكان يضحك ويقول: إننى أمثل دور الشيطان.. إننى أمثل المقاومة فى كل مجتمع.. إن الدول كلها تخافنى وكل العالم يتحد ضدى.. كل هذه المذاهب الدينية والأخلاقية والسياسية تختلف وتتفق ضدى.. ضد الشيطان؛ الكائن المخيف الذى يوزع الهلاك والدمار.. فأنا مصدر الوحدة والحب والسلام والجنة.. فى الدنيا وفى الآخرة!

وكان يقول:

– إن الشيطان هو الممول الأكبر لكل هذه الهيئات.. لولاه لأفلسنا جميعًا! وكان يأتى بحركات عصبية تدل على غروره وعلى استخفافه بكل الناس وكل القيم.. وقد رأيت هذه الحركة يوم زواجه عندما تشاجر مع زوجته.. وعرفت فيما بعد أنه لا يأتى بهذه الحركة إلا إذا أصابه اليأس وإلا إذا بلغ به الغرور أقصى درجاته..

وعندما ذهبت إليه.. خطر لى فجأة أن هذا الهرب لابد أن يخفى وراءه قصة غرامية.. مغامرة من نوع ما.. وتذكرت أن صاحبى هذا شكا كثيرًا من زوجته.. ومن عنادها الشديد، ومن غرورها.. فهى ترى نفسها أعقل وأجمل وأرق سيدة فى الدنيا.. وأن السماء قد رضيت عنه وغضبت عليها، عندما جمعت بينهما..

وتوقعت أن أراه مريضًا.. فهو يكره المرض.. ويكره أن يراه أحد من الناس مريضًا.. وخصوصا زوجته.. إنه يرى فى عينيها الشماتة.. ويرى فى عينيها الخوف من العدوى.. ويرى فى عينيها الندم على زواجها من رجل غنى عجوز.. ويرى فى عينيها التربص وانتظار الفرصة التى يموت فيها لتنتقل هى إلى قريتها لتعيش مع أمها وتتزوج ابن خالتها الشاب الذى أقسم أن يتزوجها يومًا ما.. وأيدت أمها هذا القسم.. ويرى فى عينى زوجته الضيق الشديد من كل أصدقائه، ومن زوجات أصدقائه اللاتى يؤكدن دائمًا أنه خسارة فى هذه السيدة المغرورة.. وأن هناك الملايين من الفتيات يتمنين الزواج منه.. لشخصه لا لأمواله..

وخطرت لى فكرة أزعجتنى.. هى أننى قد لا أجده فى هذا العنوان الذى عرفته من الصحف والإذاعة..

ولكن وجدته.. فتح لى الباب وعانقنى.. وهو يقول:

– كنت أتوقع أن تجىء.. ولا داعى لأن تضيع الوقت.. هيا بنا..

ولم أفهم.. ولكنه سحبنى من يدى إلى غرفة كبيرة.. وعلى جدران الحجرة وجدت أوراقا معلقة.. واقتربت من بعض الأوراق المكتوبة بخط يده.. ولم أفهم.. كلها مكتوب عليها:

زرع.. درس.. أكل.. شرب.. هرب..

لم أفهم.. سألته، قال:

– كان والدى يقول لى دائمًا كلمة لا أنساها: طفولة بائسة ورجولة أكثر بؤسا.. لم أفهم أيضًا وسألته:

– ماذا تعنى؟ ماذا حدث؟ لماذا هربت؟ ماذا تعمل؟ وكم شهرًا ستبقى؟ وهل ستعود إلى زوجتك؟..

وأترك صديقى يروى ما حدث فهو أقدر منى على الكلام.. وهو ألطف وأكثر مرحًا.. قال:

– لأسباب غير مفهومة اقتنعت بزوجتى وكان لابد أن أتزوجها، لقد أقنعتنى زوجتى أنها بفضل أموالى سنؤسس محلاً نموذجيًا لبيع المأكولات والمشروبات والملابس والكتب.. وأنا أحب العمل والإنتاج.. ولأسباب لا أعرفها عدلت زوجتى عن هذا المشروع.. وعرفت أخيرًا أنها ترى فى هذا المشروع تبديدًا للأموال.. وعرفت من خطاب وقع فى يدى أن زوجتى لا تريد أن تنجب أطفالا.. وعرفت من إحدى قريباتها أنها اتفقت مع أحد الأطباء على أن يصر على علاجى فى سويسرا، وأن يقنعنى بأن أبقى هناك بعض الوقت لكى تبقى هى تدير مزرعتنا وتضع أرباحها لحسابها الخاص.. وعرفت أن زوجتى تتهمنى بالجنون.. وأنها فى إحدى الحفلات قد تحدثت عنى بسخرية، وقد عاتبها بعض الحاضرات.. فسخرت منهن أيضًا.. وأنا لا أكره زوجتى ولكن أشفق عليها.. فلقد عرفت أمها.. ولو عرفت أباها، ولو عرفت كيف كانت طفولتها تعيسة شقية، وكيف أن المعارك الدامية كانت تدور بين أمها وأبيها.. وكيف كان والدها أثناء المعركة يطلب منها.. من زوجتى أن تأتى له بسكين.. وكيف أنها كانت تصرخ وتبكى وهى تحمل السكين وتمد يدها لأبيها لكى يقتل أمها.. وكيف حارت الطفلة بين صراخ أبيها ودموع أمها.. والسكين فى يدها.. وكيف أن هذه الفتاة كانت تصاب بحالات هستيرية.. وكيف أنها تنهض من نومها وتصرخ قائلة: السكين.. السكين..

وكيف أنها يوم زفافها رأت السكين فى يد أحد المدعوين يقطع به التورتة فأغمى عليها.. ولم يعرف أحد سر هذا الإغماء..

وسألته:

- ولكن ماذا تنوى أن تفعل هنا؟

قال: فى نيتى أن أعطيها حريتها.. لتختار الرجل الذى يعجبها.. إنها لم تحبنى أبدًا.. وإنما هى رأت فى حياتى وفى أهلى الشىء الذى لم تجده فى أهلها.. فنحن أغنياء.. وأبى وأمى طيبان سعيدان.. لا خلاف.. لا سكاكين.. لا صراخ.. لا دموع.. فكان زواجها منى.. زواج فتاة هاربة.. لاجئة.. ولكن عندما هدأت اللاجئة.. عاودتها مخاوفها القديمة.. فقررت هى دون شعور منها أن تهرب مرة أخرى..

وقلت: ولكن ما علاقة هذا بهربك أنت إلى هنا؟

قال: لعلك لا تعرف أننى كنت مشغولا بالتأليف طوال عمرى.. وأننى ألفت أكثر من مائة كتاب.. لم يقرأها أحد ولم يرها أحد..

وازداد الموقف غموضا وقلت: بصراحة.. لا أفهم شيئًا مما تقول..

قال: لابد أن تفهم.. لأننا سنعمل معًا.. هذه الكتب كلها عن الطفل.. وتربية الطفل.. فكما قال والدى: «إن الرجولة التعيسة لا تخلفها إلا الطفولة التعيسة..»

وقد قررت أن أضع كل تجاربى وخبرتى فى هذه الكتب الصغيرة.. سأقول فى هذه الكتب كل ما قلته لك الآن عن طفولة زوجتى.. إننى أريد أن أشفيها من مرارتها.. أريد أن أنبهها إلى أن هذه المرارة معدية، إنها تنتقل من الأم إلى الأجيال القادمة.. وليست زوجتى هى الوحيدة بين النساء.. فمثلها كثيرات ولدن من الطفولة التعيسة .. إننى أهدف إلى طفولة أحسن.. أسعد.. من أجل رجولة أصح وأنضج..

وسألته:

- وماذا قررت؟

فأجاب: إننى أنشئ مدرسة، وأن أخير زوجتى بين إدارة هذه المدرسة، والطلاق. وهل تعرف ماذا اختارت.. لقد اختارت الـ...

ولم يكمل هذه العبارة وإنما نظر ناحيتى ليسألنى:

- ما رأيك أنت؟ هل تعرف ماذا اختارت زوجتى؟..

وفوجئنا بشاب يقفز بيننا وفى يده برقية.. ولم يمد يده.. وطلب منى أنا أن أفض هذه البرقية.. وكانت البرقية من قسم البوليس فى قريتنا. والبرقية تقول: احضر فورًا معركة دامية بين زوجتك ووالديك.. لقد مات الثلاثة.. احضر!

تطلع هو والوجوم على وجهى وقال فى هدوء مذهل:

– أعرف.. لابد أن زوجتى انتحرت.. إنها لا تحب أحدًا ولا يحبها أحد.. ولابد أن والدتى ماتت بالذبحة الصدرية؛ لأنها فقدت ابنها وزوجته فى يوم واحد.. ولابد أن أبى انهار عند وفاة والدتى.. إن الزواج قد جعلهما توأمين.. أعرف هذا وتوقعته.. كلهم طفولتهم تعيسة.. إن طفولتهم عميقة.. تعاستهم ماء يجرى تحت الأرض.. مساكين.. إن أيامهم تمر عليهم كالهواء عندما يمر على أوراق الشجر.. ولكنهم يمرون على الأيام كما تمر قطعة من الزبد على سكين.. سكين التعاسة والمرارة وكراهية الناس.

ثم سكت صاحبى وقال:

– من أجل الذين بعدنا جئت هنا أكتب هذه الكتب، هذه الروشتة؛ للشفاء من المرارة.. من التعاسة.

□ □ □

إنها زوجتى

لا أدرى من الذى قال إن الفنان فى حاجة إلى قسوة. إن كل الناس يرددون هذه العبارة، ويشعر الفنان أمام الناس أنه إنسان غريب: إنه طفل مدلل، محتاج إلى أم تضربه، وإلى أب يحرمه من الطعام، وإلى مدرس يحبسه فى الفصل.

لا أدرى من الذى قال هذه العبارة. ولا أدرى لماذا بقيت عالقة فى ذهنى.. وهل لأن أبى كان قاسيًا علىَّ؟؟ هل لأن أمى هى الأخرى كانت أقسى من أبى، فماتت بعد أن ولدتنى بلحظات وتركتنى أبحث عن حنان الأم عندما فكرت فى الزواج؟ وجعلت أستعرض كل بنت فى قريتنا الصغيرة. ولم أجد واحدة منهن تصلح للزواج منى. إننى لم أسأل واحدة منهن إن كانت تقبل الزواج منى. ولكننى جعلت أستعرضهن الواحدة بعد الأخرى، هذه سمراء وتلك شقراء.. هذه فقيرة مثقفة.. وتلك غنية بلهاء. ولم أسأل نفسى أبدًا إن كنت أنا الزوج المثالى أو فتى أحلام هؤلاء القرويات جميعًا.

وأخيرًا فكرت فى هذه العبارة الغريبة وأنا على فراش المرض منذ أسبوع. فأنا الآن فى أحد المستشفيات.. والسرير صغير.. والغرفة خانقة.. وتتراءى أمام عينى سحب تروح وتجىء. وقد عرفت فيما بعد أن هذه السحب هى الممرضات. وأن هذه السحب كثيرًا ما أنزلت أمطارًا مريرة فى فمى. كثيرًا ما ألقت بقطع من الثلج المدبب ينفذ فى جلدى. كل ذلك وأنا فى غيبوبة تامة فلا أشعر بأحد، ولا أشعر بنفسى، وكل شىء يدور فى رأسى بلا ترتيب ولا نظام. كأننى أحد الميادين التى امتلأت بالسيارات وخلت من عساكر المرور وإشارات المرور. فالعربات تتزاحم والسائقون يتضاربون، والشتائم تتعالى. أما أنا فتحت هذه العجلات جميعًا.

وقد فكرت وأنا تحت العجلات أننى قد قاسيت الكثير فى حياتى.. وأننى تعذبت.. وأننى وحدى.. وأننى لم أجد الرحمة من أحد، ولم أجد الحنان من أحد.. وأننى قطعة من الذهب فى يدى طفل أعمى. أما هذا الطفل الأعمى فهو: أسرتى

وأبناء قريتى وبيئتى كلها. فهذه إذن هى القسوة التى تتحدث عنها العبارة المشهورة.. لقد رأيت منها الكثير، وكفانى ما رأيت. ولست فى حاجة إلى زوجة تضاعف عذابى. ولكن عندما يكون الإنسان هكذا وحده فإنه يفكر فى أى إنسان آخر؛ ليحمل عنه بعض هذا العذاب، لا كل الوقت، ولكن بعض الوقت.

إن الإنسان يشترى راحته بنقوده. إنه يذهب إلى المسارح وإلى دور السينما، ويلقى متاعبه على الآخرين..

وفى غيبوبتى هذه أحسست أننى أنظر إلى المرأة بقسوة شديدة، فالمرأة ليست سلعة، وليست شماعة يشتريها الإنسان ليضع عليها متاعبه وهمومه. بل هى إنسان مثلى له قلب، له عقل، وفى حاجة إلى إنسان يحمل متاعبها أيضًا. فالزواج هو تبادل المتاعب والراحة والأمل. ولا يقتل الزواج إلا عندما يلقى أحد الزوجين همومه على الآخر.

وفكرت فى جارتى «أمينة» إنها فتاة طيبة القلب، سمراء، تحسن الغناء وتحسن الرقص وتعمل فى إحدى الشركات.. وهى يتيمة مثلى، وسأترك لها نفسى لكى تديرنى لكى تعرف أين تذهب أموالى التى اكتسبتها وأين تذهب أوراقى التى أكتبها. وسأحدثها عن أصدقائى وأعدائى. إنها وحدها التى تستطيع أن تكون زوجتى، وأن تجعل العبارة المشهورة التى ترن فى أذنى عن القسوة على الفنان، عبارة لا معنى لها. إنها وحدها تستطيع ذلك!

فقررت أن أتزوجها.. ونظرت حولى فلم أجد السحب المتحركة فى غرفتى.. كانت الغرفة صافية.. وكان فى سماء غرفتى قمر يلمع.. وهذه الفكرة هى أيضًا القمر الذى يلمع فى وسط همومى السوداء..

وفى لحظة عاودنى الهم والقلق.. فهذه الفتاة قد ذهبت إلى المحكمة عدة مرات بتهمة الاعتداء على الموظفين بالضرب.. ففى العام الماضى كسرت أسنان شاب فى العشرين من عمره، وفى هذا العام ألقت صندوقًا خشبيًا على رأس إحدى جاراتها.. وعندما حاول أحد الشبان أن يعاكسها فى الطريق مزقت ملابسه.. إذن كيف أتزوج هذه المرأة المخيفة التى تضرب وتمزق والتى تعودت الوقوف أمام المحاكم. إنها لم تعد تخاف أحدًا، لا رجال البوليس ولا رجال القضاء ولا رجال قريتنا.. فكيف أكون مصدرًا لخوفها أو احترامها.

فإذا تزوجتها وتشاجرنا ووقفنا معًا أمام القاضى فإنه سيسألنى:

– لماذا ضربت زوجتك؟ فأقول له: إننى لم أضربها.. إنك يا سيدى القاضى تستطيع أن ترى أسنانى قد تهشمت كلها.. إنها هى التى اعتدت علىَّ. ويقول القاضى: ولكن ليس معقولا أن فتاة نحيلة رقيقة كهذه تعتدى على عملاق مثلك.. وأرد عليه قائلا: إن هذا العملاق يحبها.. والحب يجعل أضخم عملاق قزمًا صغيرًا.. فهى العملاق وأنا القزم وهى التى اعتدت علىَّ.. ثم إنها يا سيدى القاضى قد وقفت أمامك مرات عديدة بتهمة ضرب الآخرين ويقول القاضى: إنها كانت تدافع عن نفسها ضد رجال ونساء يريدون سرقة حليها أو الاعتداء عليها.. أما أنت، وهى زوجتك وهى تحبك وأنت تحبها.. فأقول له: إذن فلأى سبب وقفت أنا وزوجتى أمام المحكمة.. هل ضربت نفسى وجئت أفضح زوجتى فأكون حديث القرية؟. إن هذا لا يشرفنى يا سيدى.. إننى جئت أطلب إليك أن تباعد بينى وبينها.. فإننى رقيق الحس والكلمة تجرحنى، والصرخة تدمينى، والقسوة تميتنى.. لقد رأيت الكثير من ألوان القسوة.. ولكن هذا اللون هو أقساها جميعًا.. فارحمنى يا سيدى القاضى.. ارحم فنانًا مسكينًا من زوجة لا تفهمه ولا تحبه، ولا ترحمه..

وبدأت أرتعش فى سريرى، وبدأت أشعر أن سريرى يعلو ويهبط.. وأحسست بالعرق ينساب من رأسى إلى أذنى، وإلى عينى، وخيل إلىَّ أننى غريق.. وأننى كلما مددت يدى إلى أعلى لم أجد إلا السحاب، ولم أجد إلا القمر.. حتى القمر فى سماء غرفتى قد تحول إلى نار ملتهبة.. ورأيت للنار عينين، وأطلت النظر إلى هاتين العينين.. فوجدت فيهما عينى «أمينة» ورأيت النار فى عينيها تتحول إلى بريق، والبريق يتحول إلى لمعان هادئ، ثم إلى ابتسامة رقيقة تجفف عرقى، وتمسح دموعى.. ويلين الفراش تحت جنبى وأجدنى واقفا أمام القاضى أقول له:

– يا سيدى القاضى إنما أردت أن أعتذر أمامك عن كل أفكارى السوداء وعن قسوتى على زوجتى.. إننى أقسو عليها لأننى لم أعرف الراحة ولا الرحمة.. إن كل الناس ضربونى وعذبونى.. إن كل الذين لا أعرفهم قد شربت المر على أيديهم.. وأنا لا أستطيع أن أنتقم من الناس.. وإنما من بعض الناس، من المقربين منى.. من أخى وأختى وخادمى ومن زوجتى.. لماذا أنتقم منهم مع أنهم أبرياء؟ ولكن أنا أيضًا برىء، غير أن براءتى هذه لم تكن تلين قلوب الناس.. فاعذرنى .. والآن أنا ألتفت إلى كل الناس ورائى فى هذه المحكمة، وأناشدهم أن يرحموا أبناءهم

وأخواتهم وزوجاتهم.. لقد جئت إلى هنا أطلب الصفح منك ومنها.. من «أمينة» التى أحبها..

ويقول القاضى وهو فى ذهول تام: ولكن أنا لم أعرف هذه السيدة التى تتحدث عنها؟

لقد استمعت إليك طويلا وأنا فى دهشة من أمرك.. إننى قدرت أنك مريض وأنك تهذى.. وأنا أريد الآن أن أعرف هذه السيدة أمينة! من هى؟

وفى هذه اللحظة لم أدر ماذا أقول للقاضى.. فبعد هذا الدفاع الطويل يسألنى عن أى شىء أتكلم، مع أن كلامى واضح، وأعتقد أنه صريح وأنه جرىء أيضًا.. إن هذه هى أعظم إهانة وجهت إلى رجل صريح مثلى، رجل صناعته الكلام، رجل تجارته المعانى، ورسالته هى إشاعة النور فى كل مكان.. إن هذا أقسى حكم أصدره قاض على متهم.. بل لست متهما.. أين هى تهمتى؟. حتى أنت يا حضرة القاضى!!

ولا أعرف كم مضى من الوقت.. وكل ما أعرفه هو أن حبالا متينة ضخمة التفت حول عنقى، ورفعتنى إلى أعلى، ورفعتنى من هوة عميقة مظلمة رطبة.. ولا أعرف من الذى رمانى فى هذه الهاوية.. لا أعرف.. وأمام عينى رأيت الضباب يجرى ويطارد النور.. ورأيت لأول مرة منذ أسبوع أننى فى مستشفى، وأن الممرضات قد اجتمعن حول سريرى.. ورأيت الابتسامة على وجوههن جميعًا.. لم يكن ابتسامًا، وإنما كان ضحكًا ساخرًا.. وبدأت أتذكر أسماء من حولى.. هذه «سامية» الممرضة الأولى.. إنها تحب الأغانى وتتمنى لو كانت مطربة يوما ما.. وهذه أختها الجميلة.. وهى راضية بجمالها وسعيدة به، وتنتظر أن يتزوجها أحد الأطباء الشبان.. وكانت جارتى يومًا ما.. وهذه أصغر الممرضات.. إنها شابة كلها حياة.. إنها لا تتكلم ولا تفكر، وإنما الحياة تتحدث فيها بفصاحة، وأحيانًا بإسراف، فهى مفرطة الطول.. وهذه «أمينة» فى ملابسها السوداء، وابتسامتها المكتومة وقفازها الأخضر.

والآن أقدم لكم أمينة: إنها زوجتى القاسية منذ خمس سنوات!

□ □ □

بلا ورق

كل ما أعرفه أننى ولدت وأوراق اللعب فى يدى.. سمعت أن أبى كان لاعبًا كبيرًا وكان يكتسب مئات من الجنيهات من القمار.. وسمعت أن جدى كان كذلك.. لم أر والدى فقد مات فى إحدى معارك القمار..

ويقال إنه ربح مبلغًا من المال واكتشف زملاؤه أنه كان يخفى الأوراق تحت قدميه.. فضربوه وقتلوه.. ولما سألت أمى مرة عن سبب وفاة أبى كانت تقول:

إنه كان يدمن الشراب.. وكان إذا شرب لا يفيق.. وإنه شرب زجاجة من الخمر دفعة واحدة..

وعرفت بعد ذلك أن أمى كانت تخفى الحقيقة عنى..ولكنى عندما كبرت آمنت أن أمى لم تكن تكذب، ولم تكن تحاول إخفاء الحقيقة، وإنما قالت الحق.. فلعب الورق كالخمر بل أقسى من الخمر.. ولاعبه لا يفيق.. بل إنه لا يصحو أبدا.. إنه مفتوح اليدين، جيبه لا يشبع، ويده لا تقنع..

والآن أستطيع بعد هذه المقدمة أن أبدأ قصتى.. وأن أقدم نفسى..

أنا الطفل الوحيد لأمى.. لم أر أبى كما ذكرت.. ولا أعرف كيف أدخلتنى أمى المدرسة.. وكنت أراها تخرج مع الشمس.. وتعود مع الليل.. وعرفت بعد ذلك أنها تعمل فى أحد البيوت خادمة.. وعرفت أنها ترهق نفسها بالعمل.. ولم أكتشف إلا أخيرا أن كل هذا الإرهاق كان من أجلى أنا.. وأمى كان يكفيها القليل من الطعام والشراب، والقليل من الملبس.. إنها كانت تحتفظ بثوب تذهب به إلى السوق.. وكانت تدعو لأبى فى صلاتها ولابنها الوحيد.. الذى يشبه أباه فى كل شىء.. فى حركاته العصبية وثورته، وفى ميله للعب واللهو، وفراره من المدرسة إلى البيت..

وحاولت أمى بكل قواها وكل دموعها أن تردنى عن الشارع، عن اللعب، عن النوم فى الطريق.. عن ضرب الأطفال وإسالة دمائهم.. ولكن أمى لم تفلح.. حاولت أمى أن تجعل منى إنسانا أليفًا.. أن تجعلنى تلميذًا نظيف الملابس، نظيف الكلام،

نظيف اليدين.. ويؤسفنى أن أقول إن أمى لن تفلح.. ويئست أمى.. وبلغ بها اليأس أقصى درجاته، فقالت لى يوما:

– اسمع يا بنى.. إننى مريضة.. وقد عملت كل شىء من أجل صحتك وتعليمك، ولكن لا أستطيع.. إننى حاربت كل الأعداء فيك.. حاربت فيك طباع والدك، وحاربت فيك استخفاف خالك، وحاربت فيك ضعفى.. ولا أمل لى فى سلام أو راحة معك.. والأمر الآن لك.. لقد قررت أن ألزم البيت.. وأن أقنع بالقليل من المال..

ولم أجد ما أقوله لها.. وإنما خرجت من البيت ولم أعد.. وانتقلت من بلد إلى بلد.. تسبقنى سمعتى وشهرتى كأعظم لاعب للورق فى كل هذه المنطقة.. وقال الناس عنى إننى الساحر الصغير.. وقالوا العملاق ذو الأصابع الذهبية .. ومرعب الورق.

وكانت هذه الألقاب تملأ نفسى بالغرور.. إنها تشبه الألقاب التى يطلقونها على أبطال الرياضة.. وكنت إذا ترددت على المقاهى أشار الناس إلى.. وأفسحوا لى الطريق.. وكنت إذا جلست إلى مائدة القمار.. لا أرفع عينى عن الورق ولا عن النقود.. وكنت لا أعرف متى يبدأ الليل، ولا متى يبدأ النهار.. الليل مربوط بأول النهار، والنهار مربوط بآخر الليل.. والنهار والليل يدوران حولى.. كما يلعب الأطفال الصغار حول أمهم، وأنا سعيد بهذا كله..

واشتريت سيارة جديدة.. وأهديت هذه السيارة لسيدة رأيتها تبكى، لأن أحد اللصوص سرق بيتها، وسرق ملابس ابنتها التى ستزف بعد أيام.. واكتشفت بعد ذلك أننى ارتكبت عملا سيذكره التاريخ على أنه أعظم ما يقوم به إنسان أحمق.. ولكننى لم آسف على ذلك ولم أغضب.. إننى أستطيع أن أجمع ثمن السيارة فى ليلة أو ليلتين.. وإلا فأين ذهبت أصابعى الذهبية.. وكنت أعطف على الناس، وأعطيهم من جيبى.. بل إنهم كانوا يأخذون أموالى دون استئذان منى..

وأذكر أننى آويت صديقا فى بيتى.. وعرفت بعد ذلك أنه كان هاربا من القانون وأنه قتل زوجته .. وقتل ولديه التوأمين.. وجزعت جزعا شديدا.. وتركت البيت، وتركت كل ما فيه من أثاث..

وتقدمت لخطبة فتاة.. فأعجبها مظهرى.. ولما علمت أننى أجمع أموالى من القمار رفضت أن تتزوجنى .. وأدهشنى هذا الرفض. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة: لا.. وبإصرار شديد.. تعلقت بالفتاة.. وألححت فى زواجها، ولكنها

رفضت دون أن تبدى أية محاولة لإقناعى.. كأننى أختلف معها فى أول مبدأ من مبادئها..

وكدت أفقد صوابى.. ولكن الفتاة أصرت على الرفض.. وأصررت أنا على أن أسمع وجهة نظرها..

وقابلتها فى عرض الطريق.. وقلت لها: يجب أن أسمع منك الآن، لماذا ترفضين الزواج من شاب وسيم فى الثلاثين من عمره.. ويملك خمسة آلاف جنيه؟!

فقالت: ولكن كم من السنين ستبقى هذه الأموال.. إن أموال القمار كالشمع.. تذوب قبل أن يكون لنا طفل واحد ننفق عليه.. ولن تستطيع أن تجمع بينى وبين منضدة القمار! هل تستطيع أن تحب اثنين فى وقت واحد.. أنا لا أستطيع. ولذلك أرفضك وأرفض أموالك وأضيف إلى هذا كلمة واحدة.. أرجو أن تظل عالقة بأذنك وأذن أخى هو الآخر.. هذه الكلمة أرجو أن تحفظها وأن تعلقها أمامك على الحائط.. أحتقرك! هذه هى الكلمة، وإياك أن تخطئ فى كتابتها.. وإذا أخطأت، فأنا على استعداد أن أكتبها لك.. وأن أبعثها لك كل صباح.. أحتقرك.. تذكر هذه الكلمة جيدًا!

نسيت أن أقول إن هذه المناقشة أو هذه المعركة قد وقعت أمام الناس.. وفى الشارع.. ونسيت أن أقول.. إنها بصقت فى وجهى!

ولم أنم تلك الليلة.. ولا عشرات الليالى بعدها.. لم أذهب إلى منضدة القمار.. ولم أنظر من نافذة ولا من باب.. وإنما ظللت أتمرغ فى فراشى محموما.. وتحت تأثير هذه الحمى كنت مشغولا بعدد من الأطباء وأسمائهم.. وأسماء الممرضات فى المستشفى.. ولم تشأ هذه الفتاة أن تزورنى..

وفى يوم خروجى من المستشفى.. مررت بأحد المساجد.. وصليت الظهر لأول مرة فى حياتى كلها.. وبكيت لأول مرة فى حياتى.. وأخذت قرارًا واضحًا لأول مرة أيضًا.. وبدلا من أن أتجه إلى بيتى.. اتجهت إلى بلدتنا التى فررت منها منذ عشرين عامًا.. إلى أمى..!

وفى الطريق جلست فى المقعد الخلفى للسيارة.. حالمًا ذاهلا.. لا أفكر فى شىء وإنما أطرد عن رأسى أى تفكير فى أى شىء.. ووضعت يدى فى جيبى؛ كأننى أخفى الدم الذى يجرى بين أصابعى.. إنه دم الورق.. أو دم السرقة.. أو دم الجريمة.. لا أدرى..

وبدا لى أن أسأل السائق إن كان يعرف الطريق، فقال إنه من أبناء هذه القرية..
إذن هو من بلدنا.. إذن هو يعرف أهلى..
فسألته: كيف حال العمدة حسن الأشقر.
وكان هذا هو اسم أبى..
فسكت السائق طويلا ثم قال: لكن العمدة الأشقر قد مات يا سيدى منذ وقت طويل.. منذ أكثر من ١٥ عامًا!
وعاد السائق يقول:
هل أنت من أقاربه يا سيدى؟
فقلت: إنه والدى..
وسكت السائق وفى دهشة أو احتقار ـ لا أدرى ـ مضى يقول: البقاء فى حياتك يا سيدى.. أظنك جئت لتزور قبر أمك.. لقد جئت متأخرًا يومين كاملين..
إذن لقد ماتت أمى.. منذ يومين.. ماتت فى اللحظة التى قررت فيها أن أزورها.. أن أراها.. أن أقول لها إننى قررت أن أكف عن لعب الورق.. لعل أمى قد أحست أننى قد تبت عن هذه اللعبة.. وكانت تتمنى ذلك.. لقد ماتت أمى فى اللحظة التى تحققت فيها أعز أمانيها..
ووقفت بنا السيارة عند المقابر..
وانطلقت بين القبور حتى بلغت قبرًا جديدًا أبيض.. ورأيت اسم أمى منقوشًا عليه.. لقد ادخرت كل أموالها لتقيم هذا القبر.
وركعت عند حافة القبر وظللت هكذا صامتًا.. ولم أملك أن أحبس دموعى.. وانطلقت كل الدموع التى احتجزتها فى رأسى عشرين عامًا.. وجعلت أرتجف وأمد يدى إلى الأرض وأمسك حفنة من التراب وأقبلها.. ثم أضعها فى جيبى..
وفى هذه الأثناء أحسست بهمس يقترب منى وتواريت وراء إحدى الأشجار.. ووجدت فتى وفتاة يقبلان نحو المقبرة.. ويركعان ويقبلان التراب.. وينهضان.. ويضع الفتى يده حول خصر الفتاة وتسأله الفتاة:
– وأنت كم كسبت أيضا؟
– عشرة جنيهات.. وأنت كم كسبت؟
– سبعة جنيهات.
وخرجت من وراء الشجرة وقلت:

- عفوًا.. هل أنتما تعرفان صاحبة هذا القبر؟

فقالا معًا:

- نعم.. إنها أمنا.

إذن لقد تزوجت أمى بعد فرارى من البيت وأنجبت هذين الأخوين..!

فقلت: يظهر إنكما تلعبان القمار..

فقالا: نعم.. ونحن مدينان بمبلغ عشرين جنيها.. فإذا جمعنا هذا المبلغ فلن نلعب القمار أبدا.. وقد عاهدنا أمنا على ذلك قبل موتها.. ونحن متمسكان بهذا العهد..

فقلت: ومن الذى علمكما القمار فى هذه السن الصغيرة؟

فقالت الفتاة: لا أعلم.. ولكن وجدنا عند أمنا عشرات من صناديق أوراق اللعب.. وكنا نلعب خلسة واليوم نلعب علانية.. ولكن سنتوقف عن اللعب قريبا..

فقلت:

أليس لكما أخ؟

فقالا معا: لنا أخ.. إنه يلعب القمار أيضا. ولكن لا ندرى.. أهو حى أم ميت!..

فبكيت.. ووضعت ذراعى حول أخى وأختى.. وركعنا جميعا عند قبر أمنا وقبلنا التراب بأفواهنا.. واتفقنا على ذلك فى آن واحد..

وعدت إلى بيتنا.. فقد أصبح لى أخوة..

وماتت أمنا، ومات أبى.. وقد جمعنا الحب.. وبدأنا حياة جديدة.. حياة بلا ورق وبلا ندم!..

□ □ □

منه لله جاجارين

البيت مكهرب.. كل بيت
الأشياء الصغيرة تكبر..
عود الكبريت حريقة.. الكلمات
مظاهرة.. النظرة رصاصة
كل مشاكل الدنيا موجودة
فى مسافة صغيرة جدا
هى التى بين زوج وزوجته
فالزواج هو محاولة مستمرة
لترويض وحش مفترس يتمدد فى
جسمين وعقلين فى وقت واحد..

زوج وزوجة واضح جدا أن الاثنين قد تشاجرا حتى تعبا.. الزوجة بوزها أكثر من شبرين.. الزوج وضع يده على خده وراح ينظر فى السقف. كان ينتظر أن ينهد البيت أو يتدلى حبل يتعلق به ويهرب.. والزوجة من حين إلى حين ترميه بنظرة ضارية.. ضارية بالقلم.. بالشلوت. وفى نفسها أن تقول أى شىء. لولا أن الزوج غطس منها فى صمت وفى توتر وفى قرف. وفى كل مرة تنظر إليه يمد شفتيه إلى الأمام.. كأنه فى حديث داخلى مع نفسه.. وشفتاه تنطقان كلمة واحدة.. الشفة الأولى تقول: «ط» والثانية تقول.. «ظ» لا هى تتكلم ولا هو يكف عن النطق بالحرفين الصامتين. وإلى جواره توجد بعض الأوراق المكتوبة.. الملقاة على الأرض كتب كأنها أطفال صغيرة وقعت على وجهها تصرخ دون أن تمد إليها يد.. وكتب نامت وتحتها صفحات مطبقة.. كما ينام إنسان فوق ذراعه ويحلم بأن لصا يجرى وراءه وهو لا يستطيع أن يفلت منه.. والكتب أيضا تتحرك عندما تصطدم بها أقدام عصبية.. تتحرك ولا تتكلم.. وأخيرا بدأت المعركة.. كلمة من هنا

ونظرة من هنا.. وقدم تجيء فوق كتاب.. ويد تمتد إلى الكتاب وتنفض عن التراب وتضعه مفتوحا.

الزوجة: إيه مالك.. عملت لك إيه دلوقت.. متتكلم.. انت عاوز تنزل.. انزل.. بس بعد كده متجيش تقول.. بطني.. ظهرى.. الحقيني.. مالك مش عاوز تتكلم ليه.. أفضل أتكلم لوحدى.. أنا اللى لازم أتكلم طول الوقت.. إذا زعلت أنا اللى أصالحك.. إيه بس مالك.

الزوج: مافيش حاجة.. مش عاوز أتكلم.. هو لازم أتكلم يعنى.. افرضى ان واحد عاوز يقرأ.. عاوز يكتب.. ازاى يعمل ده ويتكلم..

الزوجة: اشمعنى النهاردة ما أنت كل يوم بالع راديو.. وبالع مسرح كمان.. مش كل يوم بتتكلم وبتتنطط.. إيه اللى قفل الراديو ونزل ستارة المسرح.. إيه بس انت حاتجنني يا راجل انت.

الزوج: برضه مش حاتكلم.. عاوز أسكت.. عاوز ما أفتحش بقى.

الزوجة: وانت من امتى بتفتح بقك.. انت موفره.. خايف على سنانك تقع.. إيه اللى أنا عملته.. أنا غلطت علشان بقولك إيه العلامة الزرقاء اللى فى ذراعك دى.. قول أى كلام هو أنا ضربتك على ايدك.. قول إنك اتخبطت فى الباب.. «ثائرة» وهوه معقول تتخبط فى الباب.. ليه انت بتمشى على الحيط.. أنا أصدق أن الباب له أسنان.. الباب بيعض عندكم فى المكتب.. عاوزنى أصدق الكلام ده.. عيلة صغيرة أنا.. يعنى مش من حقى أسأل.. فيها إيه دى.

الزوج: أنا قلت لك..

الزوجة: قلت لى ان الباب خبطك.. نونو.. يا حبيبى.. أنا حاطة عصافير.. جاية من ورا الجاموسة..

الزوج: يا ريتك من وراء الجاموسة.. الا انت من وراء العقل.. حاجة ما حدش عرف لها مثيل فى الدنيا.. ايه ده ياشيخة اسكتى دماغى وجعنى.. انت أصلك إيه.. وكيل نيابة.. بوليس.. سجن.. اهدى .. اقعدى على بعضك.. كل اللى فى دماغى لخبطيه.

الزوجة: أى عقل؟ فيه عقل يقول ان فيه باب بيخبط بالشكل ده. يا أستاذ شوف مين عضك.

الزوج: يجوز الكلب اللى عند الجماعة اللى فوقنا.. انت عارفة انه سخيف

ويحب اللعب.. انت مش عضك الكلب ده.. انت ناسية.. أنا اتكلمت.. قلت حاجة.. انت قلت لى ان الكلب عضك.. خلاص سكت أنا..

الزوجة: وهى دى شطارة. إن كل كلمة أقولها تصدقها.. كل كلمة.. مش تسألنى إزاى: وقدام مين؟ مش عارفة انت ايه.. مافيش حاجة بتهمك.. اذا الكلب عضنى ولا حتى أكلنى ولا حاجة.

الزوج: يعنى أعمل ايه أنا عندى ثقة فيك.. يمكن تبقى عندك ثقة فىّ.

الزوجة: عندى ثقة فيك.. لكن عقلى ما يدخلش فيه أبدا إن الكلب يدخل من تحت كم القميص ويعضك ويجرى من غير أسنانه ما تسيب أثر فى الجاكتة وكم القميص.. عاوزنى أصدق ده.. وعاوزنى أسكت..

الزوج: الله يخرب بيته..

الزوجة: مين؟ الكلب؟

الزوج: لا.. جاجارين.

الزوجة: الكلب اسمه جاجارين؟

الزوج: لا.. ده جاجارين هو اللى خسر الدنيا. هو اللى خلى الزوجات يتصوروا إن الوضع المثالى للزوح انه يقعد على الكرسى مربوط.. وفى كل حتة من جسمه يوجد جهاز تسجيل.. يسجل التنفس.. والضغط.. والقلب.. والعرق.. كل حركاته محسوبة.. وهو صاحى وهو نايم.. وأحلامه مسجلة على ورق..

الزوجة: بتقول إيه؟

الزوج: بأقول إن حضرتك فاكرانى جاجارين.. طاير فى الهوا لا باشوف حد.. ولا حد بيشوفنى.. ولا انخبط فى حد.. ولا حد ينخبط فى.. فى الهوا كده.. وحضرتك متصورة إنى عارف كل حاجة.. عارف إيدى عملت إيه.. ورجلى.. ورأسى.. وقلبى.. واننى جاجارين اللى حاطت فى كل حتة فى جسمه ريكوردر.. والريكوردر له شرايط.. والشرايط يجب أن أذيعها كل ليلة على مسمع حضرتك.. الله يخرب بيت جاجارين وتيتوف الاثنين.

الزوجة: مالهم.. كل واحد منهم زوج وعنده أولاد وسعداء.. مالهم.

الزوج: أؤكد لك أن يوم ما امرأة جاجارين، وامرأة تيتوف شافته لابد أنها سألته ازاى يطلع رأسه من الصاروخ ويبص على أمريكا.. ازاى.. أؤكد لك.. ياشيخة.. بلا جواز بلا زفت.. جواز إيه.. معقول فيه أزواج سعداء.. هم لو كانوا سعداء.. كانوا يركبوا الصاروخ.. راكبين الصواريخ وعندهم أمل مايرجعوش..

الزوجة: لكن رجعوا.. إيه بقى.

الزوج: طبعا مقلب شربوه الاثنين. ومع ذلك لابد أن حرم جاجارين سألته عن الخبطة اللى فى دقنه. ومرات تيتوف سألته عن الخبطة اللى فى رجله.

الزوجة: طيب بيبعتوا اثنين متجوزين ليه.. إلا علشان أعصابهم كويسة.. أعصابهم مستريحة ولأنهم سعداء.

الزوج: مش علشان كده. علشان عندهم قاعدة عامة مدونة.. الذكور من البشرية. والإناث من الكلاب. يعنى عاوزين يبعتوا إنسان يبعتوا راجل. عاوزين يبعتوا حيوان يبعتوا واحدة ست.. زى لايكا.. آدى السبب.

الزوجة: قلبت الدنيا علشان باسألك سؤال لا طلع ولا نزل.

الزوج: لأ.. ده طلع ونزل.. بقالنا ست ساعات.. أنا أسأل وأنت تردى.

الزوجة: انت بتسأل.. انت سايبنى أهبهب لوحدى.. أنا عارفة ايه اللى شاغلك.

الزوج: انت عارفة أن أمك حوا قالت نفس الكلام لآدم.. مرة شافته قاعد تحت شجرة.. الأرض مليانة غابات وحيوانات.. والجو كان أكثر اعتدالا.. والراجل آدم قاعد مستريح.. مستريح كده زى أنا ما كنت قبل ست ساعات..

الزوجة: ألف نهار أبيض.. وقدرت تقول إنك مستريح.. انت بتطلع الكلمة بخلع الضرس.

الزوج: وبعدين..

الزوجة: بايخ الكلام اللى أنا قلته.

الزوج: وبعدين آدم بص لقى واحدة هاجمه عليه ونازله فيه ضرب.. قل ايه.. بتفكر فى ايه.. بتفكر فى مين؟ ووجدت آدم ينظر باهتمام فنظرت هى ونزلت فيه ضرب تانى.. وكان آدم ينظر إلى بقرة متوحشة.. هاربة أمام أسد. فاللى حضرتك بتقوليه قديم جدا.. كفاية بقى..

الزوجة: إيه ده.. إيه اللى جاجارين وإيه اللى آدم.. إيه اللى جاب ده كله.. قلبت الدنيا على حاجة هايفة.

الزوج: هايفة.. التى تأخذ ست ساعات فى اليوم.. ست ساعات تعطيل عن القراءة والكتابة.. ست ساعات.. عاوزة تقولى إن ست ساعات دى حاجة هايفة.. أمال المليانة تأخذ أد إيه.

الزوجة: أنا سكت من زمان.. انت عمال تدخل فى خيال وتطلع فى خيال.

الزوج: هو جاجارين خيال.. هوه تيتوف خيال.. هوه وجع دماغ آدم ونزوله من الجنة للأرض خيال.. دى حقيقة مؤلمة.. حقيقة توجع البطن. وتعمل مغص فى العقل.. انت اللى خيال.. انت أكثر من الخيال.. الراجل لف الأرض فى ساعة واحدة.. وانت قاعدة فى مكانك وتلفى حوالين دماغى بقى لك سبع ساعات.. وأنا عارف انك حتخليهم سبعين ساعة.. لا استريحت ولا ريحتينى.. والنتيجة ايه.؟

الزوجة: النتيجة. انك انت جاجارين.. وأنا الكلبة لايكا.. مش هوه ده اللى انت عاوز تقوله.. لما انت عارف كده يا سى جاجارين .. ايه اللى خلاك تتجوز لايكا..

الزوج: الله.. الله.. ايه ده.. ايه دخل الكلام ده فى الجواز.. هوه كل ما أكلمك كلمة.. تقولى لى ليه اتجوزتنى.. أى كلمة تخليك تقولى كده.. دا انت أسرع من جاجارين .. أسرع من الموت.. انت تعرفى أن الموت نفسه ما يقدرش يقضى على انسان فى لحظة.. الموت يقعد يلف حوالين الإنسان المرشح للموت أيام.. ويروح ويجىء وبعدين يسرق روحه. بياخد وقت وانت معندكيش وقت.. والله أنا مندهش.. قصدى تتكلمى فى حاجات هايفة ساعة وبعدين تخربى الدنيا فى لحظة. عاوز أعرف معنى الزمن عندك.. أحيانا أحس أن اليوم عندك ألف ساعة وأحيانا أحس أن العمر كله لا يزيد على ثانية واحدة.

الزوجة: أنا علشان كده لازم أريحك.

الزوج: تريحينى من إيه؟

الزوجة: منى.

الزوج: وهو أنا قلت انك تاعبانى.. أنا مش باتكلم وياك حتى حياتنا نصفها كلام.

الزوجة: وهو ده كلام.

الزوج: أنا تعبت.. لا قادر أتكلم ولا قادر أقنعك. ولا عارف آجى لك منين.. اللى انت عاوزه تقوليه تقوليه.. خدى بقى راحتك..

الزوجة: طبعا ما أنا عارفه كده أنا اللى باتكلم. وانت مش همك أى حاجة.. أتكلم.. أسكت.. آكل نفسى.. أقعد .. أمشى .. ماليش قيمة فى البيت ده. إن شاء الله يارب تيجى كل يوم وفى جسمك ألف علامة زرقاء إن شاء الله تصبح مخطط.

الزوج: حمار مخطط .. أيوه مخطط.. حمار من غير تخطيط ولا حاجة.. معاك حق. معقول ده يحصل.. سبع ساعات تحطيم أعصاب.. انت عارفة بتعمل إيه فى أعصابى. بتقطعيها بأسنانك اللى زى السكين. عارفة بتعملى إيه فى حياتى.. انت

كل يوم بتخرميها.. وكل يوم بتوسعى الخرم ده.. حياتى بتتصفى .. وقتى.. أفكارى.. وبعدين أنا حاقع من الخرم ده.. كل ده باسم الحب.. أمال الكراهية تعمل إيه؟ باسم الإعدام تعملى ايه؟ بتسألينى على علامة زرقاء.. اسألينى على العلامة السوداء اللى فى حياتى.. اسألينى على السواد.. على الليل اللى أنا عايش فيه.. الليل اللى مش طالع له قمر.. النهار اللى مش طالع له شمس.. كل يوم ترمى ميه على أحلامى.. على آمالى.. كل يوم حماستى.. شجاعتى ترتجف.. من شدة البرد.. حرام ولا حلال.. ليه كل ده.. أنا عارف انى مش حاقدر أغير طبيعتك.. لا أنا ولا مليون زيى.. التاريخ نفسه ما قدرش يعمل حاجة.. المرأة هى المرأة.. يعنى لو واحد عمل لها حفلة بمليون جنيه.. وفى الحفلة نسى يولع لها السيجارة.. قامت وهدمت الحفلة فوق دماغه. لو واحد اشترى لها فستانًا بمليون جنيه.. ولقت فى الفستان علامة زرقاء فى حجم رأس الدبوس.. نسيت الفستان وراحت تبكى على العلامة الزرقاء. أنا عارف أنه ما فيش أى أمل. ومع ذلك أنا مش عاوز أفقد الأمل. كل يوم أقول لنفسى لازم يكون عندى أمل. لازم أكسبك. كل يوم. وكل يوم أراهن نفسى عليك. وكل يوم أخسرك.. مش عاوز تكونى أنت الباب اللى خبط حياتى وخلاها زرقاء. مش عاوز الزمن يعض أيامنا ويخليها زرقاء. أنا عاوزك..

الزوجة: «تبكى».

الزوج: بتعيطى ليه دلوقت. يعنى لما تعيطى أقوم أسكت .. أقوم أغير رأيى. أنا مش عاوزك تعيطى كل يوم كده وبعدين نعيش ازاى..

الزوجة: خلاص..

الزوج: خلاص إيه.. خلاص أسكت؟.. ولا خلاص اقتنعت؟ ولا خلاص ما فيش فايدة..

الزوجة: حقك على.. أنا غلطانة.. مبسوط بقى.

الزوج: مبسوط. مبسوط من إيه؟ وانت غلطانة ليه؟

الزوجة: الله.. أنا غلطانة وخلاص بقى.. مش انت عاوز كده.

الزوج: أنا عاوز كده؟.. لا .. مش عاوز كده.. بس أفهم أنت غلطانة ليه؟

الزوجة: أنا عارفة ان الباب هوه اللى خبطك فى ايدك. يوم ما كنت عند أختى بس أنا كنت عاوزة أعرف إذا كنت حاتقول الحق ولا تكذب.

الزوج: يعنى دلوقت أعمل إيه.. أعيط أنا.

الزوجة: الله.. مش قلت لك أنا غلطانة.. إيه بقى.. كفاية بقى.. أنا دماغى وجعنى.. وايدى بترتعش ومش عارفة رأسى بتلف ليه كده.

الزوج: كل الهيصة دى تنتهى بالشكل ده.. تنتهى بانك تقولى خلاص.. معقول ده يا ناس. والله ما أنا عارف إيه المعقول. وإيه اللى مش معقول. وياك.. الحقيقة انت معاك حق.

الزوجة: ليه معايا حق؟

الزوج: معاك حق وخلاص.

الزوجة: مش فاهمة.

الزوج: زى بعض احنا الاثنين.. لا انت فاهمة ولا أنا فاهم.. لا امبارح ولا النهاردة.. ولا بكره.. ولا حد فى الدنيا فاهم ازاى يقدر يتفاهم مع واحدة.. أى واحدة!

«وتمسك الزوجة بمنديلها وتبكى.. أما الزوج فهو ينهض من مقعده ويجمع الكتب الملقاة على الأرض.. ويترك سيجارة لم تشتعل.. ثم يتجه إلى النافذة.. وينظر إلى فوق.. إلى السماء وتتساقط البصقة على وجهه.. ثم يمسح وجهه..»

□ □ □

الرسالة الأخيرة

« ....

كنت أقول لنفسى إن الحب أعمى. وعرفت اليوم أن الخوف أعمى. وأن الغضب أعمى. وأن الجشع أعمى.

وأنا اليوم كل هؤلاء.. أنا أحبك.. وأغضب منك.. وأخاف عليك.. ولا أريد سواك.. أنا فى كلمة واحدة أغار عليك. وعذابى فى ثلاث سنوات معك أننى كنت أقوم بدور الفراشة التى تحترق حول المصباح.. بل حول النار.

احترق جناحاى.. واليوم أتعلم الزحف على الأرض.. فلقد تحولت من طائر يمشى فوق السحاب.. إلى حشرة تصطدم بالأرض.. تمرغ خديها فى التراب.. وأنا..السبب.. نعم.. أنا السبب.

وما دام كل شىء قد انتهى هكذا فجأة. فلابد أن أروى لك الحقيقة.. أن أبعث لك بآخر ما عندى.. وكل ما عندى.. وأنا اليوم كالمخمور لا أكذب.. وأنا اليوم على فراش الموت.. والميت لا يكذب.. وأنا اليوم فى الحضيض.. والذين فى الحضيض لا يكذبون.. لأنهم وصلوا إلى أسوأ حال.. ولا أمل لهم فى النجاة ولذلك فإنهم من شدة اليأس لا يكذبون..

هل تعرف تلك الليلة.. التى اختلفنا فيها.. وشعرت أنت أن المسافة بينى وبينك تتباعد. وتتباعد حتى أصبحنا فى عالمين مختلفين. فى تلك الليلة.. فى كازينو الشجرة.. الأنوار خافتة.. الموسيقى صارخة.. الناس حولنا يضحكون.. وفى ركن من الأركان ارتفعت يد لتحيتى.. وابتسمت أنا وهززت رأسى أرد التحية.. ونظرت أنت إلى هذا الشاب الذى حيانى.. ورأيت الغيظ فى وجهك.. ولكنك لم تقل شيئا. وكان منتهى أملى أن تثور.. أن تسألنى من هذا.. أن تنهض من مكانك وتصفعه قلمين.. أو ترفع يدك وتصفعنى عشرين قلما.. ولكنك كعادتك جلست.. كأن شيئا لم يحدث.. جلست هادئا.. وحاولت أن تشغل نفسك بالموسيقى والرقص.

هل تعرف الخطابات التى سقطت من حقيبتى.. وتمسكت بها.. وحاولت أن آخذها منك.. هذه الخطابات قد أعددتها لكى تراها أنت.. هذه الخطابات قصدت أن تقع أمامك.. وتعمدت أن أتلهف عليها.. وافتعلت الخوف منك.. ولكنى فى الحقيقة أردتك أن تراها.. لم أكن أعرف أن هذه الخطابات ستكون وثيقة اتهام.. لم أكن أعرف أن هذه الخطابات هى حيثيات الحكم لطردى من عالمك. وإعدامى على باب رحمتك..

سيدى.. وحبيبى.. هذا الشباب الذى رأيته يحيينى فى الظلام.. إنه أخو «ع..» صديقتى وزميلتى فى الجامعة. أنا التى اتفقت معها على أن يحيينى.. وأن يتظاهر بأنه صديق.. وأنا التى تظاهرت بالحرج.. وتظاهرت بالخوف منك.. وهذه الخطابات التى وقعت فى يدك وادعيت أنها.. ماتزال عندك..

وأنا أعلم أنك مزقتها.. هل قرأت هذه الخطابات؟.. لابد أنك نسيت كل شىء فيها. ولكننى سأذكرك بها.. واسمح لى أن أفعل.. إننى الآن أرى الغضب على وجهك.. ولن أراه بعد اليوم.. إننى أراك تضغط شفتيك.. إننى الآن أرى أسنانك البيضاء تمزق شفتك السفلى.. إن ريقك قد جف.. إن عينيك تلمعان.. لن أرى كل هذا بعد اليوم.. فى الخطابات غزل فى جمالى.. فى شعرى.. فى عينى.. فى صوتى.. فى أصابع يدى.. فى الراحة التى يشعها قلبى على كل من حولى.. هذه العبارات إننى استعرتها منك.. ولكنك نسيت اليوم كل شىء. هذه عباراتك فى الأيام الأولى من حبنا.. هذه العبارات كتبتها أنا.. هذه الخطابات كتبتها أنا، بخط يدى، وأرسلتها إلى نفسى وجعلتها بإمضاء «س. ع. أ» كل هذه الخطابات بهذا الإمضاء. ولو عرفت لوجدت أن «س. ع. أ» هى الحروف الأولى من اسمك.. ولكن فى ثورة غضبك نسيت هذا.. وأنا أعرف أن الغضب أعمى.. هل تعرف يوم وجدتنى فى محطة الأتوبيس .. وكانت مفاجأة لك.. هل تعرف الاضطراب الذى ظهر على وجهى. كل هذا .. يا حبيبى تمثيل فى تمثيل.. كذب فى كذب.. إننى أعرف أنك ثرت.. أنك حزنت.. أنك شعرت بخيبة الأمل.. لم أكن على موعد غرامى.. لم يحدثنى أحد.. لم أعرف أحدا سواك.. لقد أعطيت لنفسى هذا الموعد الوهمى وانتظرت شابا وهميا.. أنا أعلم اليوم أننى حمقاء.. ولكننى أفضل أن أكون حمقاء.. على أن أكون ميتة..

إننى حاولت أن أثيرك.. حاولت أن أنبهك إلى وجودى.. إننى أغار على .. إننى أعرف أنك لست لى.. وأنك تعرف الكثيرات غيرى.. واسمح لى أن أروى لك حقيقة غريبة..

إننى أغار عليك .. لا شك فى هذا. ولكن الغيرة معناها.. أننى أخاف على الذى أحب أن يروح منى.. أن تخطفه فتاة.. غيرى. ولكن غيرتى من نوع آخر.. إننى أغار على نفسى. إن حبك لفتاة أخرى معناه أننى تافهة.. أنها أجمل منى.. أن شخصيتها أقوى من شخصيتى.. أنها استطاعت أن تستدرجك إليها.. وأننى عجزت عن الاحتفاظ بك.. أن قلبى «سايب» وأن كل شىء فى قلبى يسقط من بين ضلوعى.. إننى أغار على نفسى.. إننى أغار على الصورة الجميلة القوية التى أعرفها عن نفسى.. إننى أغار أن تمتد يد فتنتزع هذه الصورة.. وتضع بدلا منها صورة أخرى.

حاولت أن أهزك فحطمت نفسى..

حاولت أن أشعلك فأحرقت آمالى..

حاولت أن أخيفك فأفزعت أيامى..

حاولت أن أعانقك فحطمت قلبى..

إننى القطة التى أكلت صغارها من شدة الخوف عليها.. هذه القطة ابتلعت صغارها ووضعتها فى أحشائها.. لقد تحولت أحشاؤها من مخبأ إلى قبر وتحولت القطة الحنون إلى سفاح مصاص للدماء..

وأنا التى قتلت نفسى فى قلبك.. ودفنتك فى قلبى .. أنا القاتل والحانوتى.. أنا التى قتلت القتيل.. واليوم أمشى فى جنازته وجنازتى.. أنا الميت الذى يحمل نفسه، ويجرى أمام المشيعين.

إننى عرفت منذ البداية أن حبك هو المستحيل.. وأن الحياة معك هى.. حياة مع كل ما هو مستحيل فى الدنيا فأنت لن تخلص لى.. وأنت لن تكون لى.. ولكن كان شعارى هو.. أن أحاول ولو لم يكن هناك أمل فى شىء، كانت حياتى معك هى الجحيم.. هى النار التى كتبوا على بابها.. ادخلوا واتركوا وراءكم أى أمل فى النجاة ولكنى لم أفقد الأمل.. وشجعنى على ذلك كلامك الحلو.. وابتسامتك الحانية ولمسة من أصابعك.. وأشعة دافئة من قربك على كل هذه الحروف الأولى من حنانك.. من حبك.. فتحت لى ملايين الأبواب فى أن أكون لك.. وتكون لى.. وعندما كنت أغضب منك.. أثور على نفسى.. كنت أغضب من نفسى وألعنها.. وأتهمها بالوقاحة كيف تجرؤ على الغضب منك.. كيف تجرؤ على أن تتهمك.. كيف لا تسامحك.. كيف أقف ضد نفسى من أجلك.. لقد كنتما اثنين ضدى.. أنت

وأنا.. فأنت القاتل وأعطيك الحق.. أنت القاتل وأغسل سيفك بدموعى.. وأتمسح فى قدميك أن تعيد قتلى.. المهم أن تربطنى بك.. أن تغضب على.. أن تثور أن تلعن اليوم الذى رأيتنى فيه.. كل هذا لا يهم الذى يهمنى أن تشعر بوجودى هو أن تدخلنى فى عالمك.. إننى لا أريد أن أكون سيدة لقلبك ولكن يكفينى أن أكون فيه.. أن أكون على مسافة منك.. على أى مسافة إننى لا أطمع فى أن أكون أقرب الناس إليك.. هذا مستحيل.. ولكن هذا المستحيل.. هو الذى يغرينى أن أتمسك بك.. أن أجعل حبك.. مبدأ لحياتى كلها.. فحياتى كلها هى أن أحقق المستحيل.. هى أن أثبت لنفسى أننى قادرة على شىء.. وأثبت للناس على أننى أستطيع أن أكون.. شيئا.. وغيرتى معناها أننى أخاف أن يتهمنى الناس بأننى عاجزة عن الوصول إلى قلبك.. وعن البقاء فيه حية أو ميتة.. إننى منذ البداية أعرف كل هذا .. ولكن التيار جرفنى.. واستسلمت للتيار..

قالوا لى.. إنه طائر برىء.. قلت أستطيع أن أروضه.. وأن أضعه فى قفص من ذهب..

قالوا لى.. إنه كالزئبق.. قلت.. سأضعه فى زجاج رقيق..

قالوا لى.. معدته قوية تأكل القلوب.. قلت.. سأضع له ريجيما من حديد وأجعله يأكل كل شىء إلا القلوب وإلا قلبى..

قالوا لى.. إنه أفعى ناعم.. أملس..

قلت.. والمرأة أفعى أيضا ولكن هناك ملايين الأفاعى تخيف ولكنها غير سامة..

قالوا لى.. احترسى من كلامه المعسول.

قلت.. إننى أفضل أن أموت فى العسل على أن أموت فى الوحل.. أفضل أن يكون كفنى من الحرير الطبيعى على أن يكون ثوب زفافى من الخيش.. أفضل أن يكون قبرى من خشب الورد على أن يكون سريرى من الشوك.

قالوا لى.. كذاب.

قلت.. ليته يكذب إننى لم أكره الحقيقة إلا يوم عرفته.. إنه لا يكذب فى عواطفه.. إنه لم يقل يوما إنه يحبنى.. لم يقل يوما إنه لى. لم يقل يوما إننى له.. لم يطلب منى أن أحبه لم يطلب منى أن أكون له.. لم يجرح شعورى بكلمة.. لم يجرح كبريائى بإشارة.. المصيبة أنه لا يكذب..

قالوا لى.. أنت تبحثين عن قطرة ماء فى جهنم.

قلت.. إننى أفضل أن أحترق بالنار وعندى أمل.. فى قطرة ماء.. على أن أعيش فى الجليد ولا أمل عندى فى موجة حرارة..

قالوا لى.. إنه متلون.. كل يوم له رأى.. كل يوم له لون.

قلت.. وأنا أكره اللون الواحد.. أكره القماش السادة.. وأكره الرجل السادة.. إننى أحب القماش المقلم المشجر.. المطبوع.. وأحب الرجل المقلم.. المخطط.. حبيبى لا يتلون. إنه يتألق.. إنه كقطعة الماس.. إنه كالنجوم فى السماء..

قالوا لى.. أنت تحاولين أن تمسحى الخطوط من جلد حيوان متوحش، أنت تحاولين أن تزيلى البقع من جلد النمر..

قلت.. أنا لا أزيل الخطوط ولا أمسح البقع.. أبدا.. إننى أجلوها.. إننى أحب عيوبه.. إننى أقدس كل نقص فيه.. إن حبى له ليس أعمى.. إننى أرى عيوبه.. ومزاياه.. وأقدس فيه العيوب وأحترم فيه المزايا، فمزاياه عند كل الناس.. وعيوبه نادرة.. وأنا أحب كل شىء نادر.

قالوا لى.. إنه سيف.

قلت.. وأنا العنق.

قالوا لى.. إنه يبيع ولا يشترى.

قلت: وأنا أشترى ولا أبيع.

قالوا لى: جبار لا يرحم.

قلت.. تكفى رحمتى.

قالوا لى.. إنها معركة خاسرة.

قلت.. أخسر المعركة.. ولكن لن أخسر الحرب.

قالوا لى.. أنت تعيشين فى وهم.

قلت.. أفضل الحياة مع الوهم.. على الموت مع الحقيقة.

قالوا لى.. إنها قصة حب بلا نهاية.

قلت.. لا نهاية لقصة الحب..

وقالوا.. لى وقلت كثيرا.. لم يفلحوا فى زحزحتى.. لقد تمسكت بك وأنت لا تتمسك بى.. جعلتك حياتى وأنت لا تدرى.. والمصيبة أنك صدقت كل هذه الحيل .. صدقت كل هذه الألاعيب.. القاتلة.. ولكنى قررت أن أموت من النار على أن أموت من البرد.. أموت وأنا أصرخ.. على أن أموت وأنا عاجزة عن الصراخ..

هذه هى حقيقتى مع الأسف.. لأنها كانت نهايتى .. ومع الأسف لأن هذا الخطاب أرسله لك يوم زفافك إلى فتاة استطاعت أن تعطيك.. ما عجزت عن أن أعطيه لك.. فتاة كانت أحضانها أدفأ منى.. كانت قبلاتها أعنف منى.. أى فتاة مجرد فتاة حظها أسعد منى.. آسفة أن يكون هذا الخطاب فى يوم زفافك.. كان يجب أن أبعث لك بتهنئة من قلبى.. فإننى أريد أن أراك سعيدا.. ولا يهمنى من هو مصدر سعادتك.. فسعادتك هى التى تهمنى أنت اليوم ابنى.. وأنا.. أتمنى السعادة لابنى مع من يحب.. ولكن أعتذر عن الدموع التى تساقطت على بطاقة التهنئة.. إننى لم أستطع أن أمنع دموعى.. إن الموقف جليل.. وإن الفراق صعب وشقاء.. ودموع وسهر. وحرمان. وحنين. وشوق. وغيرة. وحزن. ثلاث سنوات لا يمكن أن تقتل فى دمعة أو دمعتين.. اعذرنى فدموعى مثل قلبك لا سلطان لى عليها..

وقبل أن أنهى كلامى.. وهذه هى النهاية الوحيدة التى أقدر عليها أرجوك فى شىء.. أرجوك وأنت تعانق زوجتك.. وأنت تلف يديك حولها.. وأنت تنظر إلى عينيها .. كما كنت تنظر لى.. وأنت تقترب منها وتقترب وحرارة شفتيها وصدرها يعلو ويهبط.. وعطرها يطير من شعرها إلى أنفك.. أرجوك..

كيف أرجوك؟ كيف؟ إننى أطمع فى شىء ليس لى.. اعذرنى فقد نسيت نفسى.. ونسيت أننى لم أعد شيئًا.. وأننى فقدت كل حقوقى.. المدنية عندك.. ومتى كانت لى حقوق عندك..

أرجوك.. أن تغفر لى أننى رجوت فى شىء ليس من حقى..

□ □ □

الذى لا يطاق

لن أقدم لك هذين الزوجين.. ولن أعرفك بواحدة منهما.. ولن أقول لك متى تزوجا.. وكيف ساءت العلاقات بينهما.. ولا كيف تحولت خيوط الحديث إلى أصابع من الديناميت.. وإنما أكتفى بأن أسجل هذا الكلام أو هذا الخصام..

هى: للمرة العشرين أقول لك إننى أفهم الحب على صورة أخرى. الحب معناه أننى أحب رجلا واحدا وأقسم ألا أحب غيره.. وأن أجعل سعادتى به. وله. ومعه. وأن أعطيه إرادتى وحياتى. وأن أجعله حاكما على دولتى وأن أركع له.. فالذى يحب هو الذى يركع لكل حاكم.. والذى لا يحب بعنف فهو لا يحب.

هو: أنا أعرف ذلك وأشعر به. وحياتى معك هذه المعانى. حياتى هى حبك. كل ما تطلبين موجود عندك عندما تمشين أسير وراءك. عندما تنامين أستأذنك فى مشاركتك هواء الغرفة.. ماذا تطلبين من رجل مثلى أكثر من هذا.

هى: هذا هو الذى يعذبنى.. أنت تحبنى.. ولكننى لا أحبك.. لم أفلح أبدا فى أن أفتح قلبى لك.

إن قلبى أصغر من أن يتسع لك كل الذى تعمله لا يدل على الحب. الحب شىء آخر إنه ليس الطعام الذى تقدمه وليس الملابس التى تشتريها لى.. وليس نومك تحت قدمى وأنا مريضة. وليس أن تتأخر عنى عشرات الخطوات، ونحن فى الطريق. إننى أعذرك لأنك لم تعرف الحب.. إننى أتمنى لك أن تحب.. أن تحب أى امرأة. وحينئذ تشعر بشعورى وتعرف الأرق. وتعرف انسداد النفس. والقلب والعقل. والدنيا كلها.. فى وجهى. لماذا لا تحب؟ لماذا لا تجرب الحب مع امرأة أخرى..؟

هو: ولماذا أجربه مرة أخرى إننى أحبك..

هى: ليس هذا حبا. ولو كنت تحبنى لأعطيتنى حريتى. لفتحت لى الأبواب والنوافذ وقلت لى.. اخرجى من هنا اخرجى ليلاً ونهارًا.. عودى كما تعود أضواء النهار إلى أمها الشمس.. إننى أعرف حاجتك إلى. كل ما يربطنا هو أننى حائرة

وأنك تعرف بالضبط ماذا تريد.. إننى موظفة عندك أقرأ لك.. وأقرأ لك.. وآتى لك ببعض الأطفال أحيانا وتعلقنى فى يدك زينة أمام الناس. ووجودى هو.. مذكرة تفسيرية.. لراحة بالك وابتسامك الدائم.. ووزنك الذى يتزايد. ومناسبة لتشكر الله كلما وقفت أمامه فى الصلاة.. وهذا هو الذى يضايقنى، ويجعلنى أشعر أننى زوجة لك بالأجر.. أننى أم لك ولست أما لأولادك.

هو: ولكن ما الذى أثارك هذه الأيام.. لقد كنت راضية قانعة. ما الذى غير قلبك وأدار رأسك؟

لقد كنت سعيدا بك سعيدا بصحبتك. وهدوئك. إن الناس يضربون بك المثل. فى صفاء النفس وانخفاض الصوت.. والتوافق الذى بينى وبينك. والآن لو رآك الناس فماذا يقولون..؟

هى: طبعا أنت لا تريدنى أن أرفع رأسى أو صوتى. لا تريد منى أن أقول أنك طاغية. وأنك تأكل حقوقى وتشرب حريتى وتهضم شخصيتى.. أنت تريد منى ولا تريد لى. أن أفتح عينى فسعادتك كلها فى أن أظل نائمة. خامدة. فإذا صحوت وقعت المصائب. كلها على رأسك.. ثم إننى لست حريصة أبدا على الصورة الجميلة التى رسمها الناس لى. إنها صورة ترضيك ولا ترضينى. صورة تملأ نفسك بالطمأنينة. على بيتك وعلى زوجتك. ولكنها تملأ فمى بالتراب.. وتملأ عينى بماء النار، وتشيع الديدان فى جسمى الحى. هل تعلم لماذا يضايقك أن أصحو؟

هو: إننى على يقين من أنها ثورة زائلة. أنها زوبعة يطير لها شعر الرأس. ثم لا يلبث أن يستقر فى مكانه. أننى أعرف عقلك وحكمتك. ولو حاسبتك على ثورتك منذ عشر سنوات. لكانت العلاقة بيننا قد انقطعت. لا تهزى رأسك هكذا، فأنا لا أستحق منك هذا الاحتقار.

هى: هل تعرف لماذا لا تريدنى أن أصحو سأكون خصما عنيفا لك. سأضبط أحراز المخدرات التى تملأ رأسى. ورأس الناس حولى. وحولك. عندما أصحو سأكتشف أن كل الذين معى وأنت فى مقدمتهم ليسوا إلا أشباحا تنقصهم الحياة. وينقصهم شىء آخر هو حبى لهم. هل تعرف لماذا تخاف من صحوتى.؟ لأن صحوتى ستجعل الفارق بيننا أوسع وأكبر. وإذا اتسع فأنت وحدك الذى تخاف.. أنت عرفت قبلى عشرات النساء. وكانت لك صداقات وغراميات. لقد أحسست أنت بكل شىء. واستمتعت بكل شىء. فلماذا تحرص على تعذيبى.؟ لماذا تكون أنانيا

إلى هذا الحد. لماذا سحبتنى وراءك إلى قاع الحياة. فهويت معك إلى الطين. هل تعرف أننى لم أر سطح هذا البحر؟ هل تعرف أننى لم أشعر بلذة السباحة.. على الظهر أو على البطن. أو على الجنب. هل تعرف أننى لم أشعر بلذة الخوف من الماء.. لم أضع رجلى فى الماء وأسحبها كما يفعل كل الذين لم يتعلموا السباحة.. ولكنك تنظر لى كما لو كنت كلبا من كلاب البحر أو كما لو كنت حوتا.. أعرف الماء أعلاه وأدناه. وأعيش وأموت فى القاع، أنت وصلت إلى الأعماق ومللت السطح. أما أنا فلم أكد أفتح عينى. على السطح حتى كانت المصيبة.

هو: أية مصيبة؟

هى: زواجى منك لسبب لا أعرفه إننى أناشدك كرامتك.. أيتها الكرامة الإنسانية لرجل فى الخمسين من عمره أين أنت.. كيف يطيق هذا الرجل. أن يعيش مع امرأة تصغره بعشرين عاما. امرأة لا تحبه وتعلن ذلك كل يوم، هل تعرف أننى أشعر بأشياء غريبة وأنا نائمة إلى جوارك. إنك لا تعرف. إنك لا تدرى عذابى. معك ومن أجلك. إننى أشعر أنك.. شيلوك.. ذلك اليهودى البخيل الذى يتقاضى ديونه لحما من أجسام دائنيه. إننى أعطيك جسمى تشربه. وتأكله. وتذله. إننى أدفع ديونى المالية والاجتماعية. والشرعية. أما قلبى فليس معك. إنه فى مكان آخر إنه فى أى مكان. معلق بين السماء والأرض إنه النهار وأنت الليل. وأنتما لا تجتمعان فى سرير واحد، إننى سأضع لك الأبيض والأحمر والعطر فى كل مكان من بيتى ومن جسمى. وسآكل كثيرا لكى يزداد إعجابك بجسمى الممتلئ سيكون لك جسم بلا قلب. سأعطيك الجسم الذى تريد أما القلب فسأعطيه لإنسان آخر. ألا ترى أننى أتعذب ألا ترى أننا نمشى فى اتجاهين مختلفين. ألا ترى أننى ألقى عقابا قاسيا. تماما كما كانوا يفعلون بالمجرمين قديما. إنهم يربطون الواحد منهم بين حصانين فيتمزق المجرم. مع أننى لست مجرمة. مع أننى البريئة التى وقع العدوان عليها هل رأيت جحيما أقسى من هذا. هل رأيت حيا تقام له المآتم. ويتقدم هو صفوف المعزيين. أنا الحى الفقيد. ولكن أين أنت. إنك النعش إنك عزرائيل قابض الأرواح. والناس لا يصدقوننى. إنهم يرونك جبريل الذى لا ينطق إلا بكلام الله. هل أستطيع أن أحشر الناس كلهم تحت غطائى؟ إننى لا أستطيع ولكننى أستطيع أشياء أخرى.

هو: إننى أسمع منك هذا الكلام كل يوم. كل دقيقة نبقى فيها لوحدنا. إذا كان

شكلى يضايقك. ففى استطاعتى أن أترك لك البيت شهرا أو شهرين. حتى تستريحى إذا كانت حياتى معك تعذبك. فسافرى إلى مكان بعيد. اذهبى إلى أى مستشفى يعالج كبدك فإن الكبد عندما تكون مريضة تصبح المرارة فى حجم الكرة الأرضية.. ولكننى لا أصدق أبدا أنك تكرهيننى. إننى أشفق عليك.. إننى أبكى من أجلك.

هى: لا أريد شفقتك.. لا أريد عطفك.. بل أنا التى تشفق عليك. أنا التى تشفق على الرجل الذى لا يفهم معنى حب امرأة أو كراهيتها. أشفق على الرجل الذى لا يتصور الفرق بين الحب والشفقة. وبين الأم والزوجة. وبين الحب والاحترام.. وبين التضحية بالناس من أجل المرأة التى يحبها. والتضحية بالمرأة التى يحبها من أجل الناس.. الذين لا يحبونه. إننى أشفق عليك وأحيانا أحسدك. على كل رضاك وقناعتك. إننى أحتقرك عندما أتصور أننى سأظل مربوطة بك. مربوطة بحبك. مربوطة من حبل اسمه الأنانية. أنانيتك أنت إذا كنت تحبنى. فلماذا لا تتركنى أجرب الحياة. من غيرك. أجرب الحياة التى خطفتنى منها وأنا فى العشرين. والحقيقة أنك لم تخطفنى وإنما أمى هى التى قدمتنى كعروس النيل لك. ألقت بى فى أوحالك. لتعيش أنت وأموت أنا.. إن أمى هى التى أخطأت وأنا التى أدفع الثمن. إن حواء هى التى أكلت التفاحة ونحن اليوم نعيش على الأرض لا فى الجنة..

هو: إننى أقبل أن أكون صديقا. لك. إننى سأعيش معك فى نفس البيت. لأراك وأرى أولادى ولن أدخل غرفتك ولن أجلس معك. فى مكان واحد. لن أكلمك ولكنى لا أطيق الحياة بعيدا عنك. أريد أن أكتفى بالصداقة.

هى: تقول الصداقة؟ هل الصداقة أقل من الحب. إن الحب ممكن ولكن الصداقة مستحيلة. إننى لا أستطيع أن أكون صديقة لك. لأننى لم أحب يوما.. فالصداقة هى الحب وقد أضيف له العقل. إننى أعدك بأن أكون وفية لحياتنا السابقة. أعدك بأن أحفظ اسمك. وأحرص على شهرتك وأن أساعدك. أليس هذا كل ما تريد. ولكن لا أعدك أبدا بأننى سأحبك. وأرجوك ألا تجرب الحب معى. إن محاولاتك تجعلنى أنفر منك. تجعل شعر رأسى يقف.

هل تعرف الشعور الغريب الذى أحس به وأنا معك. أشعر كأننى أرتكب خيانة زوجية.. أشعر أننى أخون إنسانا آخر أعطيته قلبى. إننى لن أخونك بجسمى أبدا. فهذا لك. هذا الجسم قطعة من أثاث البيت. ولكن سأخونك بقلبى.. سأعطى قلبى لمن أحب.

هل تعرف قصة «هلويزا».. إنها فتاة كانت تحب رجلا بحارا. وفى يوم ضبطها

البحار مع شاب آخر. ولما سألها قالت: إننى لم أخنك أبدا. أعطيته جسمى أما قلبى فهو لك. وأنا أعتقد أنها صادقة. إن الإنسان يخون بجسمه ويخون بقلبه. إنك لم تفهم هذا. وكل ما أتمناه لك هو أن تحب.. أن تتعذب.. أن تشعر بالهوان الذى أشعر به.

هو: ولكن لماذا لم تتركينى أعمى..؟ لماذا لم تجعلينى آخر من يعلم.؟ لقد كنت أفضل أن تخونينى دون أن أعلم. لماذا تضعين الشوك فى حياتى. لماذا تنكسين رأسى بين الناس؟ لماذا تعلنين الحكم بالإعدام دون أن تنفذى هذا الحكم. بل نفذى الحكم. ضعى السم فى طعامى. اقتلينى. إن القانون يسمح للطبيب أن يقتل المريض إذا كان شفاؤه مستحيلا وأنا اليوم مريضك. لماذا لا تطبقين القانون على رجل يحبك. ويحار فى أمرك. ويحار فى معنى الحب ومعنى الكراهية.. إننى أحبك ولكنك تقولين إننى أكرهك. ثم تطلبين منى أن أكرهك. لكى أشجعك على الفرار من حياتى. تريدين أن أعطيك السبب الذى من أجله تهربين. وتدمرين حياتى بعدك.

هى: هل تعرف أن لا فرق بين الحب والكراهية. النتائج واحدة. ما الذى يفعله الرجل عندما يحب امرأة..؟ إنه يضع عينيه عليها. ويتبعها ويفتح أذنه لكل كلمة تقولها. ويسهر.. ويقلق.. ويتعذب.. ويغار.. ويقيد حريتها.. وكذلك الذى يكره إنسانا. فإنه لا ينساه ويلاحقه ويحسب عليه كل كلامه وكل مشاعره ثم لا يتركه وإنما يراقبه. كما يراقب السجان أحد المسجونين. النتائج واحدة. فأنت تريد الحب ولكنك لا تحقق إلا الكراهية. أنت ترى المقدمات وأنا أكتوى بالنتائج. أنت جربت كل شىء حتى مللت كل شىء.. وكانت النتيجة أنك لا تعرف كيف تحب. وأنا لم أجرب شيئا. فدعنى أجرب.. فإذا عرفت بعض ما عرفته أنت فسأفكر فى العودة إليك. إننى الآن لا أعرف ولكن عندما أعرف. سأذكر زميلا قديما أنجبت منه بعض الأولاد.

هو: أعطينى فرصة أخرى وأخيرة..

هى: الفرصة الأخيرة هى أن تنتظرنى أنا.. فقد أعود وقد لا أعود.. تعلم الصبر الذى تلقنته فى مدرستك عشر سنوات.. لقد جاء دورك وعليك أن تقف فى الصف.. أنت وأولادك..

هو: ...؟

□□□

غلطة عمرى

«نحن الآن فى سنة ١٩٨٠.. بيت فى مصر الجديدة.. الساعة الثامنة صباحا.. ضياء القمر شلالات تغرق البيوت والأشجار..النور ينفتح فى غرفة.. وغرفة.. وغرفة ثالثة.. وتتقدم سيدة سمراء شعرها أسود.. وعيناها سوداوان.. وفى يدها سيجارة وتفتح باب غرفة كبيرة.. وفى الغرفة مكتب وعلى المكتب خطاب وفوق الخطاب ساعة ذهبية.. وخاتم وسلسلة مفاتيح وبعض الأوراق».

أنا: أنت...

هى: أنا بتاعة زمان.. خلاص انتهى كل شىء.. استريحت دلوقتى.. صفيت حسابك معانا كلنا.. والله أنا كنت فاكراك بتضحك.

أنا: زمن الضحك راح خلاص.. الضحك بقى غالى دلوقت. علشان أضحك لازم أرجع عشرين سنة لورا.

هى: ماكنش فيه ضحك من نهار ما اتجوزنا لحد دلوقت.. ماكنش فيه أحلام.. وهيام.. وغرام.. هنا فى الأوضة دى.. فى البلكونة دى. القمر ما كنش له كلام معانا.. والله انت صعبان على. أنا باشوفك وأزعل عليك.

أنا متشكر. شوفى الجواب اللى هناك ده فيه كل حاجة. تنازلت لك فيه عن كل اللى أملكه وأنت عارفاه حاجة بسيطة جدا. كتبى. كل حقوق نشرها وطبعها وعربيتى.

هى: ونسيت الأولاد.. اتنازلت عنهم كمان.

أنا: ماعنديش كلام أقوله. ومش عاوز أسمع منك ولا كلمة. كفاية عذاب.

هى: عذاب إيه؟ ايه العذاب اللى انت فيه؟ اللى يسمعك يقول انى بطلع عينك.. عاملة لك إيه أنا.. أنا خدامة عندك أنت وأولادك.. وساكتة وشاربة المر.. وساكتة.. وكل يوم والثانى عمال تشتم الجواز والمتجوزين. وكل يوم حديث فى الراديو تلعنى فيه.. وعاملة طرشة.. والناس يقولوا جوزك بيشتمك فى كل مناسبة.. وبرضه ساكتة وكمان مش عاجبك.. مكلفاك إيه أنا.. البيت وبتاعى.. مصاريف البيت أنا اللى بادفعها.. فيه واحدة تعمل أكتر من كده.. قال رضينا بالغلب والغلب مش راضى.. أمال يعنى لو كنت صغير.. يا عينى على بختى.

أنا: برضه مش عاوز أكلمك.. مش عاوز أسمع صوتك.. الكلام معاك بيوجعنى.. بيقطع قلبى.. أنت مش غنية وتقدرى تعيشى لوحدك.. وأنت كنت عايشة لوحدك وأنت لسه صغيرة.. كفاية كده سيبينى فى حالى.. أنا بقالى عشرين سنة عاوز أخرج من هنا.. عاوز أنفض جيوبى.. وأخرج من هنا بهدومى.. أنفد بجلدى.. ولكن مع الأسف ماكنش عندى وقت أفكر في الخروج من هنا. كنت أتصور أن البيت أرحم من المطعم.. وأن المطعم أرحم من الشارع.. علشان كده لجأت إلى البيت.. هربان من الشارع.. كنت عايش مفتح العين.. والأذن.. والأنف.. حتى قلبى كان موارب لم أفتحه ١٠٠٪ لأحد ولم أقفله ١٠٠٪ على أحد.. فالداخل فيه خارج منه.. والخارج منه لا أدرى به. قلبى كان منفس.. كان زى المصفى.. لا يحتفظ بشىء ولا يبقى فيه شىء.. ولكن دلوقت كل حاجة عندى زى بعضها. البيت زى الشارع.. القلب زى المعدة.. أنت زى عدمك.. أولادى زى أولاد الناس كلها.. زى أولاد القطة أو الكلبة..

هى: اشمعنى الكلبة.. الكلبة جابتهم لوحدها.. برضه كلبة..

أنا متأسف.. أنا تعبان.. ارحمينى.. أنا عشت معاك كداب.. أيوه كداب.. أنا كنت بابحث عن أى هدوء.. عن أى استقرار. كان أملى أن أتزوج واحدة عندها فلوس.. واحدة لا تجعلنى أتعب.. أعرق.. أشقى.. عشت طول عمرى وطول عمر أبويا.. يكسب يوم بيوم.. لم يعرف الراحة.. ولا عرفتها أنا.. كل إنسان يملك أى شىء أحسده وأتمسح فيه.. حتى نهار ما فكرت أملك حاجة.. اشتريت سيارة.. سيارة لها عجلات.. سيارة تتحرك. حتى اللى أملكه غير مستقر. كنت أتصور أن استقرارك واطمئنانك على بكره.. وبعد بكره.. حينتقل لنفسى.. ولكن يظهر أن القلق والفزع منك ومن كل الناس عميق فى نفسى. لا أمل فى أن أستريح. لقد جربت كل شىء..

دلوقت.. جربت الخوف من الفقر.. وجربت الخوف من الجوع.. وجربت الخوف من المرض.. وجربت الخوف من الوحدة وسكنت معك.

هى: الحياة الزوجية عشرين سنة معى ومع أولادك.. تسميها السكنى معى.. السكنى مع هؤلاء.. أنت كنت ساكن عندنا.. والله معاك حق.. وهو حد كان بيشوفك.. ولا بيقعد معاك أولادك ما يعرفوش شكلك.. طول النهار قافل الباب عليك ولا تكتب ولا تقرأ.. وتقعد فى البلكونة.. تبحلق فى القمر وتقرأ فى الجوابات اللى بيبعتوها لك المفاعيص.

أنا: خلاص.. كل حاجة خلاص.. إننى أشعر بأن شيئا يسحبنى من هنا بشدة.. شيئا يشفطنى..

هى: لحظة واحدة يا أستاذ.. امنع عنك المظاهرة دى علشان لما تخرج من البيت يكون فيه هدوء يتمشى مع جلال الموقف.

«تخرج والسيجارة فى فمها تقفل وراءها الباب وصوت من بعيد يقول: يالله ياواد أنت وهوه ناموا.. ناموا.. نامت عليكوا حيطة.. قطيعة تقطعكم.. وتقطعه هوه كمان.. إيه يا ختى دى.. مستشفى مجانين.. دى كانت إيه الوقعة السودة دى.. نامى يا بنت الصبح أربطها لك.. أنت مش لسه سخنة.. نامى.. وأنت يا بنت أنت.. عاوزه بابا.. بابا نايم.. نايم.. الصبح يا حبيبتى. يا عينى عليك انت كمان.. وتعود إلى الغرفة. وتفتح الباب وتلقى بالسيجارة على الأرض وتدوسها بقدمها..»».

هى: إلى الأمام يا روميل.. تعرف تقولى أنت منسحب إلى أين يا روميل.؟ هربان فين.. إيه اللى جرى.. البنات الصغيرين كلوا عقلك. يا راجل عيب.. يا راجل اختشى.. أنت لسه حاتعيد اللى فات.. أمال ما كنتش بتعمل كده زمان ليه.. ياما بعت لك جوابات.

أنا: طيب ما هى الجوابات اللى..

هى: نعم؟ الجوابات هى اللى خلتنى أتجوزك.. أبدا وحياتك أنا كنت صغيرة.

أنا: .. صغيرة.

هى: طبعا صغيرة أنت نسيت ولا إيه.. نسيت كان عندك كام سنة لما أتجوزتنى.. إن كنت ناسى أفكرك.. فيه فرق بيننا عشرين سنة.. ومع ذلك أنا ما اتجوزتكش علشان إعجابك بجواباتى.. أبدا أنا قرأت لك مقالة.. وشفت لك كام

صورة. رأيت لك برنامج فى التليفزيون. الحقيقة أنا لاشفت البرنامج ولا حاجة. إنما اللى شافته ميرفت بنت خالتى منها لله. قالت لى مسكين.. غلبان.. قطع قلبى وهو بيتكلم عن طفولته.

أنا: كل ده مالوش أى معنى عندى. لا أنت ولا بنت خالتك ولا الجوابات ولا طفولتى.. ولا عذابى.. ولا غلبى.. كل شيء أصبح لا معنى له.. لا طعم له.. الدنيا كلها توقفت عن الحركة.. عن الدوران.. أنا خلاص مش موجود.. مافيش حاجة تهمنى.. ولا حاجة تهزنى.. أقدر دلوقت أعيش من غير كلام.. من غير تفكير.. من غير أكل.. من غير شرب.. أنا أقدر أعيش من غير ما أتنفس.. فأنت لا تتعبى نفسك.. وإذا كان فى استطاعتك أنك تعملى حاجة. فافترضى أن فيه ناس موجودين دلوقت والناس كلها بتبص لعينك ودموعك.. وعاوزين يعرفوا.. إلى أى حد أنا كنت عزيز عندك.. يمكن ما يكونش لى سعر عندك.. لكن قدام الناس أنت مضطرة أنك تتظاهرى أنك تمثلى.. سمعينى كده كلمة رثاء.. كلمة نعى.. قولى كده يمكن الكلمتين دول حيسعدونى.

هى: يا راجل اعقل.. بلاش الجنان بتاعك ده.. عاوزة أعرف دلوقت أنت رايح فين.. أقول لأولادك إيه.. أقول للناس إيه.. يا دى الفضيحة..

أنا: فضيحة إيه.. الفضيحة والكلام عنها مسألة تهمك أنت.. أما أنا فلا شيء يهمنى أبدا.. خلاص أنا لا أهم أحد ولا أحد يهمنى. انتهت التمثيلية.. نزل الستار.. سأختفى لأغسل وجهى.. لأرفع الأصباغ عن بشرتى. الشنب الذى أضعه مستعار.. الشعر مستعار.. الصوت الغليظ افتعال.. الحماسة على المسرح تمثيل.. الكلمات اللى أقولهاوأعيش لها هى أكل عيش.. كل ما كان يهمنى وأنا على المسرح.. ليس هو البراعة فى الكلام والأداء.. وإنما هو أننى أريد أن أغلط.. لا أريد أن أتزحلق على الخشب الأملس.. لا أريد أن أكون أضحوكة.. لا أريد أن أكون سخيفا.. الهمهمة التى أسمعها من المتفرجين .. توجعنى.. تؤلمنى.. إننى لا أفهم ما يقولون.. ولكنها أحسن من سكوت الجمهور لأنه استغراق فى النوم. وأحسن من المقاعد الخالية.. من الناس.. كفاية بقى فأنت حية.. أنت عايشة ويهمك الناس فادفعى ثمن الحياة وثمن رضاء الناس.. فهذه مشكلة الأحياء.. أما الأموات. فلهم مشاكل أخرى..

هى: بس أعرف أنت رايح فين.؟ عند مين.؟ وحترجع امتى.؟.

أنا: لن أرجع أبدا.

هى: يعنى أنت رايح ترمى نفسك فى البحر.. رايح ترمى نفسك من فوق عمارة.. رايح تسافر من هنا.. رايح تعمل إيه؟ عاوز تتجوز؟

أنا: أنت متصورة أن الراجل لما يسيب مراته يبقى السبب واحدة ثانية. أبدا هناك ألف سبب.. القرف مش سبب.. الملل مش سبب.. الفشل مش سبب.. الهرب مش سبب.. وأنا انتحرت مرة وجربت الانتحار.. ولا يمكن أجربه مرة ثانية.. ولكن سأرمى نفسى فى بحر.. بحر ليس له قرار.. ليس له شواطئ.. ليس له أمواج.. بحر كله بخار.. بحر فوق.. فوق الرأس.. بحر كله سحاب.. سأعيش فى وحدة.. فى صمت.. سأختار غرفة رطبة مظلمة.. وسأجلس فى أحد أركانها.. وسأنظر من الركن إلى النافذة.. أتطلع إلى سر الكون.. إلى السماء.. لقد عشت طول عمرى أنظر إلى الأرض وإلى الذين يمشون على الأرض.. لم أفكر فيما هو فوق رأسى ولا فيما هو فى رأسى. كنت مشغولا بقلبى.. كنت مشغولا بمعدتى.. كنت أتنفس من يدى.. وأرى الدنيا من خلال أصابع قدمى.. وأنا أضع ساقا على ساق.

هى: آمنت يعنى؟

أنا: أيوه آمنت.. أيوه ياست آمنت.. انتهى الكلام.. انتهى القلق تضاءل الناس.. الفلوس تراب تحت قدمى.. أنا سيد الكون.. سيد المصير.. الذهب لا يثيرنى.. المرأة لا تحرك شعرة فى رأسى.. المستقبل ليس له معنى.. المستقبل كان عفريت.. وكنت أخاف منه.. المستقبل كلب بيبوس جزمتى.. انتهت علاقتى بالناس.. بدأت علاقتى بما هو أحسن.. بما هو أبقى. علاقتى بالذى أراه وأنا مغمض العينين.. وأسمعه وأنا مسدود الأذنين.. بالذى يملأ معدتى.. بالذى يحتل قلبى.

هى: إيه ده.. يا ساتر يا رب.. اكفينا الشر.. الشر بره وبعيد.. بسم الله الرحمن الرحيم. اتجننت؟

أنا: كنت مجنون دلوقت عقلت. مجنون قبل زواجى.. ومجنون بعد زواجى ودلوقت خلاص مش عارف إيه اللى حصل. مايهمنيش رأيك ولا رأى حد.. الأولاد عمرهم ما كانوا أولادى. أنا كنت من حين لحين أحسدهم. عندهم ما ليس عندى.. عندهم اللى عمره ما كان عندى.. عندهم أم غنية.. عندهم فلوس.. عندهم بيت.. عندهم أرض.. لن يتعذبوا بذكرى والدهم لأنهم لم يروه. لم يعرفوه.. لم يسمعوه يبكى. لم يروه يتململ فى فراشه. لم يناموا على الأرض. إلى جواره لم يروه هاربا.. لن يروه وهو يموت كالشجرة. تذبل وتسقط.. فى مكانها.

هى: وعلشان كده ما بتحلقش دقنك.. وعلشان كده ما خدتش معاك هدوم.. ولا فلوس.

أنا: لا تحاولى أن تتصلى بأحد. لقد قطعت سلك التليفون. أنا متأسف. ولكن أنا عاوز أمشى إلى نهايتى فى هدوء. سأتركك الآن ولا يسعدنى أن أحييك. ولا أن أسلم عليك. وعندك متسع من الوقت لتفكرى فى قصة محبوكة. لمواجهة أولادك. والناس.. لقد جاء دورك لتفكرى وتخترعى القصص. فالإنسان يكتب ويقرأ إذا كان عنده ألم. إذا كان عنده وجع بشرط أن يكون هذا الألم مؤقت. يمكن أن يستريح منه فى بعض الأحيان. لكن عندما يكون الألم كالحقنة المخدرة. يجعلك تعجزين عن الحركة. أو التنفس فلا كتابة ولا أدب.. اكتبى أنت بقى. أنت شابة وعندك فلوس. كنت أتمنى أن أقرأ أول إنتاجك الأدبى. ولكن مع الأسف. قررت ألا أقرأ وألا أكتب..

هى: مش عارفة أعمل إيه.. مش عارفة أقول إيه.. أعيط ولا أضحك. مش عارفة.. مش فاهمة انت بتعمل إيه..؟

أنا: لأ...

هى «تبكى بصوت مرتفع».

أنا: ......

تنفتح الغرفة.. يخرج أشباح أولاد وبنات كلهم فى ملابس النوم يجتمعون أمام الباب يسمعون الأم وهى تبكى. طفلة صغيرة تبكى. ولكنها لا تجرؤ على دخول الغرفة. طفلة أخرى تبكى. ويدخل أكبر الأبناء. فيجد أمه وقد تدلت من الشرفة وتشير بيدها ناحيتى وينطلق الابن الأكبر ووراءه ثلاثة من الأولاد خلفى وراحوا يصرخون.. بابا.. بابا».

□ □ □

منتهى السعادة

«نحن الآن فى سنة ١٩٨٠.. فى بيت على النيل.. وأنا أجلس على مكتبى وحولى عدد من الكتب.. بعضها على الأرض وبعضها على المقاعد.. وفى المكتب يوجد سرير صغير وإلى جواره راديو. وقد مضى على زواجى شهران. أو ثلاثة أو أكثر.. وزوجتى فتاة فى العشرين.. من عمرها. بيضاء وشعرها أسود. وعيناها خضراوان. وهى تنتقل من غرفة إلى غرفة.. ولا أعرف عادة ماذا تفعل. وفجأة تدخل مكتبى وتفسح لها مكانا بين الكتب.. وتجلس على المقعد.. ثم تقلب فى الكتب بعدم اكتراث..».

هى: كتاب فى الحشرات.. وهذا كتاب فى الموسيقى.. وهذه مسرحية عن الزنوج.. وأول مسافر إلى القمر.. ما هذا كله.. ما آخرة القراءة. وشراء الكتب.. طبعا مش معقول تكون قرأت كل هذه الكتب.. ومتى تقرأ هذه الكتب.. ونظرك لا يسمح لك بالقراءة ليلا ونهارا.. أنا عندى أسمع الراديو أحسن.. وأجلس إلى جوار التليفزيون ألذ.. آخر لذاذة.

أنا: «فى قرف فقد تعودت على هذا النوع من الكلام».. اقفلى الراديو وحياتك..

«تنهض وتقفل الراديو».

هى: أدينى قفلت لك الراديو..

أنا: لسه فيه دوشة..

هى: الراديو الموجود فى غرفتى.. سأقفله حالا.

«تنهض وتقفل الراديو».

أنا: ماتزال هناك دوشة..

هى: هذا هو التليفزيون الموجود فى الصالة.

أنا: أنت تحبين الدوشة. أنت لا تصبرين على الصمت.. على الهدوء.. لابد من أن تكون هناك دوشة وهيصة إلى جوارك.. هذه هى الطريقة التى تخرسين بها عقلك. وتبطلين بها كل مشاعرك. الله غريبة. مايزال هناك راديو مفتوح.. أين هذا الراديو؟

هى: أقولك بس ماتزعلش منى..

أنا:....

هى: بس ماتزعلش. فيه بنات صحابى فى الشقة اللى جنبنا.. بس ماتزعلش.. عرفوا أنك أنت كل يوم العصر تجلس فى مكتبك وتطلب منى أن أجلس معك. ثم تحاضرنى فى موضوعات فلسفية وأدبية.. وتاريخية. وتتحدث عن رحلاتك وعن ذكرياتك وأيام شبابك.. ويظهر أنهم لاحظوا أنى أنا أتضايق من الحكايات دى. مش عارفة مين قال لهم.. وعلشان كده بيفتحوا الراديو على الآخر. فى الساعة دى..بس ما تزعلش.

أنا: طيب ومين بقى اللى قال لهم. طبعا أنت..

هى: أقول لك كمان حاجة بس ماتزعلش. قول والله العظيم.

أنا: والله العظيم.

هى: أنت تعرف أن البنات أصحابى طلبوا منى امبارح أن أربط لك الشبشب بأستك. علشان لما تيجى تلبسه يقوم الشبشب يجرى منك ما تزعلش..

أنا: لا مش حازعل.

هى: أقول لك كمان حاجة بس ماتزعلش.

أنا: إيه تانى..؟

هى: مش أنا امبارح بالليل قلت لك شوية نكت قبيحة. صحابى همه اللى قالوا لى النكت دى.

أنا: وهمه اللى قالوا لك تحكى لى النكت دى بالليل؟

هى: أيوه.

أنا: إيه السبب؟

هى: لا يمكن أقول لك السبب.

أنا: «أهرش فى رأسى وأشد الحزام حول كرشى.. وأتراجع فى مقعدى وأمسك القلم.. وأهرش به فى رأسى ويتساقط الحبر من القلم.. وتنهض هى لتمسح الحبر من فوق جبهتى. ولكنى أبعدها عنى».

وأستغرق فى تأملات غير محددة. وتنهض هى مرة أخرى وتأتى إلىَّ ببعض الورق. وتضعه أمامى. وتضع القلم فى يدى كأنه مسدس. وتنظر إلىَّ نظرة ساخرة.. وتهز كتفيها كأنها تقول: وإيه يعنى القلم ده يعمل إيه.. ولا حاجة..

القلم.. القلم.. يعنى حتموتنى بالقلم بتاعك.. دى المقشة أحسن من القلم.. الفأس أقوى من القلم. البلاط أنظف من الورق الأبيض. اسم الله يا قلم.. وتحاول زوجتى أن تخرج من الغرفة فأناديها.. وأطلب منها أن تجلس إلى جوارى.. تعالى اقعدى.

هى: أدينى قعدت.. إيه بقى تانى؟

أنا: اسمعى..

هى: سمعنا.

أنا: شوفى.

هى: شوفنا.

أنا: مش عارف.

هى: اجوزتينى ليه.. عارفة أنك حتقول كده.. تعرف أن البنات أصحابى بيسألونى كل يوم.. إيه اللى خلاك اجوزت الراجل ده.. بقى ما فيش فى الدنيا غيره.

أنا: ويتقولى لهم إيه..؟

هى: بقول إنه راجل طيب.. قلبه زى اللبن.

أنا: اللبن..؟ اللبن الحليب ولا اللبن الرايب.. ولا اللبن الشايط.. قلبه زى أى لبن.

هى: يا أخى أى حاجة بقى.

أنا: لا أنا عاوز أكمل كلامى. أنا كنت عاوز أقول. مش عارف انتى حتتجوزى مين بعدى. فعلا أنا مشغول بالراجل اللى انت حتتجوزيه بعدى.. لأنى أعتقد أن زواجنا هذا مش نافع.. ولا يمكن ينفع.. وأنا كنت فى حيرة.. إذا عشت من غير زواج فليست هناك مشاكل.. إلا مشكلة واحدة هى مشكلة وجود واحدة.. أى واحدة إلى جوارى. مش مهم من هى هذه الواحدة.. بتعمل إيه.. بتسوى إيه.. بتساوى إيه مش مهم. واحدة تعطينى فرصة دائمة لأن أتجاهلها.. فأنا أجلس مع أى فتاة لكى أتمكن من تجاهلها. لكى أتمكن من السرحان فى حضورها. يعنى أغرقها فى سحاب وضباب.. وأنشغل عنها.. يمكن هواية عندى. أو لذة خاصة. ربما كان هذا أحد الأسباب التى تغرينى. بالجلوس إلى فتاة.. وإذا تزوجت فتاة مثقفة. فهذه المثقفة ستوجع قلبى.. ستجعلنى أدخل معها فى مناقشات عقلية لذيذة. ليلاً ونهارًا. ولكن لن أجد فيها الأنثى.. المرأة.. وإذا تزوجت نصف مثقفة فستوجع عقلى لأنى مضطر أن أقول لها الحكاية الواحدة عشرين مرة. لكى تفهمها ولن تفهمها. سأشعر دائما أننى فى حاجة إلى ترجمان.. وإذا تزوجت جاهلة فستوجع

قلبى وعقلى.. معا.. فكل تصرفاتى.. ليس لها أى معنى خاص.. ولا أى دلالة.. كل شىء تافه بالنسبة لها. الذهب كالصفيح والحب والجنون بمعنى واحد.. والزوج والمجرم بمعنى واحد.. ولكن زواج الجاهلة جدا أحسن فليس لها رأى.. وليس لها فكر.. والحياة معها، حياة مع خادمة مخلصة.. وعيب الحياة معها أن الرجل يشعر بأنه يعيش وحده.. يتكلم مع نفسه طول الوقت.

«وهنا تدخل زوجتى فقد خرجت وأنا أتحدث ولم أنتبه لخروجها».

هى: أنت لسه بتكلم نفسك؟

أنا: إننى لم أشعر بخروجك. لم أشعر بوجودك. والحياة معك هى كلام مع النفس.. كلامى معك هو كلامى مع نفسى.. لأنك أنت نفسى..

هى: تعيش ربنا يخليك..

أنا: لا ياشيخة مش قصدى كده.. قصدى أننى عندما أتحدث إليك. فإننى أحس أننى أتكلم مع نفسى. إننى أفكر بصوت مرتفع. فلا أحد معى.. لا أحد يسمعنى. لا أحد يفهمنى.. وعندما أجلس إلى مكتبى فأنا أقرأ.. ومعنى ذلك أننى أتكلم مع نفسى.. أو مع إنسان آخر لا أراه..وعندما أكتب فأنا أحدث نفسى أيضا.

هى: يعنى أنت عاوز تقول أنك قاعد لوحدك وما فيش حد معاك. وإن أنا مش موجودة.. ما أنا عارفة أن وجودى هنا مالوش أى ضرورة.. وأنا اللى مش عارفة أنت أجوزتنى ليه..؟

أنا: ما أنا قلت.. الكلام ده ومش عارف إن كنت سمعتيه ولم تفهميه ولا كنت خرجت من الأوضة مش عارف لكن أقدر أقولك تانى..

هى: تقول تانى إيه؟

أنا: ليه أنا اتجوزتك..؟

هى: عارفة حتقول أنك أنت كنت فى حيرة بين العزوبية وبين الجواز.

أنا: يعنى..

هى: أبدا وحياتك بس أنا سمعت الكلام ده عشرين مرة قبل كده.

أنا: منى أنا..؟

هى: طبعا منك. وما يحلاش الكلام فى الحكاية دى إلا بالليل.

أنا: غريبة..

هى: أمال أنا باحكى لك نكت بالليل ليه؟ علشان تبطل تقول لى الكلام ده.

أنا: على كل حال أنت مش عارفة السبب اللى خلانى أفكر لك فى عريس.

هى: إيه يعنى؟

أنا: عاوز أساعدك.. عاوزك تتركى البيت ده..

هى: عاوز تطلقنى يعنى. عاوز تطلع العيب فى.. أنا عملت إيه.

أنا: أنت ولا حاجة ولكن أنا شايف أن الحياة لا يجب أن تستمر.. كفاية كده..

هى: يظهر أن كلام البنات أصحابى مضبوط.. قالوا لى.. إنك مش نافع.. وإنك مش قادر على الحياة الزوجية ولا قادر على القعدة فى البيت. وأنت تعودت على ناس تانية.. احنا مش قد المقام.. طيب لما أنت عارف كده ليه بتتجوز.؟ أنت واخدنى تجربة.. واخدنى تتفرج علىَّ.. تعرف إنى باخاف منك بالليل. كام مرة أقوم من النوم ألاقيك فاتح النور. وبتبحلق فى عينى وفى مناخيرى. مش فاهمة.. أنا مش فاهماك.. فعلا أنا مش فاهماك..

أنا: شوفى..

هى: على فكرة أنت بتخاف من كلام الناس.. يعنى أنت بتعمل الكلام ده وبتخاف منه.

أنا: والله دى جملة حلوة.. باعمل الكلام وأخاف منه.. آه ما هو كمان اللى بيعمل القنابل بيخاف منها. واحنا كلنا بنخاف من منظر الدم وهو يسيل. مع أن الدم موجود فى عروقنا..

هى: آدى اللى بناخده منك.. الجملة دى حلوة.. الفكرة دى مش بطالة.. قولى تانى الحكاية دى. ماعندكيش حاجة كويسة.. قولى لى نكتة.. مش عارفة باشتغل إيه عندك.. وصيفة.. ولا خدامة.. ولا دادة وبرضه مش عاجبة.. بقى مش فاكر أننى عملت لك أى حاجة.. نسيت إن أنا فضلت سهرانة ليالى جنبك وأنت تصرخ من كبدك.. ومن مصارينك.. نسيت أنى حطيت راسك على دراعى من الساعة ثمانية بالليل لحد الصبح. تعرف ان دراعى قعدت مش حاسة بيه يومين ورا بعض..

أنا: عارف كل ده.. أنا متشكر وأنا أعتقد لو كنت متجوزة واحد تانى كان عبر لك عن امتنانه أحسن منى. وده اللى شاغلنى.. أنا بافكر لك فعلا فى طريقة للخلاص منى.. والزواج من واحد تانى.. أنا كنت فاكر أننى أستطيع أن ألوى أفكارى وأجعلها صغيرة تدخل فى رأسك.. الصغير. كنت أتصور أننى أستطيع أن أكون شابا يجرى معك.. ويشدك إلى رجولته ثم يردك بعد ذلك إلى طفولتك.. ولكن

يظهر أن هذا مجرد كلام.. مجرد خيال.. كنت أتصور أن قلمى هذا هو الحقنة السحرية.. المملوءة بعصارة الشباب. وأن حبرها الأسود ليس إلا عصير فحم تتوهج بأنفاسك. كل هذا خيال.. أوهام.. ولكن الليل الذى أقطعه فى قراءة الكلام المكتوب بالحبر. والليل الذى أقطعه فى كتابة أفكارى بالحبر. كل هذا جعل أفكارى سوداء والسواد فى داخل رأسى وفى خارجها أيضا. لقد توهمت أنى رأيتك قبل ذلك. فى خيالى.. فى قصة.. فى فيلم عندما رأيتك عرفتك.. أحببت الدور الذى كنت تقومين به. فذهبت واشتريت تذكرة لأشاهدك.. على مسرح الحياة ووجدت نفسى المتفرج الوحيد. فاشتريت السينما.. اشتريتك.. واليوم.. أريد أن أرجع فى كلامى.. أن أعيدك إلى المسرح. لكى يراك متفرج آخر.. ونصيحتى ألا تتزوجى.. رجلا يقرأ أو يكتب أبدًا. نصيحة أخرى كلما زادت الكتب فى بيت إنسان. ازدادت حياته تعاسة.. لا كتب ولا أقلام.

هى: القلم معناه الألم.

أنا: أيوه عبارة حلوة دى..

هى: متشكرة.. من جاور الحداد ينكوى بناره..

أنا: أنا لا أريدك أن تنكوى بناره.. ولذلك أريد أن أفسح لك طريق الخلاص..

هى: ليه مش فاهمة؟

أنا: مش فاهمة.. أعمل إيه..؟ كلما حاولت أن أقول لك حاجة تقولى لى سمعتيها قبل كده.. وإذا حاولت أن أقول لك أى شىء جديد.. تخرجى وتقفلى الباب.. تقفلى الحنفية.. تشوفى القطة فين.. تلعبى فى الراديو.

هى: والله أنا مش زعلانة ولا متضايقة منك.. أنا فى منتهى السعادة.. ربنا ادانى حاجة كويسة.. أنا لا أحمل أى هم.. أنسى بسرعة.. أقول لك نكتة..

أنا: حلوة قوى..

هى: إيه دى..

أنا: عبارة فى منتهى السعادة.. «منتهى» السعادة يعنى نهاية السعادة.. نهاية الحياة الزوجية.. منتهى الجبل يعنى نهاية الجبل.. يعنى القمة.. وبعد القمة يبدأ السفح..

هى: أنا مش فاهمة أبدًا.. مش فاهمة.. أبدا.. مش فاهمة حاجة انت عاوز تجننى.

أنا: مش عاوزة تفهمى؟

هى: طبعا.

أنا: قولى لصحباتك يقفلوا الراديو..

«زوجتى تضع أصبعها فى فمها وتصفر.. مرة.. ومرتين.. وثلاثة. ولكن صاحباتها لا يسمعن الصفير لأن الراديو مرتفع جدا. وتتركنى وتذهب إلى الشقة المجاورة لتطلب من صاحباتها أن يقفلن الراديو. وتمضى عشر دقائق.. عشرون.. ثلاثون.. وتعود زوجتى.. وقد تغيرت ملامح وجهها.. أشرقت.. عيناها لمعت».

أنا: انظرى إلى وجهك فى المرآة.. إنه جميل.. هلى تعرفين السبب. لأنك خرجت من هذا البيت لمدة نصف ساعة.

هى: ثلث ساعة بس.

أنا: آسف ثلث ساعة.. فما بالك إذا خرجت كل ساعات حياتك من هذا البيت.

هى: أخوها جاء من السفر. جاء من غزة. مش أخوها حسنى لا مجدى. طول عرض بس قص شنبه.. شكله مش عاجبنى.. أدينى جيت.. قول لى بقى.

أنا: أقول لك تعالى اقعدى هنا شوفى.

هى: هه...

أنا: شوفى أنا حاقول لك..

«وهنا انفتح راديو بصوت مرتفع. وراديو آخر ودق جرس التليفون ونهضت زوجتى لم أر وجهها. ونهضت أنا أيضًا. ووقفت وأنا أقول: حاقول لك إيه ولا إيه. ولم أكد أضع قدمى.. فى الشبشب.. حتى سحبه الأستك إلى تحت.. المكتب. أما فردة الشبشب الأخرى. فكانت مربوطة فى أحد الكتب. أحد كتبى التى ألفتها وصدر أخيرا.. بعنوان.. الحياة تبدأ بعد الستين».

□ □ □

القلب لا يمتلئ بالذهب

حفلة كبرى فى إحدى الحدائق.. والحاضرون كلهم سعداء واضح هذا من حديثهم.. ومن ضحكاتهم ومداعباتهم للجرسونات.. وفتاة صغيرة تتقدم من الموائد.. واضح أنها تبحث عن أحد.. ولكن الموجودين جميعا يعرفون الطفلة.. وعندما تقترب من الطفلة تلاحظ أنها قد ارتدت كل ما ترتديه الفتيات الكبيرات.. ففى يدها حقيبة وفى يدها الأخرى جوانتى أبيض. وفى شعرها وردة.. ومن عنقها يتدلى قلب ذهبى.. لابد من ذكر هذا القلب.. لأنه سيتكرر كثيرًا فى أثناء الفيلم..

وكلما مرت الفتاة على مائدة داعبتها سيدة أو عانقتها.. ولكن يجب ألا يعطلوها عن الحركة بين الموائد.. وتعلق السيدات على قلبها الذهبى.. وأحيانا على صورة كيوبيد المطبوعة على فستانها الصغير..

وعند المائدة التى تجلس عليها رجاء تتوقف الفتاة.. وكأنها تريد أن تقول شيئا.. ولكن رجاء تمضى فى حديثها ولا تهتم بالفتاة الصغيرة.. وعندما تتنبه لوجودها تكشر فى وجهها.. وتهرب منها الطفلة وتضحك رجاء.. ونفهم من ذلك أن رجاء تحب المرح.. وأنها تخرج من موقف إلى موقف بسهولة.. وتسألها صديقتها عن سبب معاملتها الغريبة لهذه الطفلة وتقول رجاء: أنا مش عارفة.. كل مرة أشوفها يبقى عندى استعداد أخوفها.. مش عارفة ليه.. الناس كانوا بيعملوا لى كده وأنا صغيرة.. ويمكن ما كنتش لاقية حد يهتم بى زى ما أنتم مهتمين بها كده.. كل الناس بيهزروا معاها.. ودى طفلة سعيدة.. لها أب.. ولها مليون أم..

وتسكت رجاء وتقول: يمكن علشان بتكره أمها.. ويمكن علشان خاطر أبوها.. ويبدو عدم الفهم على صديقتها..

ونرى بعد ذلك الموائد.. ونتابع الطفلة التى تتوقف عند إحدى الموائد.. وليس من الضرورى أن نرى الجالسين هناك..

وبعد ذلك يدخل عجوز.. ومن نفس الطريق الذى سلكته الطفلة الصغيرة.. وينهض الرجال للسلام عليه ويحيونه بحماس شديد.. والنساء ينحنين له.. ولكن لا يكاد يبتعد الرجل عن مائدة حتى يتغامز ويتهامس كل الجالسين عليها. ونسمع عبارات كثيرة تقول: عندى مليون زى ده.. «وتشير واحدة إلى خاتمها الماسى» وواحدة أخرى تشير إلى كوب العصير وتقول: إنه عصير الذهب..

وواحدة تقول: إنه سلالة العجل اللى عبدوه اليهود فى جبل سينا.. وواحدة تقول: أسرته معروفة فى الدنيا كلها اسمها: روكفلر ورجاء.. ويندهش الجالسون من ذكر رجاء.

فترد المتحدثة قائلة: الاثنين مفيش فى جيبهم ولا مليم.. هوه فلوسه فى البنك وهى فلوسها عند الله..

وليس من الضرورى أن ترى المليونير وهو يقترب من مائدة رجاء.. ولكن يكفى أن تراه بعيدا عنها..

وتسمع رجاء وهى تتحدث إلى صديقتها وهى تقول: طبعا اللى قلبها مليان شنطتها فاضية.. أمال الفقرا بيحلموا ليه.. علشان ما عندهمش حاجة.. أنا كل ليلة أحلم إنى فى بنك.. وإنى نايمة.. وراحت علىَّ نومة.. وأقوم من النوم أجرى ناحية الأبواب ألاقيها مقفولة.. وناحية الشبابيك ألاقيها مقفولة.. وألاقى عساكر فى أيديهم سلاسل ذهب.. وأهرب للخزنة ألاقيها مليانة ذهب.. وألاقى لونه أصفر.. ولونى أنا كمان أصفر.. وأقول يا رب لو كان الذهب ده من لون الدم.. من لون الورد.. وألاقينى لابسة ذهب فى ذهب.. وأقوم من النوم وأنا بأعيط وأبقى حاسة إنى حاموت من البرد.. تصورى الذهب بارد زى الحديد.. زى البلاط..

وصاحبتها توقظها من الأحلام وتقول لها:

– أنت عاوزة تشوفى الذهب من غير ما تنامى ومن غير ما تحلمى.. بصى وراكى..

ولكن رجاء ماتزال ماضية فى أحلامها.. ما فيش مكان يسعنى غير مكان واحد.. مكان محترم.. مكان مقدس..

وتهزها صديقتها..

ولكن رجاء تمضى وتقول: البنك.. ده المكان الوحيد اللى اتعمل علشانى.. الفلوس زيى.. لا لها أب ولا أم..

وصديقتها تهزها وتقول: عاوزة تشوفى اللى مالوش لا أب ولا أم. وراك.. وتشير إلى المليونير العجوز..

وتلتفت رجاء بكل جسمها وبصورة واضحة ولكن رجاء لا تراه..

وتعود صديقتها تقول لها: مش قادرة تشوفى لونك المفضل.. أنت عارفة إن اللى يحبوا الذهب عندهم عمى ألوان.. الألوان فى الدنيا كتيرة قوى.. زى لون الفساتين.. زى الفاكهة.. مافيش غير لون الليمون بس اللى يعجبك..

ولكن هذا الكلام لا يعجب رجاء فتضع يدها على فم صديقتها لتمنعها من الكلام.. ولكن صديقتها تعضها بقوة.. فتصرخ رجاء.. ويلتفت كل الناس.. وتسألها رجاء، عملت كده ليه..

وترد عليها: عاوزاك تصحى.. تفوقى.. كل يوم تقولى لى نفس الكلام.. نفس الحلم.. أنا زهقت..

وتضحك رجاء.. وتضحك صديقتها.. ويلتفت المليونير وواضح أنه يهمس فى أذن الجالسين إليه.. ويبدو عليه الاهتمام.. ثم يضحك..

ونفهم من الموائد المجاورة أن رجاء أفلحت فى أن تلفت إليها الأنظار ..

وتفهم من حركات أيدى الجالسين حولها أنهم يتحدثون عنها.. وعن حبها.. وعن الأماكن التى تتردد عليها هى وحبيبها الراقص معها فى نفس الفرقة..

ويؤكدون أن حيلتها فى لفت المليونير العجوز قد نجحت.. وأنها رغم سذاجتها أو تظاهرها بالسذاجة خبيثة جدا..

***

وفى اليوم التالى نرى رجاء تتدرب على الرقص فى إحدى المسارح.. وعلى المسرح نرى الطفلة الصغيرة بكل ملابسها ومعها قفص به طائر صغير أبيض.. وتتوقف على المسرح وتعطل سير الراقصات والراقصين.. ويضحكون لها.. ويحاولون أن يبعدوها.. ولكنهم يتفادونها – والطفلة لها مغزى واضح.. فهى ترتدى ملابس الكبار وهى صغيرة.. وعلى صدرها قلب من ذهب.. وفى يدها قفص به طائر حبيس.. فنحن أمام طائر يضرب جدران الفقر.. أو طائر يضرب جدران الذهب..

وفى الصالة يجلس المليونير العجوز يتفرج.. وهو وحده.. رجاء لا تراه.. وتمضى فى تمريناتها.. وهى سعيدة جدا.. وبين الحين والحين تفتح حقيبتها..

ولكنها لا تخرج منها أى شىء.. وهى كأنها تبحث عن شىء.. وهذا الشىء لا تجده.. وهى عادة تبحث عن شىء.. حتى إذا ما وجدته.. فإنها تعاود البحث من جديد..

ولا مانع من أن تحلم رجاء بأن هذه الحقيبة مملوءة بالذهب.. أو أنها حقيبة كبيرة.. وأنها تحملها على رأسها.. ثم تسقط تحتها.. ثم تنام وهى تحت الحقيبة الذهبية وتصحو والحقيبة الفارغة فى يدها.. وإلى جوارها عشرات الأطفال الصغار وكل هؤلاء الأطفال يرتدون ملابس الطفلة الصغيرة التى هى تعويذة الفرقة.. وكلهن يضعن القلوب الذهبية على الصدر.. أو يحملن أقفاصا مفتوحة الأبواب بعد أن فارقتها الطيور.. أو يحملن سهام كيوبيد.. أو يحملن كيوبيد نفسه على الأعناق..

ويتكتم المليونير سعالا.. ثم يسعل بصوت مرتفع.. وتصحو رجاء.. وتحاول أن تراه.. ولكنها لا تستطيع.. ويتقدم المليونير العجوز ويجلس فى الصفوف القريبة من المسرح.. وتراه رجاء بوضوح.. ويصلح ملابسه وتحييه رجاء.. وتحاول أن تحمل ملابسها وتخرج.. وفى هذه اللحظة يظهر مدير المسرح الذى تعمل به رجاء ويدور بينه وبين المليونير العجوز كلام يستوقف رجاء ولكنها لا تفهمه..

ويسأله المدير إن كانت قد أعجبته..

ولا يرد المليونير العجوز.. ولكن يبدو أنها أعجبته..

وبحركة عصبية يخرج لسانه.. ويبلل به شفتيه.. ثم يخرج من جيبه مشطا صغيرا يسوى به شعره.. ويسارع المدير ويخرج من جيبه مرآة صغيرة..

وترى صورة مضحكة للمليونير وهو يلعب بلسانه.. ويلعب بالمشط فى شعره ثم يضع يده على بطنه وعلى وسطه وينهض واقفا..

ومن وراء الستار ومن بعيد نرى رجاء.. وهى ترقب هذا المنظر وهى سعيدة.. وتعود رجاء إلى البيت.. بيتها متواضع جدا.. وهناك تجد صديقتها.. تعد لها الطعام.. ونفهم من كلام رجاء مع صديقتها أن أحلامها قد تحققت.. أو اقتربت من التحقق..

ونسمع رجاء تقول لصديقتها: اسمحى لى أن أقدم أصغر شاعرة فى العالم..

وفى ذهول تسألها صديقتها: رجعنا للجنان تانى..

ولكن رجاء تمضى قائلة لها فى حركة تمثيلية: السماء ستمطر الذهب.. والذهب سيمطر فضة.. والسماء ستتحول إلى غابة تسكنها الحيوانات..

حيوانات اسمها الدب والثعلب.. والبرق سيقتل هذه الحيوانات.. ويسلخ جلدها.. ويعمل من هذا الجلد فورير.. فورير.. فورير..والرياح اسمها كاديلاك وتنذر ببرد. حتى هذه الرياح تتلقى أوامرها منى.. سأقول لها: اذهبى إلى مصر.. إلى باريس.. إلى هوليود..

ولحظة صمت: عارفة الرياح دى اسمها إيه.. اسمها رجاء!..

وتمضى صاحبتها فى إعداد الطعام وفى ذهول تقول لها: مجنونة طبعا.. وتقول رجاء: العباقرة نصفهم مجانين.. أنا أفضل أن أحلم بالجنة، على أن أعيش وأنا فى الجنة فعلا.. الأحلام لذة يا بنتى.. مجنونة.. لكن سعيدة.. بكره تشوفى المجنونة دى حتعمل إيه.. يا خسارتك يا رجاء.. كله يتصلح.. الفرق بين الإنسان والحيوان إيه؟.. الإنسان بيحلم.. والفرق بين اللى زيك واللى زيى إيه؟.. أنا عاوزة أحقق أحلامى.. بس!

وتهزها صديقتها كما هى العادة لتوقظها وتفتح عينيها لكى تعطيها قطعة من السجق.. ورجاء تؤكد لها: أنا صاحية.. فايقة.. السما بقت قريبة.. أبواب الجنة انفتحت.. حتكون عندى ملايين.. فرقة باسمى.. اسمها فرقة رجاء.. مش قوى الاسم ده.. فرقة رجاء للاستعراضات الشعبية.. طويل الاسم ده.. إيه رأيك؟..

وصاحبتها تصر على أن تقطع لها السجق وتضعه فى فمها وتمنعها من الكلام..

ورجاء لا تريد أن تأكل وتقول: وحياتك كاديلاك.. والنونو الصغيرة مش كده.. أنا وهوه وبنته.. ياسلام على عدل السماء.. أهو ده العدل..

وتقف لحظة تقول وبنفس اللهجة الجادة: حكمت المحكمة غيابيا بتعويض رجاء عن كل الأيام الوحشة اللى عاشتها.. أيام الجوع والفقر.. ويتغير صوتها وتتحول كأنها محام وليست «قاضيا».. أيام اليتم.. والخروج من بيت والدخول فى بيت.. أيام النوم فى بيوت الناس.. أيام الدموع طول الليل.. حكمت لها المحكمة «ثم تغير صوتها وهى تبكى وتجعله قويا صارخا «باردا» بالتعويض.. حكمت المحكمة بأن تعطيها كل ما تريد فى جميع بنوك العالم»..

وتجلس.. ثم تتقدم لها صديقتها بعدم اكتراث وتعطيها بقية الطعام.. وترد عليها رجاء بإشارة من يدها.. وتقف لتعلن: رفعت الجلسة.. وتعود إلى مرحها من جديد لتقول: أنت مجنونة هى المحكمة بتاكل!.. وتجلس صديقتها على

المقعد وتدوخ.. وتحاول رجاء إيقاظها.. ثم تحملها على سرير.. وتضعها وتحاول إيقاظها..

ثم تخرج ورقة وقلما وتخرج كل الفلوس التى فى جيبها. وتكتب عددها ثم تخرج كل الفلوس التى فى حقيبة صديقتها.. وتكتبها فى ورقة وتغطى وجهها بالفلوس ويبقى مكان لم يتغط.. وهو شفتاها.. وتقبلها رجاء.. ثم تأتى بورقة مالية وتلفها على هيئة سيجارة وتضعها بين شفتى صديقتها.. وعندما تحاول إشعال عود كبريت تصحو صديقتها وتضحك الاثنتان..

***

وننتقل إلى بيت المليونير.. البيت ضخم جدا.. الأثاث قديم.. استيل يدل على الثراء القديم.. كل شىء كبير وثمين.. الأبواب مقفلة.. والنوافذ والخدم حريصون على أن يقفلوا الأبواب بعناية وبإحكام.. وترى مدير المسرح ومعه رجاء.. وهو لطيف معها جدا.. على غير العادة..

وتحلم رجاء .. وتحلم.. وتحلم بأنها صاحبة هذا القصر.. وسيدة الشرف فى كل الحفلات.. وتحلم بأن لديها عددا من الأطفال.. ولكنها لا ترحب بهم تماما كما فعلت فى أول الفيلم.. وترى نفسها فى حفلة زفاف.. والمليونير العجوز إلى جوارها.. وحولها عشرات الألوف من الناس.. وعدسات السينما والتليفزيون والصحف.. والأطفال الصغار يقدمون لها الأوتوجرافات.. وهى توقع على الأوتوجرافات فى سعادة ظاهرة.. وترى العريس العجوز يمد يده ليرى ماذا كتبت رجاء فإذا به يجد عبارة غريبة تجعله يخرج المشط من جيبه والمرآة من حقيبة رجاء.. وفى ثورة غضب يرتجف المنظار على أنفه.. ويقرأ العبارة الموجودة ويجدها: أحبه هو.. هو وحده..

ويسأل رجاء.. فتفتح حقيبتها وتخرج قلم الشفايف وترسم سهما يشير إليه هو.. ويضحك.. وعندما يتنبه إلى هذه النكتة.. يضحك مرة أخرى..

وتحلم رجاء بأنها فى حفلة زفاف ليس فيها أحد.. وإلى جوارها ذلك الشاب الذى تحبه.. زميلها فى الفرقة.. والذى يتابعها كظلها.. أمامها ووراءها.. وأحيانا يبعث لها بابنته الصغيرة التى رأيناها فى أول الفيلم.. إنه يحاول أن يقنعها.. يحاول أن يبعث لها بعبارات على شكل حلم.. وعندما تقع فى أيدي بعض الناس تؤكد رجاء أنها مأخوذة من بعض الكتب.. فهو يقول لها: إن الحب هو أعصاب

الحياة.. والذهب عضلاتها وهى ترى أن الذهب لحم الحياة والحب دمها.. وهو يرى أن الحب هو الهواء والماء.. وهى ترى أيضا أن الحب هو الهواء فى حديقة تملكها.. وأنه الماء فى كأس من ذهب فى يدها..

ولاتزال ترى الأشجار والطيور والسماء والأرض تزفها هى وحبيبها.. ويتعثر المليونير إلى جوارها فى الغرفة ويكاد يسقط ويعتذر بأنه تعبان وأنه استغرق فى نوم عميق لمدة ثانية وهو يمشى إلى جوارها.. وأنه سعيد جدا..فهذه أول مرة ينام فيها إلى جوار أحد.. وأنه لن ينسى لها هذا الفضل..

ورجاء ماتزال حالمة..

ويوقظها مدير المسرح الذى يروى لها نكتا كثيرة ويضحك هو بصوت عال.. وتفيق رجاء.. وبصوت مرتفع يسألها: إن كانت قد أعجبتها هذه النكت:

وترد عليه: جدا..

ويسألها: أى واحدة..

فتقول: نكتة العريس الذى يبدأ شهر العسل من أول لحظة..

وتبدو الدهشة على وجهه..

وهنا يدخل المليونير العجوز..

ويدور كلام حول تكوين فرقة جديدة تكون رجاء بطلتها.. وينهض المدير ويقبله فى رأسه.. ويضع المليونير يده فى جيبه.. ويسارع المدير بإخراج المرآة من جيبه.. ولكن المليونير يخرج دفتر الشيكات ويبدو عليه الضيق من حركة إخراج المرآة.. ثم يوقع المليونير على شيك ويعطيه للمدير..

وفى حركة عصبية بلسانه.. وحركة عصبية من كرشه.. يطلب إليه أن يكتب أسماء أعضاء الفرقة الجديدة..

ويكون المدير قد أعد القائمة..

ويطلب إليه أن يقرأ الأسماء..

ويقرأ المدير واقفا اسم رجاء.. ثم يجلس وتبدو السعادة على وجه المليونير وعلى وجه المدير.. أما رجاء فهى لا تكاد تصدق..

وهنا يصفق المدير عاليا.. وهو يريد أن يوقظ رجاء من سرحانها الطويل.. فهى لم تفتح فمها بكلمة طول الوقت..

وينزعج المليونير ويسأله عن سبب هذا التصفيق.. ويقول المدير: أنا باضحك

كده.. الناس بتضحك بشفايفها.. وأنا باضحك بايديه الاثنين.. ويوم الافتتاح حاعمل كده..

وعندما يشرع فى قراءة أسماء الرجال.. نلاحظ التغيير على وجه المدير والمليونير.. ولا تزال رجاء فى حالة سرحان وعدم فهم..

فهى لا تعرف أن المليونير قد أمر باستبعاد الشاب الذى تحبه رجاء.. والذى قرر أن يضعه فى فرقة أخرى تدور فى المدن والقرى.. بعيدا عن رجاء..

وينهض المدير بسرعة.. ويستأذن من رجاء.. وتفهم هى أنه من المفروض أن تبقى مع المليونير العجوز..

وفى حركة عصبية يضع المليونير يده فى جيبه.. وفى حركة لا شعورية تمد رجاء يدها إلى حقيبتها لتخرج المرآة.. ولكنها بابتسامة مكتومة تعيد يدها.. وتستعيد سرحانها من جديد..

ويلاحظ المليونير ذلك..

ويخرج من جيبه دفتر شيكات.. ودفترا ثانيا وثالثا.. ورابعا وخامسا..

وهنا تحلم رجاء بدفاتر لا أول لها ولا آخر.. دفاتر أوراقها بعرض المسرح.. ومن هذه الدفاتر تخرج الأرقام على أشكال أولاد وبنات.. ويتحول البنك الذى تحلم به إلى مدرسة.. إلى جامعة.. وتمر هى فى سيارة كاديلاك ضخمة فخمة.. والأرقام تهتف حولها..

وبين الحين والحين تفيق على كلام المليونير العجوز وهو يقول لها: الحل الوحيد هو الزواج..

ويشير بيده إلى نفسه.. ثم إليها.. وينتظر رأيها..

وماتزال رجاء فى أحلامها وتقول له:

موافقة.. أتزوجك.. وكل إنسان فى الدنيا يتمنى الزواج منك..

وفى حركة مسرحية مرتجفة ينهض الرجل.. ويشير إلى الخدم أن يساعدوه على الوقوف على أحد المقاعد.. ثم يشير إليهم أن يخرجوا .. وتتبعهم حتى الباب ثم تعود لتجد المليونير فى ملابس أحد الملوك.. ورجاء فى ملابس أحد الملائكة.. وراكعة عند قدميه وتقول له: شبيك لبيك.. عبدك بين يديك.. أمرك يا مولاى..

ويشير الملك إلى الخدم الذين ارتدوا ملابس حرس القصور الملكية.. ويطلب إليهم أن يأتوا بمقعد لرجاء.. ويطلب إليهم أن يساعدوها على الوقوف.. على المقعد.. فإذا وقفت أشار إليهم أن يخرجوا..

ويطلب إليها أن تقترب منه.. ثم يهمس فى أذنها..

وتندهش الملاك رجاء.. ثم يعود فيقترب من الملك.. ويسأله بماذا يريد بالضبط.. ويبدو أن الذى يطلبه شيء صعب جدا..

ويمد العجوز يده إلى جيبه كما هى العادة.. ولكن الملاك يخرج من بين أجنحته شهادة ميلاد الملك..

ويثور الملك.. ويهجم على شهادة الميلاد ويمزقها.. وهنا يقف الملاك عند قدمى الملك ويقول: كل ما أستطيعه يا مولاى أن أجعلك أصغر خمس سنوات.. فقط .. لا ٢٥ عاما.. هذا كثير يا صاحب الجلالة..

ثم يذهب الملاك ويهمس فى أذن الملك.. وتظهر السعادة على وجه الملك.. وينزل من فوق المقعد ويركع عند قدمى الملك الذى صعد على المقعد.. ويشير إليه الملاك أن ينهض.. وأن يقترب منه ويقول له: ستكون شابا ليلة واحدة فقط..

وهنا ينهار الملك ويبدو عليه الاضطراب.. ويفتش فى جيوبه كما هى العادة ويشير الملاك بيده.. فيظن الملك شيئا..وتظهر عشرات الملائكة.. يحملون مرآة كبيرة.. ويرى الملك نفسه فى هذه المرآة..

ويتهامس الملائكة.. ويتغامزون ويتكلمون بلهجة موسيقية غير واضحة.. ويناديه الملاك بعد أن تختفى الملائكة ويهمس فى أذنه بشيء ويشير بيده.. بأصابعه الخمس.. ثم بأربع.. ثم بثلاث وبأصبعين.. وبواحد.. ويتردد الملك ثم تبدو عليه السعادة..

وعندما يشير الملاك بيده تنتقل إلى قصر على البحر حيث يمضى العروسان شهر العسل..

الغرفة واسعة كبيرة.. السرير فخم.. فى الغرفة أشياء غريبة.. مجموعة من التليفونات والراديو الصغير والكبير والتليفزيون والآلات الكاتبة.. والورود.. وترى رجاء تتحرك فى الغرفة.. وتصطدم بعلب وصناديق.. وتقرأ بطاقات التهنئة من أناس كثيرين..وتجد علبة صغيرة تفتحها بسرعة.. وتجد فيها ورقة.. تخفيها فى ملابسها.. وتهرب رجاء إلى داخل التواليت لتقرأ الورقة..

وترى العريس يتابعها من تحت الغطاء.. فلا يكاد يراها تدخل التواليت حتى يهرب من الباب وفى غرفة مجاورة تراه يتكلم فى التليفون .. وتعود إلى رجاء فتجدها تقرأ الخطاب وتقبله.. وتقرأه وهى فى البانيو.. ثم تمزق الخطاب إلى قطع تسبح فى البانيو..

وتحلم بأنها فى حمام سباحة.. وأنها تسبح.. وأن شيئا مربوطا فى رجلها.. حجرا يكاد يغرقها.. ثم تنظر فتجد هذا الحجر تمثالا من الرخام للمليونير العجوز.. وتصرخ ويقفز من المنصة شاب.. لينقذها.. إنه حبيبها.. وتحاول أن تهرب منه ولكنه يمسكها.. ثم ينقذها ويعانقها.. وتسأله: أنت عادة بتعمل كده مع كل الناس..

ويقول لها: أنا ما اعرفش أعوم..

وتسأله: إزاى؟..

فيقول لها: أنا زيك.. ما أعرفش أعوم..

وتسأله: إزاى؟.. أمال عملت كده ليه..

ويجيب: قلت فرصة نغرق احنا الاثنين..

وتصحو رجاء من أحلامها.. وترتدى ملابسها..

وترى العجوز فى الغرفة المجاورة.. وأحد الممرضين يعطيه حقنة.. والحقنة مؤلمة.. ولكنه يتحملها بصعوبة.. ثم يشد حيله ويدخل.. وعندما لا يجد رجاء تبدو عليه السعادة.. ثم يمد يده إلى زجاجة ويسكى قد وضعها تحت السرير.. ويملأ فمه منها.. مرة.. ومرة.. ويدخل تحت الغطاء.. وينتظر..

وتدخل رجاء وقد بدا عليها الأسى..

وتنطفئ الأنوار.. ونسمع رجاء تضحك.. والعجوز يسعل.. وتمتد يد العريس إلى النور فيفتحه.. ونرى عروسا كبيرة من القماش والمطاط فى حضن العريس العجوز وهو يعانقها ويقبلها..

أما رجاء فقد هربت من الباب إلى الشارع..

ونرى العجوز وقد استغرق فى النوم..

وتخرج رجاء.. ونراها تمشى فى شارع ضيق.. الأنوار خافتة وتتلفت حولها تبحث عن بيت تعرفه بوضوح.. فهى لا تتلفت يمينا ولا شمالا ولا تقرأ أرقام البيوت.. فهى تعرف الطريق..

وأمام باب تقف.. وقبل أن تدق الباب نسمع أصواتا وضحكا.. إن الصوت ليس صوت صديقتها.. إنه صوتها.. وتندهش رجاء..

ولكنها تسمع صديقتها وهى تتحدث عن رجاء..

وفى داخل شقة حبيبها تجد صديقة رجاء تكلمه عن حب رجاء للعجوز.. فهى محرومة من الأب.. وهى تبحث عن الحنان..

ويشير صديقها بأصابعه: يقصد أنها تبحث عن الفلوس.. أو تبحث عن السعادة في رنين الذهب؟..

وترن قبلة.. وقبلة أخرى.. وترى الانزعاج على وجه رجاء وتكاد .. تغلق الباب.. لولا أنها استمعت إلى صوت الطفلة الصغيرة.. فأدركت أن الاثنين كانا يقبلان الطفلة.. وتعود رجاء إلى قصر الزوجية..

ولا تكاد تدخل الغرفة.. وتدخل في الفراش حتى يوشك المنبه أن يرن.. فتسكته رجاء بأن ترفع العروس الجلدية من أحضان زوجها.. ثم تضعها إلى جوارها.. وتضع الخاتم في أصبعها.. وتضع العقد حول عنقها.. وتجيء على مكان قلبها وتضغط عليه.. وكلما ضغطت أحدثت تجويفا في الجلد.. فإذا رفعت يدها عاد الجلد إلى ما كان عليه.. وتهز رجاء رأسها وتقول مشيرة إلى زوجها: انتو الاثنين ما عندكوش قلب..

وتلقي بالعروس الجلد فوق الورود والصناديق وتحدث صوتا في الغرفة ولكن الزوج لا يصحو..

فتأتي رجاء بزجاجة العطر وتنثر العطر على وجهه فيصحو منزعجا.. وتضحك: ياه أنا ما كنتش أعرف أن البارافان هو د. د. ت. أصحاب الملايين..

وتتربع في السرير.. وتكمل عبارتها قائلة: اللي زينا!..

***

وتظهر رجاء على مسارح كثيرة.. والفرقة أصبحت باسمها الآن.. فهي صاحبتها.. وهي الفتاة الأولى.. وزوجها يجلس في المقصورة دائما.. وهو ينظر إلى الصالة بمنظار مكبر.. ويتفرس في وجوه الشبان خصوصا.. وكلما صفق واحد منهم أو ألقى وردة.. راح ينظر إلى مصدر الوردة.. ويفاجأ بأن وردة تصيبه في وجهه.. ثم أخرى وثالثة وعاشرة.. ولكنه لا يدري..

وينفتح باب المقصورة وتدخل فتاة جميلة وتقلب بين الورود التي ارتمت حوله.. وتخرج منها واحدة وتقدمها له وتقول له: أنا صاحبة الوردة دي..

وتهجم عليه وتقبله.. ويضطرب.. وقبل أن يمد يده إلى جيبه تكون قد أعطته هي المرآة ليرى شفتين من الروج على وجهه.. وتهرب الفتاة..

***

ونرى في إحدى الحفلات موظفي المسرح يمنعون حبيبها من الدخول..

ولكن أثناء العرض نراه جالسا فى الصالة بملابس الممثلين.. ويتبعه منظار المليونير العجوز.. ثم يحاول أن ينهض من مكانه.. ولكن يدخل عليه مدير المسرح متجهم الوجه..

ويدور بينهما حوار.. يقول المدير.. لابد وإلا كانت فضيحة.. لقد أصيب فى حادث وهو فى طريقه إلى المسرح.. وده الحل الوحيد..

ويعود المليونير إلى مكانه من المقصورة ويتقدم اثنان من الموظفين إلى حبيب رجاء الجالس بين الصفوف ويخرجونه بالقوة.. ولكنه يقاوم..والجمهور يصفق لهم.. ثم يهمس واحد منهم فى أذنه.. وينهض .. ويظهر بعد ذلك على المسرح وتكون المفاجأة هو ورجاء يرقصان معا.. والجمهور يصفق له.. ورجاء تقدم له الجمهور والدموع على خدها.. وينزل الستار.. ويفاجأ بأنه وحده الذى يظهر.. أما رجاء فقد نزلت إلى الصالة تتفرج عليه.. وتصفق مع المتفرجين..

وتنظر إليها صديقتها فى دهشة..

وتعود رجاء تقول: أيوه.. خلاص .. مش قادرة.. الذهب لونه وحش.. ساقع بارد.. الذهب بيشخر بالليل.. الذهب بيوجع قلبى.. «ثم تضحك رجاء وتقول» أنت عارفة البزازة اللى بيدوها للعيل الصغير.. أنا عندى بزازة قد كده «وتشير بيدها إلى حجم العروس» ودى بأديها له علشان ينام.. وكل ليلة بياخدها فى حضنه.. والساعة تمانية يضرب المنبه أشيل العروسة وأحطها فى حضنى أنا..

وتسألها صاحبتها: ويعدين..

وتزورها صديقتها فى البيت..

وتقول لها رجاء: قال لك إيه؟.. وترد عليها: رفض.. كفاية بقى.. أنا رحت له عشر مرات.. رفض ياخد ولا مليم منك..

وتقول لها رجاء فى يأس: طيب أعمل إيه؟.. أنا اتفقت مع واحدة من الفرقة أنه يعمل عيان علشان يطلع على المسرح والناس تشوفه.. وطلع والناس شافته.. وانبسطوا منه.. وباحاول أدى له فلوس.. الفلوس حقى.. نصيبى فى الفرقة.. مش نصيبى من الزواج.. وده دين على.. دين على.. مش هوه اللى علمنى؟ حتى هو اللى شجعنى.. وأنا لسه بأحبه.. لكن الحب ما يأكلش عيش .. ما يجيبش هدوم.. ما يجيبش جزم.. الحب راهب.. لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا حتى يعيش!

وتسكت رجاء وتقول: ما انت عارفة كل حاجة.. ويعنى أنا سعيدة.. أنا فاكرة

إنى أقدر أضحى علشانه.. وأنا مستعدة أضحى بالفلوس علشان الفن..وأضحى بالفن علشانه هو..

وتقول رجاء: وبعدين لازم ينزل الستار.. «وتشير بيدها إلى أعلى وتحاول أن تشد الستار.. وتشير إلى الستار أن ينزل فيسقط الستار كله على المسرح»..

ونرى رجاء جالسة إلى المليونير بفستانها الذى ظهرت به فى البداية.. نفس المكان الذى أقيمت فيه الحفلة فى أول الفيلم.. الموائد كلها خالية.. والجرسونات يقدمون الطعام الذى لا تذوقه رجاء..

ويجىء الخدم ويقدمون لها الطعام.. وترفض.. مرة بيديها.. ومرة برأسها.. ومرة وهى تمد شفتيها..

ولأول مرة نرى المليونير يقدم لها سيجارة.. وتضعها فى فمها.. ثم يتقدم أحد الجرسونات ويشعل لها السيجارة.. وينظر إليه المليونير باحتقار شديد.. واستنكار.. فتضع السيجارة وهى مشتعلة وتمد يدها إلى سيجارة أخرى.. ويشعلها المليونير ثم تأخذ منه الولاعة.. وتشعل السيجارة من الناحية الأخرى.. ناحية الفلتر.. وتضع السيجارة مشتعلة من ناحيتين.. والمغزى من هذا واضح.. وواضح أن السيجارة من ناحية الفلتر تنطفئ بسهولة.. فيعود الزوج يشعلها مرة أخرى.. وتهز رجاء كتفها أى أنه لا فائدة.. ويحاول أن يفهم.. ويحاول أن يتكلم ولكنه لا يستطيع ثم تنظر إليه.. ولا تتكلم.. ويمد يده إلى جيبه.. وتمد هى يدها إلى حقيبتها.. وتخرج المرآة.. وترى فى المرآة صورة حبيبها بملابسه يوم ظهر معها على المسرح.. وتحاول أن تسوى شعرها.. وأن تمسح المرآة.. وتقربها من فمها وتقبلها.. وتناوله المرآة ليسوى شعره.. وبسرعة يخرج المنظار من جيبه.. وتسارع هى وتأخذ المرآة.. وتطلب إليه أن يضع المرآة فى جيبه.. وتضع هى المنظار فى حقيبتها..

فيضع المرآة فى جيبه وهو سعيد بهذه الدعابة.. وهو لم يتمكن طبعا.. لم يتمكن من رؤية الصورة..

وتضع المنظار على عينيها وتقول: أنا مش شايفة حاجة.. أنا ما اقدرش أشوف بعينيك..

ويضحك هو ويقول: أنت ما تقدريش تشوفى إللى أنا شايفه..

وتندهش لهذه العبارة الجميلة التى خرجت منه وتسأله.. تشوف إيه.. ويرد:

أجمل ما فى الدنيا.. أروع فن.. أجمل وجه.. أشيك سيدة.. أعظم زوجة.. شجعتنى على أن أكون شيئا له معنى.. له قيمة.. له وزن.. كانت حياتى لا تساوى «ويشير إلى بقايا السجاير».. أنت خليتينى عملت أحسن دعاية لبلدنا.. لفننا.. لحضارتنا..

وتسكت هى ثم تقول له مع الأسف.. الكلام ده جه متأخر.. متأخر كتير خالص..

تعرف أنا شفت إيه.. شفت أحقر ما فى الدنيا.. أقذر ما فى نفوس الناس.. الشفاه اللى باست إيدى شتمتنى.. الشفاه اللى بترتعش وهى بتقرب من صوابعى.. بترتعش ومن إيه.. إيه فيها إيه صوابعى.. أنت عارف صوابعى دى كانت بتعمل إيه امبارح.. كانت بتمسح الجزمة السودا القديمة.. كانت بتنظف بطاطس كانت بتمسح عرق من على جبين حزين..

ويتراجع فى مقعده وهو سعيد.. ويقول: مش معقول تكونى أنت اللى طبخت امبارح.. وأنا دلوقت عرفت أن الصداع اللى كان فى رأسك راح من صوابعك..

ويمد يده ويأخذ يدها ويقبلها.. وواضح القرف على وجهها..

وتعطيه المنظار.. ويضعه على عينيه.. وهو سعيد بالنظر إليها.. وتطلب إليه أن يعطيها مرآتها.. ويخرج المرآة من جيبه.. وتطلب إليه أن يفتحها.. ويفتحها .. ويصاب بذهول فى تساؤل ينظر إليها.. وتهز رأسها وهى تقول: أيوه..

وتلعب فى الخاتم الذى فى أصبعها.. وتنظر إليه كأنها تستأذنه.. ويتردد بعض الوقت ثم يهز رأسه كأنه يقول: أيوه..

وتخلع الخاتم من أصبعها..

وهنا تظهر الفتاة الصغيرة وقد ارتدت ملابس كيوبيد.. وتضع الخاتم فى أصبعها هى.. ويقع منها الخاتم..ثم تعطيه للعجوز.. وبحركة لا شعورية يضعه العجوز فى جيبه.. ثم يخرج المنديل ويمسحه ويضع المنديل عند أنفه ويشم رائحة المنديل.. ويضع المنديل وبه الخاتم فى جيبه وتضحك فاتن ضحكة مكتومة..

ويتنبه إلى وجود الطفلة وفى ذهول يتساءل دون كلام إن كانت هذه الطفلة ابنة نفس الرجل الذى تحبه.. فهزت رأسها بما معناه نعم..

وهنا يتحول الكلام بين الاثنين إلى إشارات.. بالأيدى.. ولكن لا تسمع ولا كلمة.. والموسيقى تحيط بالجو كله.. وبالإشارات .. نفهم أن رجاء أحبت والد هذه الفتاة وأن علاقتها به كانت شريفة.. تماما كعلاقتها بزوجته كانت شريفة أيضا.. وأنها قررت أن تسعده فلم تفلح.. لم تفلح فى إسعاد الغنى.. ولا فى إسعاد الفقير

بأموال الغنى.. وأنها قررت الزواج منه لأنها محرومة.. لأنها ازدادت حرمانا.. وأرادت أن تكون الغنى الوحيد الذى سيدخل ملكوت السماء.

وتحاول الفتاة الصغيرة أن تسمع ما يقولان.. أو تفهم ما يقولان.. فرجاء تحرك شفتيها.. والرجل يحرك شفتيه ويديه ومنظاره..

وتجىء الطفلة الصغيرة وتسأل رجاء:

- بتقولى إيه يا تانت.. مش أنت تانت..

وتبدو السعادة على وجه رجاء عند سماعها لكلمة تانت.. وتكرر رجاء نفس الكلمة وهى سعيدة دون أن تسمع لها صوتا..

ثم تشير على الطفلة أن تذهب للمليونير العجوز..

وتذهب إليه فيكلمها أيضا بالإشارات.. وأنه لا فائدة.. وأنه لا يريد أن يتكلم معها.. وهنا يطلق كيوبيد الصغير أحد السهام الفنية على المليونير فيسقط على الأرض. ويكون السقوط منه رنين الذهب.. ويخرج الذهب من جيوبه ومن كل ملابسه..

ثم يطلق كيوبيد الصغير سهما ذهبيا على رجاء فلا يصيبها.. وتهرب رجاء.. إلى آخر المسرح ويظهر حبيبها وفى يده السهم.. وترتمى على صدره.. وتحاول أن تعانقه.. لولا أن شيئا يعبث بملابسها.. إنه كيوبيد نفسه.. بعد أن ألقى سهامه كلها على الأرض وراحا يدوسانها بأقدامهما.. ويمتلئ المسرح بالطيور والعصافير.. بلا أقفاص..

وفوق السهم الذى أغمده كيوبيد فى قلب المليونير تظهر كلمة: النهاية، ونرى المليونير وأصابعه ما تزال تعد الفلوس!

□ □ □

الزمن: هه؟ الزمن أى وقت من النهار أو الليل الزمن.. يمر ببطء أو بسرعة تحسبه ساعة فى يد أو على حائط أو فى ميدان.

المكان: أى مكان.. له باب مقفل.. فى الدور الأرضى.. فى السطوح.. فى سيارة.. فى طيارة.. دافئ.. بارد.. تسكن فيه أو تملكه.. وحدك أو مع غيرك..

الأشخاص: كثيرون.. قطعا أنت واحد منهم.. تتكلم أو تعارض.. يجىء اسمك على لسان واحد منهم ستجد نفسك.. أو واحدًا شبيها بك.. فكل الناس يشبهون كل الناس فى معظم الأوقات.. وخصوصا عند الولادة وعند الوفاة.. ينزلون من بطن الأم إلى وجه الأرض.. عراة.. ومن وجه الأرض إلى بطن الأرض عراة.. كل إنسان يولد وحيدا.. ويموت وحيدا.. لا يعرف لماذا يولد ولا يعرف لماذا يموت.. وحياته هى أن يسأل ويسأل ويبحث عن جواب. يجىء الموت فيخطف الأحياء.. وتبقى ورقة الأسئلة وورقة الإجابة..

***

هى: لابد أن أتكلم.. لابد أن أقول أى شىء.. من الممكن أن يعيش الإنسان وقتا طويلا بلا طعام وبلا شراب ولكن لا أتكلم.. لا أستطيع.. إننى لا أريد منك أن تسمعنى.. وإنما لا أريد أن أبدو مجنونة فأتحدث إلى نفسى. دعنى أكلمك.. بل دعنى أتكلم على مسمع منك.. بل دعنى أتكلم فى حضورك.. لا تدر وجهك إلى الناحية الأخرى يكفى أنك أدرت أذنيك. وأقفلت عينيك.. يكفى هذا..يا بختك يا أخى يا بختك.. تتحكم فى كل شىء. حتى قلبك جعلته وراء ظهرك.. أنت كنساء الإسكيمو يحملن أطفالهن على ظهورهن، وأنت تحمل كل شىء على ظهرك، وترميه عندما تريد.. دعنى أشعل لك هذه السيجارة.. إنها العاشرة.. هذه الأيام تدخن كثيرًا.. ليتنى أعرف ماذا تعنى هذه السجائر بالنسبة لك! أهى لذة إحراق شىء.. أهى لذة إشعال شىء والتفرج عليه.. كل الناس عندك سجائر يستحقون الحرق.. أو كل كلامك سجائر ملفوفة رقيقة.. ثم هى بعد ذلك دخان فى الهواء..

أعرف أن كلامى هذا ليس جديدا عليك.. ممل.. أعرف.. قلته أنا قبل ذلك.. إننى عصفور يغنى لحنا واحدًا وأنت لحنى الذى أغنيه وأبكيه..

هو: «يمد يده إلى إحدى المجلات ويقلبها.. فى هدوء.. ولا ينظر إليها. وإنما يرفع رأسه إلى أعلى.. كأنه يريد أن يشم هواء آخر لم يختلط بألفاظها. أو كأنه تحت سطح الماء. ويرفع رأسه ليستنشق هواء نقيا.. لهذه الدرجة يبدو الهواء فاسدًا.. لأنها هى تنفست فيه.. ثم يعود يغمض عينيه.. ويمدد رجليه ويتراجع فى مقعده.. كأنه يريد أن ينام. فالنوم هو الحاجز الصوتى الذى لا يمكن أن تصله أنفاسها. أو النوم هو دولة أخرى وهو لاجئ سياسى.. إلى هذه الدولة الأخرى. أو أن النوم يجرده من كل صلة بها.. مع أنه زوج لها من أربع سنوات.. وأنه قرر فى هذه الأيام الأخيرة أن يتحول من زوج إلى صديق قديم.. إلى جار.. إلى معرفة.. إلى إنسان تراه فى البيت.. يشاركها فى بيتها وطعامها. ليس كل البيت ولا كل الطعام.. ويمد رجليه.. ثم يرد يديه ويخلع حذاءه..»

هى: فى كثير من الأحيان لا أعرف من الذى يتكلم معك.. لا أعرف ما الذى أقوله لك. أحيانًا أسمع نفسى وأنا أتكلم فأدهش جدًّا.. ما هذا الذى أقوله ولماذا أقوله.. أحيانًا أضع كرامتى عند قدميك. طريقًا مفروشًا بالرمل.. وأحيانًا أضع كرامتى بعيدًا.. وألقى بنفسى عند قدميك.. ليس حبا.. وليس عبادة لك. وإنما شعور غريب لا نعرفه.. إنه شعور بالأمومة.. أشعر كأننى أم.. شعور لا يعرفه الرجال.. وإذا عرفه كل الرجال فلن تعرفه أنت.. إننى أحس إننى أمك.. أمك التى لم تلدك.. إننى أخشى عليك.. أخشى عليك أن تهدم نفسك.. أن تهدم الذى بنيته أنا لك.. إننى أركع عند قدميك حتى لا تهدم نفسك.. ولا تهدمنى أيضًا معك.. فأنت الآن ابنى.. ولدى.. وحيدى.. جهادى.. عرقى.. مستقبلى.. أنت رصيدى الذى ادخرته.. لمستقبلك أنت.. أنا لا يهمنى هذا الرصيد.. إنما يسعدنى أرى هذا الرصيد يكبر.. ويراه الناس كبيرًا لامعا.. دائمًا يلتف الناس حولك ويشيرون بأيدهم.. إنه هو.. إنه تعب كثيرًا.. متعتى الكبرى أن أتلاشى فى زحام الناس حولك.. أن ينظر الناس ناحيتى.. ولا يعرفون من أنا.. ولكن أعرف أننى فعلت شيئًا وأنك أنت تعرف.. وهذا يكفينى.. ولا أريد أن تضيق بى. فإننى لا أريد أن أوجعك.. أبدا.. إننى أتصور أنك لا تسمع كل كلامى.. وهذا يسعدنى مرة أخرى.. فمعنى هذا أننى أتكلم بصوت مرتفع.. مع نفسى.. إننى أحلم أننى أسترجع ما أريد.. أن أقوله لك فى يوم من

الأيام.. دعنى أخلع لك الحذاء.. أنت خلعت فردة حذاء واحدة.. أنت عادة هكذا.. تشرب نصف الكوب.. وتحرق نصف السيجارة.. وتخلع فردة حذاء واحدة.. والباقى تتركه.. تتركه لى أو لغيرى.. وربما.. كان سرك.. أو سحرك.. أنك تترك للآخرين شيئًا.. يلفتهم..ويحرك أيديهم لمساعدتك..

هو: «يمد يده حول عنقه.. ويتلمس رقبته.. كأنه يريد أن يتأكد أن كل كلامها قد التف حول عنقه. ثم يفتح ياقة القميص ويفك الكرافتة. ولا يلتفت إليها».

هى: شىء خانق كلامى.. إصرارى على الكلام.. كأننى أنبوبة غاز انفتحت فى وجهك.. كأننى مروحة تسحب الهواء الموجود.. فى هذا البيت.. أنا لا أريد أن أطيل عليك.. أو على الهواء الذى يقف على باب أذنيك. أنت تنتحر.. أنت تقتل نفسك.. ماذا تعمل فى يومك.. ماذا تجنى فى ليلك هذا كل ما تريده من حياتك. أن تظل تقتل نفسك نهارًا بالتدخين والقهوة وتأكل أظافرك. وتملأ السلة إلى جوار مكتبك بالورق. وماذا تكتب فى هذا الورق؟ عبارة واحدة تشتم فيها نفسك. وفى الليل تظل تسهر وتحمر عيناك.. وتغوص الدنيا كلها فى بياض عينيك.. لماذا تعذب نفسك.. لماذا تقتل نفسك.. لماذا يهرب الناس.. لماذا لا يواجه الناس حياتهم.. هل هناك شىء أروع من الحياة.. أن تكون حيا.. أن تنهض من النوم لترى النهار.. لتجرى.. لتعمل.. لتشارك فى شىء.. لتكون نافعًا.. لماذا ينسحب الناس من الحياة.. أنا أفهم أن يهرب الإنسان من الموت ليعيش.. ولكن إذا هرب الإنسان من الحياة فلماذا؟ لأى شىء.. لماذا يحرص الإنسان على أن يكون فى حالة تشبه الموت وفى نفس الوقت يحرص على الحياة. إنك زممت قميصك عندما فتحت أنا النافذة.. ولكن إذا كنت تخشى على نفسك من الهواء فكيف لا تخاف على نفسك من عواصف الانتحار.. كلمنى.. هذه المرة أنا حريصة على أن تسمعنى.. لابد أن تسمعنى، لا بد أن أشد أذنيك.. هل أنتم كلكم هكذا.. ليس معقولا أبدًا.. من الذى يدير المصانع من الذى يخترع.. من الذى يغرس ويجنى ويبيع.. إذا كان الشبان يفعلون هكذا.. هل هذا العالم يديره ويحركه الشيوخ.. إذن فالشيوخ يستحقون الحياة.. يستحقون حياتكم.. أى أجراس يمكن أن يستخدمها الشيوخ لإيقاظكم.. ألا توجد أجراس أخرى غير أجراس الحرب.. أهذه أجراس من النار لإيقاظ النائمين أمثالك.. انظر إلى نفسك فى المرآة.. كم عمرك أنت لا تعرف.. إن شعرك الأبيض يدنو بك من الأربعين.. وتجاعيد وجهك تقسم أنك فى الخمسين.. ونومك المستمر

يقطع أنك فى الستين.. أما قلبك فهو قلب إنسان.. مات.. مات.. من آلاف السنين.. أنت لا تعرف ماذا تملك.. أنت لا تعرف ما الذى تبدده كل يوم من حياتك.. من وقتك.. من مستقبلك.. أنت الآن الرجل الذى كان يجب أن أراه بعد عشرين عامًا.. إنك اختصرت الزمن.. إنك مزقت أوراق النتيجة.. إنك أنزلت الستار على الفصل الأخير من رواية حياتك.. بل أنت لم تفعل شيئًا.. أنت كأهل الكهف.. نمت.. نمت.. لأنك رفضت أن تصحو.. وعندما صحوت.. سحبت غطاء من الملل.. من القرف.. من الخوف.. من الرغبة فى الهرب.. أنا لا أفهم لماذا الهرب.. لماذا الملل.. ما الذى فعلته فى هذه الدنيا.. لكى تمل أن يتكرر.. ما الذى ذقته بكل شفتيك ولسانك.. لكى تقرف منه.. ما الذى عرفته من حقائق الدنيا لكى تكرهه.. إننى أعرف تعبيرًا لك ولكنه مجرد تعبير.. مجرد نصف بيت من الشعر المنثور.. أو مجرد خيال أؤكد لك أنك كنت تقوله، لو الإنسان استطاع أن ينفذ بعينيه فيرى أحشاء الناس.. يرى مصارينهم الملتوية.. وما فيها من طعام أسود أصفر.. أن يرى معداتهم التى تشبه القربة.. وهى تهتز.. لو أن الإنسان استطاع أن ينفذ بأنفه إلى أحشاء الناس، إلى آخر هذا الكلام.. ماذا لو وصل الإنسان إلى ذلك.. سيشعر بقرف كطبيب الولادة.. سيقرف كطبيب الأمراض الباطنية.. بقرف عمال المجارى والمراحيض.. ولكن ماذا بعد ذلك.. ولماذا يفكر الإنسان فى هذا كله.. إذا كان يريد أن يعيش. ولكنكم تحرصون على حياتكم.. لتزدادوا كراهية لها.. تحرصون عليها لتلعنوها.. أنتم تصفرون من أسنانكم وتبدون كالشيوخ. تنظرون ولا تسمعون.. لا أصدق أنك نمت.. إن الاصفرار الذى على وجهك ليس ستارًا من النوم.. أنت عندما تفتح عينيك لا تنام. وعندما تفتح عينيك لا تصحو.. وعندما تفتح أذنيك لا تسمع.. وعندما تتحرك لا تعمل.. وعندما تعيش لا تعيش..

هو: «ينظر إلى النافذة – فنهضت هى وفتحتها»

هى: النافذة ذراعان ممدودتان.. ذراعان مثل ذراعى.. إننى أحضنك فلا أجدك. أحب من لا يحبنى.. إننى لا أريد حبك النائم.. لا أريد حبك الذى يشبه الكراهية.. لا أريد حضورك الغائب أو غيابك الحاضر.. وهذا هو الذى يجعلنا نحن النساء نتحول إلى أمهات قبل الأوان.. أمهات لرجال لم نلدهم.. لرجال هم أطفال نتزوجهم بعد ذلك.. ونحلم باليوم الذى يصبحون فيه رجالا.. مسكينة كل امرأة اليوم.. إنها تبحث عن الزوج فلا تجد إلا الطفل الجاحد.. العاق.. الأعمى.. الأطرش..

المحروم من نعم الدنيا.. أنا مثلا أحبك.. ما قيمة حبى.. ورقة مالية كبيرة ألغيتها من حسابك.. أنا كبيرة إلا عندك..

هو: «يعود يمد يديه إلى حذائه.. ويرتديه.. واحدة.. واحدة.. ويطفئ سيجارته ويزم قميصه ويمسح فمه فى الكرافتة. وتمد هى شفتيها فى يأس».

هى: هل تعرف لماذا أريدك أن تحبنى.. أو أن تحب. لأن الذى يحب هو الذى يعرف الألم.. والذى يعرف الألم.. يعرف طعم الحياة.. فلا حياة بغير ألم. بغير بحث عن شىء. وحصول على هذا الشىء. وفقدان له. وشوق إليه.. أن تحب معناه أن ترى الدنيا بعينين. عينك وعين من تحب.. أنت محروم من أشياء صغيرة جدًا. إننى أنظر إلى حذائك.. أنظر إلى قدميك.. إننى تمنيت أن أحمل حذاءك.. وأن أركع عنده وأربطه بيدى.. بشفتى.. لا تقل كرامة المرأة.. فالمرأة تتكلم عن كرامتها عندما لا تحب.. تتكلم عن حريتها عندما لا تحب.. ولكن عندما تحب المرأة فحبيبها هو حريتها.. هو كرامتها.. وهو دنياها كلها.. إننى حزينة عليك.. من أجلك.. حزينة أن تصبح بلا معنى.. كل فواكه الدنيا بلا طعم.. كل بهجة الدنيا بلا لون.. ولكنك طفل.. ولكنكم أطفال تملكون شهادات ميلاد مزورة.. وهى فى الواقع شهادات دفن مؤجلة.. كل واحد فيكم دفن يوم ولدته أمه.. إن الرجل الذى أحبه ليس له مستقبل.. لقد مات يوم ولدته أمه.. هل تعرف هذه العربة التى أمامك.. هذه العربة هى أنا.. عربة يجرها حصانان.. هذان الحصانان هما: أنت.. أنت الرجل وأنت الطفل.. أنت الشاب وأنت الشيخ.. أنت زوجى وكل هذا الجيل.. أنت الذى أحبك وأنت الذى أكرهك.. إننى أكرهك.. هل تسمعنى. أكرهك لأنك تريد أن تهدم ما بنيته أنا.. إنك تريد أن تهدمنى.

هو: «يبتلع شيئًا جامدًا.. لقد ابتلع كل ريقه.. إنه يضغط على لسانه بين أسنانه.. إنه يضع يده على بطنه.. على جنبه الأيسر.. إنه نفس الداء القديم.. وجع المصارين الغليظة.. ككل أصحاب الأعصاب المرهقة.. إنه مريض القرن العشرين.. المرض الجديد.. المرض الموضة.. الذى يدعيه كل إنسان فهو دليل على التفكير.. وإن رواسب فكرة تتحول إلى مادة كاوية للأحشاء.. ثم إن الأحشاء تتحجر كأنها جدار له أسلاك شائكة فى إحدى مدارس الأطفال.. وبين الحين والحين يقفز طفل فوق الحائط ويضغط على الأسلاك.. فينهض «هو» أو هذا الجالس ويمنع الطفل من تسلق السور تمامًا كأنه بواب المدرسة.. أو كأنه ضابط

المدرسة.. وينزل الطفل من فوق السور ولكنه يوجعه عندما يصعد ويوجعه عندما ينزل..».

هى: إننى فقدت عندك كل صفة.. لا أنا زوجة.. ولا زوجة سابقة.. ولا صديقة.. ولا جارة.. وإنما كل ما يربطنا هو أننا نتقابل كثيرًا.. فى هذا البيت.. بل إننا لا نتقابل ولا نتلامس.. أو أننا نتزاحم فى هذا البيت.. والحقيقة أنه يتصادف وجودنا هنا معا.. فى أوقات شبه منتظمة.. ويتصادف أن أجد مقعدًا إلى جوارك.. فى مواجهة النافذة ولابد أن أتكلم.. ولابد أن تنتهزها فرصة لتمد رجليك..

وتحس أنت أننى أشبه أحد اللصوص.. وأنك تخشى أن أسرق هدوءك، أو أسرقك من هذا الهدوء.. فتقفل فى وجهى كل شىء.. عينيك.. وأذنيك وتطفئ يقظتك.. وتهرب منى فى الظلام.. وأطاردك أنا بكلام كالطِوب.. فالإنسان لكى يعرف عمق بئر فارغة فإنه يلقى فيها بحجر، وعندما يصطدم الحجر بقاع البئر فإنه يعرف عمق البئر من الزمن الذى قطعه الحجر حتى القاع.. يعرف إن كان القاع من حجر أو من ماء.. أو من طين.. وقد ظللت أرمى الأحجار فى أعماقك ولم أسمع لها صوتا حتى الآن.. بل إننى فوجئت أن البئر قد ارتفع قاعها.. وارتفع حتى أصبح حائطا بينك وبينى.. وأنا الآن أتسلق حاجز الصوت.. أتسلل فى الشقة الحرام.. الشقة المنزوعة الكلام.. التى بينك وبينى.. إلى أين بلغت من أعماقك. من قلبك.. أى إنسان أنت.. أى جيل أنتم.. ماذا تريدون.. لماذا تصفوننا بالموت ونحن أحياء. إنه ضعفنا.. إنها قلوب الأمهات.. وكل امرأة أم.. وكل رجل طفل.. ولكن طفل عجوز نحن نحب الطفل ونكتوى بالعجوز.. إنه قدرنا.. مأساتنا.. فويل لنا من أزواجنا ومن أطفالنا.

هـو: «يكاد يفتح فمه ليقول شيئًا. ولكنها تضع يدها على فمه. إنها لا تريد منه أن يقول شيئًا. إنها تخشى أن يقول شيئًا سخيفًا.. وهى تكلمت طول الوقت لتدافع عن إنسانيتها.. عن أنها حيوان ناطق.. وكل إنسان حيوان ناطق.. ناطق يعنى مفكر.. مفكر يعنى بصوت مرتفع.. صوت مرتفع لكى يسمعه إنسان.. أى إنسان».

هى: ولا كلمة.. لا أريد أن أسمع منك شيئًا.. لكن قول لى.. ماذا تفعل فى صمتك..؟ ماذا تقول لنفسك.. مستحيل أن تكون قد أخرست كل كلامى.. مستحيل أن كلامى الذى قمت بتهريبه إلى أذنيك لم يصلك.. قل لى.. أى واحد من الاثنين أنت.. الآلة والحيوانات فقط هى القادرة على الصمت الدائم.. وقل أيضًا أن

المعجبين فقط هم الذين يشبهون ذلك الشاب الذى تكلمت عنه «ألف ليلة وليلة» والذى نصفه حجر ونصفه بشر.. وكان النصف العلوى بشرا.. أما أنت فنصفك العلوى حجر.. فأنت لست محبا وإنما أنت كاره.. أنت كاره لنفسك أولاً.. ومن كراهيتك لنفسك تنبع كراهيتك لكل الناس.. ولكل الذين يحبونك. لكل الذين يحبون شيئًا. يحبون العمل.. يحبون الحياة.. لأنك ترى فيهم ما ليس فيك.. لأنهم أغنياء وأنت فقير.. كما يحقد أبناء الطبقة الفقيرة على أبناء الطبقة الغنية.. فأنت حاقد عليهم حقدا طبقيا.

هو: «يضع يده على رأسها وهى تركع إلى جواره وتنظر من النافذة وتركز عينيها على شيء معين هناك فى السحاب أو بعد السحاب.. ويحنى هو رأسه وتنزل على خده دمعة..».

هى: كنت أعرف أن الله لن يتخلى عنى. إننى بكيت طول عمرى من أجل هذه القطرة على خدك.. إن الجليد بدأ يذوب سيستجيب الله لدعائى.. اللهم ابعث فيهم الحياة.. واملأ قلوبهم بالحب.. بحبك.. بحب ما خلقت.. ومن خلقت.. وافتح عيونهم لك وعليك.. من أجل حبيبى..

هو: «دمعة أخرى تنزل على خده».

هى: شكرا.. لك.. وشكرا.. له..

«الستار.. لا ينزل لأنه لم يرتفع.. فهذا الفصل لا يعرف أحد ما هو ترتيبه.. فى هذه المسرحية. وإذا كانت هناك أصوات. فليس هناك متفرجون. وإنما هنالك.. دقات قلبين.. دقات عالية تتجاوب مع أصوات السيارات.. ونداء الباعة.. وصوت الأسانسير.. والمؤذن والأجراس وصوت آخر يقول: آه.. إنه صوتى أنا!».

□ □ □

فى تلك الليلة

كل شىء حولنا ضاحك أو فى نيته حركة عبارة عن زغزغة تؤدى إلى انفجار كل الموجودين فى الضحك والصراخ، وإلى أن تتطاير البالونات فى الهواء. وتهتز الأكواب وتنطلق أمواج من الدخان..

طبعًا هذه ليلة رأس السنة، وكلنا لم نلتق منذ وقت طويل.. صحفيون وفنانون وإذاعيون وتليفزيونيون - طويلة هذه الكلمة - ورجال السينما والمسرح.. ولم يكن هناك شىء أقل من القبلات. كأن رأس السنة تبدأ بأن يتعانق عقربا الساعات والدقائق.. ثم لا ينفصلان حتى يطلع النهار.. أو كأن هذه القبلات هى «تحويشة» السنة الماضية والقادمة أيضا.. فبعد هذه الحفلة لا يلتقى الناس. ويمضى كل واحد فى حاله.. وحاله يشغله عن أحوال الآخرين حتى يجىء شهر ديسمبر بالفرج.. بأن يلتقى الناس مرة ليلة الكريسماس. وهذه الليلة.

ولم يكن الناس فى حاجة إلى أن يعاتب بعضهم البعض.. أين كان.. ولماذا اختفى كل هذه المدة.. ولماذا لم يتصل به.. مع أن قريبًا له مات. أو زوجة له دخلت المستشفى.. أو أنه أصبح فى درجة أعلى.. لا شىء من هذا كله. فالناس يعرفون أنفسهم ويعرفون مشاغل الحياة ومتاعبها. وأنه كويس كده.. يوم فى السنة.. فى رأس السنة..

وإلى جوارى جلس صديق قديم.. كيف حالك.. صحتك أحسن.. المرة الماضية كنت متعبا. سألنا عنك زميلك فى الإذاعة.. وكيف حاله هو أيضًا.

ومال على كتفى ورائحة رأس السنة صارخة فى أنفى.. ملتهبة فى عينيه تعرف يا فلان.. أنا كنت مثلك لا أؤمن بالحب. ولا أؤمن بأن هذه العلاقة لها أى معنى.. لكن حديث الحب.. الحب شىء تانى.. أنت تعرف لماذا أحببتها.. إننى أحببتها لسبب أنانى جدًّا.. طبعًا أنا أنانى.. وأنت أنانى.. وكل الناس أنانيون.. أنا أحببتها لكى تحبنى هى أكثر.. أنا أحببتها لمصلحتى.. إذا كان ربنا بيقول إنه خلق الإنس والجن لكى يعبدوه.. فأنا أيضًا أحببتها لكى تعبدنى.. لكى تعجب بى..

لكى تكتشف كل يوم شيئًا جديدًا فى نفسى.. فكأننى أحببت أحد رواد الفضاء. أحد الغواصين فى أعماق النفس البشرية..

ثم راح يضحك وأمسكت يده حتى لا تبتل ملابسه وملابسى أنا أيضًا وقال: أنا أحببت غواصا أو رائدًا بشرط أن يجد شيئًا جديدًا.. أن يدلنى على شىء لا أعرفه فى نفسى.. ثم لكى يحبنى دائمًا.. طبعًا لابد أن يحبنى. أنا حياتى كانت من غير حب.. وهذا الحب هو الشىء الضرورى. اسمع.. أنا قرأت لك المقال الذى كتبته عن عسل النحل.. حلو قوى.. مش كلامك.. العسل.. هاها..

وكان لابد أن تترنح الكأس فى يده.. ثم عاد ليختم كلامه قائلا: أنت فى مقالك قلت: إن النحلة العادية إذا أكلت «الغذاء الملكى».. أو الطعام المخصص لملكة النحل. فإن عمرها يطول من شهر إلى سبعين شهرًا.. مش كده.

واهتز رأسى ليقول: أيوه. وعاد يقول: أهو الحب بقى.. هو الغذاء الملكى يأكله النحل العادى فيطول عمره.. أهو أنا طال عمرى.. عارف طال عمرى يعنى إيه..

واقترب منى لكى يفسر لى كيف طال عمره: أنا كان مفروض أتجوز من أسبوع.. واحدة لا أحبها.. أتجوز يعنى أموت.. وبعدين لقيت بنت حلال ثانية فأحببتها يعنى مافيش جواز دلوقت.. يعنى عمرى طال.. وطبعًا لابد أن أموت.. يعنى سأتزوج.. لكن الشطارة أن الحب أطال عمرى مؤقتا.. إلى أن يجىء الزواج فيقصف عمرى.. هاها..!

وضحكت طبعًا.. وكل شىء يضحك.. أو يدفع إلى الضحك..

وفى ركن وعلى كنبة من الجلد.. تمددت.. وتقرفص إلى جوارى شاعر من شعراء مصر الممتازين.. إنه نحيل.. رقيق.. وشعره الأسود منكوش.. وقبل أن أفتح فمى بقبلة رأس السنة – على فكرة نحن تعودنا على التقبيل بصورة كريهة. ولا أعتقد أننى رأيت فى العالم كله رجالا يقبلون بعضهم البعض كما يحدث فى مصر بمناسبة ومن غير مناسبة.. حاجة سخيفة ومقرفة أيضًا – بادرنى بقوله: اسمع.. أنا حقيقة.. لا شك حقيقة.. هل يستطيع أحد أن ينكر وجودى.. لايمكن.. أنت تستطيع أن تشنقنى.. أن تخنقنى.. ولكن ستكون قضيت على جسمى.. أما اسمى فسيبقى.. أنا أحسن شاعر فى هذا البلد.. إذا كانت المعانى طيورًا فأنا الشجرة الوحيدة التى يجب أن تعيش فيها.. إذا كانت المعانى جميلة فأنا قيثارتها.. إذا كانت المعانى نجوما فأنا سماؤها.. كده ولا لأ.

وقلت: كده.

وعاد يقول: تصور يا أستاذ أنهم فى لجنة من لجان المجلس الأعلى للفنون.. يا شيخ بلا قرف.. لا داعى لهذه السيرة.. دعنا نضحك.. دعنى أقول لك كل سنة وأنت طيب.

وقالها للمرة العشرين..

وفى المرة الواحدة والعشرين وهو يعانق صديقا آخر قال له. اسمع: أنا حقيقة.. اسأل هذا الرجل «مشيرا ناحيتى» وهو يحدثك عن حقيقتى.

ومر من أمامنا أحد الجرسونات يحمل صينية بها كفتة.. أو طعمية لا أذكر.. والفارق بين الاثنين ليس واضحًا فى ذهنى الآن.. وقلت لشاعرنا الكبير.. وهذه أيضًا حقيقة..

وغضب وهو يقول لى: أنت إذن لم تعرف حقيقتى.. أنا الشجرة.. أنا السماء.. أنا الشمس التى تطلع على الشجرة فيجىء شاعر تافه ويغنى للشجرة وينسى الشمس.

وكان لابد أن أنهض من الكنبة الجلدية وأبحث عن صديق آخر.. وأنا أضحك.. فالضحك أيضًا حقيقة.. وهو حلم وهو أمل كل الناس فى عالم تعب من الجد والحرب والقلق.. وجلست إلى جوار سيدة.. كل شىء بحساب فى كلامها وفى حركاتها.. لا أعرف.. إن كانت سعيدة فى هذه الهيصة.. التى لا حساب فيها.. لا فى الكلام ولا فى الحركات.. ولا أعرف إن كانت المرأة حريصة أيضًا على المساواة مع الرجل فى فقدان الحساب فى الكلام والحركات فى أن تكسر كعب جزمتها.. وترمى حزامها وتنكش شعرها.. وتتحرك وتتكلم على حريتها كالرجل..

وإلى جوارى رأيت هذه السيدة.. يدها على خدها.. ويدها الأخرى على خدها الآخر.. وأحنت رأسها كما لو كانت تنظر إلى وجهها فى مرآة. أو فى صفيحة ماء.. ماء بحر.. أو النيل أثناء الفيضان.. وقلت لها: كيف حالك.. أنت الوحيدة هنا التى يمكن أن نسألك عن حالك.. وتكون الإجابة معقولة.. أو على الأقل إجابة ليست مكشوفة.

وقالت: والله تعبانة جدًا..

قلت: لأى سبب؟

قالت: أنت عارف المشكلة التى أعيشها.. وليس لها حل.. أين هو الآن.. «هو = زوجها» إنه داير على حل شعره فى أى مكان.. تفتكر ممكن تكون حياة زوجية بهذا الشكل.. لماذا تزوجنى. لا أنا لى قيمة عنده.. ولا هو له قيمة عندى.. ولا هذه العلاقة التى بيننا لها أى معنى.. ما معنى الزواج عندكم يا رجالة؟ معناه أن واحد يضع يده على واحدة وخلاص.. بس كده.. أنتم غلطانين فى الحساب.. أنتم متصورين أن الزواج هو عبارة عن ٢ + ٢ = ٤ .. بهذه البساطة.. أنت تزوجتنى يعنى أنا تزوجت

وخلاص.. أبدًا مش خلاص.. لابد من أن يبذل الرجل مجهودًا فى الاحتفاظ بزوجته.. فى الاحتفاظ بحبها له.. بالاحتفاظ بهذه العلاقة نفسها.. أنت متصور أن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة حقيقة يعرفها كل الناس.. أو حقيقة إذا عرفها كل الناس.. فإنهم يحرصون عليها وينفذونها؟ أبدًا.. أنت عارف الدولة.. القانون.. الجيش.. البوليس.. النظام كله علشان إيه.. علشان أن هناك الكثير جدًا من الناس لا يؤمنون بأن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة.. التاجر يسرق.. الزارع يسرق.. الموظف يسرق.. الدول تسرق.. والسرقة معناها إيه.. معناها أن اثنين + إثنين لا تساوى أربعة.. تساوى ثلاثة.. تساوى واحد.. فالتاجر يغشك.. يأخذ أكثر من حقه.. والدول تسرق.. أى أنها تأخذ أكثر من حقها.. أى أنها لا تعدل.. أى أنها ظالمة.. فالدول بنظامها وقانونها وتشريعها مهمتها أن تجعل الناس يتذكرون جدول الضرب.. فهذه العملية الحسابية محتاجة إلى مجهود.. إلى قوة لكى يؤمن الناس بأنها حقيقة.. وكذلك الزواج حتى إذا كان بديهية.. فإنه محتاج إلى مجهود.. مجهود من جانب الرجل ومن جانب المرأة أيضًا.. أنت متصور أننى وسعت المناقشة جدا ولكن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة هى أساس العلاقات كلها.. فالعدل يبدأ فى البيت والظلم يبدأ فى البيت.. والبيوت الظالمة لا يتكون منها مجتمع عادل.. أنا تعبت من تكرار هذا الكلام.. ولكن الإنسان لا يحب هذا الكلام عن العدل إذا كان ظالمًا ويحب الكلام عن العدل إذا كان مظلومًا.. وأنا لا أتعب من الكلام عن العدل.. لأن الذى ظلمنى هو الرجل الذى اخترته والذى اختارنى.. لأن الذى حبسنى هو الرجل الذى أحببته.. فأنا أموت بيدى أحب الناس.. إن الذى يقتلنى هو الرجل الذى يجعلنى أضع كل عام طفلا.. أين أنا وأين هو.. أنا فى انتظاره دائمًا ولكنه لا يجىء.. أنا أتوقعه دائمًا وهو يهرب منى دائمًا.. أنا لا أفهم الرجل.. إننى متزوجة منذ خمس سنوات والنتيجة أننى لم أفهم أى مخلوق هذا الرجل.. أنا أعتقد الآن أن الرجل حيوان هارب.. هارب من غير سبب.. وهو يتزوج لكى يصبح هاربا بسبب!

وكلام أطول من هذا وأقسى من هذا.. كانت تقطعه ضحكات الناس.. وعبارات حولنا تقول: كفاية بقى.. ما لكم «مكشرين كده».. النهاردة رأس السنة.. الجماعة واخدينها جد قوى.. يا شيخ اضحك.. يا شيخة اضحكى..

وضحكنا جدًّا.. وقبل أن أقوم من جوارها قلت لها: إننا نعيش فى اللحظات التى تسبق نهاية العام.. وهم يعيشون فى اللحظات التى تسبق ولادة العام

الجديد.. مع أننا نعيش فى وقت واحد.. يا شيخة.. الله يرحم السنة اللى فاتت.. والحمد لله على سلامة السنة اللى جاية.. وعقبال ألف سنة.. هاها..

وهى قالت: هاها.. وكل ما حولنا هو تكرار لحروف الهاء والألف.. تكرار لها بالموسيقى وبالرقص وبالألوان وبالأطباق وبالأكواب.. إنه عام جديد.. وكل شىء يجب أن يكون جديدًا.. أو يبدو جديدًا..

وإلى جوارى فتاة صغيرة.. حلوة.. أو هكذا بدت لى قبل منتصف الليل بدقائق بسبع أو ثمانى دقائق ملامحها صغيرة.. شعرها ناعم.. يبدو من بعيد ناعما.. ومشدودًا إلى الخلف.. وعيناها ثابتتان.. ولماذا تهتز. وكل شىء فيها مشدود كالعصا، وثابت كالمسمار. ولامع حاد كالسكاكين والشوك.. قلت لها: ماذا تتمنين فى هذا العام الجديد؟

فقلت: ولا حاجة..

طبعًا ولا حاجة وماذا ينقصها.. شباب وجمال.. وغنية ومخطوبة من شاب غنى أيضًا.. وكل أيامها رأس سنة جديدة..

قلت لها: ولا حتى راحة البال.. وقالت: وهى لا تفهم معنى راحة البال كويس كده! إنها مبسوطة..

إنها صغيرة لا تعرف معنى راحة البال.. لا تعرف القلق.. ولا تعرف الخوف.. صغيرة لم تمش فى شوارع الحياة.. لم تقف فى مفارق الطرق الاجتماعية والعقلية والنفسية.. لا تعرف أن السعادة فى راحة البال.. هى الاطمئنان إلى أن كل شىء سيجىء فى وقته وبالشكل الذى تريده.. إنها هى راحة البال.. العين فى مكانها.. والأذن فى مكانها.. ولكن عندما تكبر ستصبح عينها فى أذنها. وستصبح أذنها فى عقلها.. ستتلخبط.. ستجد الدنيا شيئًا آخر ستعرف أن العقل لا قيمة له والقلب ضوضاء بلا معنى. وستعرف أن هناك فى الدنيا شيئًا اسمه الكذب.. واسمه الإخلاص فى الكذب.. وشيئًا اسمه الحب.. وشيئًا قريبًا من الحب اسمه مجرد الرغبة فى الحب.. أو الرغبة فى الامتلاك..

وقلت لها: ولا حتى الصحة؟!

ولم تكن فى حاجة إلى أن تجيب.. ولو أجابت لكان جوابها سخيفا فعلا.. إن كل شىء فيها صحيح.. سليم.. ما حاجة بشرتها الوردية الى الصحة ما حاجة بياض عينيها الصافى إلى الصحة ما حاجة أسنانها البيضاء إلى الكالسيوم.. ما حاجة السبعة عشر عامًا إلى الهواء..

وعدت أقول لها: ولا حتى الحب؟ فأشارت إلى أصبعها.. إلى الخاتم الذى رأيته من اللحظة الأولى.. إنها صغيرة.. إنها لا تعرف أن الخاتم لا يدل على الحب.. ولا

الحب يدل عليه الخاتم.. وأن الخاتم يشغل هذا المكان من الأصبع.. ولكن الحب يشغل كل شيء ولا يبدو واضحًا كالخاتم. ولا لامعًا كالخاتم. ولا خانقًا كالخاتم..

وقلت لها: ولا حتى أن تكون السنة الجديدة كالسنة القديمة؟ ضحكت ولم تفهم ولا داعى لأن تفهم.. فالأعوام الجديدة أو القديمة عندها سيان.. إنها صغيرة.. شابة حلوة.. واسمها فاطمة.. وإيه يعنى فاطمة.. فايزة أو آمال أو رجاء!

وقلت لهَا: اسمك فاطمة..

قالت: أيوه.. أنت تعرفنى..

وقلت: الوقت فقط..

قالت: لا.. من زمان..

وسحبت فستانها على ركبتها وهى تقول: أد.. كده..

يعنى فى ارتفاع ركبتها..

وجاء أبوها.. أحد أصدقائى ليقول: أنت بتعاكس ابنتى..

قلت له: إننى أبحث عنك فى أفكارها.. إننى لم أجدك.. وهذا أكبر دليل على أن العام القديم مات.. على أننا بقينا فى المستقبل..

***

وعلى كتفى أحسست بضربات.. ورأيت صفا طويلا من أصدقائى وزملائى.. ونظرت إليهم الواحد بعد الآخر.. إلى شعر هذا .. وإلى بشرة ذلك وإلى المنظار الغليظ على أنف الثالث وإلى انحناءة خفيفة فى ظهر الرابع.. وإلى رجفة وبرودة فى أصابع الخامس..

وأحسست أننى كبرت.. وأننى تقدمت فى السن.. وأننى نسيت أن عامًا قد مضى.. وأننى أتشبث به.. وأننى لا أريد أن يمضى فيضيف إلى عمرى رقما..

***

وانطفأت الأنوار. وأغمضت الدنيا عينيها.. ولم يبق إلا الموسيقى وإلا الضحكات والهمسات.. وانكسارات الأكواب.. وفى الظلام.. ظلام عينى وظلام الغرفة استسلمت إلى ذراعين تعانقاننى.. وأدركت النكتة التى وقعت فيها.. وأحسست ببشرة خشنة على خدى.. وطبعت قبلة.. وتلقيت قبلة.. وأنا أقول: كل عام وأنت طيب يا دكتور..

وكان الدكتور هو الطبيب الذى يعالج مصرانى الغليظ من مأكولات ومشروبات رأس السنة!

□ □ □

بمناسبة عم سيد

بمناسبة عم سيد..

فبعد ليلة طويلة قضيتها فى تفكير، مددت يدى إلى الراديو ورحت أحرك المؤشر بين المحطات.. ولم يكن الراديو ينطق بكلمة واحدة.. فأنا لم أفتحه وإنما أردت أن أختار المحطة التى تعجبنى دون أن أسمع صوته.. فأنا أحب هذا الراديو لأنه يفكر بصوت مرتفع.. لأنه ينتقل من موضوع إلى موضوع بسهولة.. ولأنه ينتقل من لغة إلى لغة ومن بلد إلى بلد فى أى وقت فى الليل أو النهار.. أما أنا فمنذ ثلاثة أيام لا أستطيع أن أنقل رجلى أو يدى ولا أستطيع أن أنتقل من هذه الفكرة التى استولت على رأسى، وأعلنت حالة الطوارئ فى كل مشاعرى.. فلا أعرف ماذا حدث لى بالضبط.. إننى لم أكد أسمع هذا النبأ حتى ارتبك كل شىء فى داخلى.. مع أن هذا النبأ كنت أتوقعه من وقت طويل..

أما الصدفة الغريبة فهى أننى عندما خرجت من البيت كان الصوت يتردد: ساكن قصادى وباحبه.. أيوه ساكن قصادى من ١٥ سنة.. تمام كده من ١٥ سنة وشوية أيام.. وكل يوم أشوفها.. كل يوم تقريبًا.. رأيتها طفلة صغيرة ورأيتها بالمريلة.. ورأيتها وهى تركب البسكليت.. ورأيتها وهى تركب السيارة إلى جوار شاب طويل عريض منذ شهر واحد.. وعرفت فيما بعد أن هذا الشاب هو الذى أصبح اليوم خطيبها.. أيوه خطيبها.. ولا أعرف كيف استطعت أن أنطق بكلمة خطيبها بهذه السهولة.. إنها المرة الأولى التى تخرج من فمى هذه الكلمة.. ولابد أنها تنطق هذه الكلمة بسهولة ومتعة فتقول: إن هذا الفستان يعجب خطيبى.. وهذا اللون يعجب خطيبى.. وتقول: خطيبى قال كده.. وخطيبى من رأيه كده.. خطيبها.. ألف مرة فى النهار وألف مرة بالليل..

والحقيقة أنا مندهش جدًا من هذا الذى حدث لى فجأة وبدون مقدمات فهل معقول يا ناس أن واحدًا مثلى يحب فتاة من أول نظرة.. واحد عنده دلوقت ٣٠

سنة يعنى مش صغير أبدًا وواحدة عندها حوالى ٢٠ سنة.. وحتى مش من أول نظرة بل من مليون نظرة.. ولكن أقول الحق أنا لم أرها بوضوح إلا هذه المرة الأخيرة.. لقد رأيتها بعقلى.. وبوحدتى.. وبمرارة الحياة التى أعانيها.. فقد تغير كل شيء فى الدنيا بعد وفاة والدتى.. الدنيا «عزلت».. الدنيا فضيت.. الدنيا زى ما يكون اتفتحت فيها فتحة ومن الفتحة نزل كل شيء.. زى ما يكون الميه انقطعت وأنت تستحم فى بانيو تسبح فوقه أوراق الورد، والصابون لايزال على وجهك.. زى ما تكون والدتى أخذت معاها عمرى فرجعت إلى طفولتى صغيرًا عاجزًا فى حاجة إلى حنان أمى من جديد.. زى ما تكون من أصحاب الملايين وفجأة وجدت أن الأموال التى معى كلها زائفة..

ربما كانت هذه هى الصدفة الغريبة التى يقولون عنها..

حتى الكلام نسيته لم أعد أذكر إلا كلمة واحدة.. الضياع.. وكلمات أخرى مأخوذة من هذه الكلمة.. ضاع .. فأنا ضائع..

إذن من هذا الشعور انطلقت هذه الشرارة التى برقت إلى عينى والتى لابد أن تكون هذه الفتاة قد رأتها فى عينى.. والآن أتذكر ما حدث بالضبط.

فى اليوم التالى لوفاة والدتى وجدت نفسى نائمًا فى الفراش.. واكتشفت لأول مرة أننى أستطيع أن أعمل أى شيء فليس لأى شيء أى معنى.. فإذا أنا ظللت فى الفراش ساعة أو عشرين ساعة فلن يدق بابى أحد.. فلن يسألنى أحد لماذا أنا نائم.. وإذا أنا صرخت مثلا بأعلى صوتى فلن يقول لى أحد ماذا فعلت.. وإذا ما فتحت باب غرفتى فلن أسمع: «صباح الخير يا حبيبى».. التى أجدها ضاحكة على وجه أمى.. تصور أننى أسمع هذه العبارة لمدة ٣٠ سنة متوالية دون أن تتعب أمى فى تكرارها.. صحيح أن الأم هى الإنسان الوحيد الذى لا يتعب من الحب.. انتهى كل هذا.. والآن بدأت المرحلة التى نشترى فيها الحب.. نهضت من الفراش وأنا لا أعرف بالضبط ماذا عساى أن أفعل فهذه هى المرة الأولى التى أجدنى فيها أمام نفسى وجها لوجه.. وكنت أقول لنفسى هل معقول أن تطلع الشمس فى مثل هذا اليوم.. هل معقول أن تطلع الشمس غدا إذا فاتها أن تطلع اليوم.. وكنت أقول لنفسى: لا أعتقد ذلك.. هل معقول ألا يشعر أحد بهذه الكارثة التى حدثت لى..

وأذكر أنه حدث ـ وأنا غارق فى دموعى وآلامى ـ أن سمعت طرقا على الباب وتخيلت أنها لابد أن تكون أمى فأنا لم أتعود منها أن تبيت ليلة خارج البيت..

وبدون أن أدرى اتجهت إلى الباب وفتحته وكان عم سيد بائع اللبن.. وصافحنى عم سيد بحرارة وطلب منى أن أتجلد وأن أتماسك فأنا رجل.. وتذكرت أننى رجل وأننى يجب أن أعتمد على نفسى بعد أن كنت أعتمد على أمى.. إذن هذا هو عم سيد الذى سأراه كل يوم فى الصباح.. والذى سأسمع منه: صباح الخير.. وأرجو ألا يقول لى يا حبيبى.. فأنا لا أحب أن أسمعها من أحد بعد ذلك.. ولم يكن عم سيد يرتدى الملابس السوداء ولم يكن الحزن باديا على وجهه.. لقد جاء عم سيد وهو يتوقع منى أن أشترى منه كما هى العادة.. وكأن شيئًا لم يحدث وكانت فى يده سيجارة وعلى شفتيه آثار طعام.. وقد حلق لحيته.. ولابد أنه سعيد فقد باع كل ما عنده من لبن.. وازداد سعادة عندما أفرغ لى ما تبقى لديه من لبن.. وكأن وفاة والدتى لا تعنينى كلى وإنما تعنى جانبًا واحدًا منى.. فأنا حزين أكاد أتمزق ولا أريد أن أعيش ولا أريد أن أرى أحدًا بعد أمى ولا أريد أن أسمع أحدًا بعدها.. ولكننى مع ذلك مددت يدى إلى عم سيد وأخذت منه كوب اللبن.. ولا أعرف كيف امتدت يدى.. لابد أن فى داخلى قوة أخرى تريد أن تستمر.. لابد أن فى داخلى معارضة هائلة لهذا الحزن العميق على وفاة أمى.. أو على وفاة الدنيا كلها بالنسبة لى.. أو لابد أن فى داخلى قوة تخشى أن أموت فينتهى بذلك الحداد على أمى.. وربما كانت هذه الفكرة الأخيرة هى التى جعلتنى أمد يدى إلى عم سيد وبلا أى تفكير.. لا أعرف بالضبط ماذا يجرى فى داخلى.. لا أعرف من الذى يفكر ولا من الذى يقرر.. كأن فى داخلى أمًّا كانت تقرر وتدبر وكأن هذه الأم قد ماتت.. ولكن عم سيد هذا كان كالمسحراتى الذى أنقذنى من نوم عميق.. وبعد أن.. تركنى عم سيد ذهبت وفتحت النوافذ.. ورأيت كل شىء كما هو.. تمامًا كما تركته أمى.. العربات والسيارات والزحام كان الناس يعرفون أن الموت وهم لذلك يتحركون بسرعة.. كان الموت هو شرطى المرور الواقف هناك أو كأنهم ينتهزون فرصة أن الشرطى مشغول بمسح أنفه أو مسح عرقه.. لا أعرف ما الفرق بين العرق والدموع.. ولا أعرف على التحديد ما الذى يجعلنى أتحدث عن الدموع الآن.. إن كل شىء سائل يبدو لى كأنه دموع.. عرق شرطى المرور هو دموع خلايا جسمه.. والزكام هو عجز الأنف عن البكاء.. واللبن الذى أتى به عم سيد ليس إلا دموع البقرة ودموع عم سيد ودموعى عندما تذكرت أن أمى قد ماتت وأنها على هذا الباب قد بكت كثيرا..

لا أعرف إن كان الناس ينطلقون هربا من هذا الشرطى.. ولماذا «هذا» الشرطى بالذات مع أن الطريق ملىء بالشرطة.. وملىء بأشياء يمكن أن تقوم بدور شرطى المرور.. أى سيارة من الممكن إذا اصطدمت بأية سيارة فإنها توقفها وتخيفها وتجرجرها إلى قسم الشرطة ليجرى عليها الكشف الطبى كأنها إنسان..

تصوروا أن وقوع حادثة يجعل السيارة كالإنسان ويجعل الإنسان كالجماد.. كالتراب.. أقف أمامه وأبكى على من كانت تملأ عينى وأذنى وحياتى..

كل شىء كما هو.. الناس يجرون.. والشمس تتسكع.. والتراب بليد والدخان لا يفارق المداخن إلا بصعوبة .. معه حق الفراق صعب!

وعم سيد لا يريد أن يترك شقة واحدة فى البيت دون أن يبيع لها بعضا من اللبن الذى يحمله.. وأنا أعرف أن هذا اللبن الملىء بالفيتامينات هو المسئول عن الحرارة التى سيواجهنى بها الناس بعد ساعة ويشدون على يدى الباردة بيد حارة.. ويقولون لى: حياتك الباقية.. البركة فيك.. وراها رجل.. الحمد الله ماتت مستورة.

***

أو ربما دفعتهم هذه الحرارة التى فى أيديهم إلى أن ينطلقوا إلى أعمالهم. إلى الواجبات أولا وبعد ذلك تجىء المجاملات.. أنا لو فى مكان سكان البيت لفعلت هكذا فالذى حدث لا يعنى أحدا سواى.. ما الذى يعنى الناس فى أن يفقد إنسان أمه أو أباه.. إن الناس يشبهون عم سيد.. كلمة وسلام وكلام وموعد ولقاء هذا الغد.. لقد حاولت طوال الليل أن أصل إلى شواطئ الفجر سابحا فى بحار الأرق.. سابحا على الظهر وعلى الجنب وعلى الوجه.. وواقفا وقاعدا وماشيا وباكيا ومتمنيا أن أبكى وساخرا من بكائى ومما سيقوله الناس..

تماما مثل عم سيد.. إنه يغير كلامه بحسب الشقق.. بنفس اليد التى عزانى بها سيهنئ بها السيدة التى تسكن تحتنا على مولودها الذى بلغ الأربعين يوما.. حتى المواليد لهم احتفال بالأربعين.. وبنفس اليد سيدق الباب الذى يلاصق السلم فوراءه شاب يصحو متأخرا ولابد أن يوقظه عم سيد ليعطيه نصيبه من اللبن..

إن عم سيد هو مرضعة هذا البيت.. إنه سيجد الأيدى والأفواه وراء الباب دائمًا..

آه لو كنت كالملاك إسرافيل وهو شرطى مرور يوم القيامة لأمسكت الصفارة ورحت أنفخ فيها حتى تتطاير كل حروفها: الصاد.. والفاء.. والألف.. والراء..

والهاء.. فى كل ناحية.. فإذا اجتمع الناس حولى قلت لهم: فين هوه العقل يا ناس.. فين العقل اللى بيدير عقولنا.. فين هوه اللى لما نفكر فيه نبقى عقلاء.. ما هى الحكمة فى أن يفقد الإنسان كل شىء مرة واحدة.. فين العقل.. العقل الكبير الذى يشرق على عقولنا لكى نراه.. تماما كالشمس إنها تنير لنا لكى نراها..

ولم أتخيل ما الذى سيقوله الناس لو أننى جمعتهم على طريقة سيدنا إسرافيل.. ولم أتخيل أن الناس لن يقفوا ولن يسألوا عنى ففى يوم القيامة لا يدرى أحد بأحد.. وفى يوم القيامة يكون الناس قد عرفوا حقيقة الحياة والموت وسخافة الذين يتصورون أن مشاكلهم الخاصة يجب أن تشغل كل الناس..

***

ولم يخطر على بالى أن أمى لم تمت.. طبعا لم تمت وإنما خوفى عليها هو الذى عجل لها بهذه النهاية.. إننى أسبق الحوادث.. إننى أتمرن على فقدها.. إننى أرتاد الفراغ الذى ستتركه أمى من بعدها.. إن رواد الفراغ يتحركون وحدهم.. كل واحد فى سفينة.. وليس اثنين اثنين.. ولذلك فقد شعرت بالراحة عندما عرفت أن الفتاة التى كانت تسكن قصادى ورأيتها فى سيارة قصادى ورأيتها عروسا قصادى.. لن أستطيع أن أملأ بها الفراغ الأليم الكريه الذى فوجئت به..

لم تمت أمى.. ولكن كأنها ماتت كأننى فقدت أمى.. لم أكد أرى هذه الفتاة حتى أحسست أننى فقدت كل ما عندى.. كل شىء راح.. ضاع. العقل والذى يضىء العقل.. لا أعرف ماذا جرى لى.. أين العقل يا ناس.. كيف أفقد عقلى بعقلى.. ثم كيف أسترد عقلى بعقلى أيضا؟!

ومددت يدى إلى كوب اللبن وشربت ومددت يدى إلى الراديو وسمعت صفيرا.. وسمعت طرقا على الباب.. وابتسمت.. إنه عم سيد لم ينس أننى نسيت أن أعطيه ثمن اللبن.

ولم يكن عم سيد .. وإنما كانت والدتى.. لقد عادت من السفر.. ولسبب لا أعرفه شعرت بالخجل من كوب اللبن الذى لم.. أكمله..

وفى دهشة وذهول من أمى أخفيت خجلى وأنا أعانقها قائلا:

أهلا عم سيد..

□□□

الطبيب مجنون

كأن لغما عائما اصطدم بى، عندما فوجئت بزيارة زميل قديم من زملاء مدرسة المنصورة الثانوية.. كأن بابا انفتح على حياتى كلها.. وأخذت الحوادث الواحدة وراء الأخرى تقفز أمامى وقد رتبت نفسها ترتيبا أبجديا، ثم بلا ترتيب.. لقد كان عالمنا صغيرا ولكنه كان حارا ثائرا فائرا.. كنا لا نمشى على الأرض، وإنما نعلو ونهبط ونرفع أيدينا إلى أعلى ونتعلق بالهواء والأحلام.. كنا نعد أنفسنا لأشياء غريبة.. نقرأ وندرس ولا نحس بالمال ولا بأننا فقراء، كنا نتعلم الألمانية والإيطالية.. للذة التعلم.. وكنا نتناقش فى مشاكل كبرى، أكبر منا ملايين المرات.. وكنا نصدر أحكاما نهائية، لا نقض فيها ولا إبرام.. وفى طريقنا إلى المدرسة كنا ننظر إلى بلكونة عالية ونرى فتاة صغيرة لا ندرى بها ولا تدرى بنا اسمها فاتن حمامة، سمعنا أنها مثلت فى أحد الأفلام، ولم نر هذا الفيلم إلا بعد ذلك بعشر سنوات. وعلى أيامنا كان مدرس الرسم إذا طلب من خادمته أن تنزع ملابسها وأن تضع الأحمر والأبيض وأن تستلقى على حصيرة ليرسمها، كان يجد دائما ضابط بوليس يلقى به فى الشارع ويفضحهما معا أمام الناس.. فقد حدث ذلك ولم نعرف له سببا، ولم نعرف أين الخطأ، وأين الصواب..

ولم أكد أرى زميلى هذا حتى تلمست طوقا من الحديد يحيط برأسى، لم أدر سببا لذلك أول الأمر.. ثم أدركت.. لقد كان هذا الزميل يجلس بجوارى دائما.. وأذكر أن الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت زار مدرستنا وزار فصلنا فى حصة اللغة الإنجليزية ووجه إلينا سؤالا.. ورفعنا أيدينا.. والتلميذ المجتهد هو الذى يحرص على أن يجيب فيمد يده ويرفع أصبعه بشجاعة، ويغضب إذا لم يقع عليه الاختيار.. ومددت يدى ورفعت أصبعى وتطلعت إلى الوزير واختارنى ونهضت أو اندفعت لأجيب فطار طربوشى فى الهواء.. وضاعت الإجابة وسط ضحكات الوزير والطلبة.. وتلمست الطوق حول رأسى.. وتذكرت أننى عندما تقدمت

أمام الهلالى باشا وزير المعارف مرة أخرى لأتسلم جائزة الفلسفة، وكنت أول المتسابقين فيها، استعرت طربوشا من أحد فراشي وزارة المعارف.. وسمعت من ينادى اسمى وتقدمت نحو الوزير، ووقعت عينى على ناظر مدرستى وتعثرت فى سجادة كبيرة، وسبقنى الطربوش إلى الأرض، وسمعت ضحك زملائى القدماء..

وضحك نظار ومفتشو وزارة المعارف جميعا.. وأحسست بالطوق الحديدى يضغط على رأسى.. ومرة ثالثة عندما احتفلت الجامعة بتوزيع الدرجات العلمية، وكان إبراهيم عبد الهادى باشا مندوبا عن الملك.. جاء دورى وتقدمت أتسلم شهادتى، مددت يدى ووضعت يدى الأخرى فوق طربوشى لا إراديا، ولكن بصورة لافتة ومضحكة أيضا، حتى اضطر أحد الواقفين إلى جوار مندوب الملك أن ينزل يدى من فوق رأسى وترددت ضحكات بعيدة خرقت أذنى ومزقت نفسى.. وعندما جلست فى مقعدى لم أدر ماذا حدث.. فربما كان طربوشى قد سقط وتدحرج عند قدمى أحد الجالسين، وربما امتدت يد ووضعته فوق رأسى.. ولكن الطوق الحديدى ازداد ضغطا على رأسى.. وكان زميلى القديم هذا أكثر الضاحكين وأعلاهم صوتا.. وقد ذكرنى بهذا كله اليوم.. ووددت لو وضعت هذا الطوق الحديدى حول عنقه..

وكان لابد أن أسأل زميلى عن حاله..

وأنا أعرف حاله.. إنه كان ومازال شابا غنيا.. عنده أرض وعنده مال، كنا نراه بأعيننا يضع أوراقا كثيرة فى جيبه ولم نكن نعرف قيمة هذا المال ولا ضرورته.. ولم نكن نشكو من أننا فقراء وسألته عن حاله قال: على أسوأ ما يرام..

فقلت: والأرض والحدائق؟

قال: موجودة كلها..

قلت: ماذا حدث.. هل تزوجت؟

قال: تزوجت وعندى ثلاثة أولاد.. لكن الصحة تعبانة جدا.. ويظهر أنه ليس لها علاج أبدا..

ونظرت إلى وجهه وإلى عينيه ولم ألاحظ أنه يسعل طوال ساعة كاملة ولم يكف عن التدخين.. ولم أره هزيلا ولا باهت اللون. ولا بياض عينيه أزرق.. وعاد يقول: هناك حكاية أنت لا تعرفها ولكنها حدثت فى طفولتى. فعندما كنت فى الرابعة من عمرى اختطفنى الغجر فى بلدنا. وظللت أعيش فى خيامهم خمسة أيام. وكنت مربوطا من رجلى. سجينا فى إحدى الخيام، وعلى باب الخيمة جلس

كلب وصاحب الكلب. وفى الليل تسقينى إحدى بنات الغجر شرابا لا أعرفه.. وفيما بعد أدركت أنه شىء منوم.. فأتناوله وأظل هامدا خامدا حتى الصباح وإذا امتنعت عن الشرب.. ضربونى.. الرجال والنساء.. فكنت أشرب وآكل عندهم ولا أعترض.. وفى يوم هجم الخفراء على خيام الغجر. ورأيت أبى وقد أمسك مسدسه ورأيته يقوض الخيمة ويطلق الرصاص على غجرية كانت تضربنى.. رأيت النار وسمعتها ورأيت الموت والدم والصراخ.. ولم أنس ذلك حتى اليوم أى منذ ٢٥ عاما.. وصوت الرصاص.. ولون الدم وطعمه.. كلها لم تفارق عينى ولا أذنى ولا لسانى.. وعندما رأيت أطفالى ورأيت أمهم تضربهم وعندما رأيت زوجتى تذبح الطيور وأرى دماءها.. كنت أصاب بحالات إغماء شديد.. ثم نوبات انهيار.. وجئت القاهرة أعرض نفسى على طبيب..

وسألته عن الطبيب..

فذكر اسما غريبا. لم أسمع به من قبل.

وطلب منه الطبيب أن ينصب خيمة، وأن يضعها أمام قصره الكبير وأن يأكل ويشرب وينام فيها.. وأن تقوم على خدمته فتاة غجرية.

وقد فعل زميلى كما أمره الطبيب!.

ومضت على ذلك سنتان. ويقول إن حالته المعنوية أحسن، وإن مخاوفه قد تلاشت وأنه لا يشكو إلا من الروماتيزم فى الشتاء ومن الزكام ومن السعال لأن الخيمة ليست مريحة تماما.. وأنه لم يجد تعليلا معقولا أمام زوجته، وأمام أهل القرية إلا أن يطلق لحيته وأن يزهد فى كل شىء وهو راغب فيه، وأن يتظاهر بأنه ولى من الأولياء.. وهو يفضل أن يدعى الولاية من أن يقول عنه الناس إنه مجنون..

وسألته إلى متى ستظل تعيش فى هذه الخيمة؟

فقال: إلى أن يعود الطبيب.

قلت: وأين هو الطبيب الآن؟

قال: سافر إلى أمريكا. وعرفت أنه لن يعود. وقد اعتدت حياة الخيمة.. إننى أحس بالراحة بعيدا عن الأولاد والزوجة وأعصابى لم تعد تحتمل الضوضاء أبدا.. ولا أستطيع أن أبتعد عنهم.. طبعا ستقول مجنون.

وقلت: مجنون.. الطبيب والمريض معا!

□ □ □

خطاب إلى ولدى

قرأت اليوم نداء من أب إلى ولده يقول فيه «يا ولدى سمير.. كل شىء كما تريد. لن تكون هناك متاعب بعد اليوم. لقد ماتت زوجتى. وأنا وإخوتك وخادمتك فى انتظارك فلا تقلقنا على حياتك. والدك الحزين».

ولو كنت والد هذا الشاب لكتبت له أقول: أنت الآن لم تعد طفلا. أنت تقرأ الصحف وأنت لك تفكير مستقل. ولذلك سأحدثك كما يحدث الرجل رجلا، اسمع يا ولدى سمير: لقد ماتت زوجتى. وقد تعذبت منها وبها ومن أجلها كما تعذبت أنت. أنت لا ذنب لك. ولكن الذنب لى. وأنا أعلم أنها هى التى جعلتك تكره البيت وتكره البقاء فيه وتكره أباك وتنفر من المدرسة.. ثم من الحياة كلها. معنا أو مع غيرنا. ولكن أريد أن أصارحك. إنك يا ولدى كنت كسولا وكنت تلوم زوجتى، وكنت عابثا واللوم طبعا على زوجتى. لقد كانت هى «الشماعة» التى تعلق عليها فشلك وقلقك وأرقك، لقد كانت هى «الغدة» التى تفرز المرارة فى لسانك. والسواد أمام عينيك، واليأس فى نفسك. وكانت هى الشوك والمسامير والوحل فى طريقك.

وهناك يا ولدى أشياء كثيرة لا داعى لأن أذكرها لك. ستعرفها عندما تكبر. ستعرف لماذا تزوجت هذه السيدة بعد وفاة والدتك. كان ذلك من أجلك أنت. من أجل تربيتك. من أجل أن تكون رجلا نظيفا، تشرف عليه سيدة مثقفة. فلا يكون كرة أو عجينة أو قطعة من القماش فى أيدى الخادمات. وأنا أعلم أن هذه السيدة قد احتلت بيتنا وسجنتنا نحن الاثنين فيه. وسهرت علينا. وفتحت عينيها وأذنيها. ولم نعرف الراحة. ولم تعرف هى الراحة أيضا. إن السجان هو الآخر كالسجين لا يستريح. إنه يخاف من السجين ويخاف عليه. إن السجين داخل القضبان. والسجان خارج القضبان لا يستطيع أن يتحرك يمينا أو شمالا. فكلاهما إذن سجين. وكانت زوجتى أكثر عذابا. وهى التى علمتنى السهر خارج البيت. وجعلتنى أدمن اللعب والخمر وأبدد أموالى هنا وهناك.. وأنا مثلك يا ولدى

قد جعلتها هى أيضا «شماعة» أعلق عليها سفاهتى وإسرافى وكنت كلما شكوت من التعب دعوت عليها. وكلما شكوت من الإفلاس دعوت عليها.. والحقيقة يا ولدى أننى وأنت قد بالغنا كثيرا فى الدور الذى لعبته زوجتى فى حياتنا. لقد حملناها أكثر مما تطيق. لقد جمعنا كل شىء وألقيناه عليها. فأصبحنا بلا خطايا وأحسسنا أننا مظلومان. وأن الظالم زوجتى. وأننا محظوظان. وأن النحس زوجتى وأننا من أصحاب الملايين لولا زوجتى..

والآن يا ولدى.. أنا وأنت بلا شماعة..

إننا اليوم أحرار. وكل ما نعمله أنت أو أنا. نعمله بكامل حريتنا.. إذا أخطأت فأنا الملوم.. وإذا أصبت فذلك هو تفكيرى وتدبيرى.

أنت منذ الآن حر. والحرية رائعة. ولكن الحر هو الذى يصبح بعد ذلك مسئولا عما يفعل. وعما يقول. والإنسان الحر هو الذى يختار كل حركاته. إنه يقف وجها لوجه أمام نفسه وأمام كل الناس. والمسئولية ثقيلة. ولذلك كثيرا ما رفض الإنسان أن يكون حرا. وكثيرا ما نزل عن إرادته لغيره من الناس.. فرارا من المسئولية.

فالطفل الصغير الذى يطلب من أبيه أن يشترى له شيئا فيتقدم الأب ويعرض على الابن أن يشترى له لعبة مثلا فيرفض الطفل. ثم يعرض الأب على الطفل أن يشترى له حلوى فيرفض الطفل وأخيرا يضيق به الأب فيصرخ فى وجهه قائلا: أنت حر.

وهنا يبكى الطفل. كل طفل يا ولدى. لأنه سيفكر فى الشىء الذى يريده. فإذا اتخذ قرارا واشترى شيئا وكان هذا الشىء تافها فسيكون مسئولا عن ذلك. والمسئولية مرهقة ومتعبة يا ولدى. وكثير من الناس بكوا عندما أعطيت لهم الحرية. وكثير من المسجونين وقفوا أمام باب السجن يتطلعون إلى العالم الواسع بخوف وفزع. كما تتطلع السمكة إلى الشاطئ.. وسبب ذلك أن إقامتهم فى داخل السجن قد طالت. وطالت بهم حياة الظلام والرطوبة والقضبان.. وهم لا يعلمون شيئا عن العالم الحر من القيود والسلاسل ولذلك فهم يفضلون العودة إلى السجن. لأن حياة السجن تريحهم من أعباء الحرية. ولذلك أنا لم أستغرب عندما قرأت فى الصحف منذ أيام أن الحكومة الجزائرية قد استعانت بقوة من البوليس لإخراج أحد المسجونين من السجن. فقد انتهت مدة عقوبته ورفض أن يخرج من السجن ليستأنف الحياة الحرة.

إن الحرية كالذهب. ولا أحد يكره الذهب. ولا أحد يكره الحرية. ولكن عندما تضع معك ليلا ونهارا. وعلى كتفك وعلى رأسك وعلى صدرك صندوقا كبيرا من الذهب ألا تضيق به ألا تضيق بثقله؟ كذلك الحرية ثقيلة.. إنها ثقيلة تنوء بها الجبال.. والآية القرآنية التى تقول: «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان..»».

هذه الأمانة التى يتحدث عنها القرآن هى المسئولية. وهى ثقيلة لا تستطيع الجبال حملها..

ونحن بعد موت زوجتى هذه لن نحس بالحرية فورا. وإنما سنظل بعض الوقت نتوهم أننا لم ننعم بالحرية بعد. سنتلمس القيود فى أيدينا وفى أرجلنا وفى أفكارنا.. تماما كالذى كان يحمل حملا ثقيلا على كتفيه مدة طويلة، ثم ألقى بالحمل إلى الأرض، فإن أثر هذا الحمل سيظل باقيا على كتفيه. أو كالذى ركب الطائرة مسافة طويلة. ثم هبط منها.. وبقى أزيزها عالقا بأذنيه.

وبعد ذلك سنواجه حريتنا بكامل حريتنا. ستكون لدينا أخطاء.. والإنسان الحر هو الذى يخطئ. ولكننا سنخطئ بلا زوجة أب.. بلا شماعات. إن موت زوجتى قد أدى إلى صداقتنا معا. إلى وقوفنا معا رجلين نحمل على أكتافنا خطايانا وأوزارنا. ونئن من ثقل تصرفاتنا وشجاعاتنا ومسئوليتنا.. لقد كانت زوجتى - يرحمها الله - هى التى تحمل عنا كل هذا ولم نكن نشكرها على ذلك..

اسمع يا ولدى سأقول لك تفسيرا لهذا كله عندما تحضر.. ولا تظن الآن أنك ارتكبت شيئا لم يفعله أحد قبلك. أبدا. فأنا هربت مثلك من أبى وقد أعطانى أبى درسا.. واعلم يا ولدى أن كل إنسان يولد ومعه شماعته.. وآدم عندما هبط إلى الأرض ثار على زوجته أما زوجته فكانت ترى أن سبب المتاعب هو الأفعى التى همست فى أذنها، وطلبت منها أن تأكل من الفاكهة المحرمة. والأفعى كانت تؤمن بأن السبب هو الشيطان الذى سخرها للعبث بحواء وآدم. والشيطان كان أشجعهم جميعا لأنه أعلن أن هذا كله من تدبيره..

وأنا يا ولدى أقوم بدور الشيطان.. لأننى أشجع منك. فعد إلى أبيك وواجه الحرية معى!».

□ □ □

الدنيا برد

كل الفتحات مقفلة: الأبواب والنوافذ والزراير.. كل الأغطية مسدلة.. الستائر واللحاف والبطانية. والقربة مملوءة بالماء الساخن. إنها مضخة صغيرة تدفع الدفء الى قدمى فيزحف كالنمل أو كالنحل إلى كل جسمى ولا يزال يعلو حتى يتحول إلى قطرات من العرق على وجهى.. وفوق رأسى طرطور يشبه طرطور بابا نويل ليلة رأس السنة.. ومع ذلك فالدنيا برد.. برد..

وأصبحت تماما كما تقول الفزورة: يا أهل العجب.. يا أهل العجب. إيه اللى نار من بره ومن جوه خشب.. وحل الفزورة: البلحة.. وأنا أيضا. فالنار من حولى. ولكننى أرتجف من البرودة. البرودة فى داخلى. فى أعماقى. فأنا بأفأف من البرد..

ولكن ما الذى يدفئ داخلى.. يدفئ نفسى؟. الأمل؟ فى إيه؟ ولا حاجة.. اليأس.. من إيه؟ ولا حاجة! الطمع.. الحقد.. الكرامة.. أيوه حكاية الكرامة هذه.. الحب.. الصداقة.. الهوان.. ولا شىء.. وإنما هى الوحدة قاتلة فكل حديثى مع نفسى. كل عتابى لنفسى.. كل أحلامى خطاب عرش لا يسمعه أحد.. كل غنائى مجهول المؤلف.. مجهول الملحن.. ولا يردده أحد.. إيه تانى؟

ملل.. ملل.. قرف.. أيامى متشابهة كحبات السبحة. ناعمة مستديرة تتدحرج من السبت إلى الأحد إلى الجمعة إلى السبت.. أو مدببة مؤلمة كالمسامير التى ينام عليها الفقير الهندى.. وكل يوم أكرر لنفسى ما يقوله الفلاسفة العظام: يا أخى يكفى أنك حى.. يكفى أنك موجود.. وأقول لنفسى ذلك. وأنهض من النوم ويتثاءب عقلى ويتمطع ويقول: أنا مولود جديد.. اليوم لى.. وغدا أيضا..

وحياتك قلتها كل يوم.. ولا حاجة.. ولا فايدة.. ملل.. ملل.. قرف.. كل يوم أفتعل الاهتمام والنشاط وأجرى جرى الوحوش.. وأرتدى ملابسى.. وأربطها.. أربط الحذاء.. والحزام.. والياقة.. والكرافتة.. وجلدة الساعة.. أربطها حتى لا أهرب منها

جميعا.. أربط نفسى.. وأتجه إلى الشارع وأنطلق .. وأفاجأ بأننى لا أعرف أين أذهب. إلى أين يا سيدى.. يا أنا.. ولا رد.. ولا حاجة ولا فايدة.. ليس هناك موعد. ولا حفلة ولا أحد ينتظرنى.. ولا أحد يريدنى.. ولا أحد يعنيه أمرى.. أنا ككل هؤلاء.. وأصبعى تشير إلى الماشيين والجالسين فى الشارع.. فنحن جميعا «نشارة» خشب.. والمجتمع هو المنشار.

وأشعر بالبرودة.. وأرى نفسى من الداخل كأنها لوح ثلج.. هذا اللوح جعلته على هيئة تمثال.. كلما نظرت إليه.. أخذ يذوب ويذوب.. وتختفى معالمه وملامحه.. وملامحى أيضا .. فيزداد شعورى بالبرد واليأس والقرف.. الدنيا برد.. بل تزداد برودة..

مع الناس أجلس وأشعر أننى أجلس وحدى.. فليس المهم أن يكونوا معى.. ولكن أن أكون أنا معهم.. أن أحس بهم.. أن أمد يدى استدفئ بهم.. أن أملأ بهم حواسى.. أذنى وعينى وقلبى.. ولكن مع الناس أزداد برودة.. إنهم يأخذون منى حرارتى.. إننى كالذى يتطاير شرره إلى الخارج.. إليهم.. ويخمد الفرن ولا يبقى إلا التراب.. ويثور التراب وتصبح له رجلان ويدان ورأس ويعود إلى البيت خامدا خاملا.. إلى نفس السلالم.. المظلمة الرطبة.. والصعود صعب.. كأننى روح تخرج من جسم شاب قوى.. وفى جيبى أبحث عن المفتاح.. إننى أعرفه.. ناعم.. أصفر.. وأضعه فى الثقب.. نفس الثقب.. وأدفع الباب فيسبقنى إلى الداخل.. ويهوى على وجهى هواء ساخن محبوس يريد أن ينطلق.. وأنا الذى أطلقت سراحه.. بل أنا الذى جعلت له اسما خاصا فأقول هذه رائحة بصل.. وثوم.. وهذه أنفاس النائمين..

وعلى السرير.. أرتمى.. على صدر بارد لا يحرك لحافا ولا بطانية.. ومن جديد أحتضن مللى وقرفى ويأسى.. وأشعر بشىء من الراحة.. فأنا لم أعد وحدى.. وإنما مع كل هؤلاء.. وأتقلب فى فراشى وأتوهم أننى نمت.. وأننى استيقظت فى اليوم التالى، وأقول أنا مولود جديد.. حتى هذا الميلاد مللته.. إن الغطاء الذى أضعه على جسمى لايدفئ.. فالبرودة فى الداخل.. إنها بعيدة.. بعيدة عن يدى!

لعل البرد أصابك أنت أيضا – أنا متأسف.!

□□□

قصة ما

ليس فى البيت شىء واحد يريحها.. أمها سيدة غير متعلمة ولها أفكار لا تمت الى أى تعليم. أبوها كأنه ساكن عند أمها فى نفس البيت. فهو لا يبدو إلا قليلا وفى مناسبات معروفة.. فى أول الشهر.. أو عندما تتخانق هى مع أمها.. إخوتها الصغار لايزالون صغارا وهى طويلة ممشوقة رأسها عال. وأفكارها تحوم حول رأسها.. وعلاقتها بأفكارها علاقة غريبة.. فهى أحيانا تحس أن هذه الأفكار كالصقور. وأنها جثة واقفة بالطول.. وأن هذه الأفكار تأكلها.. تمزقها.. وأحيانا تحس أن هذه الأفكار تشبه حمامة السلام، وأنها بين الحين والحين تلقى لها ببعض الحبوب فيهبط الحمام بالألوف يتوج رأسها فى هالة بيضاء.. كأنها الهالة التى تلتف حول رأس القديسين. وأحيانا تحس أن أفكارها نحل بلا عسل.. نحل يلسع ويجرى.. وأحيانا ذباب تقرف منه.. ومن أفكارها. ومن أن لها رأسا كبيرا. فوق عنق كبير طويل. فوق جسم ممدود أسمر. بارز من أعلى وبارز من الخلف. وأن لها فما صغيرا يتلعثم مع أنها أمضت سنوات طويلة تخاطب الجماهير.. تخاطب زملاءها فى الكلية.. وتحدثهم عن أعمال الخير والبر. وعن ضرورة توعية الجماهير فى الريف.. عن ضرورة عزف موسيقى واحدة لكل الناس.. موسيقى السلام بين الناس فى الشارع والمصنع.. والحب فى البيت للأم والزوجة والأولاد.. ولكن هذه الخطب التى ألقتها طويلا وكثيرا. لم تثبت لسانها ولم تدخل الطمأنينة على شفتيها الرقيقتين.. إن شفتيها طفلان عاريان مرتجفان على شاطئ بحر هائل اسمه الجماهير.

وكانت تهرب من البيت الذى لا يريح، إلى الناس الذين يستمعون إليها. ويسألونها ويطلبون مساعدتها.. إنها هاربة من أمها وإخوتها.. هاربة من ثلاثة أو أربعة من الناس.. إلى كل الناس..

إنها تريد أن تكون حرة.. والبيت قفص.. سجن.. كهف.. مقبرة.. وهى لا تريد أن تموت تحت ضربات عنيفة من أوامر أمها. وتساؤل إخوتها، وابتسامة فيها الكثير من الندم والأسف هى ابتسامة أبيها.. إنها لم تعد تطيق شيئا ولا أحدًا ولا وهما فى بيتها.

فتاة حلوة سمراء.. عيناها سمراء وشعرها أسود، وبشرتها فى لون الظلال.. وأصبعها لا تغادر العبث بشفتيها.. صغيرة.. لا تعرف.. كبيرة تثير.. تحاول أن تجعل من أصبعها المصبوغ شفة ثالثة.. ولكنها هكذا.. أصبعها تتحرك بين شفتيها كأنها لسان ثان يروح ويجيء ولا ينطق وإنما يكتفى بالإشارة.. أو أن أصبعها هى لسان أخرس كأفكارها الخرساء.. لا يعرف أحد بالضبط ماذا تعنى.. ولكن لا يكاد يراها أحد حتى يهجم عليها ويسألها.. حتى يحس أنه يجب أن يرتبط بها.. أن يكون أخاها أو صديقها.. وبسرعة يكتسب الكثير من الحقوق عليها ويمارسها فورا.. فهو يطلب إليها أن تكلمه عن نفسها وأن تنتظره حتى يكمل عبارته.. وأن تجيب عن كل سؤال.. وبوضوح.. ومن الغريب أنها تستسلم لكل صاحب مزعوم، لكل من يربط نفسه بها.. ويسألها ويناقشها ويأمرها ويحذرها.. كأنها هى الأخرى تعرفه من زمان طويل.. وكأنها قبلت علاقته بها.. قبلت أخوته أو صداقته..

وكل الذين عرفوها وأحسوا بهذه العلاقات السريعة، انزعجوا من هذه السهولة البريئة.. من هذا الاستسلام الساذج لأوامر ووصايا الآخرين.. ويكفى أن يشعر أى رجل أنه نال حقوقا بغير مجهود. ليزهد فى هذه الحقوق.. وقد زهد الكثيرون.. ولم تندم الفتاة ولم تأسف.. فهى اعتادت أن يناقشها الناس.. وأن يحاسبوها. وأن يشخطوا فيها. وهى فى نفسها تقول: إن هذه هى العقدة الموجودة عند الرجال إذا رأوا فتاة تقوم بدور قيادى أو دور إصلاحى..

والحقيقة أنها لايهمها أن يقول لها أى إنسان أى كلام. وأن يستوقفها وأن يناقشها. فهى تريد أن تكون مشغولة بالناس طوال الوقت. وتريد أن تكون مشاغلها صارخة مثيرة. حتى لا تمل الحياة خارج البيت. إنها لا يمكن أن تهرب من الذئاب وتختفى فى قفص الأسود.. ولا يمكن أن تعود إلى البيت إلا متعبة مهدودة فتنام فورا.

ولكن الناس الذين تحبهم وتسعى اليهم ليحققوا لها الحرية فى الكلام والجلوس، والخروج.. هم أنفسهم أكثر تقييدا لها.. إنها لا تستطيع أن تذهب إلى أى مكان.. كأية فتاة فى التاسعة عشرة.. إنها لا تستطيع أن ترتدى الفستان المشقوق والعريان والضيق، ولا تستطيع أن تضع الأحمر والأبيض.. إنها تقوم بدور اجتماعى وهذا الدور يقتضيها الكثير من الجد والبساطة.. الكثير من الرهبنة الاجتماعية.. أو من التقشف .. فهى فى كثير من الأحيان تدفع من جيبها لزميلاتها فى الكلية.. وهى تنفق على عدد من الجمعيات الصغيرة.. وتسهم

بنصف تكاليف الحفلات التى تقيمها.. وهى سعيدة بهذه الحفلات التى تتصدرها.. إنها حفلات تكريم لوحدتها.. لعزلتها.. لحياتها خارج البيت.. أو حفلات تأبين لهذه العلاقة بينها وبين أمها وإخوتها.. وأحيانا حفلات صلح بينها وبين أنوثتها.. فهى فى هذه الحفلات تظهر بالخواتم والغوايش.. وبعض اللمعان فى رموش عينيها.. ويبدو شعرها الأسود مسحوبا مشدودا إلى الوراء.. فى أذنيها «حلق» أحمر. وحول رقبتها إيشارب بنى.. لقد عادت أنثى.. ولا تخفى ابتسامتها وسعادتها أحيانا من الكلمات التى يهمس بها.. كأنهم لا يقدرون على أن يقولوها بصوت مرتفع.. وكأن أناقتها قد أزالت ستار الخجل فلم يطيقوا الصبر حتى نهاية الحفل.. فهم يتنافسون على أذنها.. ويلمسون خدها بأنفاسهم.. وهى ترتجف من النشوة ومن السعادة.. إنها فتاة.. أنثى.. فى ملابس تنكرية..

وطبيعى جدا أن يتقدم لها كثيرون من زملائها وأساتذتها.. ويكفى أن يعرف الناس أن والدها هو فلان.. فلان صاحب المنصب الكبير المعروف.. حتى يتزاحموا مرة أخرى على باب والدها. وعلى مكتبها.. ولكن الأب يرفض.. والفتاة تهز رأسها.. ويسألها أبوها: يعنى موافقة..؟ وتهز رأسها يعنى: لا.. ويتقدم ثان وثالث ويسألها أبوها: موافقة..؟ وتهز رأسها يعنى: نعم. ولكن الأب يقول: لا..

وتحقق حريتها بهم وعن طريقهم ومن أجلهم.. إنها تخاف منهم.. إنها لم تكن تعرف أن الحرية تتنافى مع الشعبية.. فكلما كانت شعبية.. نقصت حريتها.. لم تكن تعرف هذه الحقيقة الكبيرة. فهى لاتزال صغيرة. وهى ليست جادة وإنما هاربة لاجئة.. أسندت ظهرها إلى حائط كبير ملىء بالحياة اسمه: الناس..

وعندما تجلس إلى خطيبها الذى اختارها.. والذى لا تشعر نحوه بأى حب أو كراهية. أو أى «نعم» أو «لا».. لا تجد ما تقوله له.. إنها تطلب إليه أن يحدثها عن عمله.. عن حياته.. فإذا هو يكلمها عن الحسابات والميزانية والأرقام ومشاكل العمال والأجور والمعاشات.. وعن الساعى الذى فصله.. وعن الموظف الذى وقف إلى جواره ضد رئيسه.. وهو يظن أن هذه المشاكل هى التى تهمها والتى تسعدها.. والحقيقة أنها كانت تنتهز هذه الفرصة لتسرح.. لتهرب منه.. من المناقشة.. من متابعة الكلام.. وفرصة أخرى لكى لا يقترب منها أكثر وأكثر.. لكى لا يعرف عنها شيئا.. فهى لا تريده ولا تحبه.. ولكنها تحتمى به من الناس.. ومن كلام الناس.. ومن كلام البنات..

إنها لا تعرف لماذا وافقت على الخطبة.. إنها لم تخطبه ولكن الناس هم الذين

خطبوه لها.. خوفها من الناس.. حرصها على الناس.. فالناس خطبوه.. والناس وضعوا الدبلة فى أصبعها، وبدأوا يسألون عن كتب الكتاب والفرح.. والناس أيضا هم الذين يحددون مكان وزمان الزفة وعدد الأولاد.. الناس.. الناس.. الناس.. مظاهرة كبرى حول رأسها.. الحمام يأكل النحل، والصقور تأكل الحمام.. ووحش أسود هائل يأكل رأسها ويلتف حول صدرها وساقيها ويعصرها ويكتم أنفاسها.. فلا هى حية.. ولا هى ميتة.. وكل ليلة دموعها على خدها.. على مخدتها.. على سريرها.. وتنهض من الفراش وتسند رأسها إلى حائط الليل الأسود وتنام فى البلكونة.. كأنها خطيب خام وهو يخطب فهربت منه الجماهير.. أو كأن البلكونة زورق ارتطم بالشاطئ فالتصق بالطين.. أما الناس فقد غرقوا كلهم.. إنها الآن وحدها.. وحدها فى مواجهة أهلها.. لا أحد يستطيع أن ينقذها.. إنهم ينتظرونها.. إنهم يريدونها أن تمد يدها.. وأن تسعى إليهم.. وأن تمطر دموع الندم على صدر أمها وبيتها وإخوتها وقطتها..

وكان لابد للفتاة أن تحمى نفسها من الذين يتسلقون الحواجز بينها وبينهم.. إنها الآن أصبحت تخاف من حريتها.. أصبحت تخاف من الناس الذين كانت تراهم حريتها فى الكلام والخروج والجلوس. الذين كانت تراهم فرصتها الوحيدة وأن يكون لها دور اجتماعى.. إنها أصبحت تخاف من الناس الذين هربت إليهم من البيت.. الناس الذين تعلقت بهم وتعلقوا بها..

وتقدم لها رجل صاحب منصب هام.. لم يرها.. لم يسمع بها.. وإنما هى الصدفة فقط.. رآها فى الشارع.. مشى وراءها.. رأى صورتها فى «الجريدة» فى السينما.. سمع اسمها..امتدت يده إلى دفتر التليفون.. عرف عنوانها.. أرسل بطاقته.. إنه رجل فى الأربعين.. صاحب مركز.. وليس فى حاجة إلى من يسأل عنه.. فهو نفسه الإجابة عن كل سؤال.. وهزت الفتاة رأسها أمام والديها.. ووضعت فى يدها دبلة.. هذه الدبلة تخطف عيون كل من يريد أن يتقدم.. هذه الدبلة أصبحت فرصة لكى يسلم عليها الألوف. وكل واحد يضغط على يدها ضغطة ومعها نظرة مرسومة ذات مغزى..

والناس اختلفوا فى تفسير هذه الدبلة التى ظهرت فجأة فى أصبعها.. اختلفوا فى معنى طوق النجاة الذهبى.. أناس قالوا إنها كدة.. مجرد دبلة.. حتى لا يضايقها أحد.. وأناس قالوا إنها كانت مخطوبة لفلان الذى تركها لأسباب غير معروفة.. فقررت هى أن تتزوج قبله رجلا أحسن منه.. وأناس قالوا إن هذه الدبلة ظهرت فى اليوم التالى على معركة دارت بينها وبين الفتيات فى بوفيه الكلية..

فبعد الكلمة التى ألقتها.. وقفت إحدى الطالبات تسألها: طبعا أنت لن تتزوجى.. وإنما ستعيشين راهبة لخدمة الإنسانية المعذبة.. والتى ستزداد عذابا على يديك.. وعلى أصابعك.. الغليظة التى لا يمكن أن تدخل فيها ولا حتى غويشة..

على أثر هذه الخناقة.. ظهرت الدبلة وعليها اسم هذا الرجل المعروف..

وهذه الدبلة جعلتها تجلس مع خطيبها فى كل مكان عام.. فالدبلة هى وحدها التى أنقذتها من كلام الناس ومن شائعاتهم.. الناس الذين تحبهم. وهى الآن وحدها فى مواجهة الناس الذين قيدوها.. وخنقوا أصبعها بالذهب.. وانصرفوا عنها لوجوه جديدة.. وهموم جديدة.. ومشاكل جديدة..

وأمام المرآة.. مطت شفتيها.. وهزت كتفيها احتقارا للفتاة الخرساء التى فى داخلها.. والتى خنقها الناس وحبسوها وراء الفساتين الطويلة فوق الركبة والأكمام الترواكاز فى عز الصيف.. والصدر المشغول والشعر المشدود بلا مكوى ولا غسيل ورائحة الصابون النابلسى.. وألقت بكل ما كان يراه الناس ولا يعترضون عليها.. ألقت بشعرها.. لقد انحل طويلا أسود على كتفيها العاريتين.. ومن جانب من دولابها أخرجت بلوزة وردية.. وإيه يعنى.. فهى عندها ١٩ سنة.. وبنطلونا أسود ضيقا.. لأنه ليس كالبنطلونات التويست الجديدة.. ولكنه أوسع قليلا.. ثم أخرجت حزاما عريضا.. وحذاء جديدا.. وشدت حاجبيها إلى الوراء قليلا.. وأصبح كل حاجب كالسيف.. وتحته عين جريئة.. ونظرتها نافذة.. ومع شدة الحاجب وجرأة العين.. ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى.. وارتفع صدرها إلى أعلى.. والتصقت يداها بخصرها.. فتاة ناضجة مثيرة.. وغمزة بهذه العين.. وأجابتها العين الأخرى بغمزة أقوى وأكثر إصرارا على شىء غير مفهوم.. ودارت رأسها كقرص التليفون.. وحركة دائرية من رأسها يعنى ٨ وحركة أقصر يعنى ٦ وحركة أخرى أقصر لابد أن تكون ٣ أو ٤.. ثم ضمت شفتيها عدة مرات يعنى.. صفر.. صفر.. صفر..

واتجهت إلى التليفون ولم تر أحدا من إخوتها ولا أمها وأباها.. لقد سافروا جميعا.. إنها وحدها الآن فى مواجهة فساتينها وفى مواجهة حريتها.. ومواجهة أصبعها التى نزعت قيدا من ذهب ألقت به الصدفة.. فالتقطه أبوها.. وأمسكته أمها وأدخلته فى أصبعها والناس يبتسمون.. مشكلة رهيبة تقع فى كل بيت.. وعند كل فتاة.. كرهت إرادتها.. وكرهت حريتها.. وعجزت عن أن تقول لا.. لبعض الناس.. فقالت: نعم لكل الناس..

وانتهت المكالمة التليفونية.. وتقابل الاثنان.. وعلى باب الموظف الكبير

المعروف وقفت الخطيبة السابقة.. ومعها شاب فى سنها.. لم يكن عنده وقت ليحلق لحيته.. وبأصبعها العريان راحت تلعب فى شفتيها المصبوغتين.. ولم ترتجف شفتاها.. وإنما ارتجفت شفتاه هو تحت أعباء شارب ثقيل..

وبكل ما عندها من قوة الحاجب المشدود.. والعين الجريئة.. والصدر المرفوع.. والخصر المحبوس فى أغلال من الجلد الصفيق.. قالت لخطيبها السابق وكأنها تخطب فى الجماهير فى عيد جماهيرى.. اخترت حريتى منك.. ومنهم..

لم يفهم خطيبها.. فهى لم تكن تتكلم عادة.. ولم تكن ترتدى الملابس الأنيقة عادة.. ولكنها هذه المرة جاءت وكل شىء فيها كلام مكتوب.. وجهها فيه إصرار صارخ.. عيناها فيها لمعان السيوف.. أصابعها.. بلوزتها الشفافة.. بنطلونها لا يليق أن ترتديه.. وإنما هو يشبه عناوين حمراء فى صحيفة يومية.. أسنانها فيها لمعان العاج.. أصابعها.. بلوزتها الشفافة.. بنطلونها لا يليق أن تدخل به أحد المكاتب فى إحدى الوزارات.. مش معقول.. شىء خطير حدث..

وتذكر الموظف الكبير أنه فى يوم من الأيام كان من هواة التمثيل.. وتنبهت فيه العاطفة المسرحية.. ولم يحتج إلى أحد يلقنه ما يقول.. ومن غير كلمة واحدة مد يده ليقول لها: مبروك.. وهو ينطق حروف هذه الكلمة كان يفكر فى حركة مسرحية.. لا يعرف إن كانت هازلة أو مبكية.. ثم سحب يدها وأخرج الدبلة من أصبعه.. وضرب الجرس ودخل أحد العمال وكان قد أصيب فى حادث أثناء العمل.. وقد وعده الموظف الكبير أن ينظر فى حالته.. بعد ساعة.. ومضت الساعة ودخل العامل.. مربوط العينين.. هو الآخر لا يرى.. وهو الآخر أصيب فى حادث.. أثناء العمل.. تماما كالموظف الكبير الذى أصيب الآن أثناء العمل.. وفى ورقة مالية.. لف الموظف الكبير الدبلة الذهبية وأعطاها للعامل الذى لم يشأ أن يشكره وإنما سأله إن كانت له إجازة سنوية..

ولم يرد الموظف الكبير وإنما قال له.. أو قال لغيره. إجازة دائمة.. أنت حر.. وخرج العامل الجريح.. ولم تكن سعادته قد بلغت درجة سعادة الفتاة بنت ١٩ سنة.. ولا زميلها أو خطيبها الذى يكبرها بسنوات قليلة.. وجلس الموظف الكبير وبرأس جامد وأصابع متلهفة.. أدار قرص التليفون.. ولا يعرف إن كان يكلم أحدا أو يكلم نفسه عندما قال: أنا.. لا أريد مناقشة أى سؤال.. أنا قررت أن يكون ذلك بعد يومين ونسافر معا.. وشهر العسل فى الإسكندرية.. والباب والتليفون يتكون منهما معا ستار غريب ينزل.. ينزل على الأرض.. على رأس الموظف.. على جرأة الفتاة.. ستار ينزل وينتهى شىء ما.. استغرق وقتا ما.. من أجل نهاية ما.. لقصة ما..

□ □ □

يوم جديد

ففى ساعات متأخرة من الليل يشب حريق بجوارى.. حريق له ألسنة تصرخ وتشتم وتلعن.. ويصبح النوم فى هذه النيران مستحيلا.. وأحسن حل هو أن أفتح النافذة وأستقبل نوعًا آخر من الدخان واللهيب..!

وفتحت النافذة وتساقطت عليها كلمات لا أعرف مصدرها.. إنها من فوق ومن تحت ومن يمين ومن شمال.. كلمات تتساقط من أعلى بسرعة كأنها أحجار تشدها جاذبية الأرض.. وكلمات بليدة كسول كان النوم «كابس» عليها..

– هو ده وقته يا ناس.. إيه الرجل المجنون ده..

– مجنون ليه.. الولية هى اللى مجنونة..

– يا أخى حد يضرب مراته دلوقت.. يعنى إيه اللى حصل.. يا أخى يأجل الضرب للصبح..

– راجل مين اللى بيضرب؟. الله أنت مش عارف «عشماوى» وإلا إيه؟

– عشماوى مين؟.

– أوه دا أنت مش هنا بقى.. مراته هى اللى بتضربه.. كل يوم والثانى يحصل الضرب.. بص.. بص.. شايف عاملة فيه إيه.. والله يا أخى أنا كنت أسمع حكاية رفيعة هانم والسبع أفندى.. أقول عليها كلام جرايد.. قدامك آدى رفيعة زى الغول وآدى السبع زى الفار.. الرجل ضعف يا أخى.. الرجل ما عدش فيه نفس.. الولية واخدة فلوسه..

– ما يطلقها.. قاعد معاها ليه..

– يقدر!.. دا كانت تموته.. الشهر اللى فات ضربته علقة.. دخل فيها المستشفى..

– ليه؟

– عاوز يجوز.. وهى ماشية على المبدأ اللى بيقول: قصقص طيرك لا يلوف بغيرك..

– وهى دى قصقصة.. دا قتل!

– قتل.. دبح.. احنا مالنا.. قلقوا نومنا الله يخرب بيوتهم.. يا ولية اهمدى بقى.. كفاية بقى.. خليكى لبكره.. اضربيه فى الشمس على الأقل تعرفى الضرب نازل فين.. كفاية بقى يا عشماوى..

– خد بالك ان دى هى الوصلة الأولى.. آه.. فيه وصلة ثانية بكره.. أصبح على خير..

وتتخبط شبابيك فى الظلام ويسود الهدوء.. وتعود ألسنة النيران من جديد.. لقد لعبت الألسنة فى أماكن أخرى.. كان الخناق يفتح الشهية وينبه الذين نسوا أن يتخانقوا..

– قومى يا ولية إعملى شاى بقى.. ما هو مفيش نوم..

– طيب سيبنى أنام..

– الله؟ كويس قوى.. قومى يا بنت الـ...

– الإيه؟.. قولها.. يا فتاح ياعليم..

ويصيح الديك.. كأنه يقول للدجاج إنه ليس كالرجال.. إنه لا يسمح لأية واحدة أن تضربه لأى سبب.. إنه أحسن من بنى آدم.. ويصيح الديك وكأنه ينفخ فى قربة مقطوعة.. فالناس لايزالون نائمين.. والشمس لا تسمع صوته فهى الأخرى ماتزال تحت لحاف الظلام..

وأصوات أخرى لا أعرف من أين..

– فين يابت حطيت الجزمة؟..

– فوقك.. فى الشباك..

– برضه حد يقول كده ياسنية؟..

– جرى إيه يعنى غلطت فى البخارى.

– ولا غلطت ولا حاجة.. وهوه أنت تغلطى أبدًا.

– لا.. اسم الله على ملافظك أنت.

– ويعدين.. احنا حنعملها احنا كمان؟.

– أنا يا خويا عندى إيدين أضرب بيها..

– اخرسى يا بنت الـ...

– بنت إيه بقى.. يا أبو ملافظ حلوة.. العادة ياسعادة.. والله طلع الباذنجان بدرى السنة دى..

– كده.. طيب إبقى دورى على اللى حيديك المصروف.

– مصروف دا إيه.. بلا حسرة.. ومن إمتى كان فيه مصروف.

– لا دانت زودتيها.. خدى بقى.

– يا دهوتى.. حوشونى .. فينك يا عشماوى..

– وبتقولى عشماوى.. خدى كمان.

– فى عرضك..

والديك يصيح .. وصياحه كأنه ينادى البوليس.. أو كأنه يخطب بلغة لا نعرفها.. إنه يشعر أن الخناقات بين بنى آدم هى حفلة تكريم للحيوانات والطيور التى لا تعرف هذا النوع من التفاهم.

وفى الشارع أصوات أقدام تلطم الأرض.. ونداءات.. يا سى محمد.. يا أسطى عبود.. يا دولت.. الصلاة خير من النوم.. خلى نومك خفيف بكره النوم حيطول.. وهوه فين النوم.. الشاى خفيف كده ليه.. خد الجزمة.. كفاية بقى يا أمه.. أبويا عيان.. كفاية كده النهارده.. «ياشيخ إلبس وأنزل»..

هذه الجملة الأخيرة قلتها لنفسى.. وأقفلت النافذة ونظرت إلى السرير ومددت يدى إليه.. إنه لا يزال دافئا.. لا يزال يرحب بى.. ولا يزال الغطاء فى جانب منه، كأنه يفسح لى مكانا.. أو كأنه يقول: مكانك محفوظ.. إننى أنظر الى السرير وكأننى أنظر إلى كوم من أوراق النشاف التى تمتص نومى وراحتى كل ليلة. إنه سرير مقفر كأنه بيت من بيوت الإسكيمو المصنوعة من ألواح الثلج.

وعدت إلى النافذة أعيد إقفالها.. وفى هذه اللحظة سمعت.. يا دهـ.. وأقفلتها على نصف هذه الكلمة، دخل نصفها وبقى النصف الآخر وراء الخشب والزجاج.. وفتحت نافذة أخرى على أذان الفجر.. وعلى الفول اللى زى اللوز.. وأخبار وأهرام.. كل فجر يعمل الناس على إيقاظ الديك، والديك يوقظ الشمس. والشمس توقظ التراب والدخان.. الذى ينتقل الى أنوفنا ونفوسنا.. لنشم ونذوق رائحة وطعم يوم جديد.

□ □ □

القاضى سرق

لولا أنه يعمل قاضيًا لذكرت اسمه وعنوانه ونشرت صورته ولكن القضاء له حرمة وقداسة.

قابلته على شاطىء البحر صدفة. سألته عن حاله فأعلن أنه يتزوج. ولم أكن قد سألته عن الزواج ولكن فهمت أن «حاله» هو الزواج أو عدم الزواج.

وفاجأنى بقوله: كفانى ما رأيت.. ولا أريد أن يلقى ولدى الوحيد نفس العذاب الذى اكتويت به..!

كيف بدأ حياته.. لا يستطيع إنسان أن يجد لحياته بداية.. فبداية الحياة كبداية الشجرة.. إذا بدأت من الجذور فهناك عشرات الجذور وإذا بدأت من الفروع فهناك مئات الفروع.. إن حياته كبكرة خيط من نوع غريب لها عدد هائل من الأطراف.. ولكنه بدأ حياته.. لقد كنا معا زميلين فى مدرسة ابتدائية واحدة.. إنها مدرسة أبو حمص الابتدائية.. وكان يعيش على ترعة مع أهله.. كما تعيش الأعشاب البرية.. حياة جافة منعزلة.. ومال وحرمان وشمس وأب قد مات وزوجة أب لا تريد أن تموت..

وفى ليلة كان يسير على شاطئ هذه الترعة كان هناك قمر فى السماء وكانت الترعة بلونها الفضى تفصل صفين من النخيل.. كأن النخيل جيش قد ألقى ملايين السيوف الفضية فى هذه الترعة. أما الفتى فقد سار فى هذه المنطقة المنزوعة السيوف. ومد يده إلى جيبه وأخرج خيطًا وراح يفكر فى أمر هام.. وكل شىء عن الأطفال أمر هام.. وانطلق حافى القدمين إلى أرض زرعت بالبطيخ..

هذه الأرض يملكها رجل اسمه توفيق دياب.. وكان هذا الاسم غريبًا علينا.. وكنا نسميها فى ذلك الوقت عزبة دياب وإلى جوارها عزبة عبد الفتاح يحيى.. وزحف على يديه ورجليه وراح ينزع البطيخ من أرض دياب ويدحرجه واحدة وراء الأخرى ويلقى بها فى الماء.. ثم يربط البطيخ كله فى هذا الخيط ويسير على

شاطىء الترعة والبطيخ يتبعه على سطح الماء يوقظ الموج الهادئ ويثير الضفادع والثعابين والفئران.. ولا يدرى الطفل أين يذهب ولا لماذا ربط البطيخ على هذه الصورة.. وكل ما هناك أنه فكر فى طريقة لنقل البطيخ من مكان إلى مكان دون أن يوضع على ظهور الحمير.. أو بعبارة أخرى إنه اكتشف طريقة جديدة تخفف على الفلاحين مشقة حمل البطيخ.. إنها نفس الطريقة التى ينقل بها الأوروبيون الأخشاب بعد قطعها من الغابات.. وبينما هو يسير مفتونا بهذا الأسطول الذى يجره.. دق كتفيه أحد الخفراء.. فترك البطيخ وهرب إلى البيت لتوقظه فى الصباح مقشة غليظة لها صوت كريه يقول: قم يا حضرة اللص.. أيها الجائع الذى يتعلم فى المدرسة.. قم..

وقام لترميه زوجة أبيه فى غرفة الدجاج حتى صباح اليوم التالى.. وتركته يشرب ماء الدجاج ويأكل معها قشر البطيخ.. وكان لابد أن يهرب وأن يحمل معه كل ما لديه من عشرين رواية جيب وثلاثة أجزاء من ألف ليلة وليلة وطربوش وحذاء.. ويسير على قدميه حتى مدينة دمنهور.. إنها مسافة تبلغ أربعين كيلومترًا.. وهناك تستقبله عمته بالبكاء والترحيم على والده واللعنات على زوجة أبيه..

ولم يسترح الطفل من زوجة أبيه.. لقد كانت تزوره فى أحلامه وتضربه.. وتلقى على رأسه بأحجار فى حجم البطيخ.. أو تسوق أمامها وابورا من الزلط يسويه بالأرض. أو تتدحرج كالقنبلة تنفجر فيه وحده.. أو تجعل من شعر رأسه مقشة ثم تضربه هو وأباه وعمته ثم تلقى بهم جميعًا فى الترعة وتربطهم بخيط واحد.. وكثيرًا ما قاومها الطفل وراح يضربها بيديه ويكشف أنه إنما يضرب عمته التى نامت إلى جواره..

وتخرج صاحبى هذا فى كلية الحقوق.. وأصبح بعد سنوات قاضيًا.. ويقف أمامه تاجر الفاكهة المتهم بأنه باع بأكثر من التسعيرة.. ويسأله القاضى: ماذا تبيع؟ فيقول المتهم: يا سعادة القاضى أطال الله عمرك.. أنا رجل فقير.. إخواتى وأمهم.. لقد مات أبى وماتت أمى.. وأنفق على زوجة أبى وأولادها.. نحن جماعة من المساكين.. أنا أتاجر فى البطيخ والشمام والخيار..

ورنت كلمة البطيخ رنة عنيفة فأطلقت صفارة الإنذار فى أذنيه.. وكانت غارة من الذكريات وتعطلت كل وسائل المواصلات بينه وبين المتهم.. فلم يعد يراه ولم

يعد يسمعه ولم يعد يحس بوجوده هو أو وجود أحد حوله.. ورفعت الجلسة.. ورفع القاضى من مقعده إلى المستشفى ويقى بها أسبوعًا..

خرج سليما يأكل البطيخ الذى لم يأكله منذ ذلك اليوم.. واكتشف القاضى أنه كان قد تقدم لخطبة فتاة يوما.. وسمع أمها تدللها بقولها: اذهبى واجلسى مع خطيبك يا بطة!

ولكنه كره البط والبطيخ معًا وتركها.. وتزوج من حيث لا يدرى بفتاة اسمها سلوى.. وهذا اسم والدته.. وأنجبت له ولدًا ثم ماتت فى حادثة سيارة.. وكبر الولد.. ولكن الأب لم يتزوج.. إنه لا يريد أن يجعل لابنه زوجة أب تملأ حياته بالفزع فى يقظته وفى أحلامه.. لم يتزوج لأنه يحب ولده.. ولأنه يكره منظر المقشات.. والمقشات إحدى قطع الأثاث الذى تدخل به زوجة الأب!

□ □ □

كان.. ومات

كان هو الأقة والرطل.. كان المتر والسنتيمتر.. وكان خطوط الطول والعرض.. والجنيه الذهب والدرجات المئوية.. وأول كل شىء وآخر كل شىء.. مركز العالم وكان «سببًا» من أسباب البقاء والأمل والحياة والصلاة والسعادة..

كان له ولد ومات..

اسمه فى ثلاث كلمات ونعيه فى ثلاثة سطور يراها الناس أولا يرونها.. ولكن أباه أصبح لحما بلا عمود فقرى.. أصبح كلاما بلا معنى.. أصبح حيًا بلا مبرر.. كان له ولد ومات.. انتظر ولده هذا طويلا.. انتظره أربعين عامًا.. وقال الأطباء إن ميلاد هذا الطفل معجزة وحياته معجزة أيضًا.. وأن يكون ابنا لرجل فى السبعين وزوجة فى الخمسين.. معجزة كبرى.. ولايزال العلم معرضًا لمعجزات غير مفهومة.. لقد نظر إليه الأطباء على أنه دليل جديد على عجز العلم والعلماء.. ونظر الأطباء إلى ولده على أنه «جسم» الجريمة التى ارتكبت فى أحد المعامل الكبرى، وأن الطبيعة قد خرقت كل القوانين.. وأخرجت للناس هذا الطفل..

ولم يكن يهتم الرجل العجوز بآراء الأطباء وعيونهم الشاردة وأوراقهم وأقلامهم ومداعباتهم.. لقد أصبح له ولد.. أصبح له معنى.. أصبح محدودًا بطول وعرض، وله وزن وله سعر، وله طريق، وللطريق بداية، وله أمل، وللأمل نهاية.. وأصبح مؤمنًا. فقد ثبتت قدرة الله على كل شىء وكل ولد ولو كان أبواه فى سنى اليأس.

كان الأب مدرسًا يحب كل الطلبة ويتمنى لو كان له واحد مثلهم.. يجلس فى آخر الصفوف، وينجح آخر الطلبة أو تطرده المدرسة ويبقى فى البيت..

إن المدرس العجوز يريد أن يحس بالأبوة وبالعطف وبالخوف وبالشوق وبالقلق على أى إنسان.. إن لديه عواطف كاملة معطلة بلا عمل.. لديه أوتار لم تمر عليها أصبع. ولم تداعبها أوهام. وأصبح له ولد..

وأحس بالزمن الذى يفصله عن البيت، وأحس بالمال الذى ينفقه والذى يدخره،

وأحس أنه أبيض اللون، وأن له عينين خضراوين وأن أنفه كبير. وأن شفتيه نحيلتان، وأن رأسه ضخم.. كل ذلك رآه فى ابنه.. وهو فى السنة الأولى والثانية والثالثة.. والسابعة من عمره.. وعرف الأب دفاتر التوفير.. وأخذ يسأل عن سعر أراضى البناء وعن التأمين على الحياة.. وعرف عشرات من أسماء الأدوية والحبوب والأطباء وتجار الملابس والأحذية.. وعرف البخور والنذور والأحجبة وخاف من الحسد وعلق الخرزة الزرقاء فى ملابس ابنه.. ووضع فى صدره مصحفًا صغيرًا.. وفى فراشه وعلى الحائط. وطرد الخادمة العجوز التى ربته لأن لها عينين زرقاوين.. وأن العين الزرقاء تحسد كل شىء.. هكذا كان يقول لنفسه.. وتعلم أن يغسل الأطباق والملاعق بالماء الساخن والصابون.. ولكن الجراثيم كانت تسلك الى الطفل طريقًا آخر لا يمر بالماء والصابون.. وكان الأطباء كلما جاءوا لتشخيص المرض.. قالوا: إنه عدم العناية بالطفل.. إنه يحتاج إلى نظافة..!

الطفل يحتاج إلى نظافة وعناية.. ويمعن الطفل فى المرض ويزداد الأب والأم هوسًا وجنونًا بالماء والصابون والبخور والمقرئين.

وكان لابد أن يموت الطفل..

إنه مريض من البيت كره العناية الشديدة . وقيود الحنان التى فرضتها الأم والأب. وراح يأكل من الشارع ومن الأرض ومن الحقل.. وكان العناد والانقلاب من قيود البيت يدفعه إلى تعذيب والديه.. المرض والإهمال وتعريض نفسه للسيارات والعربات.. وكثيرًا ما أصابته وألقت به إلى الأرض جريحًا..

ومات كل ما لهذا العجوز فى هذه الحياة.. لقد فقد مليونًا من الجنيهات فى لحظة واحدة.. إنه الآن بلا مال.. بلا هدف.. بلا غاية.. بلا حياة.. إنه لا شىء..

امتنع عن الطعام. عن الشراب.. عن الحياة.. كل طفل يراه يمسك به ويقول:

ولدى!

والناس من حوله تصرخ..

وكان لابد أن ينتقل الأب العجوز إلى مكان آخر.. بلا أولاد.. لقد انتقل إلى عالم النسيان.. إنه اليوم فى ذهول تام.. تراه كل يوم فى شارع سليمان باشا.. والقصة يرويها لك خادم فى الرابعة عشرة من عمره.. يرافق هذا المدرس العجوز حتى لا تدوسه السيارات.. إنه مفتوح العينين والأذنين.. ولكنه لا يرى ولا يسمع..

لقد كان .. فمات..!

□□□

غني حرب

البخت.. النصيب.. القرعة.. الاجتهاد.. حب صاحب العمل.. دعوة ولية فى ساعة مغربية.. طاقة القدر..

ساعة نحس.. لا يعرف ماذا حدث.. ولكنه فجأة وجد نفسه مديرًا لإحدى دور السينما.

فأخذ صور كواكب السينما التى كانت فى مكتبه وفى غرفة نومه.. ووضع بدلا منها صورة كبيرة للرسام رخا.. صورة أحد أغنياء الحرب. رجل ضخم له كرش، وعلى الكرش سلسلة.. وفوق الكرش نفخة صغيرة هى الساعة الذهبية وقد استقرت فى أحد الجيوب.. وله شارب غليظ.. وعلى جبهته خطوط متقاطعة أو معقدة.. مكشرا يعنى.. وفى الصدر وردة.. وواقف على حيله.. وفى صورة أخرى لهذا الرجل نرى لسانه مطبوعًا كأوراق النقد.. لسانه ملون.. وعليه أرقام.. لسانه بوجهين. وكل الفلوس لها وجهان..

أصبح مدير السينما كأغنياء الحرب.. كل شىء مبالغ فيه.. كل كلامه زعيق.. وكل أفكاره صارخة. حريص دائمًا على أن يبين الفرق بينه وبين الناس.. يحاول أن يوهم الناس أن هذه «العظمة» لم تأت عفوا.. وإنما جاءت بالعرق والدموع.. وعندما يقول هذه العبارة يتنحنح دائمًا «وسبب النحنحة أنه يسمع صوتا داخليا يقول له: أنت فشار.. أو يقول له: يا أبو لمعة.!».

كان مدير السينما هذا يحب السينما ويحب الأفلام.. كان يدخل الأفلام ويجلس فى الصفوف الأخيرة.. وكان يدعو إلى الظلام فى السينما.. وكانت الأصوات التى تضايقه الآن لها معان أخرى.. فالقبلات فى الصفوف الخلفية كان يراها موسيقى الشباب.. وكان يتمنى أن تصنع مقاعد السينما مريحة أكثر وعريضة أكثر وأن يصاب الناس بالعمى.. وبذلك يترك كل واحد منهم غيره فى حاله.. وأصوات اللب والسودانى كانت فى أذنه عبارات صغيرة.. ملذات صغيرة..

وحياتنا كلها أشياء صغيرة.. حياتنا مثل جسم الإنسان عبارة عن ملايين الخلايا الصغيرة.. والجبال هى ذرات صغيرة من الرمل.. وعندما ينقطع النور فى السينما يتمنى لو يطول..

كل هذا تغير.. فهو اليوم يخاف من القبلات لأن معناها أن تتدخل الشرطة وتقفل السينما.. وقزقزة اللب والسودانى تكلفه الأموال فى تنظيفها..

وقد اكتشف أن المقاعد عندما يمزقها المتفرجون بالسكاكين والمقصات تحدث نفس صوت اللب والسودانى.. وانطفاء النور هو أسوأ دعاية للسينما ويجعل المتفرجين يهربون.

كان فيما مضى يتمنى أن يجد شباك التذاكر خاليًا لكى يأخذ تذكرته فى هدوء.. أما اليوم فإنه لا يطيق أن يرى باب السينما خاليًا هادئًا.. فهذا هدوء الفقر.. هدوء الجيوب الفارغة.

كان له أصدقاء بين موظفى السينما.. أما اليوم فقد تغير كل شىء.. الصداقة تحولت إلى احترام.. إلى رسميات.. أصبحت هناك مسافة بينه وبين الناس.. هذا المنصب الجديد عزله عن الناس.. المسافة بينه وبين موظفى السينما مثل شوك القنفد.. لا يمكن أن يعانق أحدا دون أن يخاف منه هذا الأحد.. كأنه مريض، ومرضه معد كأنه ملوث.. كأنه يكذب.. كأنه ينافق.. كأنه لا يعنى ما يقول ولا ما يفعل.. إن منصب المدير أحدث فى حياته انقلابًا مقرفًا..

كل حواسه متنبهة جدًا.. إنه يرى أكثر من اللازم.. كان فى حاجة إلى منظار من الزجاج الشفاف يضعه فوق عينيه.. وكان فى حاجة إلى سماعة كهربية فى أذنيه.. كان فى حاجة إلى ألوف من فناجين القهوة لتنبهه..

أما اليوم فهو فى حاجة إلى منظار أسود قاتم.. يحجز عن عينيه الكثير جدًا مما يرى.. فى حاجة الآن إلى أن يسد أذنيه لكى يوقف هذا السيل الهائل مما يسمع.. فى حاجة إلى أقراص منومة لكى يتمدد وينام فى المقاعد الأخيرة فى هذه السينما..

إنها قصة فرانكشتين مرة أخرى.. هذا الإنسان الضخم.. القوى.. إن الناس يرونه ويفزعون منه ويهربون.. الطفل يراه فيبكى، الأم تراه فيغمى عليها.. إن الناس يهربون من شكله البشع، ولكن هذا الشكل لم يختره ولم يرده.. وفى داخل هذا الوحش طفل طيب مسكين.. دموعه قطع من الحجارة، وبكاؤه كطلقات

المدافع.. إن فى داخله صورة مقاس ٦ × ٩،. ولكن الناس يرونه فى حجم «أبو الهول» إنها قصة المخيف مع أنه خائف، إنها قصة المرعب المرعوب، قصة الرجل الطفل..

وفى يوم وقف هذا المدير - بالقرب من شباك التذاكر وفجأة رأى واحدًا من هؤلاء الزبائن - زملاؤه سابقًا - ينطلق هاربًا.. إنه أخذ التذكرة ولم يدفع ثمنها.. وبلا تفكير انطلق وراءه.. والشاب يجرى والمدير وراءه والناس يقولون: امسكوا الحرامى.. هرب ولم يدفع..!

وتمنى المدير ألا يمسكه أحد.. أن يظل هو يطارد هذا الشاب..

وعرف فيما بعد أن السبب فى انطلاقه وراء هذا الشاب.. أنه هو الآخر يريد أن يهرب.. والناس يقولون: امسكوا الحرامى.. وهو يقول: أنتم اللى حرامية.. سرقتم راحتى.. سرقتم حريتى.. سرقتم متعتى.. سرقتم الوهم الذى كنت أعيش فيه، سرقتم حب الناس لى ولهم وأعطيتمونى القوة.. وهذا وهم آخر! سيبونى أدفع له أنا ثمن التذكرة.. تذكرة هربى منكم.. ومن السينما.. من المقشات والجرادل.. من دورة المياه والتأكد من أن رائحتها لا تملأ صالة العرض.. سيبونى أبوسه..!!

وفى يوم زرته فى مكتبه وعرفت منه أن الدكتور نصحه بالمشى على نظام خاص فى الأكل والشرب والسهر.. وتأكدت أنه لن يستمع إلى كلام الطبيب وذلك عندما أشار بيده إلى الصورة إياها المعلقة على الحائط وقال: هذه الصورة هى صورة بالأشعة لأحشائى وأفكارى.. وهذه أول صورة أشعة كاذبة.. صورة مبالغ فيها جدًا.. فى المرة القادمة ستجد صورة أخرى.. صورة غنى بلا حرب.!

وأحسست بشىء من الارتياح وابتسمت وأنا أنظر إلى بعض الكتب فى مكتبه. فسألته: إلا قل لى: وبتقرا امتى؟

وعلى وجهه رأيت ابتسامة.. ولم يكد يفتح فمه حتى دخل أحد عمال السينما ووجدت الابتسامة قد تعثرت فى تكشيرة بشعة على جبهته ثم يقول: يا أخى قلت لك ألف مرة شد السيفون.. وخد بالك.. من الكراسى اللى ورا..!

وعادت الابتسامة إلى وجهه والتكشيرة إلى وجهى..

ثم نادى الموظف وقال له: مش قلت لكم تشوفوا برواز للصورة دى أحسن من كده..!

وكانت الصورة المعلقة على الحائط..!

□ □ □

صراخ فى الليل

من نافذتى حاولت أن أعرف مصدر هذا الصوت الغريب.. الدنيا مظلمة.. وأسطح المنازل قد زادت الظلام وأضافت إليه بعض التراب الرطب.. حتى أصبح من العسير على أنفى وعلى عينى التفرقة بين الظلام والتراب والرطوبة.. فالليل عندنا يشبه خيمة غريبة مصنوعة من الطين وبلا أعمدة..

وكلما حاولت أن أعرف أين يوجد هذا الطفل الذى يبكى منذ ساعة بلا توقف.. فلا أمه تصحو ولا هو يسكت.. ولا أحد من الجيران يصحو ويحاول أن يصرخ من الأرق.. ولا أحد يحاول أن يلقى بقطعة من الخبز أو الحلوى لهذا الطفل.. لا أحد. مع أن الجيران كثيرًا ما تدخلوا فى مثل هذه المواقف المؤلمة.. وكثيرًا ما تدلت السلال من النوافذ وبها الخبز واللحم وأحيانًا أطباق الملوخية.. لإطعام جائع أو مريض أو سيدة وضعت مولودًا.. ولكن فى هذه الليلة لم يتحرك أحد.. لم تنفتح نافذة.. لم أسمع ميلاد صرخة.. أو شخطة.. وأنا أعرف كيف تولد المعارك والخناقات هنا.. إنها كلمات تتعثر بين رجل وزوجته.. وبعد ذلك تزحف من السرير إلى النافذة.. إلى كل النوافذ.. وتقلد الصفافير.. صفافير رجال الشرطة تحاول أن تسكت المتشاجرين حتى ينام بقية سكان الحى.. ولكن هذه الليلة لم يتحرك أحد..

والذى شعرت به فى هذه الليلة هو اليأس والاستسلام.. ومحاولة أخيرة أن أشغل نفسى بشىء.. أى شىء.. فجعلت أفكر فى مزايا البكاء للأطفال.. فالطفل يحب أن يبكى عند ولادته.. كل أطفال الدنيا يجب أن يبكوا.. وبكاء الأطفال شىء جديد لم يظهر إلا فى العصور الحديثة.. لأن الأطفال لو كانوا يبكون من آلاف السنين لهجمت عليهم الوحوش وأكلتهم وانقرض الإنسان.. ولكن عندما أصبح الآباء والأمهات آمنين على أطفالهم من الوحوش تركوهم يبكون.. فبكاء الأطفال ظهر مع اختفاء الوحوش، اختفاء حياة الإنسان فى الكهوف والغابات.. ظهر البكاء مع بنات البيوت ذات الأبواب والنوافذ المقفلة.

وبكاء الطفل يقوى أحبال الصوت ويجعل التنفس منتظمًا ويقوى الرئتين.
وأذكر أننى قرأت كتابًا عن هتلر لأحد علماء النفس الألمان.. ووقفت عند رأى غريب لهذا العالم النفسى الكبير.. فهو يقول إن هتلر وهو طفل كان يحاول أن يضع أصابع قدميه فى فمه.. كما يفعل كل الأطفال.. ولكنه لم يتمكن لعيب فى ساقى هتلر الصغير.. ويقول إن هتلر وهو صغير كان يبكى كثيرًا فى الليل. ولكن أمه لم تكن تلبى مطالبه.. وسبب ذلك أن أم هتلر كانت تنام بعمق. وذكر العالم النفسى أن النار شبت فى بيت هتلر وهو صغير وحاول الطفل إنقاذ أمه فراح يبكى ويمزق ملابسها ولكن البوليس هو الذى أنقذ الأم والطفل.
ويقول هذا العالم لو كانت أم هتلر خفيفة النوم لأنقذت الإنسانية من سفاح المستقبل.. الذى أزعج ملايين الأمهات بعد ذلك.. فقد قتل ملايين الشباب لكى يزعج ملايين الأمهات.. إنه ينتقم من أمه التى عذبته سنوات طويلة.. جعلته يبكى طول الليل إلى جوارها. ليكون انتقامه رهيبًا بعد ذلك..
وهذا الطفل الذى يبكى.. أسمعه ولا أراه.. هذا الطفل قد يكون سفاحًا فى يوم ما.. ولذلك قررت أن أنقذ الأجيال القادمة منه.. وارتديت ملابسى.. ونزلت فى الساعة الرابعة صباحًا.. وقررت أن أستعين بأحد رجال الشرطة لإيقاظ أم هذا الطفل وإسكاته أو حتى اعتقال هذا السفاح الصغير مقدمًا..
وتنبه البواب.. ولا أدرى كيف لاحظ ثورتى وغضبى.. لعله نظر إلى احمرار عينى.. وسكوتى.. ونهض الرجل ووقف معى فى انتظار أحد رجال الشرطة.. ويبدو أن البواب لم يكن قد استيقظ تمامًا.. فسألنى: أى طفل تقصد؟
وأشرت بيدى إلى مصدر الصوت.. ومد البواب شفتيه كأنهما ضلفتا بابنا المكسور..
وقال: اطلع نام أحسن.. مفيش فايدة..
وروى لى قصة طويلة.. وعرفت أنه مفيش فايدة.. فهذا الطفل قد جاء من الريف أخيرًا.. إنه يبكى ليلاً ونهارًا.. وإنه مريض.. وإن مرضه لا علاج له.. وإنه ليس طفلا وإنما هو شاب فى الثلاثين من عمره ولكن له صوت الأطفال.. !
وحاولت أن أنام..

□□□

عم سيد

أنا أعيش «تجربة» موت..

والموت ليس تجربة. لأن التجربة هى العمل الذى يمكن أن يكرره الإنسان مرة واثنتين وثلاثا حتى تثبت صحته..

والإنسان لا يموت إلا مرة واحدة. ولذلك فالموت ليس تجربة.. ولو كان الإنسان يموت أكثر من مرة لأصبح الموت تجربة..

ولكن التجربة التى أعيش فيها أن إنسانًا عزيزًا علىّ قد مات منذ ١١ عامًا.. ولكنه لايزال حاضرًا فى ذهنى، أراه عندما أشعر بالتعب والمرض والعذاب..

وأنا لا أكره أن أتعب.. ولا أكره أن أتعذب.. ولكن أكره التعب لأنه يذكرنى بهذا العزيز علىّ.. وأكره العذاب لأنه يذكرنى بأبى.. يرحمه الله.. لقد عاش مكافحًا ومات وهو يعمل.. لم يملك شيئًا ولم يترك شيئًا وكان مؤمنًا وكان طيبًا.. رأيت الموت يزحف عليه.. فيضع منظارًا على عينيه، ويدخل أسنانا فى فمه، ورأيته يرتجف فى شفتيه، ورأيته عصا خشبية ينقلها من يده اليمنى إلى يده اليسرى.. ورأيته يتمشى فى دمه ورأيته يقاومه بالحقن وبالأقراص وبالصلاة وبدعاء أولاده.. ولكن أبى كان يحمل لنا الطعام على صدره وتحت أبطه.. وكان الطعام يتساقط من يديه.. وكان أبى يجمعه من الأرض وحده.. وهو مريض.. وكان أبى يتصور أن شيخوخته سترحمه من العمل ومن السعى وراء لقمة العيش.. ولكن أحدا لم يرحم شيخوخته.. فالناس مشغولون عنه.. وكان أبى يقول: سبحان من أودع فى كل قلب ما يشغله..

فى كل قلب وكل عقل وكل معدة.. ما يشغله..!

ولذلك أنا لا أشترى شيئًا أبدًا.. وأكره أن أشترى.. حتى أصبحت اليوم عاجزًا تمامًا عن دخول أى محل تجارى.. ولا أذكر أننى دخلت محلا كبيرًا واحدًا فى القاهرة أو الإسكندرية.. وإذا دخلت فمع أحد.. ولكنى لا أدخله وحدى، لأننى لا

أشترى، ولا أريد أن أحمل شيئًا فى يدى.. فقد كان أبى يفعل ذلك. كرهت أن أتذكر ما كان يفعله أبى..

ومات أبى فى نفس اليوم الذى تخرجت فيه من الجامعة.. كأنه كان ينتظر هذه النتيجة..

ولكن صورة أبى وصوته ومرضه وموته.. لا يغيب عن خيالى أبدا.. ولا أدرى لماذا أتذكرها، ولا أدرى كيف أنساها..

إنها تجربة موت.. إننى أعيش هذه التجربة..

وأرى كل يوم هذه التجربة بصورة أخرى. ففى البيت الذى أسكنه.. يعيش تحت السلم رجل عجوز لا يعرف أحد من أين جاء ولا كم سنة ولا ماذا كان يعمل.. ولكن سنه لا تقل عن تسعين..

ولا أعرف لماذا كلما رأيت هذا الرجل واسمه «عم سيد» أتصور مدرسًا وقف فى الفصل وفى يده كشف بأسماء الطلبة.. وكلما نادى على اسم لم يسمع ردًا.. إن الفصل كله لم يحضر.. ولكنه يسمع صوتا، وهذا الصوت يدل على أن هناك شبحًا فى الفصل.. وعم سيد هذا يشبه هذا الفصل، فكل عضو من أعضائه غائب.. العين غابت، والأذن غير موجودة.. والذراعان والساقان.. كل شىء فيه غائب.. كل ليلة أراه وأسمعه.. وبين الحين والحين أسمعه يطلق أصواتا غريبة.. أما طريقى إلى السلم فهو محفوف بالصفائح القديمة والأقفاص الفارغة والطوب والحجارة.. وعم سيد مشغول بأشياء غريبة مصنوعة من الطين.. وبلا أعمدة..

وفى بعض الأحيان أعود إلى البيت فأجد الباب الخارجى مربوطا بالحبال.. وأستعين ببائعى التين الواقفين أمام الباب ونمزق الحبال بالسكاكين.. وأدخل فأجد «عم سيد» مشغولا بتفريغ الصفائح. وليست الصفائح إلا ترابا، وفى التراب ملاليم وقروش..

وأحيانًا أجد «عم سيد» وقد تمدد على السلم نصف نائم ونصف ميت.. ونصف إنسان.. إنه شىء بغير حياة.. وتعودت أن أضع فى جيبى علبة من الكبريت.. لكى أضىء طريقى حتى لا أدوس عليه، فأعجل بموته.. وأتحول إلى قاتل فى لحظات.. وأضيف إلى ذكرى الموت ذكرى الجريمة.

كل ليلة أرى عم سيد.. كل ليلة أرى رجلا يموت.. رجلا قد تحول إلى تراب.. فوجهه يشبه التراب وملابسه تشبه الطين، وعرقه يشبه الوحل.

إن عم سيد ميت.. فعلا.. لأن الموت ما معناه؟

الموت هو الحالة التى يصبح فيها كل شىء مستحيلا.. النظر مستحيل.. والسمع مستحيل.. والتنفس مستحيل.. والتفكير مستحيل.. ثم لا يكون زمن لا يكون يوم ولا غد ولا أمس.

وكلما ازدادت المستحيلات فى حياة إنسان ازداد اقترابه من الموت وعم سيد كل شىء عنده مستحيل..

إنه لا يتكلم ولا يدرى بأحد .. إنه يدب على الأرض.. ويدب فى الحياة.. ويدب عقربا يلسعنى كل ليلة.. إنه يطردنى من الحاضر ويرمينى فى جحيم الماضى.. فأتذكر عذاب أبى .. إن عم سيد هو المستحيل نفسه.. عاجز عن أى شىء، إلا تعذيبى..!

أدعو الله أن يريح عم سيد.. لكى أستريح..!

□□□

ثلاث نساء

-١-

على ضوء السيارات التى تمضى هامسة فى الليل. وفى داخلها ضحكات لها رنين غريب فى الساعات المبكرة من الصباح.. رأيت ملامحها.. الوجه أبيض.. والشعر أسود طويل، وجاكتة سوداء وبنطلون أسود.. وكانت تتمشى ولا تلتفت وراءها.. ولا يهمها ما يقوله الناس من نوافذ السيارات.. واقتربت منها.. فقد كنت أمشى وراءها وكانت خطواتى أوسع وأسرع.. ودنوت منها.. ولا أعرف من الذى ابتدأ بالابتسام.. وكانت يداها باردتين.. وكان الهواء بيننا أكثر برودة من يديها. وفى عصبية قالت لى: قررت أن أنتحر.. لا أمل فى شىء..

وقبل أن أسألها عن السبب قالت: تصور أننى أحبه.. أول حب فى حياتى.. ولا أستطيع أن أحب أحدًا بعد ذلك..

وفى ضوء السيارات، رأيتها جميلة.. ولم أناقش نفسى طويلا، كيف تحب هذه، وكيف يتركها أى إنسان، إذا هى أحبته.. مش فاهم. ولم أحاول أن أفهم حتى فرغت من قصتها.

ومضت تقول: لا أعرف ما الذى ضايقه.. إننى لا أطلب منه أى شىء.. لا أكلفه بأى شىء.. لقد رضيت أن أكون له أى شىء.. كل ما يريد.. أخلصت له.. حبست نفسى من أجله.. تشاجرت مع أبى لأول مرة فى حياتى.. رسبت فى الامتحان.. فسخت خطوبتى.. ولم أطلب منه أى وعد.. ولا كلمة.. أخيرًا طردنى.. كنت أركب سيارته.. ولا أعرف ما الذى حدث.. لقد ذكرت له أن صديقة لى رأته مع فتاة أخرى.. أنا أعتقد أنها قبيحة.. شكلها وحش.. وجودها إلى جواره إهانة للمقعد الذى أجلس عليه.. للسيارة التى سمعت فيها أجمل كلام ولمست أرق أصابع.. وكنت مسحورة حالمة.. ولم أتصور أنى تجاوزت حقى.. لقد صرخ فى وجهى وهددنى.. وقال إنه حر.. ولم أفهم معنى الحرية مع الحب.. ما هى الحرية عند الذين يحبون.. هل الحرية أن يحبنى وأن يفعل ما يشاء.. إذن ما هو الحب.. إذا كانت هذه هى الحرية فأين الحب؟

وإذا كان هذا هو الحب، فما معنى الحرية؟.. لم أفهم.. وهذه هى أول مرة أبكى من قلبى.. فى لحظة واحدة خسرت كل شىء.. قلبى وعقلى.. والرجل الذى كنت أحبه.. ولم أعد أساوى شيئًا.. ولذلك قررت أن أنتحر الليلة.. وأنا سعيدة بأن أجد أحدًا أقول له كلمة قبل أن أموت.. وفى حقيبتى علبة مليئة بالحبوب سأبتلعها وأموت..

وفى لحظة خاطفة.. خطفت حقيبتها ومددت يدى إلى الزجاجة.. وأخذتها.. وبأظافرها مزقت يدى.. وكأننى أحول بينها وبين الحياة، استعادت الزجاجة.. وتوقفت السيارات.. وتدخل الناس..

وسألنى واحد: تعرفها..؟

قالت: لا أنا أعرفه.. ولا هو يعرفنى..

وسألونى: ما شأنك؟

قلت: أمنعها من الموت..

قالت: بل يمنعنى من الحياة.. فلا حياة لى الآن.. وإنما حياتى هناك.. فى الماء.. فى الأرض.. فى السماء.. إنه يعترض طريقى إلى أعلى..

وكانت تدور حول نفسها.. كأنها راقصة باليه فى فرقة النجوم.. أو الشمس والنجوم.. وكأنها فوق السحاب..

ووقفت مع الناس أرقب ماذا تفعل.. والناس ينظرون ناحيتى.. وأنا أتطلع إليها.. وانسحب بعض الواقفين.. وانطلقت هى تجرى فى الظلام تحت الأشجار.. الشارع أسود.. والأشجار سوداء.. وملابسها سوداء. والزجاجة تحت قدمى.. وانحنيت عليها.. ووجدتها فارغة.. وعدت أواجه ضوضاء السيارات وحدى.. حزينا كأننى الشاب الذى طردها، بعد أن استيقظ ضميره.. وحاول أن ينقذها.. ولكنه لم يجدها.

-٢-

من أول نظرة أحبته..

إنه يختلف تمامًا عن كل الشبان الذين عرفتهم.. ليس أجملهم ولا أطولهم.. ولا أكثرهم أناقة.. ولا تنطبق عليه شروط الفتى الذى كان يرتسم فى خيالها.. إنه حاجة ثانية.. ولكنها أحبته.. لم تعد ترى فى الدنيا سواه.. لم تعد تشعر بالفارق فى السن ولا فى الدين.. ولا فى المركز.. إن هذه المسافة كلها قد ضاقت.. لم تعد هناك مسافات بينهما.. إنها مربوطة به.. زرار على صدره.. كرافتة فى رقبته.. شىء متعلق به..كل شىء فى حياتها مضبوط عليه.. فهى تطلبه فى الصباح.. وتتغدى معه وتتعشى معه.. وفى الليل تفكر فيه.. تعرف ماذا يريد منها. وماذا يريد لنفسه..

وغـاب عـنـهـا أسبوعًا.. ذهب إلى القرية.. وعـاد شيئًـا آخر.. شىء تـغير فـى ملامحه.. فى نظرته.. فى كلامه.. فى وجهه ارتياح لا تعرفه. وفى نفسه هدوء غريب.. كأنه كان مدينًا لأحد ثم دفع كل ما عليه من ديون..

وعرفت أنه تزوج.. مرة واحدة.. وبلا مقدمات.. إنه قبل سفره كان يحبها.. وكان يردد ذلك.. إنها لم تلاحظ أى تغير.. أى تبدل.. هل من الممكن أن ينجح الرجال فى إخفاء مشاعرهم إلى هذه الدرجة.. هل من الممكن أن يحب رجل فتاة، وهو فى نفس الوقت يفكر فى الزواج من فتاة أخرى؟ كيف يمكن أن ينظر رجل إلى اثنتين فى وقت واحد، ويقول نفس الكلام. ممكن.. لم تستطع أن تفهم.

إذن لقد تزوج.. أما هى فلا تعرف ما الذى تفعله بحبها.. إنها وقعت من ارتفاع هائل.. ولم تصل إلى الأرض.. بل إنها لا ترى الأرض.. أى أرض.. إنها تشعر أنها تسقط وتسقط.. ولكن المسافة بينها وبين الأرض أين هى.. إنها معلقة فى الهواء..

ولزمت البيت.. ولم تكن قادرة على أن تفعل أى شىء.. فقد كان هو الذى يقول لها: افعلى هذا.. ولا تفعلى ذاك.. كان هو الذى يأمر وينهى.. وكانت من أجله تفعل أى شىء وكل شىء..

لا أوامر.. لا كلمة لا.. ولا كلمة نعم..

لا شىء مضبوط على شىء.

وحاولت أن تنساه.. وفى يوم تأكدت أنها نسيته.. وذهبت إلى النادى..

كانت فى هذا النادى تعوم.. وكانت تراه.. وكان يراها.. ولكنها ضربت هذه الصورة - صورته - ضربتها بيديها.. كانت موجة صغيرة.. ونزلت حمام السباحة.. وقطعته بالطول وبالعرض..

وكانت سعيدة.. حقيقة.. وفلتت منها ضحكة.. ونظرت إلى مقعد فى جانب من الحمام.. وفتحت عينيها.. فلم تجده جالسا.

لقد تخيلت دقيقة أو دقيقتين أنه لايزال ينظر إليها كما كان يفعل من قبل.. وأنه هو الذى يقول لها: برافو يا كابتن..

ولم يكن هو.. وخرجت من الحمام.. لتعاود التفكير فيه من جديد..

-٣-

فجأة اقترحت عليها أن ننهض لزيارة صديق.. فأنا لم أره منذ أسبوع.

وكان ردها: لا أريد أن أقابله.. دمه تقيل..

قلت لها: إنك لم تعرفيه.. ثم إنه صديقى..

قالت: لأنه صديقك، أنت تريد منى أن أراه.. أنت تعرض أصدقاءك على كل الناس.. هل من الضرورى أن أستخف دم كل الناس الذين تستخف دمهم.. أنتم يا معشر الرجال طغاة.. تفرضون أذواقكم وآراءكم على المرأة.. على كل امرأة تربطكم أو لا تربطكم بها أية صلة.. تمامًا كأولاد البلد.. فابن البلد يرى ابنة حارته.. فيمنعها من عمل أى شىء، كأنه أخوها أو أبوها.. ويغار عليها.. مع أنه لا صلة له بها.. وأنتم جميعًا هكذا..

قلت لها: على كيفيك.. أنا اقترحت فكرة فقط.. وهى لا تعجبك.. فأنا لا أتمسك بها.. إنها فكرة عابرة.. إذن أين تذهبين؟

قالت: إلى كازينو.

قلت: ضوضاء.. ونفس الوجوه.. ونفس الموسيقى.. ولا تجديد. ممل جدًّا..

قالت: نعود إلى البيت..

قلت: البيت أولا وأخيرًا.. نجلس أمام التلفزيون.. وأتثاءب.. وتدخنين.. وأستأذن وأدخل وأنام.. وأسمعك تلعنين وأحاول ألا أسمع.. وتحدثين صوتا وأنت تغلقين التلفزيون. ثم تسعلين بعد ذلك.. وتصبح على خير.. وتصبحى.. إلخ.

وقررنا أن نعود إلى البيت.. ونام كل واحد منا فى غرفته. تذكرت أيام زمان.. لم تكن واحدة تناقشنى ولا تسألنى.. ما أريده هو بالضبط ما تريده.. ولا مناقشات.. لا وجع دماغ.. وفى الغداء نلتقى وفى العشاء نلتقى.. ومع السلامة.. كل شىء رقيق.. خفيف.. لطيف..

وفى مكتبى جاء صوتها فى التليفون.. حبيبى.. أنا آسفة لإزعاجك أمس.. إننى لم أنم..

قلت: بل أنا الذى لم ينم. وقد اقتنعت أننى كنت سخيفا معك..

قالت: أبدا.. بل لطيف.. وأنا يعجبنى الرجل الذى يفرض رأيه.. الرجل الذى يطالبنى بأن أضحى من أجله.. بأن أدوس رغباتى لخاطره.. وأنا أكره الرجل الذى يعطينى الحرية.. بل حريتى لك.. إننى بك أغنى واحدة فى الدنيا.. فأنت معك حريتك ومعك حريتى أيضا.. فأنا أعيش من حريتين معًا..

قلت: أنا آسف كان لابد أن آخذ وجهة نظرك.. لابد أن يتغير فكرى. لابد..

قالت: أبدا.. بل أحبك كما أنت.. أحب الرجل الذى يتصرف كالطفل المدلل.. الذى يفرض رغبته على ماما ثم ينام على صدرها يبكى.. حبيبى.. الليلة نلتقى ونزور صديقك.. إنه لا يمكن أن يكون ثقيل الدم، ما دام صديقك..

وأنزل سماعة التليفون.. وهو يهز رأسه فى دهشة.. ثم يهز كتفيه وهو يقول: حواء لها ألف ألف لون..!

خناقة بين نجوم السماء

الأنوار حمراء.. والظلام على شكل أشباح فى الأركان.. ولم يكن أحد يتكلم.. وإنما كنت أتحرك فى مقعدى.. أضع رجلى إلى جانب الرجل الأخرى.. كأننى أطمئن على وجودهما متربعا فوق رجلى.. ثم أعود فأضع يدى فى يدى.. وفى جيبى.. وأتمسك بشعر رأسى كأننى سأقع.. وكل هذه الحركات. عادية جدًّا.. فأنا لا أستطيع أن أقعد على بعضى.. وأصدقائى من علماء النفس يقولون: هذه بقايا طفولة.. أو يقولون: هذا هو آخر عهدك بالطفولة.. والمشتغلون بالفلسفة يقولون: قلق.. والدكاترة يقولون: مغص عام.. مغص فى بطنى وفى قلبى وفى رأسى.. وأنا أحاول أن أصيب أى مكان أجلس فيه بمغص.. فأنا أتحرك فيه.. وأتلوى.. كأننى أنا المغص الذى أصاب بطن أى مكان..

والرجل الذى نجلس فى بيته.. فى هذه الغرفة الحمراء، بأشباحها السوداء يقول: وهو يمسك لحيته الطويلة، وفى يده قلم يرسم به دوائر: اسمع يا ابنى.. أنا أمامى كل النجوم الخاصة بك.. أنت قلت لى مولود فى شهر إيه؟

فأقول: ١٨ أغسطس

ويسألنى: الساعة كام.

فأقول الساعة الخامسة صباحا.

ويسألنى: أمك اسمها إيه؟

وقلت له:

ويسألنى: وأبوك اسمه إيه؟

وقلت له أيضا..

ويعتدل فى جلسته ويقول لى: مضبوط.. النجوم التى أمامى تؤكد هذا عند زحل داخل فى الزهراء.. والزهراء عندما تكون طالعة يبقى الثور نازلا.. وعندما يكون الثور نازلا يبقى حظك فى صعود وقلبك فى هبوط والقمة تعبانة.. ليه

القمة تعبانة؛ لأن الشمس دخلت برج الأسد ويبقى برج السرطان فاضى ولما السرطان يفضى يبقى الميزان مايل..

شوف يا سيدى.. أنت متأكد أنك مولود الساعة الخامسة صباحًا! أرجوك تتأكد..

ويدى على التليفون.. وسألت عن والدتى وصحتها وكيف حالها.. وأخبارها.. وقابلت مين ورأت مين؟!!.. وفجأة: على فكرة هوه أنا مولود الساعة كام!

وكان من الطبيعى جدًا أن تندهش وتصاب بشىء من الذهول، الذى جعلنى أحس كأن الخط انقطع وأن الحرارة سحبوها، وأننى تأخرت عن دفع الاشتراك.. وأسعفت أمى قبل أن تصاب بشىء آخر غير الذهول وقلت لها: واحد دكتور بيسأل؟

وقالت: ليه؟. انت عيان؟!

قلت: أبدا مجرد سؤال علشان البطاقة الشخصية.

قالت: البطاقة ولا أنت مسافر.. أنا عارفة أنت لما تسافر تطلب البسبور.. ونبص نلاقيك اختفيت: كل مرة كده.. المرة اللى فاتت قلت أنك رايح إسكندرية لمدة أيام فسافرت إلى اليابان لمدة ثمانية شهور..

قلت: صحيح الساعة كام؟.

وعرفت بعد كلام طويل وألف يمين أننى ولدت حوالى الساعة الخامسة صباحا..

وقلت للشيخ أبو لحية طويلة وأحد علماء التنجيم المشهورين جدًا بالقاهرة الساعة الخامسة..

فقال تمام كده؟. كل شىء يدل على أنك مولود الساعة الخامسة.. أنت تعبان..

قلت: الآن.. مش قوى.. بس شوية ناموس بيدخلوا فى البنطلون وفى القميص!.

قال: تعبان من السنة الماضية.

قلت: يعنى إيه تعبان؟

قال: أصل أنا أرى الزهرة وقد دخلت فى زحل والميزان يتفرج والشمس وراء الأرض.. والقمر فى الناحية الثانية.. يبقى السنة اللى فاتت أنت كنت تعبان جدًا..

قلت أيوه..

قال: تمام.. أنت متجوز؟

قلت: لا..

قال: مش معقول!

قلت: النجوم من رأيها أننى متجوز!!

قال: أرجوك تسأل والدتك أنت مولود الساعة كام.. لأن دى مسألة مهمة جدًا.. وعندما يكون الفرق ساعة.. فإن الحظ يفرق سنوات.. وكررت له أننى مولود والساعة تدق الخامسة تماما..

وعاد يقول لى: لابد أنك متجوز..

قلت: والله أنا أعرف أنى غير متزوج..

قال: وعندك أولاد..

قلت: يعنى أعمل إيه أنا دلوقت.. يعنى حضرتك متصور أن الكواكب وهى مجموعة من الأحجار الباردة فى الفضاء وبينى وبينها ملايين الأميال تعرف فى حياتى أكثر منى..

قال: اسمع.. يبقى أنت لا تصدق الكواكب.. يبقى فى الحالة دى لا داعى لأن أرى حظك ومستقبلك..

وراح يذكر لى مجموعة من الحوادث فى حياتى.. فى السنوات العشر الماضية أذهلتنى.. والذى أدهشنى أن الرجل يذكر التواريخ – وهى تكاد تكون مضبوطة.. وأحيانا يروى الأحداث التى مرت فى حياتى، فإذا به يذكرنى.. وعندما أتذكر أجدها مضبوطة تماما..!

قلت له: معقول كلامك إلى حد كبير.. بس حكاية الزواج دى.. أرجو النظر فيها.. فربما حدث خلل فى النجوم.. فالمسألة بينى وبينها بعيدة.. فلعل أحد النجوم قد رأى أحد جيرانى أو الذين ولدوا معى وكانوا أسبق إلى العالم الخارجى فظهرت رءوسهم قبل رأسى بسنتيمتر.. تماما كما يحدث فى سباق الخيل.. فالحصان الفائز هو الذى يمد أنفه إلى الأمام ولو بسنتيمتر.. أرجوك إنها مسألة سنتيمتر.. أو ثانية قبلى أو بعدى.

وراح الرجل يهز رأسه.. وراحت صلعته.. تلمع كأنها أحد النجوم الملتهبة.. وأخذ يهز لحيته ويهرشها ويمسك القلم.. ويمسك الكرة الأرضية.. ويرسم الدوائر على الورق.. ويرتب النجوم والأبراج.. ويحمل الأسد إلى جوار العذراء، والعذراء فوق العقرب وتحتها الجدى والسرطان.. ويهز رأسه.. وكلما هز رأسه شعرت بأن النجوم مصرة على أننى متزوج من أربع سنوات.. أو خمس سنوات.. ولا أفهم ما هى المصلحة على أننى متزوج من أربع سنوات.. أو خمس سنوات.. ولا أفهم ما

هى مصلحة النجوم فى زواجى وفجأة ألقى الرجل بالورقة والقلم وقال: معك حق.. أنا أخطأت فى الحساب.. لأن العذراء عندما دخلت عليها الشمس كان الأسد فى طريقه إلى الجدى.. ولولا أن السرطان قد اعترض طريق الميزان، لرأينا الدلو صاعدا.. ومع صعود الدلو تصبح العزلة أكيدة.. فالعزلة واضحة هنا.. معك حق.. لم يحدث زواج.. ثم إن الحظ فى صعود.. وإن كانت هناك بعض المتاعب.. وشهر أكتوبر هذا ليس من الشهور الممتازة لكل مواليد برج الأسد.. النصف الأول من أكتوبر خصوصا.. ولكن بعد ذلك يصبح العالم كُله طيبا.. لكن أنا أرى أمامى أشياء غريبة أريد أن أفهمها منك..

وطلب من الحاضرين أن يفتحوا النور العادى وكأننا كنا فى رحلة حول الأرض.. وكأننا كنا نمر بالظلام المميت الذى تحدث عنه جاجارين.. ثم انتقلنا إلى النور الأزرق الذى رآه وهو ينظر إلى الشمس.. وطلب من الحاضرين أن يخرجوا.. وخرجوا.. واتجه ناحيتى وفى يده كتاب مليان أرقام.. وجداول.. وأشكال أسود وعقارب ومعيز وجرادل.. وكلها تتحكم فى مصيرى. وفى مصير كل الناس.. كيف؟ لا أعرف..

وأعطانى ورقة.. وقال: هذه الورقة تفتحها فى ١٩ أغسطس من العام القادم. أى بعد مولدى بيوم واحد.. وأكد لى أن هذا العام سيكون عظيما بإذن الله.

وخرجت وفى جيبى ورقة.. مطبقة خمس مرات.. ومفروض أن أحتفظ بها ١١ شهرا على الأقل.. أو أنساها نهائيا.. أو أمزقها الآن أو أفتحها لأرى ما فيها.

وعدت إلى البيت فى ضيق ودهشة.. فقد سمعت كلاما غريبا، ولكن لا أعرف كيف أصدقه.. فأنا لا أعرف، بصورة واضحة، العلاقة بين النجوم وبينى.. العلاقة بين الثور وحظى، بين الأسد وصحتى، بين العذراء وفلوسى، بين الجردل وعملى.. مش فاهم! ولكن الكلام الذى قاله الرجل يجعلنى أقطع بأن هناك علاقة.. تماما كما أرى رجلا وامرأة وبينهما طفل يشبه الاثنين إلى حد كبير، ومعنى ذلك بينهما علاقة.. وأنهما زوجان مثلا..

ولم أفتح الورقة.. وإنما وضعتها فى علبة صغيرة وألقيت بالعلبة بين الأوراق.. كما ألقى النبى سليمان أحد العفاريت الذى يختفى فى علبة تحت أكداس من الورق..

وتذكرت أمس أننى عندما كنت فى هونج كونج من سنتين، كنت مشغولا

بتحضير الأرواح عن طريق السلة، وقابلت أحد الصينيين الذين يحضرون الأرواح.. وعلى سبيل الاستطلاع ذهبت إليه لأتفرج.. وأنا غير مقتنع.. وليس عندى أى دليل عقلى على وجود أرواح. أو إمكان تحضيرها أو استحضارها أو دعوتها.. وكنت أقول لنفسى: إنها ظاهرة غريبة لكن ليس لها أى تفسير علمى.. فأنا رأيت أشياء غريبة جدًا فى الهند وإندونيسيا وسيلان والفيليبين وفى اليابان.. ولكن لا أعرف كيف أصدقها ولا كيف أكذبها؟.

وأمام الرجل الصينى الأصلع ذى الشارب الطويل واللحية المفتولة. وأمام عينين ضيقتين كأنهما حبتان من الخرز الأسود جلست لأرى السلة تتحرك فى الهواء وتكتب الورقة التى احتفظ بها منذ ذلك اليوم ولم أستطع أن أفتحها ولا أن أقرأ ما جاء بها.. ونسيت فى ذلك اليوم أن أطلب منه أن يحدثنى عن الحوادث التى ستصيبنى فى السنوات الخمس القادمة.. وحمدت الله أننى نسيت..

ولكن هذا الرجل الصينى حدثنى عن أشياء صادقة مائة فى المائة.. لقد ذكر لى أسماء أناس قابلتهم قبل أن ألتقى به وبعد أن التقيت به.. وحدثنى عن أناس فى القاهرة وعن أحداث ستقع لى فى شهور معينة وبتفصيلات غريبة..

وبيد مرتجفة مددت يدى إلى الورقة.. وبيد مرتجفة وضعت الورقة الأخرى.. وبسرعة فتحت الورقة لأرى ماذا سيحدث لى.. ومن الخوف الشديد لم أر شيئا.. وأحسست كأن عينى غرقتا فى الضباب.. وأننى أتساند على رموش عينى لكى أقف.. لكى أتلمس طريقى إلى الورقة.. إلى الأرقام والخطوط التى امتلأت بها!

الحمد لله.. لقد كانت مكتوبة باللغة الصينية..

وبيد مرتجفة.. كأنها تضحك من السعادة مددت يدى إلى الورقة الأخرى.. ووضعت الاثنين معا.. وبعود من الكبريت أشعلت الورقتين. لقد اشتريت راحتى ومددت قدمى فى لحظة .. وقبل أن أرى فى دخان الورق صور العفاريت والأرواح والأشباح والألوان الحمراء والعيون السوداء والصلعة اللامعة، مددت قدمى وأخمدت نيران الورقتين..!

ونظرت الى نجوم السماء وأنا لا أصدق أن هناك علاقة تربطنى بهذه الأحجار اللامعة الواقعة على مسافة ملايين الأميال منى.. وفى نفس الوقت لا أعرف كيف يمكن أن تكون هناك علاقة وكيف يستطيع هذا الرجل أو غيره أن يعرف هذه العلاقة..!

أنا فى حيرة!..

فهناك أشياء لا نهاية لها لا نعرفها.. ولا يعرفها العلم ولا تعرفها الشعوذة..!

***

وفى اليوم التالى جاء الرجل ذو اللحية وهو أكثر سعادة وقال لى: هذه المرة لا يمكن أن تنكر شيئا..

قلت: ماذا حدث.. هل رضيت النجوم عنى.. هل راجعت نفسها؟

قال: لقد قرأت لك الفنجان..

قلت: أى فنجان؟

قال: أنت أمس شربت تسعة فناجين قهوة.. قرأتها جميعا..

قلت: معقول كده.. فهناك علاقة بينى وبين القهوة.. كانت على لسانى.. اختلطت بأنفاسى.. أعطيتها مرارتى وأعطتنى حلاوتها.. وماذا قالت القهوة؟

وأخرج من جيبه ورقة.. وانتظر منى أن أقرأها ولكنى وضعتها فى جيبى.. ولم أجد أى سبب لقراءتها! فلا يمكن أن تكون الصلة التى بين القهوة تسمح بأن تعرف عنى كل شىء..

فإن أقرب الناس إلينا لا يعرفنا فهل تعرفنا القهوة؟

ولم أستطع أن أقاوم الورقة التى فى جيبى..

وازدادت دهشتى للتواريخ.. والأسماء.. والأحداث الدقيقة التى عرفتها القهوة من مجرد ملامسة الفنجان لشفتى..!

وعندما طلب أن يقرأ كفى.. مددت له يدى.. وعندما راح يسألنى عن اسم والدتى.. وعن اسم والدى وعن الساعة التى ولدت فيها.. وعن الجيب والقلب والمعدة.. لم أجد ما أقوله.. لقد كان كلاما غريبا!

لعلى قد صدقت..

أنا شخصيا سمعت، ولكن لا أستطيع أن أصدق.. فأنا أندهش فقط..!

وندمت على أننى لم آخذ ورقة هونج كونج وأذهب إلى السفارة الصينية.. أو المطعم الصينى، ليحل لى هذه الرموز.. فربما وجدت من بين تنبؤات العالم الصينى، أننى سأصاب بالجنون وأصدق قارئ الكف وضاربة الرمل..!

□ □ □

عريس فاطمة!

فاطمة فتاة عادية..

ومشكلاتها عادية.. لأنها مشكلة ملايين الفتيات فى السادسة عشرة. إنها كبرت فجأة، صدرها ارتفع، وشعرها طال، وسرحانها زاد..

وهى الآن تقف أمام المرآة تتلمس شفتيها، ولابد أنها تحلم بأصبع الشفاة. وبالقبلة من الشاب الذى تحبه. نفس القبلة التى رأتها فى أحد الأفلام.. وهى عندما ترتدى ملابسها فإنها تقفل على نفسها الباب.. وترتدى ملابسها أمام المرآة، وتطيل النظر إلى جسمها بشراهة، وفى عينيها إحساسات غريبة حالمة وجريئة أيضا.

فاطمة كبرت بسرعة.. هذا ما تقوله أمها لأبيها، عندما تجلس معه.. والأم عندما تتحدث عن ابنتها، فإنها تتحدث بخوف وفزع.. وفاطمة لا تعرف ما الذى يخيف الأم. ويجعلها تنظر الى ابنتها من بعيد. وتحسب كل حركاتها، وتراقب تصرفاتها.. وتسأل بدقة عن صديقاتها واحدة واحدة. وما الذى قالته صديقتها فلانة، وما الذى فعلته صديقتها فلانة. ومن التى كانت معها يوم عيد ميلاد أمينة ومن الذى حضر حفلة شاى كريمة..

وفاطمة تجيب عن أسئلة الأم.. وتستريح الأم إلى ما تقوله ابنتها.. وبينها وبين نفسها تحمد ربنا الذى وهبها هذه الابنة المؤدبة المهذبة التى لا تعرف للدنيا معنى.. ولا تعرف شيئا مما تعرفه الفتيات الأخريات.. وتنقل الأم هذا الكلام لزوجها.. ولصديقاتها واحدة واحدة..

فاطمة كبرت.. ولكنها مؤدبة..

ولكن فاطمة مشكلة منذ وقت طويل..

إن فاطمة مشكلة.. لأن البنت فى مجتمعنا الشرقى مشكلة.. فهى مشكلة منذ ولدت.. فهى يجب أن تكون مختلفة عن إخوتها الأولاد.. يجب أن نشعر فاطمة أنها شىء آخر، شىء مختلف عن الأولاد.. يجب أن تبتعد عنهم. أن تخاف منهم، أن تحترس لكلامهم.. أن تكون المسافة بينها وبين الناس بعيدة..

المهم أن تكون فاطمة فى عزلة..

أمها تريدها بعيدة عن الناس.. عن صاحباتها من البنات.. ألا تتأثر بالأغانى.. ألا تفكر طويلا فى الأفلام أن تنام فى اللحظة التى تدخل فيها تحت الغطاء..

لأن فاطمة مؤدبة ويجب أن تنام دون تفكير فى أى شىء آخر غير النوم. وأمها ترى أن البنت كبرت وأنها لا تعرف ما الذى يقال لها وما الذى لا يقال لها. وأختها ترى أنه يجب أن يقال لها، ولكن برفق.. وأنها وحدها هى التى تفهم فى كل الدنيا. فأختها الكبرى قد تزوجت.. وعرفت الكثير.. وأنها تستطيع أن تقول لفاطمة شيئا من أسرار الدنيا. وأنها أصبحت تعرف كل حاجة..

والأم تترك فاطمة لأختها الكبيرة..

والأخت الكبيرة تمسك فاطمة وتقول لها: اسمعى يا فاطمة.. أنت كبرت الآن.. ولابد أن تعرفى أنه سيجىء يوم تتزوجين فيه من الرجل الذى تحبينه فالزواج من غير حب هو أكبر كارثة تصيب البنت والأسرة اليوم وغدا..

وفاطمة تعرف هذا كله بالتفصيل، وتعرف أكثر من هذا..

وفاطمة تضحك فيما بينها وبين نفسها.. فالأخت الكبرى هى الأخرى تتصور أن فاطمة لا تعرف كل هذه الأسرار..!

والمشكلة التى تواجه أسرة فاطمة، هى أن فاطمة يجب أن تتزوج الرجل الذى تحبه هى، والذى تختاره هى.. كيف تختاره..؟ وكيف تحبه..؟ أين تجده..؟ وكيف..؟؟

المشكلة التى تواجه فاطمة، والتى تواجه الأسرة كلها.. أنهم جميعا عزلوها عن الواقع.. عن الدنيا.

ففاطمة يجب أن تبقى بعيدة عن الدنيا.. لأن الدنيا فظيعة، وفيها بنات يهمسن بالقصص القبيحة.. والنكت البذيئة.. وفيها أولاد.. وفاطمة يجب أن تختار لها الأسرة صديقاتها، وإذا خرجت مع صديقاتها يجب أن تتأكد الأسرة كلها أن فاطمة ذهبت لترى أحد الأفلام، فإذا عادت إلى البيت سألتها أمها عن حكاية الفيلم من أوله لآخره.. حتى تتأكد الأم أن فاطمة قد جلست فى السينما من الأول للآخر.. أى إنها لم تخرج لسبب أو لآخر.

وإذا ذهبت فاطمة لحفلة شاى.. طبعا لابد أن تكون حفلة شاى.. أو عيد ميلاد إحدى صديقاتها.. فالأم يجب أن تتأكد من الحاضرات.. وهل كان هناك أولاد وإذا كانوا فمن هم..؟ وماذا فعلوا.. ومن الذى عاكس فاطمة؟..

فالأم والأخت الكبرى والأب جميعا يختارون صديقات فاطمة. والمناسبات التى تخرج فيها فاطمة.. وفساتين فاطمة.. والعالم الذى تعيش فيه فاطمة.. والكلام الذى تسمعه والذى تقوله..

والتليفون مشكلة.. ففاطمة طبعا لا تتكلم فى التليفون.. وإذا تكلمت فإن الأم تسأل: مين يا بطة..؟

فترد بطة بأن نبيلة هى التى تتكلم.. أو أن ليلى هى التى تسأل عنها.. والأم طبعا تستدرج فاطمة حتى تجعلها تتكلم فى التليفون.. وبذلك تطمئن الأم أن ابنتها تتكلم مع واحدة من صاحباتها..

والأسرة كلها تنظر إلى فاطمة على أنها مشكلة خطيرة.. على أنها قنبلة ستنفجر فى أى لحظة.. أى كلمة تسمعها فاطمة هى عود الكبريت الذى يشعل الدنيا كلها..

إن الأسرة تخاف من فاطمة، وتخاف عليها..

إنها تخاف أن تفلت فاطمة من أيديهم، وتخاف أن تتسرب الأفكار الغريبة الى عقلها، فتقع الكارثة..

إن الأسرة خائفة.. لقد تحول جميع أفراد الأسرة إلى فئران.. وفاطمة هى القط.. وفاطمة لا تعرف أنها مخيفة.. إنها مصدر فزع ورعب لأمها وأختها وأبيها.. إن كل ما تعرفه فاطمة أنهم جميعا قد حبسوها، وسجنوها فى البيت. وبين أصدقائها.. ومنعوها من الخروج ومن التليفون.. إن فاطمة لا تتصور أن السجان يخاف من السجين.

إن فاطمة مشكلة.. فالأسرة كلها تريد أن تعلق الجرس فى رقبة القط. حتى تشعر الأسرة الخائفة بكل حركات وأفكار فاطمة.

إذن فأحسن طريقة لكى تبقى فاطمة فى الحفظ والصون، هو عزلها عن البنت الشريرة والولد الشرير..

إن فاطمة يجب أن تتحرك بحساب، وأن تتكلم بحساب، وأن تنام وتصحو وتدخل وتخرج وتلبس، وتسهر بحساب..

وأن يبقى هذا الحائط الهائل بين فاطمة وبين الناس كلهم.. وألا تتسلق فاطمة هذا الحائط..

والحائط اسمه البعد عن الناس..

ولكن فاطمة فى عزلة فعلا.. هل صحيح أن فاطمة لا تعرف كل ما تخافه الأم.. وتخافه الأخت.. والأب..؟

إن الأم لا تريد أن تتصور أن ابنتها الصغيرة السن، الكبيرة الجسم، قد عرفت أى شىء فى الدنيا.. فابنتها كما تراها طيبة خجول.. تمضى النهار كله فى القراءة.. أو فى الاستماع إلى الراديو، أو رؤية الأفلام المؤدبة، التى ليس فيها حب ولا غرام..

***

ولكن فاطمة تعرف أكثر مما تتصوره الأم.. أكثر مما تخافه الأم.. فلها صديقات، وللصديقات صديقات متزوجات.. وللصديقات المتزوجات أزواج لهم تجارب وحكايات وقصص وأساليب غريبة فى حكاية كل شىء وبصورة مثيرة.. وفاطمة تسمع كل ليلة قصة، وكل يوم شيئا جديدا مثيرا عن عالم الرجال.. وعن الذى أحب، وعن الذى تزوج، وعن الذى يخرج فى سيارة، وعن الذى تكلم فى التليفون بالساعات، وعن الذى أحب، وعن الزوجة التى لا تريد أن تلد، وعن التى ولدت.. وعن الخناقات بين الأزواج قبل وبعد الزفاف.

وتسمع فاطمة عن صديقات أكثر حرية منها.. صديقات لهن أصدقاء، وماذا يقول الأصدقاء، وماذا يفعلون.. ولماذا يفعلون هكذا..؟ وهل يكذب الرجال.. ولماذا يكذبون..؟

إنها دنيا غريبة عجيبة تعيش فيها فاطمة ليلا ونهارا.. دنيا من الأسرار التى تعرفها وتهزها وتثيرها.. بالنوم.. وعندما تسرح فيها، وتستغرق وتحلم بها عندما تنام، أو عندما تتظاهر أنها تفكر فى الامتحانات.. عالم مشحون بالقصص والروايات التى لا تنتهى كل يوم.. وكل ليلة.. وفاطمة تكبر.. وتكبر مع كل ساعة، ومع كل دقيقة، مع كل أغنية وكل فيلم، وكل صورة عارية، وكل شاب يمر أمامها ويلقى كلمة، ويرميها بنظرة.

فاطمة تكبر وتعرف كل يوم شيئا جديدا..

وتزداد مخاوف أمها.. ويزداد فزع أختها.. وأبوها يطلب الستر من الله.. ولكن فاطمة خاضعة للقيود الوهمية التى تضعها الأسرة.. إنها تمشى بين العلامات المرسومة على الأرض.. و.. والمرسومة فى الشارع وفى المدرسة.. ولكن الذى لا تعرفه الأم والأخت والأب. أن فاطمة عندها فكرة عن كل شىء.. عن كل هذه الأسرار، التى تخفيها ـ الأم ـ والتى تحدثت عنها الأخت الكبرى بحساب شديد.

وفاطمة تعرف أشياء كثيرة، لو عرفتها الأم لسقطت على الأرض عند قدمى فاطمة.. ففاطمة ليست فى عزلة.. ولا يمكن أن تعزلها الأم الجالسة فى البيت، عن

البنات فى المدرسة، وعن البنات فى التليفون، وعن القصص والأغانى.. ولا عن حب الاستطلاع الطبيعى عند كل بنت.. وعن رغبتها الأكيدة فى أن تعرف، وأن تعرف بالتفاصيل كل شىء عن الرجل. وعن الذى بين الرجل والمرأة..

***

ثم هناك مشكلة مهمة عند فاطمة..

أن فى أسرتها شبانا تعرفهم.. وهم يعرفونها.. ويترددون عليها فى البيت ويكلمونها فى التليفون.. ويقولون وينظرون ويلمحون.. وفاطمة تعرف.. وفاطمة تنجذب لهم.. وتفكر فى كلامهم. وأمها تقول لها: لا.

وأختها تقول لها: ابعدى..

وأبوها يزغر من بعيد..

ولكن فاطمة لا تعرف إلا شيئا واحدا.. إنها مبسوطة.. لأنها تثير كل هؤلاء.. أمها خائفة.. وأختها واقفة.. وأبوها فى حالة قلق، والشبان أقاربها ينتظرون..

وفاطمة هى الممثلة الوحيدة على المسرح العائم أو الغارق فى أسرتها. وهى سعيدة لأنها مركز كل هذا الاهتمام..

وفاطمة هدف لعدد كبير من العرسان..

والأسرة حائرة ماذا تعمل لهذه البنت التى كبرت..

فاطمة يجب أن تتزوج، وأن تتزوج الرجل المناسب لها.. المناسب لسنها ومركز عائلتها.. والذى لا يكون فيه عيب فى أخلاقه، أو فى أسرته. أو مركزه، ويحب فاطمة بعد ذلك.. لا قبل ذلك طبعا!

لكن ما رأى فاطمة فى هذا العريس؟ فى أى عريس؟ هل فاطمة يجب أن يكون لها رأى؟ فهى التى ستتزوجه، وهى التى ستعيش معه..

الأم من رأيها أن فاطمة صغيرة، وأن هذه الصغيرة كيف يكون لها رأى؟ وما الذى تعرفه عن الرجال ليكون لها رأى.. فالأم هى التى تختار العريس وهى تحب ابنتها طبعا.. وهى ستختار لها الزوج المناسب.

ولكن فاطمة هل يكون لها رأى؟ وكيف تقول رأيها..؟

هذه هى المشكلة..

وأخت فاطمة من رأيها أن الزواج يجب أن يكون عن حب.. وعن اقتناع الفتاة بالزوج.. وأن الأسرة يجب ألا تتدخل فى قلب الفتاة وألا تفرض عليها رأيها أو

ذوقها فى الرجال.. ففاطمة هى التى ستتزوج، فهى التى تختار، وهى التى تتحمل مسئولية اختيار رجلها..

ولكن كيف يكون لفاطمة رأى..؟

هل إذا تقدم لها عريس مثلا، يكون من حقها أن تجلس معه، وأن تراه فى أوقات كثيرة لتعرف مدى فهمه لها. ومدى إحساسها به هل هو كريم؟ هل هو بخيل؟ هل يقدر قيمة فاطمة.. هل يحبها.. هل تحبه هى..؟ وأين تراه فاطمة، وأين تجلس معه.. هل يكون ذلك فى بيتها.. وهل هذا جو طبيعى للتفاهم بين زوجين..؟ هل إذا جاء العريس إلى البيت، هل تكون أختها معها؟ وهل إذا جاءت الأخت التى ستتكلم مع العريس طوال الوقت، وفاطمة لا تتكلم، إنما ترى وتسمع وتحكم، هل سيقتنع العريس بفاطمة التى لا تتكلم؟ وهل تفهم فاطمة أى نوع من الرجال هذا؟

المشكلة: أن فاطمة يجب أن تعرف العريس عن قرب.. والمشكلة أيضا هى ما معنى.. القرب؟ هل القرب معناه أن يكون اللقاء فى البيت.. أو خارج البيت؟ وأين يكون اللقاء خارج البيت..؟

إن الأسرة تتمنى السعادة لفاطمة لاشك فى هذا..

ولكن تصرفات الأسرة لا تؤدى إلى السعادة أبدا..

فالأسرة تخاف على فاطمة.. من الرجل المجهول الذى يملأ الشوارع، ويملأ خطوط التليفون.. والذى يكتب القصص. والذى يحل المشاكل فى المجلات.. والأسرة تخاف على فاطمة من الرجل الذى يتقدم للزواج منها، ولا تحبه فاطمة، أو الذى إذا تقدم لها ولم يعجب فاطمة، يظل يطاردها فى الشوارع وفى التليفون وعند صديقاتها..

وفاطمة نفسها لاتعرف ما الذى تفعله..

***

إن كل العرسان الذين يتقدمون لها عن طريق الأسرة رجال محترمون رجال جادون.. وأصحاب مراكز وأسماء وعندهم فلوس ولكنهم رجال كبار فى السن، لا تعرفهم فاطمة ولم تسمع عنهم.. ويبدو على فاطمة أنها تستسلم لرغبات الأسرة.. ولكن الأسرة تعيسة بهذا الاستسلام.. فالأسرة لا تريد أن تفرض رأيها على فاطمة.. لا تريد أن تزوجها بالقوة.

ولكن الأسرة لا تعرف طريقة تختار بها فاطمة عريسها.. إنها فى عزلة عن

العالم لا تعرف أحدا ولا ترى أحدا.. أو على الأصح يجب ألا تعرف أحدا، وألا ترى أحدا. وفاطمة لا يمكن أن تتزوج إلا الشاب الذى تحبه..

ولكن أين تجد فاطمة هذا الشاب.. إن هذا الشاب هو الذى يجدها. هو وحده الذى يعرف الطريق إليها.. إنه فى سنها.. يعرف الطريق إلى قلوب الفتيات الصغيرات.. إنه يعرف الطريق وهو يستخدم الأساليب التى تعجب الفتيات الصغيرات.. وهو وحده الذى يعاكس فاطمة بالجوابات بالتليفونات، ويكفى صوته المبحوح.. وتكفى آهاته.. وتكفى الحكايات التى ترويها صديقات فاطمة عنه.. عن وقوفه فى الشوارع بالساعات.. عن انشغاله عن المذاكرة، عن امتناعه عن الطعام، عن مرضه.. كل هذا من أجل فاطمة.. وكل هذا يهز قلبها ويفتحه..

وفاطمة لا تعرف ما الذى تفعله بعد ذلك..؟

هل تخبر أمها وأختها عن هذا الشاب.. إنها تخاف من الكارثة إذا اعترفت بأنها مشغولة بشاب.. ففاطمة قد عاشت فى القيود، وفى العزلة التى صنعها الأب والأم والأخت..

ولكن هذا الشاب هو الذى يعجب فاطمة، وهو الذى يملأ أحلامها وخيالها.. وهو الذى تتخيله عندما تتلمس بأصابعها شفتيها، وعندما ترفع صدرها. وعندما تقف أمام المرآة بالساعات ترتدى ملابسها.. وعندما تتخيل أنها تضع ذراعها فى ذراعه..

إن فاطمة قد اختارت بطلها، وأمها لا تعرف..

قد اختارت زوجها الذى تتمناه وأختها لا تعرف..

ثم يجىء عريس.. هو ابن أحد أصدقاء والدها.. إنه رجل يكبرها بعشرين عامًا. العريس فيه كل المزايا.. ابن ناس ولا يدخن ولا يرقص وله مستقبل..

والأب يعرفه.. والأم تقابله.. وفاطمة لا تعرفه.. ولابد أن تقابله.. وتقابله.. ولا تشعر نحوه بأى شىء إلا أنه فى سن والدها.. وإلا أنه ابن أحد أصدقاء والدها. وتحس فاطمة أن هذا الرجل جاء يغتصب خيالها وأحلامها.. جاء يطردها من جنتها التى صنعتها بإرادتها. وتحت ضغط أمها وأختها وأبيها..

إن فاطمة لا يمكن أن تحبه.. وهذه مشكلتها..

وهى أيضًا مشكلة أسرتها.. التى لا تريد أن تفرض عليها رجلا لا يناسبها ولا تحبه.. وأن فاطمة تفكر فى شاب آخر تحبه..

فأمها تفرض عليها الرجل الذى لا تحبه..

وفاطمة تخفى عن أمها الشاب الذى تحبه..

وأمها تستطيع أن تفرض عليها هذا الزوج.. والأم تنجح عادة قبل الزواج.. فالأم تختار لابنتها تعاستها.. وهى فى الحقيقة تريد أن تسعدها..

ولكن الأم تفضل أن تزوج ابنتها من رجل لا تعرفه ابنتها، على أن تزوجها من رجل تعرفه ابنتها..!

***

مسكينة فاطمة.. إنها تتزوج الذى لا تحبه، وتحب الذى لا تتزوجه.. وإن أمها هى مصدر تعاستها..

فاطمة.. أو كل فتاة فى السادسة عشرة لا ترى أن الدنيا مخيفة بهذا الشكل..

لا أحد يأكل أحدًا فى الطريق.. إنها اقتربت من الشبان.. فى الشارع، وفى السينما، وفى النادى.. ولكنها لم تر شيئًا غير عادى.. إن نظرات الشبان فقط هى الغريبة.. هناك نظرات جريئة. تريد أن تمزق ملابسها.. وهناك نظرات تريد أن تبتلعها.. لماذا..؟ وأحيانًا تلاحظ أن هؤلاء الشبان ينظرون إلى صدرها وأحيانًا إلى شفتيها.. ومعظم الوقت ينظرون وراءها عندما تبتعد عنهم.. ينظرون إلى ساقيها..

وكل الشبان نظراتهم لا تخرج عن الدهشة عند رؤيتها.. أو عن الهيام بها.. أو عن التساؤل أو التسول..

وتلاحظ فاطمة أن الشبان عندما يكونون وحدهم، فإنها ترى فى عيونهم شيئًا من الخجل أو شيئًا من الحيرة. ربما كان هؤلاء الشبان أكثر خجلا منها.

ولكن عندما يكون الشبان فى شلل فإنهم يكونون أقسى.. وتكون عيونهم أجرأ.. وأحيانًا أيديهم.. إنهم كالذئاب لا يهاجمون قطعان الأغنام إلا على هيئة جماعات.. الواحد وراء الآخر..

وهؤلاء الذئاب الصغار ينظرون ويقرصون.. ولهم ألفاظ غريبة.. جريئة أجرأ من اليد أو العين.. وبعض هذه الألفاظ توجع ولكنها لا تجرح.. فكلها غزل فى عينيها.. وفى بشرتها.. وفى ساقيها.. وفى أصابع يديها.. وفى صوتها..

كلمات تبقى فى أذن فاطمة كثيرًا.. تتذكرها وهى فى الطريق إلى البيت.. وهى وحدها فى فراشها.. وهى مع أسرتها على المائدة.. وأحيانًا عندما تشاجرت معها أمها وطلبت إليها أن تسوى شعرها المنكوش على جبينها.

ثارت فاطمة، ولكنها لم تقل لأمها شيئًا، وإنما فى نفسها كانت تقول: ولكن الشبان يقولون إننى أشبه انجريد برجمان.. أنفى وعيناى..

وعندما تقسو عليها أمها وتمتد يدها إليها، تتذكر فاطمة أن أمها كبرت.. وأن أمها تغار منها.. فأمها تصبغ شعرها الأبيض.. وتسوى شعرها الخشن بصعوبة.. وأمها كسول لا تتردد على الكوافير إلا مرة كل أسبوع.. وهى لذلك لا تحب أن ترى فاطمة وقد تدلى شعرها على جبينها بهذه الصورة الجميلة.. كل الشبان يدركون أن شعرها جميل.. وأن بشرتها أروع من شعرها.. وأنها جميلة.. أجمل فتاة فى الشارع كله.. وفاطمة لا تنسى الشاب الذى قابلها فى الأسانسير.. وقال لها إنها أجمل فتاة فى الدنيا كلها.. ولا تنسى أن الأسانسير كان مليئًا بالناس.. ولكنه لم يستطع أن يكتم إعجابه..

وكل يوم تسألها أمها: مين اللى كان ماشى وراك يا فاطمة؟

وتجيب فاطمة: أنا لم أره!.. وفعلا فاطمة لم تره..

لكن من المؤكد أن فاطمة فى كل مرة تمشى فى الشارع ستنظر وراءها وتحس أن هناك شبانا يمشون وراءها.. وأن أمها ترقبها من بعيد.. وشعور فاطمة خليط من الخوف والسرور..

فهى تخاف من الشبان.. وتخاف من أمها.. ولكن لا يضايقها أن يمشى وراءها مليون شاب.. وعلى لسان كل واحد كلمة أو مليون كلمة.. وكل هذه الكلمات تمدحها وتقيم لشعرها وقوامها حفلات تكريم لا تنتهى..

وأم فاطمة تحكى لها كل يوم قصة عن فلانة بنت علانة التى كانت تركب الأتوبيس وحاول أحد الشبان أن يقترب منها وكيف أن هذه الفتاة نظرت إليه باحتقار.. ولكن هذا الشاب لم يتراجع واستغل خوف هذه الفتاة من الفضيحة ووقف وراءها.. وعندما وقف الأتوبيس ارتمى عليها.. فما كان من هذه الفتاة إلا أن صفعته على وجهه..

تقول الأم هذه الحادثة والدم فى وجهها والانفعال يهز يدها.. ويعصر نقطتين من العرق على وجهها.. وتتطلع الأم إلى فاطمة لترى أثر هذه المأساة الأليمة.. ولكن فاطمة لا تتأثر.. ولا تتحمس كأنها استمعت إلى هذه القصة ألف مرة..

وتندهش الأم من برود فاطمة.. وتسألها: أنت كنت فين؟

فتقول فاطمة: أنا سامعة كل حاجة يا ماما..

وتقول أمها: أمال يعنى مش باين عليك..

وترد فاطمة: يعنى أعمل إيه يا ماما.. أروح أضرب الشاب ده.. أعمل إيه.. أصرخ.. برافو عليها اللى ضربته بإيدها وبرجلها..

***

وتتظاهر أمها بالسعادة من الحماسة الفاترة التى بدت على ابنتها.. ولكنها تغلى وتحترق من الداخل.. فابنتها لم يعد هناك ما يهزها أو يثيرها.. فابنتها غامضة.. لغز.. ابنتها تخفى عليها كل شىء.. إن ابنتها لم تعد تروى لها ما يحدث لها.. لقد كبرت فاطمة.. إنها تقفل الباب على نفسها.. إذا دخلت غرفتها.. وأحيانًا تقفله بالمفتاح.. أوراقها وصورها فى دولاب.. أما دنياها فهى.. أن تستمتع بهدوئها.. أن تحس بأن لها عالمًا لا يدخله أحد سواها.. كل شىء تخفيه فى دولاب وتقفله بالمفتاح.. وأوراقها فى دولاب وصورها وصور نجوم السينما.. وقصص من المجلات والصحف.. وكلمات تكتبها وتحتفظ بها.. كل ذلك تضعه فى الدولاب وتقفله بالمفتاح.. وغرفتها مقفلة بالمفتاح..

إن أمها تتمنى أن تضع ابنتها فى دولاب.. إن أمها تتمنى أن تجعل لعينى ابنتها مفتاحا.. ولعقلها مفتاحا.. ولقلبها مفتاحا..

وبذلك تضمن الأم ألا يدخل حياة ابنتها شىء أو أحد لا تعرفه..

ولكن الأم بدأت تشعر بالحيرة وبالخوف.. فابنتها كبرت.. ولم تعد تخاف من شىء.. بل يبدو أنها تعرف كل شىء.. وأحيانًا يبدو أن ابنتها لا تصدق ما تقوله الأم.. أو أن كلام الأم يبدو سخيفا فارغا..

إن الأم فى حيرة من أمر ابنتها..

والأم لا تذكر أبدا أنها عندما كانت فى سن فاطمة كانت تتصرف هكذا.. إنها كانت أبسط.. وكانت تطيع أمها وتطيع والدها.. ولم تكن تعرف عن الدنيا أى شىء.. إنها لم تر زوجها.. زوجها هذا إلا قبل عقد القران بيوم واحد.. ورأته صدفة عند البقال.. فقد فوجئت برجل يقف أمام التليفون وطلب رقما.. وكان هذا الرقم هو بيتها.. واندهشت عندما سمعته يتكلم ويقول إنه فلان.. وهذا الفلان هو زوجها المقبل.

وشعرت الأم بفزع.. وهربت..

وكان هذا هو أول لقاء لزوجها.. وكل ما لاحظته على الزوج.. أنه أقصر مما كانت تتصور.. وأنه أبيض.. وكانت تتخيله أسمر.. وأنه بلا شارب.. وهو لا يدخن..

وهى تحب رائحة السجائر.. وكانت تدخن السجائر خلسة فى المطبخ.. ولاحظت أن حذاءه لم يكن نظيفًا.. وأن كم القميص كان أصفر قليلا.. ولاحظت شيئًا ضايقها جدًا وهو أن عريسها المقبل كان يلعب بأصابعه فى أنفه.. وبينها وبين نفسها قالت: إنه فلاح..!

ثم تجرأت على عريسها المقبل وقالت فى نفسها: طبعًا فلاح.. إن الخاتم الذى يضعه فى أصبعه ضخم وفيه فص أزرق كبير.. فلاح.. ولكن أسنانه نظيفة.. وأظافره نظيفة أيضًا..

وهذه القصة لم تروها الأم لأحد.. ولا حتى لابنتها الأولى التى كبرت وتزوجت وعندها أولاد.. إن الأم حريصة على أن تبدو جادة «حشمة» أمام بناتها.. وخصوصًا فاطمة هذه.. لأن فاطمة نوع آخر من البنات.. فهى جميلة.. طويلة.. وعودها نحيف.. شقراء.. وعيناها عسليتان.. وصوتها جميل.. وبشرتها ناعمة.. وهادئة.. أميرة وطيبة جدًا.. وأمها تخاف عليها من طيبتها.. فالطيبة كالزجاج.. تجعل البنت تبدو شفافة صافية.. ولكنها قابلة للكسر.. وقابلة لأن تتأثر بأى إنسان.. تمامًا كالكوب الزجاجى.. يتلون بلون السائل الذى تضعه فيه.. وفاطمة مدللة أيضًا.. لأنها أصغر البنات.. ولأن أمها قد تعبت فى ولادتها. ولأن فاطمة مرضت كثيرًا وهى صغيرة.. ففاطمة لها مكانة خاصة عند أمها.. وأمها لا تريدها أن تكون موظفة فهى تخاف عليها من الناس.. وهى تخاف عليها من الشبان.. تخاف عليها من شبان العيلة.. وشبان الجيران.. وشبان الشارع.. وهى تريد أن تجد لها العريس الذى يناسبها.. وقد لمحت الأم لابنتها عن العريس.. ولكن فاطمة لا ترد.. وإذا ردت فإنها تقول: اللى تشوفيه يا ماما..

***

ولا شىء يضايق أمها ويوجع قلبها غير هذه العبارة.. إن أمها فى حيرة عميقة.. فهى لا تريد أن تختار عريس ابنتها.. وهى لا تريد أن تختار ابنتها عريسها.. وإنما تريد أن تصل إلى حل وسط صعب.. وهو أن العريس الذى تختاره الأم تختاره فاطمة أيضًا..

وهذه هى الصعوبة..

ولكن الأم لا تيأس.. فهى تحاول أن توفق بين قلبها وعقلها.. أو بين عقلها وقلب فاطمة..

فالأم تلاحظ أن الشبان الصغار هم الذين يعجبون فاطمة.. وأن الرجال لايعجبون فاطمة..

ففاطمة صغيرة.. وهى تستريح إلى أختها التى تكبرها.. فأختها الكبرى قد تزوجت منذ خمس سنوات.. وهى صديقتها.. وقد روت لها الكثير من أسرار الزواج.. وماذا قال لها زوجها.. وكيف قال لها لأول مرة: أحبك..

إن فاطمة تحب هى الأخرى أن تسمع هذه القصة من أختها ألف مرة وتحلم باليوم الذى تسمع فيه هذه الكلمة من الرجل الذى تختاره هى..

وتحاول الأخت الكبرى أن «تعقل» فاطمة.. أن تشد فاطمة إلى الأرض..أن تجعلها واقعية قليلا..

ففاطمة تصارح أختها: أنا لا أريد أن أتزوج الآن.. لماذا تصرون على أن أتزوج.. هل أنا ثقيلة عليكم لهذه الدرجة.. هل أنا فضيحة.. هل أنا عار على الأسرة كلها..؟ أنا سأتوظف.. لابد أن أكمل تعليمى لكى أعيش بمفردى.. لكى آكل لقمتى بيدى.. لن أطلب مليمًا من أحد.. سأتزوج الرجل الذى يعجبنى.. وإلا فسأتزوج الرجل الذى يعجبكم وأقرف عيشته وأعود إلى البيت لكى أنكد عليكم كلكم..

وتقول أختها الكبرى: ولكنى لست مثلهم.. أنا أختك.. وأنا صديقتك.. وأنا كنت مثلك بالضبط.. كنت أحلم وأتخيل.. وأتصور العربيات الفخمة والقصور والفساتين الحرير.. والموسيقى والرقص.. وكنت أقول لنفسى إن أى بيت فى الدنيا هو أجمل من بيتنا.. وإننى أستطيع أن أسعد أى رجل أتزوجه.. إننى قادرة على تحويل أى إنسان من ذئب إلى قط.. ومن قط إلى أرنب.. وإننى أستطيع أن أحول الأرنب إلى ذئب.. وإننى أستطيع أن أحول الزوج اليتيم إلى زوج من عيلة.. وأن أكون أمه وأخته وزوجته وحبيبته وابنته.. أنا كنت أردد هذا الكلام لنفسى ليلا ونهارًا.. وكان أملى أن أهرب من بيتنا بأى طريقة.. فأنا أحب ماما.. ولكن ماما كانت تقيدنى.. وكانت تسألنى رايحة فين وجاية منين..؟

وتقول فاطمة: إن ماما لا تسألنى مثلك.. إن ماما لا تريد أن أخرج ولا أن أتحرك.. إنك كنت أحسن حالا منى.. إن ماما كانت تعطيك فلوسا أكثر.. وكانت فساتينك أشيك وأغلى.. وكانت لا تقبل من أى إنسان أن يكلمك.. لكن أنا..

وتبكى فاطمة.. ولكن الأخت الكبرى لا تيأس..

وكل يوم تحكى لفاطمة قصصا عن الكارثة التى تصيب البنت الغارقة فى الأحلام..

فكل فتاة تعيش فى أحلام ذهبية وردية.. هى التى تكون كارثتها أكبر وأعنف.. وأختها لا تريد أن تقصقص الريش الذى تطير به فاطمة، ولكن أن تنبهها من حين إلى حين إلى أن الواقع شيء مختلف.. وأن الرجل الذى تحلم به فاطمة لن تجده أبدًا..

وتضرب الأخت الكبرى أمثلة كثيرة على ما تقول: فابن الدكتور عباس جارهم.. شاب فى الثامنة والعشرين.. شكله جميل.. وشعره أسود. وله شارب.. ورياضى.. وكل البنات بتموت فيه.. ولكن هذا الشاب خدع أكثر من فتاة ووعدهن بالزواج وهرب.. وهو إلى جانب ذلك يدخن الحشيش.. وفى العام الماضى سرق ساعة والدته وباعها.. ونبيل ابن المهندس علوان.. تلميذ لم يكمل تعليمه.. وهو ابن ناس.. ولطيف.. ويرقص، ورياضى.. وهو فى نفس الوقت تلميذ مجتهد ولكنه صغير فى السن.. إنه فى العشرين من عمره.. أى إنه لايزال صغيرًا.. فعشرون سنة بالنسبة للرجال سن صغيرة.. وإن كانت بالنسبة للبنات سنًّا كبيرة. فنبيل هذا فيه كل المزايا.. أبوه غنى.. أمه غنية.. ومن عيلة.. ولا يدخن ولا يشرب الخمر.. وليست له صديقات.. ولم يخدع أحدا.. وله مستقبل .. ومتزن.. وقد عاش.. وعرف.. ويريد أن يستقر.. وهو وحده الذى يعرف قيمة فاطمة.. لأنه صديق العائلة.. ولأنه صديق الأب.. ويعجب الأم.. وأهله كلهم من أحسن العائلات فى الإسكندرية.. وهذا الفارق فى السن لاشك أنه لصالح البنت.. فكلما كان هناك فارق فى السن.. كان هناك فارق فى التجارب.. وفؤاد أكبر من فاطمة بحوالى ١٥ عامًا.. ولكنه فارق معقول.. وفارق تحتمه الظروف الاجتماعية والاقتصادية.. فهو فرغ من تعليمه فى السادسة والعشرين.. وراح ينتقل من بلد إلى بلد. ثم سافر إلى أوروبا ليكمل تعليمه.. وعاد ليشغل هذا المنصب الهام.. وعندما رأى الدنيا بوضوح أراد أن يستقر. وهو من وقت طويل كان ينظر إلى فاطمة.. ويتمنى لو أنها قبلته زوجا.. وكان يخشى دائمًا من فارق السن.. ولكن عيلة فاطمة ترى أن هذا الفارق ليس مانعًا.. فهل عند فاطمة مانع..؟

وتكتشف الأسرة فجأة حقائق غريبة..

وتحت مخدة فاطمة توجد خطابات.. وفى دولاب فاطمة الذى نسيت أن تقفله توجد صور وأرقام تليفونات..

أما الأم فلا تدرى ماذا تفعل.. وتلقى باللوم كله على الأخت الكبرى.. التى صورت لهم جميعًا أنها استطاعت أن تضع فاطمة فى جيبها.. أما الأب فلا يستطيع أحد أن يروى له شيئًا مما حدث..

وأما فاطمة فعندها أشياء كثيرة تقولها..

لا يمكن أن تتصور الحيرة التى أصابت أم فاطمة.. إنها كالتى لفت حول رقبتها سلكا كهربائيا.. أو كالتى دخلت أحد الأكشاك الكهربائية.. فهى ممصوصة.. محروقة.. والدموع عاجزة عن إطفاء نارها.. والدموع تسد الطريق إلى قراءة هذه الحكايات التى فى لون أوراق الشجر الذابل. وفى لون أوراق الورد.. وكثيرة.. على شكل قلب.. وصغيرة فى حجم تذاكر الترام.. وتذاكر السينما.. وملفوفة بأشرطة حمراء.. ومشدودة بالبنس..

إن أم فاطمة قد سقطت فى كوم قش.. أو سقط فوقها كوم قش.. فكل قشاية عليها كلمة وعليها علامة استفهام.. وعليها بقعة.. قطرة عرق.. أو دمعة.. أو لمسة عطر.. إن أم فاطمة تحت كوم من الكلمات تحت قاموس على هيئة جبل.. أو جبل على هيئة قاموس.. وهى لا تريد ولا تريد أن تعرف كلمة السر.. إنها «حجر رشيد» الذى اكتشفه شامبليون واكتشف معه لغة الفراعنة لأول مرة فى التاريخ.. وأم فاطمة أمام ألوف الكلمات التى تؤدى كلها إلى العالم المسحور الذى تعيش فيه فاطمة.. عالم من الهمس فى التليفون وسيارات المدرسة.. والسينما. ووجع السنان.. والتبويز.. والامتناع عن الطعام.. وشموع أعياد الميلاد التى لاتنتهى..

كيف وصلت كل هذه الخطابات إلى فاطمة..؟

وكيف تركتها فاطمة؟ هل هى تعمدت أن تتركها؟ ولماذا؟ ليس من المعقول أن تجازف فاطمة وتترك كل هذه الخطابات.. إنها ليست جريئة إلى هذه الدرجة؟ إن فاطمة مؤدبة.. وبنت ناس.. وأمها طيبة وأبوها رجل طيب.. وأمها تصلى وتدعو لها.. مستحيل.. أن يحدث هذا كله من فاطمة..

مصعوقة أم فاطمة.. دايخة.. مذهولة.. لا تعرف ماذا تفعل؟ هل تنادى أختها الكبرى.. هل تعرض الكارثة على زوجها؟ إن زوجها لا شأن له بفاطمة.. إنه لا يعرفها.. إنه يراها ساعة فى اليوم أو أقل من ساعة.. ويراها حلوة طيبة.. ويرى لهفتها على وجهها وفى عينيها.. ولا يسمع منها إلا كلمة: يا بابا..

حلوة فاطمة.. وكلما رآها أبوها.. أدرك أن أمها قاسية عليها.. ولكن أمها تجد الأسباب دائمًا.. وتجد القصص دائمًا.. وهو لا يسمع عن فاطمة إلا أنها لا تكف عن الخناق.. وإلا أنها اعتكفت فى غرفتها.. وإلا أنها خرجت.. وإلا أنها سرحانة.. وأن حالها لا يعجب الأم ولا الأخت الكبرى.. ولكن الأب لا يعرف فاطمة.. لا يعرف

من هى.. ولا متاعبها، ولا مشاكلها، ولم يحاول أن يقترب منها، ولم يحاول أن يكون صديقها.. ولا حتى أن يكون والدها!

ليس عنده وقت.. ثم إن هذه المشكلة متروكة لأمها..

فالأم هى وحدها المسئولة عن فاطمة ومشاكل فاطمة.. وهى وحدها التى يجب أن تواجه فاطمة وأن تخرج من كارثة الجوابات التى وجدتها.. والتى لم تستطع أن تعرف عدد هذه الجوابات ذات اللون الأزرق والأحمر والأبيض.. والمرسوم عليها قلوب وسهام.. وعلامات كثيرة مثل هذه.. ولم تستطع أن تقرأ الكلام المكتوب بالرصاص فى هوامش الجوابات.. لقد رأت الأم كلمات بالرصاص.. تقول: رغم أنف الجميع.. مهما فعلوا.. حتى الموت..!

إن فاطمة تتحدى.. تتحدى..!

إن المسألة وصلت إلى درجة التحدى.. إن فاطمة قد قررت أن تقف فى مواجهة العائلة كلها..

إن فاطمة قد اتخذت قرارا..

ولكن الأم تعود فتفكر فى أن هذه الخطابات من الممكن أن تكون خطابات إحدى صديقاتها.. فليس فى الخطابات كلها كلمة واحدة تشير إلى اسم فاطمة.. ولا فيفى.. ولا فافا.. ولا فوفو.. ولا كلمة.. وليس للخطابات بداية ولا نهاية.. ولا أرقام صفحات ولا تواريخ..

فأم فاطمة لا تستبعد أن تكون هذه خطابات إحدى صديقات فاطمة.. ولابد أن إحدى الصديقات قد أخفت هذه الخطابات عند فاطمة.. خوفًا من الأب والإخوة.. ولكن لابد أن فاطمة هى الأخرى قد قرأت هذه الخطابات.. كارثة.. ولابد أن صاحبة الخطابات قد روت لفاطمة قصة كل خطاب.. وكيف جاءها.. ومن الذى بعث به.. وكيف أرسل لها هذا الخطاب فكل الخطابات باليد.. ولا يوجد خطاب واحد بالبريد.. ولابد أن فاطمة قد عرفت أسرار هذه الخطابات.. ولابد أن قلبها يتمزق لأن أحدا لم يكتب لها.. ولابد أنها تغار من صديقاتها.. مع أنها أجمل منهن جميعًا..

ولكن الأم تؤكد لنفسها أن فاطمة أجمل وأفضل أيضا. وأن الأهل والبيئة ودعاء الوالدين.. كلها تمنع فاطمة من أن تفكر فى هذه الخطابات وفى أصحاب هذه الخطابات.. مستحيل.. إن فاطمة عاقلة.. والناس كلهم يمدحون فى أخلاقها.. حتى صديقاتها يقلن إن فاطمة مختلفة عنهن.. وإنها جادة.. وإنها كالرجل

تمامًا.. وإن البنات تخاف منها.. ولا شك أن هذه الفكرة تسعد الأم.. لولا أنها تقرأ فى أحد هذه الخطابات هذه العبارة بوضوح.. وتحت العبارة خط أحمر.. أحمر غليظ.. وهو فى نفس لون أحمر الشفايف.. الذى تستخدمه الأخت الكبرى.. والذى استخدمته فاطمة مرة واحدة فى عيد ميلاد إحدى صديقاتها.. أما العبارة فتقول: أفكر فى الانتحار.. لا أعرف لماذا؟ لم أفكر فيه طوال عمرى.. لا أعرف لماذا عندما يحب الإنسان.. يفكر فى أن يموت وأن يترك هذا العالم الذى فيه أعز الناس عليه..؟ هذه الفكرة غريبة.. وهى مسيطرة على حياتى كلها..

ولا تفهم الأم معنى هذه العبارة..

وتعود تقرأ خطابا آخر يقول: حتى عندما تقفلين التليفون فى وجهى.. فأنا سعيد.. إن صوتك أتخيله.. إن أذنى قادرة على أن تسمع أنفاسك.. إن صوت أمك وهو يشتمنى يسعدنى أيضًا.. هل تعرفين أن صوت ماما فيه شبه كبير جدا من صوتك.. حتى إذا لم يكن هناك شبه.. يكفى أنها أمك.. فأنت وهى لا تنفصلان.. هى الألف والميم وأنت الكاف الذى يجىء بعد ذلك.. أم لا..؟

وتنزل دمعة على خد الأم..

وتقلب فى الخطابات ويدها ترتعش.. إن الأم تريد أن تعرف.. وتخشى أن تعرف.. تريد أن تعرف.. الذى يشغل ابنتها.. ما الذى يجعلها تطفئ النور عندما تنام.. ثم تعود فتشعل النور حتى الصباح؟ ما الذى يباعد بينها وبين ابنتها؟ من هذا الذى يفكر لها..؟ من هذا الذى يلقن فاطمة كل هذه الكلمات الغريبة..؟ إن أمها تتذكر أنها طلبت من فاطمة أن ترتدى فستانا أوسع من الفستان الذى تخرج به.. وقالت الأم لفاطمة: يا حبيبتى هذا الفستان يناسب البنات الكبار..

وكان رد فاطمة: ما معنى الكبار..؟

وقالت الأم: البنات المتزوجات يا ست فاطمة.

وقالت فاطمة: هناك بنات متزوجات وأصغر منى – وهناك بنات غير متزوجات وأكبر منك..

ولم يعجب الأم هذا الرد.. فعادت تقول: لما تتجوزى يا ست فاطمة إبقى إلبسى اللى يعجب جوزك..!

وردت فاطمة: مافيش واحدة بتلبس اللى يعجب جوزها.. الواحدة بتلبس اللى يعجبها هيه.. إنت بتلبسى اللى يعجبك إنت.. علشان بابا ما بيعرفش فى الحاجات بتاعة الستات.. وأنا مش صغيرة..!

لم تنس الأم هذا الكلام.. وحاولت أن تنساه.. ولكن عندما قالت فاطمة، كان رد الأم وهى تدارى خجلها فى فرحتها الكاذبة: كبرت يا فاطمة وبتعرفى تتكلمى.. وبتعرفى تزعلى من ماما كمان.. ولسه..

واحتضنت فاطمة.. وبكت الأم.. بكت من قلبها.. خوفا على فاطمة.. وخوفا منها أيضًا..!

.. إن فاطمة الآن لها كلمات غريبة.. ولها إشارات بيديها وأحيانًا بشفتيها.. وكل هذه أشياء جديدة على الأم.. ولابد أن هناك أحدا يعلم فاطمة هذه الحركات.. فالبنت عندما تحب فإنها تقلد حركات الرجل الذى تحبه.. إن أى أم تستطيع أن تضبط العلاقة بين أية فتاة وأى شاب.. من مجرد التشابه فى الحركات.. حركات اليدين والوجه..

وأم فاطمة تعلم جيدا أنها الآن تشبه زوجها.. فى كل شىء.. لدرجة أن بعض الناس يؤكد أنهما أقارب.. مع أنهما ليسا كذلك.. لقد تقارب الاثنان فى كل شىء.. حتى أصبحت معالم الوجه واحدة تمامًا.. وهذا يحدث بالضبط عندما يتقارب اثنان.. والحب هو أعظم مصور فوتوغرافى.. وأعظم رسام.. وأعظم مخرج.. وأعظم ملحن.. وهو يقرب دائمًا بين الطرفين.. كل هذا تعرفه أم فاطمة.. وكل هذا يوجع قلبها..

وخطاب آخر قرأته الأم مرة ومرة.. وفى كل مرة تقول الأم: مش معقول.. بنتى؟ إننى لا أصدق..! مستحيل..! لا يمكن..! إننى لم أعرف شيئا عن هذا.. ولا فى الأحلام.. الله يجازى ولاد الحرام.. يا ساتر يا رب..

والخطاب الذى أفزع الأم وأبكاها وجعلها تركع على قدميها وتقول: حرام عليك يا بنتى.. أبوك رجل محترم.. وأمك غلبانة.. عندها القلب يا فاطمة.. يا فضيحتنا يا بنتى...

والخطاب يقول «حبيبتى..

... هذه النقط هى دموع الأم..

«حبيبتى.. قالت لى ف.. كل شىء.. وأنا كنت أفضل أن أسمع هذا منك.. كما تعودت أن أسمع منك كل شىء.. إن اليوم الذى لا أسمعك فيه هو يوم لم يمر .. يوم مؤجل.. ومن حقى أن أطلبه.. فأنا أكره الحياة بالتأجيل.. حياتى كلها: فورا.. أقبض نصيبى يوما بيوم.. أنا كده.. أبى تاجر.. وكلنا تجار.. ولا نعرف الشكك.. رجل غنى عنده أرض.. وأبوك تعود على الانتظار.. إنه يجمع أمواله من السنة

للسنة.. أما أنا فيوم بيوم.. وساعة بساعة.. ومكالمة بمكالمة.. وقبلة منك بألف .. من.. ولم تستطع أم فاطمة أن تكمل قراءة هذا الخطاب..

وقد كان الخطاب موجها إلى: حبيبتى ن..

ولكن الأم فى اضطرابها ودموعها وغيظها وعارها قرأت «ن» على أنها «ف» أى فاطمة..

وفتحت الأم حزمة من الورق كلها منشورة فى المجلات وكلها عن الحب.. والحب.. والخيانة.. والحب.. والقبلات.. وهناك كلمات موضوعة فى براويز.. كلمات مثل: الحب أول الطريق الذى ينتهى بالزواج.. والقبلة رشوة لابد من دفعها لكى تصل إلى باب المأذون.. والزواج كالطعام المسلوق صحى، ولكن لا طعم له.. والزواج نصف الدين والطلاق هو النصف الآخر.. إذا كان الزواج من فضة فالعزوبية من ذهب.. وإذا كانت العزوبية من نار، فالزواج من نار وحديد.. أمل كل رجل ألا يتزوج وأمل كل بنت أن تتزوج.. لا حياة بغير حب، ولا حب بغير زواج.. الزواج ولو يوم واحد بعد ذلك..

ولاحظت الأم أن هناك كلمة غريبة فى نهاية هذه الجملة الأخيرة.. ويبدو أن هذه الكلمة هى: أى حاجة.. أو الحياة.. أو الحرية.. أو لا يهمك..

ووجدت الأم مجموعة من القصص.. وعددًا كبيراَ من صور نجوم السينما.. وغطيان زجاجات البيرة.. وعلب الكبريت.. وبعض السجائر.. وأعواد الكبريت.. ومناديل صغيرة.. ولا يبدو أنها رجالى أو حريمى.. ووجدت أرقامًا لم تفهمها..

ثم وجدت أخيرًا خطابا أو قصة.. أو مقالا أو مذكرات.. من المؤكد أنها بخط فاطمة.. لاشك أن هذا هو خط فاطمة.. والأم ليست فى حاجة إلى أن تفكر طويلا فى معرفة صاحبة هذه القصة أو هذه العبارة: أنا فاطمة.. اسمى كده.. واسم الدلع برضه فاطمة.. تمنيت أن أكون ولدا.. وتمنت أمى أيضًا.. ولكن كان من بختى أن أكون البنت فاطمة.. أو المصيبة فاطمة.. طبعًا مصيبة بالنسبة لأهلى.. وبالنسبة لنفسى.. أهلى شايلنى فوق دماغهم.. زى الكابوس.. أو على الأصح لابسينى فى رجليهم زى الجزمة – وهنا تمط الأم شفتيها وكأنها تقول: اخص عليك يا فاطمة.. برضه كده – ونفسهم يقلعونى.. ونفسهم يضربونى بجزمة ثانية قديمة.. وإخواتى الصبيان.. بيخرجوا.. وبيتفسحوا وعندهم بنات صاحباتهم.. يعنى إخواتى بيصاحبوا بنات.. بنات ناس زيى تمام.. مش بس كده.. دول بيجوا

يحكولى عملوا مع البنات إيه.. خرجوا معاهم.. وباسوهم.. وبعد كده يشتموهم.. بيشتموا البنات اللى خرجوا معاهم.. يعنى بيحتقروا البنت اللى تخرج معاهم.. لكن بيضحكوا على البنات.. والغريب أن أمى تعرف كل ده.. وبتسكت.. وبتقول إخواتى رجالة.. مش عيب الرجالة تعمل كده.. طيب وبنات الناس؟ مش حرام.. لا مش حرام.. وأنا مفروض أسمع الكلام ده كله وأعمل أنى مش فاهمة.. وإذا فهمت لازم تكون حاجة تانية خالص.. يعنى مطلوب منى أن أسمع وأعرف بس.. لكن بعد كده مفيش أى حاجة. كأنى مش بنت.. كأنى معنديش أى عقل.. إمبارح شفت الخدام اللى عندنا.. حسدته.. من كل قلبى.. لقيته بيمسح البلاط.. ولقيته بيكنس.. ولقيته بعد كده بيلبس هدومه النظيفة ويخرج من البيت للشارع.. لا هو خايف من حد.. ولا حد خايف منه.. زى إخواتى تمام.. راجل.. الناس بتقول عليه راجل.. راجل زى أبويا.. راجل زى إخواتى.. وأنا بنت.. أقل من خدام.. أقل من جزمة خدام.. زى الكلبة.. ليه؟ مش عارفة.. وأمى.. أيوه أمى..

وتبكى الأم وتنهض إلى الباب وتقفله بالمفتاح.. إنه باب غرفتها.. لقد استمعت الأم فى هذه اللحظة صوت الباب الخارجى ينفتح.. لابد أنه أحد.. زوجها أو أولادها.. أو يمكن فاطمة قد تنبهت إلى أنها قد نسيت دولابها الصغير مفتوحًا.. فجاءت تقفله.. ولم تسمع الأم من الذى دخل.. إنها غارقة فى هذه المظاهرة التى تقودها فاطمة ومعها مجهولون لا تعرفهم..

وعادت الأم تقرأ: أمى.. حبيبتى مفروض تبقى حبيبتى.. كانت طيبة.. مش عارفة إيه اللى حصل لها.. إيه اللى حصل.. إننى كبرت.. صدرى بان.. صدرى طلع.. هذه السنتيمترات التى ظهرت فى صدرى تخيف أمى إلى هذه الدرجة.. قنابل متفجرة وأنا أحملها تحت جلدى.. طيب أعمل فى صدرى إيه؟ لأنى ارتفعت عن الأرض.. وإيه يعنى.. هل أنا أصبحت طويلة لدرجة أن أمد يدى إلى الشمس وآخذ منها حتة نار أرقى بيها البيت.. ليه..؟ هل لأن صوتى أصبح تخين شوية.. صوت الخدام اتخن من صوتى.. صوت الكلب اتخن وأعلى من صوت كل اللى فى البيت.. علشان فهمت.. علشان عرفت أتكلم.. وهل من المفروض أن أبقى جامدة.. لا أتعلم من المدرسة.. ولا.. أتعلم من السينما.. ولا من القراءة.. مش فاهمة.. وإذا كانت أمى تريد أن تتخلص منى، وأن تشيلنى وتحطنى فوق رأس أى رجل.. كأننى قصرية زرع.. أو كأننى طوبة.. أو صفيحة زبالة.. فلا مانع.. أن ترمينى فى أى

مكان.. لكن لماذا لا تعتبرنى أمى كالمحكوم عليهم بالإعدام.. يسألونهم فى آخر لحظة ماذا يريدون؟.. لماذا لا تسألنى أمى عن أمنيتى الأخيرة قبل أن تزوجنى من قريب لا أحبه.. ومن غريب لا أعرفه.. لماذا..؟».

وتتجه الأم لتفتح الباب لولا أن عينها تقع على جملة أخيرة فى هذه المذكرات.. الجملة جاءت على ظرف أبيض.. جملة كأنها سهم.. كأنها رصاص.. كأنها سحابة دخان خرجت بعد انطلاق مدفع.. الجملة تقول: لك قبلاتى.. يا أعز إنسان فى الدنيا كلها.. يا أشقى إنسان فى الدنيا.. يا فاطمة..!

إن الأم لم تقرأ هذه الجملة مرة واحدة.. إن كل كلمة.. كل حرف من كلمة «قبلاتى».. كانت رصاصة.. كانت خنجرا فى قلب الأم التى تخاف ولا تدرى ماذا تفعل.. ولا كيف تواجه ابنتها.. ولا ماذا تقول لها.. هل تقول لها إنها قرأت خطاباتها.. هل تقول لها أنها دخلت غرفتها وفتشت فى أوراق فاطمة.. هل تخفى عنها ذلك.. إن الأم قد علمت بنتها أن كل إنسان يجب أن يحترم ما يخص غيره.. فإخواتها يجب ألا يدخلوا غرفتها وألا يعبثوا فيها.. وهى أيضًا لا تدخل غرفة إخوتها إلا بإذن .. والأم علمت ابنتها ألا تكذب مهما كان السبب.. فكيف تكذب هى وتقول إنها لم تدخل غرفة فاطمة، ولم تقلب فى أوراقها.. ولم تفتح خطاباتها.. ولم تمزق الأشرطة الحمراء والصفراء.. ولم تبلل صفحاتها الوردية والزرقاء الصافية بدموعها.. وأنها لم تمزق صور نجوم السينما.. ما ذنب كلارك جيبل الذى مات..؟ ما ذنب جيمس دين الذى مات..؟ ما ذنب مارلين مونرو التى انتحرت..؟ لماذا ترمى الأم بأغطية زجاجات البيرة من النافذة.. وما الذى تقوله الأم لابنتها بعد ذلك..؟ ماذا يكون موقف الأم إذا قالت لها ابنتها إن هذه الخطابات لا تخصها.. وإنما تخص إحدى صديقاتها..؟ وماذا يكون موقف الأم إذا كانت هذه الخطابات تخص إحدى صديقاتها..؟ وماذا يكون موقف الأم إذا كانت هذه الخطابات تخص إحدى صديقاتها اللاتى تزوجن أخيرًا..؟ وأن هذه الصديقة قد أبعدت كل خطابات الغرام التى كانت قبل الزواج.. ألا ترى الأم أن هذا التصرف من الصديقة درس مفيد لفاطمة.. وهو أن الزواج علاقة محترمة.. وأنها علاقة يجب أن تقوم على الإخلاص.. وأن ما فات مات.. وأن الصديقة لاتزال تحترم شعور صديق سابق.. أو قريب له أمل أو خطيب فاشل.. وأنها لا تدوس عواطفها ولا قلبها.. ولكنها فى نفس الوقت تعطى قلبها وحياتها للرجل الذى

تزوجته.. ثم ترى أن هذه الخطابات درس لها هى أيضًا.. وأن هذه القصة من الممكن أن تكون معكوسة مع فاطمة.. فعندما تتزوج فاطمة رجلا لا تحبه سيكون هناك رجل تحبه.. ويبعث لها بخطابات.. وهذه الخطابات ستعطيها فاطمة لإحدى صديقاتها.. أو أن فاطمة ستترك الزوج.. وتتجه إلى الرجل الذى تحبه.. إن فاطمة الآن تعرف معنى الحب مع الزواج.. ومعنى هذا الزواج بعد وقبل وبلا حب.. إنها لم تعد صغيرة.. ولم يعد سكوتها جهلا.. ولم يعد الباب الذى تغلقه وراءها عندما تنام يفصلها عن الدنيا.. إنه يفصلها عن دنيا أمها.. ولكنه يفتح لها دنيا أوسع.. دنيا تجبها وتفكر فيها ولا تخاف منها وتنتظرها بفارغ الصبر.. دنيا فى نعومة المخدة وفى لون الأباجورة.. وفى حلاوة الخطابات وكلام الخطابات.. دنيا لا فيها كلمة واحدة من كلام أمها ولا تحذير واحد من تحذيرات أختها..

***

إن الأم لا تستطيع أن تواجه فاطمة وحدها.. لابد أن تستند إلى أختها الكبرى.. وكل واحدة منهما عندها ما تقوله.. وفاطمة أيضًا.

أم فاطمة تعلمت أن تنهض من نومها متأخرة.. حتى يخرج كل من فى البيت.. حتى تخرج ابنتها فاطمة.. إن الذى يدور فى رأس الأم لا تعرفه.. فهى تتذكر أيام غرقت فى البحر وأنقذها بعض المستحمين على شاطئ الإسكندرية.. وتذكر من بين المستحمين وجها حلوًا أسمر.. وتذكر أن ذراعيه غليظتان.. وأن صدره ملىء بالشعر.. وأنه ابتسم لها.. وأنها ابتسمت له أيضًا.. ولكنها سحبت ابتسامتها فورًا.. ورغم أنه هو الذى أنقذها فإنها اختفت من وجهى.. فهى تعلم بتجاربها القليلة أن هذه الابتسامة هى التى تضىء الطريق إلى قلب المرأة ونهاية المرأة وفضيحتها أيضًا..

إن أم فاطمة تذكر هذه القصة.. وهى لا تعرف لماذا تتصور فى بعض الأحيان أن يكون هذا الشاب هو الذى يعاكس فاطمة.. وهو الذى يكتب لها هذه الخطابات.. مع أن هذه الحادثة قد وقعت قبل ميلاد فاطمة بعشر سنين..! وأحيانا تتصور الأم أن هذا الشاب قد تزوج وأن له أبناء وأن هذا الابن لابد أن يطالب بثأر والده.. إنه لم يجد أمامه غير فاطمة.. إنه يريد أن يغرقها.. أو يريد أن ينقذها من الغرق.. كما فعل أبوه بأمها..

اضطراب فى رأس الأم.. وهذا الاضطراب هو الذى يجعلها تذكر الماضى

وتبعثه إلى الحاضر.. وترتعد منه.. واضطراب يجعل الأم تفتش عن ماضيها.. وتتساءل.. إن كان هذا الذى أصاب ابنتها هو انتقاما من أمها؟.. إن كان هذا الذى أصاب فاطمة هو لعنة حلت بالأسرة كلها..

إن الأم لا تنسى يوم ذهبت مع أمها إلى أحد الأولياء.. وطلبت منها أمها أن تضع يدها على الضريح.. وتقرأ الفاتحة.. وقرأت الابنة.. وبكت الأم.. وعندما خرجت الاثنتان من الضريح سألتها أمها. ما الذى طلبته من السيدة زينب..؟

فقالت الابنة: أن أنجح فى الامتحان..

وعقبت أمها قائلة: الستر.. يا عبيطة.. الستر.. والله خلفة البنات عار.. تربية البنت عار.. وقعدة البنات فى البيت عار.. ربنا يسترها.. قطيعة البنات واللى يجيبوا بنات..

إن أم فاطمة لم تفهم معنى هذا الكلام إلا أخيرا.. خلفة البنات.. عار.. وقعدة البنات.. عار.. هذه الكلمة التى تحس بها.. كلمة ناعمة كالإبرة.. باردة كالإبرة.. رموش الناس إبر.. أسنانهم إبر.. كلامهم إبر ومسامير من ثلج ومن نار.. كل شىء يلسع ويوجع.. كل الناس يعرفون حكاية فاطمة.. مئات البنات يعرفن قصة هذه الجوابات الزرقاء والحمراء.. فضيحة.. فاطمة تحب.. فاطمة تدبر مؤامرة لفضح هذه الأسرة.. فاطمة تعلم أن أباها مصاب بضغط الدم.. إن خطابا واحدًا هو شهادة دفن الأب.. ومن بعده الأم.. وبعد ذلك تجىء كارثة الأخت الكبرى.. إن زوجها رجل وقح.. إن زوجها ينتهز هذه الفرصة.. ويضربها ويطردها ويعيدها إلى البيت الذى هدمته فاطمة هى وخطاباتها. كل هذا يحدث منك يا فاطمة.. كل هذا وأنت لا تعرفين أنك تهدمين بيتا أقيم بصعوبة بالعرق.. وبدموع الأم على خدها وعلى فراشها.. سنوات.. لا تعلمين يا فاطمة أن الأب كان مقامرا وتاب الله عليه.. وكان سكيرا وتاب الله عليه.. وأنت لا تعلمين كيف تعذبت أمك حتى جعلته يترك القمار والخمر ويسافر الى بيت الله ويحج.. إن هذا يحدث فى كل بيت.. هناك زوجات محاربات فى معارك عنيفة.. فى البيت.. المقهى.. ولكنها معارك.. لا مدافع ولا قنابل.. ولكن فيها دموع وفيها وجع قلب. معارك لا تهدأ.. هل هناك معركة أقسى من أن يحارب الإنسان أحب الناس إليه.. أن تحارب الزوجة زوجها.. إنها توجعه وتبكى عليه.. إنها تضربه وتتألم.. إنها تستدرجة من الشارع إلى البيت إلى الفراش. وتنام إلى جواره وتبدأ فى إيلامه بالكلمة وبالحركة.. وفى الصباح تصالحه وتعانقه.. وتعاود محاربته من جديد..

على هذه الأرض الملتهبة الضيقة ولدت فاطمة وإخوتها.. ولدت فى تعب.. وعاشت فى تعب.. واليوم أنت لا تدرين يا فاطمة ماذا فعلت لأمك.. إن نصف عذاب أمك هو خوفها من أن ينهار كل شىء بنته.. إن أول شىء بنته الأم هو الأب نفسه.. إنه لم يكن يحب البيت وأحبه.. لم يكن يريد الزواج وأراده.. ولا الأولاد .. ولا البنات.. ولا تعليم البنات.. والآن.. إنه يحب البنات أكثر من البنين.. ويوم سألوه فى أحد برامج الإذاعة قال: إنى أحب أمى.. وأحب كل أم.. ولذلك فأنا أحب بناتى فسيكبرن ويصبحن أمهات..!

ولم يكن هذا رأى الأب .. إنه رجل ريفى صعيدى.. إنه يحب الرجل.. والمرأة فى الصعيد عبارة عن رجل ناقص التكوين.. أو أنها رجل لم ينضج بعد.. وهى خادمة الرجل.. وهى تابعة له.. وهى ثانوية جدًّا.. وكان هذا رأى الأب.. ورأى آباء هذا الأب.. أما اليوم فله رأى آخر.. وأم فاطمة هى السبب. إن هذا الأب هو صورة من صور كفاح الأم.. ونجاحها أيضًا..

أما حكاية فاطمة.. فهى أشبه بالطعن.. فى صحة عضوية الأم.. فخطابات فاطمة هى أوراق تدين الأم.. وتؤكد أنها نجحت مع الأب وفشلت مع البنت.. وأن موقف الأم من الأب شىء.. ومن بنتها شىء آخر.. وأنها خدعت الأب عندما أكدت له أنها سيدة البيت.. وأنها تنفذ تعاليمه.. وأنها تخيف أبناءها وبناتها.. وأنه هو مصدر قوتها.. ومصدر سلطانها.. وأنها «برضاه» تعيش.. وفى نعمته تموت..

كل هذا تبدد.. فزوجها هو آخر من يعلم.. بل هى آخر من يعلم.. إن الأب معذور إذا لم يكن يعلم.. فقد ترك كل شىء للأم.. وهى التى كان يجب أن تكون أول من يعلم..

كانت لابد أن تجىء الأخت الكبرى.. وأن تأخذ مكانها إلى جوار الأم.. فالأخت الكبرى رغم إشفاقها على الأم.. وخوفها من فاطمة. فإنها أقرب إلى فاطمة قليلا.. فهى صغيرة مثلها.. وهى قد عرفت أشياء كثيرة لم تكن تعرفها.. وهذه الأخت تلقت خطابات من زوجها قبل الزواج.. وفى أيام الخطبة.. وحتى عندما قررت الأسرة ألا تزوج هذه الأخت من زوجها الحالى كانت تتلقى منه بعض الخطابات.. وفى لحظة هيام أو ضعف جميل أو «دوخة عاطفية» وعدت الأخت أن تتزوجه رغم إرادة الجميع.. والجميع هم: أمها وأختها وأبوها.. ولم تنكر الأخت الكبرى أن هذا حدث.. وأنها وعدت زوجها بذلك.. ولكن أمها لم تصدق طبعًا..

والأخت الكبرى لا تريد أن تقسو على فاطمة.. فقد جربت هى هذه القسوة.. إن

أمها فكرت فى يوم من الأيام أن تفصلها عن زوجها.. ولكن الأخت الكبرى قاومت وانتصرت، وكانت الأم تريد أن تفصل ابنتها عن زوجها لأن هذا الزوج عنيد، ولأنه «أكل بعقل زوجته حلاوة».. أو لأنه أكل زوجته.. وابتلعها.. وهى سعيدة بما فعل الزوج.. ولكن أمها تعيسة.. إنها لا تريد أن تكون ابنتها مأكولة مهضومة بلا حقوق.. بلا شخصية.. فالمرأة التى ترضى أن يأكلها زوجها، ترضى أيضًا أن يبصقها.. وأن يبصق عليها.. وأن يدوسها.. والرجال يحبون المرأة التى تقف عند الشفتين.. فيظل الرجل طول حياته يطلب منها المزيد.. ولا يطلبه إلا بحساب.. فإذا أعطته كل شىء تركها ليبحث عن امرأة أصعب.. إن الرجل يحب المرأة الصعبة.. المرأة التى فيها قسوة الرجال وقوتهم..

إن الأم تروى لابنتها الكبرى كيف أن المرحومة جدتها كانت قاسية وكانت قوية وكانت تضرب الأبناء والبنات والأب أيضا.. وكان الأب يقبل يدها.. وكانت تحكى لبناتها أن الرجال خنازير.. والضرب أحسن علاج.. والرجال كلاب.. ومادام الكلب جائعًا، فإنه يمشى وراءك.. فالمرأة التى تعطى للكلب شفتيها. فإنه يطمع فى أحشائها.. فإذا وصل إلى أحشائها، فإنه يرميها ويهرب منها.. باحثا من جديد عن شفاه جديدة..

وهذا ما تخافه الأم.. فهى لا تريد من ابنتها الكبرى أن تضعف أمام فاطمة ودموع فاطمة.. كما ضعفت فاطمة أمام جوابات هؤلاء الشبان..

إن أم فاطمة فى حديث دائم مع نفسها.. مع الماضى والحاضر والمستقبل.. مع ماضيها ومستقبل بنتها، وتتخيل كل ما سيقوله الزوج إذا عرف.. ويا دى المصيبة إذا عرف.. وإذا صدمته الأم.. وعاد حب الأم مرة أخرى إلى المقهى والبار والقمار.. إن أم فاطمة لا تستطيع أن تتصور.. إن أعصابها تفتح الباب وتنادى الأخت الكبرى التى تتحدث فى التليفون.. إنها تريد من ينقذها.. من يقول لها.. أنت على حق وفاطمة غلطانة..

وجاءت الأخت الكبرى وقالت لها: يا ماما أنت على حق.. وفاطمة على حق..!

وقالت الأم: فاطمة على حق؟! جرى لك إيه؟! بتقولى فاطمة على حق؟! إزاى يا ست صفاء.. انت اللى كنت بتشجعى فاطمة.. أنت اللى ورا فاطمة.. والله باين كده.. مش معقول فاطمة تتصرف بالشكل ده من تلقاء نفسها.. لابد أنك تعرفين كل شىء.. وأنا ألاحظ أنك لم تتحمسى.. لم تثورى.. لم تسألينى ما الذى وجدته فى

الخطابات.. كأنك تعرفين كل شيء.. كده برضه.. أختك تعمل كده وأنت ساكتة.. هيه دى تربيتى، أنا علمتك كده.. يخصى عليك يا صفاء..

وتقول صفاء: يا ماما اسمعينى.. فاطمة على حق فى إيه؟ مش تستنى أكمل كلامى.. يا ماما أنا بحبك.. وأنا حبيبتك.. وأنا تربيتك وكل حاجة.. واللى يزعلك يزعلنى إدينى فرصة.. هيه على حق لأنها صغيرة.. وممكن أى بنت فى السن دى ينضحك عليها.. بكلمة.. كلميها كده يا ماما.. ولازم توجهيها بالذوق.. وفاطمة أحسن من كل البنات اللى حواليها.. أنا عارفة كده.. ومتأكدة.. أنت عارفة سوسن..

الأم: سوسن مين؟

صفاء: سوسن صاحبة فاطمة.. كانت مخطوبة لشاب وتشاجرت معه وتركته.. والآن مخطوبة لشاب آخر.. وكل يوم بيشوفها فى كازينو الشجرة.. ترقص لحد الصبح..

الأم : معقول ده؟ ودى تبقى صاحبة فاطمة.. وإزاى تعرفى الحاجات دى وتسكتى.. يبقى إنت اللى مشجعة أختك يا صفاء..

صفاء: أنا بعدت فاطمة عنها خالص.. يمكن من سنة.. ومن غير ما أقول لك علشان ما تزعليش وما تفتكريش أى حاجة.. لكن شوفى فاطمة بقى.. ولا حاجة من ده كله.. ويمكن ده اللى بيخللى الشبان يجروا وراها.

الأم: أيوه يا بنتى.. كلاب.. عاوزين ياكلوا ولاد الناس.. ياكلوهم لحم ويرموهم عضم لكلاب تانية.. برضه.. لكن أنا زعلانة منك.. زعلانة منك.. مش ده العشم يا صفاء.

الأخت الكبرى:...

ويمضى اليوم فى كلام ومناقشات تستغرق ساعات طويلة وراء باب مغلق.. ولكن الأم لا تستطيع أن تتحدث عن الخطابات.. ولا تستطيع أن تطلع حتى ابنتها الكبرى صفاء على هذه الخطابات.. إن الأم تشعر بالعار أمام ابنتها الكبرى.. فهى الأخرى صورة من صور كفاح الأم ونجاحها.. إنها أول أبنائها.. وقد كان ميلاد صفاء صدمة للأب وصدمة لعائلة الأب. إنها بنت.. وليست ولدا.. ولكن الأم تحدت الجميع بهذه البنت.. ورفضت أن تكون ملابسها كملابس الرجال.. ورفضت أن يكون اسمها: مصطفى.. كما أرادت حماتها.. ورفضت أن تقص شعرها كما يفعل الأولاد.. ورفضت أن تسترها عن عيون أقارب الزوج.. فالأم لا تخجل من أنها أنجبت بنتا.. بنتا مثلها.. إنها لا تخجل من أنوثتها.. إنها تعتز بها كما يعتز الرجل برجولته.. فصفاء هذه هى الأخرى صورة من صور نجاح الأم.. وهى لذلك ترفض أن تبدو أمام ابنتها فاشلة.. جاهلة، جامدة.. لا تحب أن تبدو مهزوزة خائفة..

إن كل ما قالته الأم لابنتها هو أنها عثرت على أوراق غريبة فى دولاب فاطمة.. وأنها تخشى أن تكون هذه الأوراق هى جوابات صديقات فاطمة من أمثال سوسن.. فإنها تخاف على فاطمة من مثل هذه المغامرات الفاسدة المنحلة.. وكانت الأم تروى هذا كله لصفاء. وتحاول أن تقرأ فى عينيها أى شىء.. أى صدى.. أى خوف. أى وعد بالتحقيق مع فاطمة. أو باتهام فاطمة أو بالحكم عليها بلا استجواب.. أو بالاندفاع المجنون نحو فاطمة وحرق كل هذه الخطابات.. ثم ضرب فاطمة عشرين قلما على الأقل.. ثم الاعتذار لها بعد ذلك.. وتدخل الأم كصديقة رحيمة.. وبذلك تكسب صداقة فاطمة من جديد.. وعندما تنام فاطمة على صدر الأم تبكى وتشكو لأمها قسوة أختها.. فإن الأم تسأل فاطمة عن سر هذه الخطابات.. ومن دموع الأم ودموع فاطمة يتم التفاهم بين الاثنين. وتنقذ الأم ابنتها.. تماما كما أنقذ هذا الشاب الأم.. وابتسمت له وابتسم لها، وكانت الدموع وماء البحر فى عينيها وفى عينيه..

ولكن الأم لا ترى شيئا من هذا كله فى عينى ابنتها صفاء.. إن ابنتها هى الأخرى شبيهة بفاطمة.. إنها أختها وجاءت فاطمة بعدها فى الولادة. لهما نفس العيون والشفاه وفيها نفس العناد.. عناد الأب الصعيدى الذى لا يلين.. وفى الأختين كل صفات الأم وهى القدرة على كتمان السر.. وإخفاء العواطف.. إن الأم تحس أمام ابنتها صفاء أنها فى معركة خفية عميقة.. إنها تحارب فى ابنتها هذه وابنتها فاطمة عناد الأب.. وعناد الأم، وعناد البنات الصغيرات.. وهى تحب الأب، وتحب الابنتين.. وتخاف عليهم، ولا تعرف من ارتباكها واضطرابها ماذا تفعل.. إن فاطمة فاجأت الأم.. صدمتها.. إن الأم رغم أنها تعيش فى المدن.. ورغم أنها تخرجت فى الجامعة.. لاتزال ريفية.. ولاتزال محافظة.. لقد كانوا يسمونها فى الجامعة بالشيخة علية.. ولم تكن تضيق بكلمة شيخة.. ولكن كانت تضيق عندما ينطقون اسمها.. فهى لاتزال شيخة.. محافظة.. ولكنها فى نفس الوقت ليست شيخة بهذه الدرجة.. فهى ترتدى الفساتين الضيقة والعارية.. وتسمح لابنتها بأن ترتدى المايوه. والتونيك والديكولتيه.. وتضع الروج أحيانا.. وفى المناسبات تلبس حذاءها العالى.. ولكن بعد ذلك تستطيع الشيخة أن تخلع العمامة وترتدى البرنيطة.. وهى قد تسمح لابنتها فاطمة بأن ترقص أمام عينيها.. ولكن مع إخوتها، ولا ترقص إلا التاجو..ولا تسمح لها بالجلوس مع الشبان حتى لو كانوا

أقاربها ولا تسمح لها بأن تضحك بصوت مرتفع.. ولا بأن تضع ساقا على ساق. أو تسحب الفستان إلى ما فوق الركبة.. رغم أن الفستان تحته جيبون وتحته ملابس نايلون.. وكلها حارة.. ولم تعرف فاطمة السوتيان إلا أخيرا.. إن الشيخة علية من ارتباكها لا تتبين بوضوح الفرق بين العمامة والبرنيطة.. ولكن من المؤكد أن سبب هذا الارتباك هو الحب والخوف.. أو الحب الخائف.. ولا شىء يضايق قدر التسليم باليد.. إنها تنظر إلى الأقارب عندما يمدون أيديهم بالسلام إلى فاطمة.. إنها تصبح فى حالة عصبية.. إنها تتذكر ذلك اليوم الذى لا حظت أن أحد الشبان يسلم على فاطمة ويضغط على يدها وهى تؤكد أنها رأت ورقة صغيرة.. وإن كانت بعد ذلك لم تفلح فى أن تجد لهذه الورقة أثرا.. ورغم أن فاطمة أقسمت لها بأنها لم تحس بهذه الورقة فى يدها، فإن الأم تقسم أن فاطمة لاتزال صغيرة لا تعرف شيئا من خبث الرجال.. وبعد ذلك ندمت الأم على أنها اضطرت بعد ذلك لأن تروى لفاطمة معنى الورقة فى اليد.. فقد يكون فيها رقم تليفون أو كلمة غرام..

ويمضى يوم ثان.. والأم فى صراع مع نفسها.. لا تعرف ما الذى تفعله ولا ما الذى تقوله.. ولا تدرى إن كانت هى تقف وحدها أم أن ابنتها صفاء تقف إلى جوارها.. إنها أحيانا تحس بأن صفاء معها وأحيانا تحسن بأنها مع فاطمة.. أحيانا ترى البرنيطة على رأس صفاء وأحيانا لا تجد برنيطة ولا عمامة.. وتحار فى تفسير هذا الحياد فى موقف الأخت الكبرى.

***

وتتساءل الأم: هل تستطيع أن تنتظر حتى تنتهى فاطمة من المذاكرة؟. هل تمنع فاطمة من الذهاب إلى صديقاتها.. أو تجىء صديقاتها إليها..؟ والمكالمات فى التليفون وكلها على الكراريس وعن المذاكرة.. وكل ما تقوله فاطمة تسمعه الأم، وأمامها.. وليست هناك كلمة واحدة ولا عبارة واحدة غامضة.. كل شىء واضح.. وكل شىء أمام الأم والإخوة؟.. هل تسكت الأم بينما فاطمة تذهب الى بيوت صديقاتها ومن الممكن أن يحدث ما يحدث؟ من الممكن أن تتكلم فاطمة من تليفونات صديقاتها؟ ومن الممكن أن تكشف فاطمة أن أمها قد فتشت فى خطاباتها وفى أوراقها.. وأن أسرار فاطمة قد افتضحت كلها.. وعلى ذلك تحمل معها هذه الخطابات وتعيدها إلى صديقاتها.. أو تخفيها عند إحداهن. فإذا سألتها الأم أجابت فاطمة بأن هذه الخطابات لا تخصها.. وأن الذى يخصها هو

خطابات من صديقات أيضا! معقول أن يكون هذا الهيام والحب هو كلام بنات لبنات؟ أو كلام مدرسات لبنات؟ مش فاهمة.. طبعا الأم مش فاهمة بهذا الوضوح.. وإذا كان هناك هذا الحب فكيف تواجهه الأم؟ كيف تعالج هذه الكارثة الجديدة.. إن الأم تستطيع أن تمنع فاطمة عن التعرض للشبان.. لكن عن البنات كيف تمنعها؟ وكيف تفرق بين صداقة البنات للبنات وبين حب البنات للبنات؟ كارثة أخرى.. لم تكن تخطر على بال الأم..

***

قررت الأم أن تواجه فاطمة وحدها.. الأم وحدها وفاطمة وحدها أيضا ولن تشترك الأخت الكبرى فى هذه المناقشة.. أو هذه المحاكمة.. أو المواجهة.. لم تفكر الأم فى تسمية هذه الغرفة المقفلة التى ستجلس فيها الأم مع فاطمة..

وفى ابتسامة رقيقة تخفى حسرة وتبشر بعناق.. تقدمت الأم من ابنتها واختفتا فى حضن طويل كأنهما فى ميناء.. أو فى مطار.. وكأن إحداهما تستقبل الأخرى أو تودعها.. إن فاطمة كانت أقل حرارة من أمها.. كأنها هى المسافرة وكأن أمها هى التى تودعها.. مع أن الأم تحس أنها ابتعدت عن ابنتها طويلا.. وأنها قطعت هذه الساعات وهذه المخاوف ليلا ونهارا لكى تستقبل ابنتها..

ولم تكد الأم تسأل فاطمة عن أحوالها وعن المذاكرة حتى نظرت إليها فاطمة فى عتاب عابر: أنا زعلانة منك يا ماما.. وقالت الأم وهى سعيدة بأن تتكلم فاطمة.. بأن تقول لها أى شىء.. بأن تشكو لها.. بأن ترتفع التكلفة التى بينهما.. بأن تحتاج إلى مساعدتها.. بأن تكشف عما يدور فى نفسها.. بأن يكون بين الاتنين أى شىء.. أى عتاب.. أى كلام.

فقالت الأم وهى لا تقوى على إخفاء سعادتها بالعبارة التى تنتظرها.. أو التى لم تكن تتوقعها: ليه يا حبيبة ماما.. يا روح ماما.. يا كل ما بقى لماما فى الدنيا..؟

وقالت فاطمة.. أنت فتحت الدولاب.. وكان فيه جواب.. أنا كنت لسه باكتبه علشان أقراه فى عيد ميلادك..

كأن هذه الخطابات لا شىء.. كأنها لم تكن.. لا أهمية لها.. إن فاطمة لم تتضايق بأن أمها وجدت الدولاب مفتوحا أو حتى فتحته.. كأن فاطمة لم تكن ثائرة على أمها فى هذين اليومين.. فصمتها هذا لم يكن خوفا ولا خجلا.. إذن هذه الخطابات لا قيمة لها.. إن فاطمة التى تركت الدولاب مفتوحا، لم يضايقها

أن تعرف أن أمها قد فتحته.. مع أن الأم لم تفتحه.. يا حبيبتى يا فاطمة لقد ظلمتك.. ليتنى كلمتك.. ليتنى سألتك.. ولكن الأم لم تسأل.. إنها خائفة.. واضطربت واتهمت فاطمة من بعيد..

ولكن بين هذه الخطابات عبارات موجهة إلى فاطمة.. عبارات فيها حب.. ومواعيد باللقاء.. وأرقام تليفونات.. وعبارات تصف كيف كانت لحظات اللقاء خاطفة خائفة.. وبعض هذه الخطابات فيه وعود الحب والإخلاص والزواج.. وبعض الخطابات بالبوستة وبعضها باليد.. هل معنى ذلك أنها خطابات قديمة.. وأن فاطمة لم تعد لها علاقة بأصحاب هذه الخطابات القديمة؟! ما معنى قديمة؟ وكم يكون عمر فاطمة لكى يكون فى حياتها قديم وجديد.. مش عارفة.. الأم حائرة ومع ذلك تسألها فاطمة عن خطاب كتبته هى لتلقيه فى عيد ميلادها..معقول هذا؟ هل فاطمة تقفل على نفسها الباب، وفى أيام المذاكرة هذه كتبت لأمها خطابات لمناسبة تجىء بعد ستة شهور؟!

وعادت الأم تسأل: والله يا بنتى أنا مشفتش حاجة.. أنا لقيت الدولاب مفتوح.. رتبت العلب والزجاجات الصغيرة والصور بس.. إلا قولى لى يا فاطمة إيه الجوابات دى كلها يا بنتى.. بتاعة مين..

وأجابت فاطمة بنفس الابتسامة العاتبة أو بنفس العتاب الباسم.. بتاعتى!

وعلامات التعجب هذه لم تكن على وجه فاطمة.. ولا حتى فى نبرة صوتها.. وإنما كانت على وجه الأم فى تلك اللحظة، ومنذ أيام.. وعدم دهشة فاطمة، وعدم تعجبها..

فقد زاد فى دهشة الأم وفى تعجبها.. فابنتها تعترف بلا مجهود ولا تفكير ولا خوف ولا أى حاجة بأن هذه الخطابات بتاعتها.. ولم يكن ينقص فاطمة إلا أن تقول لأمها: وأنت مالك.. وأى إنسان ماله..!

ودارت عينا الأم فى وجه فاطمة وجسم فاطمة.. أو على الأصح ترنحت عينا الأم.. فلم تكن الأم ترى شيئا من ابنتها.. أو من الغرفة التى حولها..

وأنا أنتهز هذه الفرصة وأقدم لكم فاطمة.. فإنها فعلا قد جاء تقديمها متأخرا.. ولكن الظروف التى أحاطت بفاطمة والجو الذى تعيش فيه.. والخوف الذى يحيط بها.. والأسوار الشائكة التى مدتها الأم والأخت والأب.. والإخوة والأقارب.. من تقاليدهم ومخاوفهم ومن غرورهم.. إن فاطمة قد نمت وكبرت وتمردت على هذا الجو.. وإن كان تمردها ليس واضحا الآن.. وربما كان تمردها

سلبيا فقط.. فهى لا تضع علامات تعجب!!! وإنما تكتفى بهذه النقط التى تحت العلامات.. وهى تضعها عندما تضرب بأظافرها على أقرب ترابيزة مجاورة.. وخصوصا عندما تحدثها أمها.. كأنها تلحن كل كلام يوجهونه إليها.

فاطمة فى السادسة عشرة وعدة شهور.. متوسطة القامة.. ممتلئة.. وخصوصا أردافها.. وربما كان هذا من الأشياء التى تضايقها.. فهى لا ترتدى إلا الجيبات الواسعة.. ولم يرها أحد فى فستان أو تايير.. وأحيانا تقول إنها ورثت هذه الضخامة عن أمها.. وربما كان هذا هو سر ضيقها الخفى من أمها.. وأحيانا كانت تتمنى أن تكون لها أم أكثر رشاقة.. وهى تلاحظ أيضا أن صدرها كبير.. وأنه كبر بسرعة.. وامتداد شفتيها إلى الأمام وهى تشير إلى صدرها يؤكد أنه هو الآخر موروث عن الأم.. ولكن شعرها الأسود أكثر نعومة من شعر أمها.. وهو طويل.. ولا تفكر فاطمة فى أن تقصه بأى حال من الأحوال.. مهما تغيرت الموضة.. إنه يضايقها أحيانا ويخربشها فى رقبتها.. وأحيانا تشعر له بشعور لذيذ.. وفى بعض الأحيان تربط شعرها بشريط.. وتحس كأن شعرها ملايين الألسنة الثرثارة.. وأنها تكاد تسمع ماذا تقول عن عنقها الطويل الناعم.. وعن كتفيها المستديرتين.. وعن الحسنة السوداء فى الكتف.. كلام.. كلام.. كل شىء حولها تتكلم معه.. إنها لا تعرف ما الذى يثيرها.. ما الذى يحيرها وهى تنظر إلى هذه الحسنة السوداء على الكتف اليسرى.. إنها عين سوداء صغيرة.. أو نقطة تستوقف العين حتى لا تذهب إلى ذراعها الناعم الممتلئ.. حتى تصل إلى أصابعها الدقيقة الطويلة.. اللينة.. إن فاطمة تعتز جدا بيديها.. إن بشرة اليدين ناعمة كالخد.. والأصابع بيضاء حمراء.. أو وردية.. وأظافرها فيها هلال أبيض.. وأمها تؤكد أن هذا الهلال هو دليل سعادتها فى حياتها الزوجية..

وفاطمة تعرف كل شىء فى جسمها.. وتعرف بالضبط لون ساقيها.. لون البشرة.. وتعرف شكل أصابع القدمين.. وقد نظرت إلى قدميها وأصابعها وأظافرها ألوف المرات.. وهى تعرف أن قدميها أصغر من قدمى أمها وأختها.. وأن وجه الشبه بينهما وبين أبيها هو فى الشفتين.. فشفتها العليا مرفوعة إلى أعلى قليلا.. وشفتها السفلى مسحوبة الى الوراء فى إصرار ومرارة خفيفة.. وسحبة شفتها السفلى هى التى سحبت حاجبيها الى أسفل.. ولذلك فهى تبدو مكشرة قليلا.. أو جادة.. أو لا تعرف الضحك..

ولا يضايق فاطمة الا ظهور بعض النمش فى الوجه.. وبعض حبوب الشباب.. ولكنها تنسى ذلك عندما تضع ساقا على ساق وتسحب فستانها إلى الوراء قليلا.. عن عمد وعن غير عمد.. وخاصة عندما يكون هناك ضيوف وتطلب من أمها أن تجىء لتسلم على الضيوف.. إنها تحمل قطتها الصغيرة معها.. وتضعها على حجرها.. وجاذبية الأرض هى التى تجعل القطة تغوص فى حجر فاطمة وتسحب الجيب من فوق الركبتين ليكشف عن ساقيها.. وتكشف عن ركبتها المتكورة الملساء.. وأحيانا تكتفى بأن تأتى ببعض الكتب وتضعها على حجرها.. وتقوم الكتب بدور القطة.. وتظهر الركبتان..

لقد سمعت فاطمة أكثر من صديقة أن ركبتيها جميلتان.. وجاءت الموضة الجديدة فرفعت الفستان بوصتين وتحت ضغط الكتب والقطط تصبح البوصتان أربعا.. وتنسى فاطمة أن أمها قد سقطت من فوق السلم وهى صغيرة وأن ركبتها قد انكسرت.. وأنها تعرج قليلا.. وأنها لم تعد قادرة على أن تضع ساقا على ساق.. ولم تعد قادرة أن تتحدث عن جمال ركبتيها.. كما كانت تفعل من عشرين عاما.. والآن لا تظن أن فاطمة الصغيرة تعرف كل هذا وتتذكره فى كل وقت.. وأنها تتباهى بركبتيها لهذا السبب.. وإنما كل ما تعرفه الأم بغريزتها.. أن فاطمة تعتز بأن خصرها ضيق.. نحيل.. دون أن تحتاج إلى أن تشده بحزام.. وهى حريصة على أن تتلوى فى مقعدها إلى الأمام وإلى الخلف.. ليبدو خط الصدر والخصر والأرداف واضح الانحناء.. صغيرة فاطمة.. فتاة كبيرة.. أو امرأة تتفتح.. وكل شىء فيها ينطق.. كل شىء فيها يقول كلمته ولا ينتظر التعليق من أحد.. كل شىء فيها يتكلم.. وفاطمة تعرف جيدا ماذا تقول.. وتتيح له الفرصة لكى يقول.. بل إن فاطمة لا تترك فرصة حتى تجعل كل شىء فيها يتكلم.. وأحيانا تتظاهر فاطمة بأنها لا تعرف.. أو أن الذى يقال حولها لا معنى له.. خبث من فاطمة.. أو هو فعلا عدم اكتراث.. إنها تقول عدم اكتراث لأنها لا تعرف.. أختها صفاء تقول دائما: إن البنت دى خبيثة.. وإننى لا أعرف لها رأسا من رجلين.. وانها تخفى عنى كل شىء..

ولكن فاطمة تسمع كل ما يدور حولها وأحيانا تتمنى أن تسأل عن معنى ما تقوله صديقات أمها.. فمثلا جاءت إحدى صديقات الأم تسألها عن فوائد اللبان الدكر. وتهامست الأم والصديقة.. وعادت الصديقة تسأل أم فاطمة إن كانت قد زارت الست أم فتحية.. إنها أشهر قارئة فنجان.. ثم همست الصديقة فى أذن أم

فاطمة.. ولم تكد تقع عين فاطمة على وجه الأم حتى ضحكت الأم وقالت لها.. كلام ستات.. كلام فارغ.. يعنى حنقول إيه.. الفنجان والبخت.. وهو لسه فيه بخت يا بنتى.. ما خلاص بقى.. راحت علينا.. والله كبرنا واحنا دلوقت بنخرف.. قومى إنت يا حبيبتى روحى أوضتك.. زمان بابا جاى..!

وتعودت فاطمة أنها عندما تسمع صديقات أمها يتهامسن أن تذهب الى غرفتها.. وتعودت أيضا أن تبقى فى غرفتها بمجرد دخول صديقات أمها.. فهى تعلم مقدما ماذا يدور فى هذه الزيارات.. كلام وسؤال عن صحة الأولاد.. وصحة فاطمة وبعد ذلك تتجه الأم إلى فاطمة وتطلب إليها أن تذهب إلى غرفتها.. ولكن فاطمة تذهب إلى ضيوف أمها أو تستدرج نفسها إلى الصالون وكأنها لا تعرف أن هناك ضيوفا.. فلا تكاد صديقات أمها يرينها حتى تتجه العيون والأيدى.. وإذا بفاطمة جالسة فى الغرفة.. وتبدأ حفلة التكريم التى لاتشبع فاطمة من سماعها.. هذه تقول: والله بقيت عروسة يا فاطمة..

وفاطمة تتجاهل كلمة عروسة.. وتمسحها من أذنيها.. كأنها لا تريد أن تكون عروسة.. أو كأنها زاهدة فى العرسان.. أو كأنما ملت هذه الكلمة..

وصديقة أخرى تقول لأم فاطمة: حلاوتها.. دمها خفيف.. ربنا يخليها..عينين فاطمة دى حاطة فيها ريميل.. أبدا؟ مش معقول..

يا خبر إيه الحلاوة دى.. عينيها تجنن.. والنبى صدقوا اللى قالوا..

وهنا يظهر الحرج على وجه الأم.. ومعنى ذلك أن تخرج فاطمة من الغرفة.. وعندما تخرج فاطمة تسمع كلاما هامسا وتسمع أسماء بعض الشبان من العيلة.. وقد حفظت كل هذه الأسماء.. فريد.. سمير.. عبد الوهاب.. حمادة.. جميل..

وفى مرة استمعت فاطمة إلى إحدى صديقات أمها وهى تقول: بسلامتها بتمشى محنية لقدام كده ليه..

وترد الأم عادة بأن السبب هو المذاكرة.. وأن فاطمة تقرأ كثيرا.. وأن الأم تعبت من إقناعها بأن تريح نفسها.. وأن تتفسح وأن تقف فى البلكونة.. أو تخرج معها أو مع أختها.. بدلا من القراءة ليلا ونهارا.. ولكن لا أكل ولا نوم.. ففاطمة تظل طوال الليل والنهار تقرأ.. إنها لا تتوقف عن شراء الكتب والمجلات.. وأن فاطمة تعرف كل شىء.. وأن أم فاطمة عندما كانت فى سن ابنتها هذه لم تكن تعرف شيئا فى الدنيا ولا الكتب ولا المجلات ولا السينما.. ولا حتى اسم مدير الدقهلية..

ولا اسم ملك إنجلترا.. ولكن فاطمة تتحدث عن الكونغو وعن لاوس وعن مارلين مونرو وعن طلاق مارلون براندو.. وعن ياسمينة ابنة ريتا هيوارث.. وعن فاتن حمامة وآخر فستان ارتدته صباح.. وعن كوستى الحلاق.. وعن رقم سيارة عبد الحليم حافظ.. وعن آخر أغانى عبد الوهاب.. كل حاجة تعرفها فاطمة.. ولا تنسى أى شىء.. وعندها صور.. وعندها كتب.. وتنقل العبارات الغريبة من المجلات.. والأفلام والسينما والتلفزيون.. تعرف كل شىء..

وتعود الأم تطمئن صديقتها.. أو تطمئن نفسها وتقول: آدى الحاجات اللى شاغلة فاطمة.. القراءة والتلفزيون.. ومفيش أى حاجة تانية.. ربنا يكملها بعقلها..

وتضايقت فاطمة جدا وراحت تبكى طول الليل عندما سمعت بأذنيها أن خالتها تسأل أمها.. ولم يكن صوتها هامسا: وازيها دلوقت لسه برضة بتتعب..؟

وقالت الأم فى ألم.. وكأنها نسيت أن تخفى شعورها، أو كأنها أحست أنها لا تذيع سرا، لأنها تتحدث إلى أختها: الشهر اللى فات تعبت قوى.. مش عارفة كده ليه.. إحنا ماكناش كده.. كانت فاطمة بتتلوى يا حبيبتى..

وبكت فاطمة.. وأحست أنها انفضحت.. إنها تعرت من غير إذنها.. فى تلك الليلة كرهت فاطمة جسمها.. كرهت يديها وذراعيها.. وكادت تمزق بطنها.. كرهت أن تكون أنثى.. كرهت أمها وقسوة أمها.. كرهت خادمتها.. وكل بنات خالتها.. كرهت سمير ابن خالتها.. إنها لم تكن تكرهه.. إنها وهى صغيرة كانت تقول: سأتزوج سمير.. وكان أهلها يضحكون.. وكانوا يطلبون إليها أن تقول للضيوف من الذى ستتزوجه فى المستقبل.. فكانت تقول: سأتزوج سمير.. علشان.. وتتوقف.. وتطلب أمها أن تكمل العبارة.. وكانت فاطمة فى السادسة من عمرها تتصنع الخجل وتنظر إلى كل أفراد الأسرة وإلى سمير الذى أجلسها على حجره وتقول: علشان سمير بيبوسنى.. وبيحضنى..

وتضحك الأسرة كلها.. فقد كان سمير فى ذلك الوقت أكبر منها بعشر سنوات.. وكانت تتعلق بجيوبه التى يملؤها بالشيكولاتة لها ولاخواته البنات.. ولكن فاطمة فى تلك الليلة كرهت الدنيا كلها.. إنها لا تنسى كيف فوجئت بهذا المغص الشديد الذى أصابها.. وكيف حاولت أن تخفى عن أمها كل شىء.. ولكن أمها قاعدة إلى جوارها وأخبرتها بكل شىء.. وبأشياء غريبة أدهشتها.. جعلتها غارقة فى أحلام مزعجة وفى تلك الليلة المثيرة كانت فاطمة تخرج من حلم وتقع فى

حلم آخر.. كانت تحلم بأنها تسبح فى النيل.. مع أنها لا تعرف السباحة وإلى جوارها زورق.. وفى هذا الزورق شاب لا تعرف شكله.. وكل ما تذكره أن له شاربا.. وأن شعره أسود.. وأن صدره ملىء بالشعر وأنه ابتسم لها.. ولم تكد يده تمتد إليها حتى صحت من نومها.. ثم دخلت حلمًا آخر.. أو فوجئت بحلم آخر غريب.. لقد رأت السماء تقطر دما.. ورأت قرص الشمس أحمر كالدم.. ورأت الشمس تبكى.. ورأت نفسها تتسلق إحدى النخيل.. وأنها كانت تقفز من نخلة إلى نخلة.. ثم سقطت على الأرض.. ولم تكد ترى ركبتها حتى وجدتها منفصلة عن ساقها.. تماما كما حدث لأمها.. وراحت تبكى.. وعندما صحت من نومها وجدت دموعها على خدها.. وروت هذا كله لصديقاتها.. ثم روته لأمها.. أيام كانت تشعر بأن أمها صديقتها.. وأنها يجب ألا تخفى عنها أى شىء.. وأيام كانت تسمح لأمها بأن تدخل معها الحمام.. وراحت كل واحدة من صديقاتها تروى لها قصة غريبة عن كيف فوجئت كل منهن بهذا المغص الشديد.

ومنذ ذلك اليوم الذى تحدثت فيه أمها بصراحة عما حدث لفاطمة وهى تشعر بأن أمها ليست صديقة لها.. وأنها تتظاهر بهذه الصداقة.. إنها عبء ثقيل على أمها.. وأن أمها لم تكن تريد أن تكون لها ابنة.. وأن حب الأم كله موجه لأختها الكبرى.. وما تبقى من حب الأم فإنها تعطيه لأبنائها.. وأن أمها عندما تعذبت فى ولادة فاطمة.. كانت تتمنى أن ينزل المولود إما ذكرا وإما ميتا.. إن فاطمة قد سمعت هذا من والدها.. لقد أعلن أكثر من مرة أن أمها عندما كانت فى حالة وضع.. كانت فى حالة خطرة.. وأن الأطباء قرروا أن الأم أهم من الطفل.. وأن حياة الأم أولا.. والطفل ثانيا.. وأن أمها لم تعارض فى ذلك.. وأن والدها قد رحب بهذا كله.. يعنى لم يكن أحد يريدها.. لم يكن أحد يريد فاطمة.. وكل شىء يدل على ذلك.. هكذا تقول فاطمة لنفسها.

ففاطمة لم تفرح كثيرا عندما أودع أبوها باسمها بضع مئات من الجنيهات فى دفتر التوفير.. فهى كإخوتها تماما.. ليست لها أية ميزة خاصة.. وإن كان إخواتها الصبيان عندهم كل ما يريدون.. الفلوس والحرية.. ولا أحد يستطيع أن يكلمهم ولا أحد يستطيع أن يمنعهم من التليفون ولا من معاكسة البنات.. ولا من الاشتراك فى النوادى ولا أحد يطلب منهم أن يذاكروا.. وإذا سقطوا فى الامتحانات.. فلا أحد يقطع منهم المصروف.. أما هى.. فهى الآن جالسة.. أمام أمها لا تعرف ماذا

ستقوله الأم.. إن فاطمة تشعر أنها مظلومة.. أنها مضطهدة.. أنها أقلية فى هذا البيت.. أنها زنجية.. وأن كل من فى البيت من البيض.. أنها ابنة بالتبنى، وأن كل الباقين أبناء حقيقيون.. ولا يهمها ما تقوله الأم.. هل هذه خطاباتك؟ أيوه خطاباتى.. وهل تعرفينهم؟ طبعا أعرفهم.. وكيف فعلت ذلك؟.. فعلت!.. ومش خايفة يا بنت؟.. لا مش خايفة.. هو أنا بس اللى بنت فى الدنيا دى؟.. هو أنا بس اللى الأولاد بيبعتولها جوابات؟.. شوفى عنايات شوفى كاميليا.. شوفى سوسن بنت خالتى عاملة إيه.. يعنى أنكم تحبسونى فى أوضه ليل ونهار.. ادخلى أوضتك.. نضفى أوضتك.. اقفلى أوضتك.. روحى نامى.. قومى ذاكرى.. كلى.. اشربى.. رايحه فين؟ جايه منين..؟ مين اللى بتكلمك..؟ وبتقولك إيه..؟ وليه..؟ ومن امتى..؟ وسيبى فلانة.. علشان بتعرف أولاد.. وسيبى علانة.. علشان أختها مش كويسة.. وناس شافوك مع فلانة.. ما لها فلانة..؟ بتروح السينما كتير، وبتروح الأوبرج.. وإيه الفستان الضيق ده.. وإيه الأحمر ده.. وامشى عدل يا بنت.. ومالك بتعرجى كده.. ألف بلاش ده.. ومليون بلاش دى.. أيوه مش خايفة..!

كل هذا يدور فى عينى فاطمة وفى رأسها.. ولا شىء يبدو على وجهها.. فهى تستمع إلى هذه المظاهرة المكبوتة فى متعة.. أو فى شىء من التشفى والغيظ.. وهى تتمنى أن تقول كل هذا لأمها ولإخوتها وخصوصا لأختها الكبرى مرة واحدة.. وتتمنى أن تكون هناك خالتها وبنت خالتها.. وأن تكون هناك صديقاتها جميعا ليشهدن هذه المعركة.. لقد تعبت فاطمة.. فلا أحد يكلمها.. ولا أحد يسألها.. إن أمها لا تكاد تراها حتى تتوقف عن الضحك إذا كانت تضحك وتهمس إذا كانت تتكلم.. وتتوقف عن الهمس.. إن فاطمة تحس أن وجودها فى البيت كلغم عائم.. كقنبلة موقوتة ستنفجر بين لحظة وأخرى.. إنها كحالة الطوارئ فى البيت إنها تيار جارف.. عاصفة.. يقفلون فى وجهها الأبواب والشبابيك وكل واحد يزرر چاكتته وقميصه ويطبق شفتيه.. وأحيانا ترتفع يد أمها بالدعاء إلى الله بالستر..

- أيوه يا ماما دى بتاعتى..

- إزاى يا فاطمة..

- مش فاهمه يا ماما..

- إزاى الجوابات دى كلها بتاعتك.. ومنين يا فاطمة.

- من ناس..

ـ يعنى إيه يا فاطمة..؟

ـ الناس مش بيبعتوا جوابات للناس.. ناس بعتوا لى جوابات أصحابى..

ـ مين أصحابك دول.. ومن امتى كانت بتيجى لك جوابات.. أنا مش فاكره ان البوسطجى جاب لنا جوابات.. دا أبوك هوه اللى بيفتح صندوق البوستة بنفسه..

ـ هوه مفيش جوابات تيجى إلا عن طريق صندوق البوسّتة.. مفيش جوابات باليد.. أو عن طريق المدرسة.. أو على عنوان واحدة صاحبتى..

ـ انتى بتتكلمى ازاى كده يا فاطمة.. مش همك يا بت.. أنا حاتجنن.. إيه البرود اللى عندك ده.. جوابات إزاى يا فاطمة؟.. جوابات إزاى! فهمينى بسرعة قبل ما أطق وأموت.. واللّه حاموت وانت السبب.. هوه احنا شفنا حاجة بالشكل ده.. انت تيجى لك جوابات.. وساكته كده.. ميه من تحت تبن.. جوابات يعنى إيه..؟

ـ يعنى افرض حد بعت لى جوابات بالبوسطة.. أو باليد.. أعمل إيه.. ورقة اترمت من تحت الباب.. ودخلت الشقة.. أعمل إيه.. جواب حد رماه من الشباك أعمل إيه آخد الجواب وأديه لك.. وأقول لك: شوفى الجواب ده.. جاى من مين.. علشان أعمل لى فضيحة فى البيت.. علشان تحبسونى فى قفص.. فى صندوق.. علشان تموتونى بالحياة.. إيه اللى أنا عملته.. إنت مش فتحتى الدولاب.. ومش قريتى الجوابات.. أنا قلت لك حاجة.. لقيت فى الجوابات إيه..؟ سألتينى عن الجوابات دى جاية منين.. بتاعة مين.. ليه محطوطة عندى هنا.. ولو كانت الجوابات دى فيها أى سر.. كنت أنا سبتها كده.. وانت عارفه إنى باسيب الدولاب ده مفتوح معظم الوقت.. وأنا مش عارفه إيه اللى خلاكى فتحت الدولاب من ورايا.. مع أنى باسيبه مفتوح كل يوم.. كل ده علشان سميرة صاحبتى جت من كام يوم وقعدت معايا ساعة.. اتهيألك أن إحنا بنتآمر على خراب العالم.. واحدة صاحبتى قعدت معايا ساعة.. بنتكلم.. يعنى كمان ما أتكلمش.. ما أقدرش أقعد معاها.. خلاص الدنيا اتخربت.. أنا مش عارفه أعمل إيه.. أنا مليش حد هنا.. أنا عارفة أنك ما بتحبنيش.. أنا عارفة.. لكن مش عارفة أعمل إيه.. لا قادرة أقعد.. ولا قادرة أخرج.. ولا أنا ولد أقدر أسيب البيت ولا عندى شهادة أقدر أشتغل بيها.. ولا أقدر أروح أقعد عند حد.. وبعدين تقولى لى: جوابات.. ومنين.. مش أنت شفتى الجوابات.. لقيتى فيها حاجة.. وهوه أنت لو كنت لقيت فيها حاجة كنت فضلتى ساكتة لحد دلوقت من غير ما تعملى لى محاكمة.. من غير ما تقولى لبابا.. معقول كان يوم واتنين

وتلاتة يفوتوا من غير علقة.. من غير حبس.. من غير فضيحة.. لكن أنت شفت الجوابات كلها.. أنا وست صفاء بتاعتك حبيبتك.. بنتك الوحيدة.. وما لقيتوش فيها حاجة لها قيمة.. تسمحى لى أرد على التليفون.. ولا التليفون ممنوع برضه..

وفى برود غريب.. أو برود طبيعى جدا تذهب فاطمة وترد على التليفون وبصوت مرتفع على غير العادة: ألوه.. مين.

كانت المتكلمة صديقتها عنايات..

فاطمة: آه.. زى ما قلت لك..

عنايات أمك بتكلمك على حكاية الجوابات..؟

ـ آه.. ولا حاجة.. لسه ماذاكرتش..

ـ وقالت لك إيه على الجوابات..؟

ـ طبعا عادية.. «وبصوت هامس»: ولا يهمك أدينى باشخط فيها.. ودموعى على خدى.. ولا حتقدر تقول لبابا.. أنا عارفة ما تقدرش.. «وبصوت مرتفع» إمتى حتيجى.. واللّه ملخومة فى الجغرافيا.. ولا عارفة فين الهند ولا فين فرنسا.. كلام دمه تقيل..

ـ شافت جوابات سوسو..؟

ـ لسه شوية..

ـ ضرورى تكون شافت جوابات فريد.. جواباته كتيرة.. جاته نيلة وينفضح.. كل حاجة عنده الليل والقمر والنجوم.. والنبى طيب.. بس هفه شوية.. وأختك..؟

ـ لسه ولا قربت لكتاب التاريخ، لسه يمكن بعد الظهر..

ـ وبعدين حتعملى إيه..؟

ـ أشتغل بالتمثيل.. إذا ما نفعتش فى المدرسة.. أبدا أصلى تعبانة شوية.. آه.. عندى مغص.

ـ مغص كده يعنى.. «وفى صوت هامس» عندى ماما.. قاعدة وشايفاها فى المرايا حتموت.. تعالى بعد ربع ساعة كده.. طيب إبقى كلمينى بعدين.. طيب أكلمك أنا.. مع السلامة..

ـ اسمعى أجى دلوقتى..

ـ لا.. ماما مشغولة.. عندها ضيوف.. لما تيجى إبقى كلميها.. بعدين إبقى كلميها..

ـ واختك فين دلوقت..؟

ـ فى ستين داهية.. راح منك الكتاب.. إبقى كلمينى بعدين.. بعدين.. أورفوار..

وتضع السماعة.. وتمسح بقايا دموع على خدها.. وتعود إلى مكانها بعيدا عن أمها.. ويبدو أن الأم قد غيرت خطتها مع فاطمة.. إنها تريد أن تكسب رضاها.. أن تجعل المسافة بينهما أقصر.. أن تجعل الأرض التى بينهما مأمونة.. منزوعة السلاح.. إن فاطمة تمسح من عينيها بقايا دموع.. والأم تمسح من عينيها دموعا حقيقية.. دموعا لا تراها فاطمة إلا نادرا على هذا الوجه المستدير الأبيض الممتلئ.. الذى يجعلها تبدو أصغر من سنها بعشر سنوات.. ولاحظت فاطمة أن أمها فى حالة عصبية.. فهى تحرك يدها فى الهواء كأنها تهش ذبابا عن وجهها أو ذبابا يطير بينها وبين فاطمة.. أو كأنها تدفع عن رأسها أفكارا سوداء أو كأنها تحاول أن تمسح المسافة بينهما من السحاب القاتم.. أو كأنها غريق يحاول أن يطفو على سطح الماء.

ولكن الأم تحركت بأسرع مما كانت تتصور فاطمة.. أكثر مما كانت تتصور الأم نفسها.. لقد دنت من فاطمة أكثر وأكثر وعادت تحتضنها من جديد.. ونظرت فاطمة إلى أمها.. إنها قصيرة القامة ممتلئة.. واللحم واضح على صدرها.. بل إنه لا يوجد أى خط للصدر أو للخصر.. ستكون فاطمة هكذا عندما تتزوج؟ إنها تقول: مش معقول أن تترك نفسها تترهل هكذا.. ومش معقول أن تتزوج.. إنها ستعمل.. وتلاحظ فاطمة النمش على يد الأم وتلاحظ فاطمة لأول مرة الدبلة الذهبية التى فى أصبع أمها والتى حبستها الأم بدبلة من الفضة ودبلة أخرى من البلاتين.. وتلاحظ فاطمة أن الدبلة خانقة لأصبع الأم.. وأن أمها تحوطها هى كأنها دبلة من الفضة أو دبلة من البلاتين بها فص من الماس.. وأن الفص موضوع من داخل الدبلة وأنه يضغط على فاطمة.

وتنظر الأم إلى فاطمة بسرعة وتقول لها: يا فاطمة أنا أمك يا حبيبتى.. أنا باحبك.. مش ممكن تلاقى حد فى الدنيا دى كلها يحبك زيى.. ولا أبوك ولا أختك ولا صاحباتك.. ولا جوزك.. ولا ابنك.. إنت مش كنت زمان بتقولى لى أنك بتعبدينى يا فاطمة.. دلوقت كفرت.. ليه.. أنا عملت لك إيه يا حبيبتى.. أنا بادور على مصلحتك.. على مستقبلك يمكن غلطت.. لكن أنا أعرف منين يا فاطمة.. إنت ساكتة.. إنت ما بتتكلميش أبدا.. إنت زى أبوك.. أبوك يقعد بالأيام ما يفتحش بقه بكلمة.. أعرف منين إنك واخدة على خاطرك منى.. أعرف منين إنك بتشيلى منى.. فيه مرة زعلتك.. علشان باقولك ذاكرى.. علشان بأقولك ادخلى أوضتك.. إنت

عارفة الستات بيقعدوا يقولوا كلام فارغ.. أنا مش عاوزاك تطلعى زيى.. عاوزاك أحسن.. أنا أكبر منك.. وعارفه أكتر منك.. وأمك.. وخايفة عليك.. إنت مش قادرة تعرفى يعنى إيه أم.. شعور الأم ده حاجة تانية..

وتبتعد الأم قليلا عن فاطمة التى تمسح دموعها هى الأخرى.. وفى هذه اللحظة تتمنى فاطمة أن تعانقها بشدة.. أن تأخذها على صدرها.. أن تعود طفلة صغيرة فى حجْر أمها.. أن تبكى كأية طفلة.. أو ترتد إلى الأيام البعيدة جدا التى ليست فيها صاحبات ولا خطابات.. وليس فيها أختها صفاء.. ولكن الأم ابتعدت أكثر.. كأنها هى الأخرى أحست أن فاطمة لانت.. إن فاطمة تتعذب.. إن فاطمة تعانى الندم.. أو كأن الأم تريد أن تبتعد عن فاطمة لتنظر إليها من بعيد لتراها بوضوح.. وعادت تقول لها: إنت مش عارفة أنا متعذبة بقى لى قد إيه.. أنا متعذبة طول عمرى علشانكم.. أبوك يا فاطمة راجل لا يطاق.. أبوك راجل عصبى.. كان دائما بيضرب.. أبوك مرة ضرب أختك صفاء ورماها على السلم.. أبوك طرد إخواتك كلهم.. وحلف بالطلاق أنهم لازم يناموا فوق السطوح وناموا فوق السطوح وطلعت نمت معاهم.. وأنا قدرت أبطله كل حاجة.. وعلى حساب أعصابى.. أنا عندى سكر يا فاطمة.. والسكر بيزيد يوم بعد يوم.. ليه.. من أعصابى.

وابتعدت فاطمة قليلا.. إن شيئا غريبا يدور فى داخلها لقد استمعت فاطمة إلى هذه القصة عشرات المرات وفى مناسبات كثيرة.. وبدأ قلب فاطمة يلين.. ولكنها تنبهت فجأة وقاومت ضعفها ونظرت إلى أمها.. ولا تعرف لماذا أحست أن أمها هى الأخرى تمثل عليها.. فقد كان فى استطاعة أمها أن تترك والدها.. إنها غنية وأبوها متوسط الثراء.. وقد كان فى الأسرة شبان كثيرون يحبون أم فاطمة.. وكان فى استطاعتها أن تختار واحدا منهم.. حتى بعد أن تزوجت.. وابتعدت فاطمة قليلا.. وتواجهت الاثنتان.. الأم كالقطة والبنت كالنمر.. وعاد البارود إلى الجو.. وعادت الألغام إلى الأرض.. وعود كبريت واحد يشعل النار.. مكالمة تليفونية واحدة لفاطمة وتنتهزها فرصة وتفتعل الضحك.. ولا تعرف فاطمة ما الذى سيحدث لو أنها ضحكت فى التليفون أو ضحكت الآن من غير تليفون.

وعادت الأم تقطع أفكار فاطمة: كلمة واحدة تريحى قلبى يا حبيبتى.. وتسأل ابنتها فى ذل ورجاء واسترحام:

كلمة واحدة.. ارحمينى يا فاطمة.. قولى لأمك حبيبتك.. الجوابات دى بتاعتك..؟

وقالت فاطمة: مش بتاعتى..!

وأدركت الأم أنها لا تستطيع أن تواجه فاطمة وحدها.. إنها أمام فتاة من نوع غريب.. إنها لم تعد قادرة على أن تركب زورقا فى بحر من الخبث والشقاوة.. لابد أن يقف أى إنسان آخر إلى جوارها.. أو يحدث لفاطمة ما يحدث لكل بنت أخرى.. الستر يا رب.. مش بتاعتها.. بتاعتها.. لا يمكن أن يدوم هذا الحال.. إن حدود الصبر قريبة جدا.. إن الأم أصبحت حائرة محاصرة بين السكوت التام، السكوت الأليم، وبين الكلام الذى هو أشد ألما.. أو تنتهى فاطمة نفس النهاية.. إنها كأى بنت.. وهى فى هذه السن.. وفى هذه الظروف يجب أن تنتهى.. واليوم قبل غد.. ولا داعى لأى امتحان.. ففاطمة ليست فى حاجة إلى شهادة.. أو أن الشهادة محتاجة إلى نوع آخر من البنات غير فاطمة.

وكان لابد أن تدعى الأم أنها استراحت لما سمعته من فاطمة من أن هذه الجوابات ليست لها.. طبيعى ليست لها.. إنها تعرف فاطمة.. وأن تكون هذه هى الحقيقة..

وخرجت الأم من غرفة فاطمة بعد أن أعلنت البنت براءتها من هذه الخطابات.. أما من تكون صاحبة هذه الخطابات فليس مهما اليوم.. وإنما المهم هو الذى سيحدث وهو الذى سيريح الأم من النظر فى قضية لا أول لها ولا آخر.

وقبل أن تخرج الأم، اغتصبت ابتسامة راحة، وخلطتها بابتسامة يأس ونادت فاطمة بصوت هامس مجروح: تعالى يا حبيبتى.

وجاءت فاطمة وعادت الأم تقول لها: بعد الظهر سيجىء لنا أقارب من الإسكندرية.. البسى فستانك الجديد واقعدى نصف ساعة أو ربع ساعة.. على كيفك.. وسلمى عليهم وخلاص..

وهزت فاطمة رأسها ومصت شفتيها ورفعت كتفيها.. وأمها تعرف ما معنى هذه العبارات الصامتة.. معناها أن هذا المنظر قد تكرر كثيرا.. وأن فاطمة فى حالة يأس.. فقد حاولت أن تقنع أمها بالعدول عن هذه الطريقة.. ولكن أمها ترفض فى كل مرة.. فمن المؤكد أن الذين سيحضرون بعد الظهر ليسوا من أقاربها.. ومن المؤكد أن هذه ليست زيارة.. والدليل على ذلك هذا التغيير المفاجئ فى حالة أمها.. من الغضب والبكاء إلى الابتسام والعناق.. ويا حبيبتى ويا روحى.. وفستانك الجميل.. أشيك فستان فى العيلة.. وفى العمارة وفى القاهرة.. وإشارات إلى ضرورة أن تأخذ دشا باردا.. ويا ريت عندها وقت لتصليح شعرها

عند الحلاق.. ومش فاهمة دايما فاطمة تاكل أظارفها الجميلة ليه؟ إيه اللى عاجبها فى الجزم الزحافى..

وفاطمة ليست غبية.. ولكن أمها تنسى.. تنسى أن هذا الكلام كله يتكرر فى مناسبات متشابهة.

ولنفسها تقول فاطمة:

إذن هو عريس جديد بعد الظهر.. يا ترى شكله إيه هذه المرة.. أنا لا أعرف من أين تجىء أمى بهذه العرسان؟ وكلهم من لون واحد.. من طراز واحد.. شكل واحد.. نفس الابتسامة.. وقطرات من العرق على الجبهة.. وضغطة خفيفة من اليد.. وأحيانًا رجفة بسيطة.. رجال ويرتجفون لرؤيتى.. لرؤيتى أنا.. ليه؟ أنا لا أرتجف وهم يرتجفون؟ ولماذا يريد الزواج شبان لا أعرفهم.. وكيف يقبلون أن يتزوجوا فتاة تدخل وصدرها أمامها.. وتمد يدها التى تكاد تسقط من كتفها.. وبأطراف أصابعها تمس أيديهم.. ثم تجلس على أقرب مقعد.. وتسوى فستانها وترفع رأسها فى بلاهة وكأنها تقول: أفندم.. نعم.

وهى تتمنى أن تقف على الكرسى.. وتضع يديها فى خصرها وترقع بالصوت البولاقى وتقول: نعم يا دلعدى.. نعم.. نعم.. نعم يا روح أمك..

وتمد يدها إلى قدمها وتنزع الحذاء وتضرب العريس حتى يهرب من النافذة.. تماما كما حدث فى مذبحة المماليك.. عندما هرب أحد المماليك بحصانه من النافذة.. وتتمنى لو تمسك كل عريس وتعلقه من الكرافتة.. التى تكون ربطتها صغيرة دائما.. ليه؟ لماذا يخنقون أنفسهم هكذا.. لماذا يغسلون وجوههم.. ويحلقون لحاهم بهذه الدرجة من النعومة.. التى لاحظت أن أحدهم كان غارقا فى الكولونيا.. وكولونيا من نوع غريب.. وتنتقل عينها إلى حذائه.. فتجده عادة نظيفا جدا.. مرآة.. إنه يضع رجليه متباعدتين جدا.. الرجل الذى يجلس منتفخا.. أو مفككا بهذه الصورة.. الذى يقول: أفندم.. وينطقها بخناقة أبناء نادى الجزيرة.

وكل شىء فى رأس فاطمة يدور.. ويروح ويجىء.. نوع غريب من الحمام الأبيض والأسود.. ويطير ويعود إلى أبراج عقلها ويتضارب ويبيض ويفقس وتظهر أفكار سوداء زاحفة كالأفاعى وتبتلعه.. وفاطمة لا تستطيع أن تمد يدها فتسد الأبراج فى وجوه الحمام.. أو تطرد عنها هذه الأفاعى.. التى فى ملامح أختها وبنات خالتها.. وزميلاتها فى المدرسة..

فى آخر مرة جاء عريس.. وكان أحد أقاربها.. ولم تكن تعرف فاطمة.. أنه عريس.. لا شىء يدل على أنه عريس.. إنه جاء بالقميص والبنطلون حضرته رياضى..

وتمضى فاطمة تقول لنفسها: الرياضيون.. هذا النوع من الناس.. الرجل الطويل العريض.. القوى.. أكره العضلات.. وأحس أن كل صاحب عضلات ليست له أعصاب.. والعضلات صفة حيوانية.. الحيوانات كلها لها عضلات.. والإنسان فقط هو الذى عنده أعصاب.. وعضلاته الآن أصبحت سيارات وطيارات.. ومدافع وقنابل.. والأعصاب هى التى تصنع الصواريخ.. والعضلات لم تصنع شيئا.. هذه أفكار غريبة كونتها سرا.. ولا أعرف من هو صاحب هذا الرأى.. وإن كنت لا أفهمه بوضوح لكن أحسه بوضوح.. لا عضلات.. لا أيدى قوية.. لا سيقان نحاسية.. لا صدور غابية مليئة بالشعر كالغابات.. لا صحة.. لا قوة.. إن هذا الرجل الرياضى.. يجعلنى أحس أنه ليس فى حاجة إلى أحد.. ليس فى حاجة إلى فاطمة.. ولا أية فتاة أخرى.. إنه يحتاج إلى من يصفق له.. إلى من يمشى فى ظله.. وراءه بين الألوف من الناس الذين يجدهم فى النادى.

وجاء هذا العريس الرياضى.. وصافحته فاطمة.. ثم صفعته على قفاه.. وصفعها على قفاها.. وصرخت من يديه.. وأحست فاطمة بيد من حديد خافت.. وارتجفت.. ولا تعرف فاطمة أن كل هذا الشعور لذيذ.. ولكنه غريب.. إنه أقوى جعلها تخاف منه.. لكن هذا الخوف لم يفزعها.. وإنما هزها.. أثارها.. شىء يشبه لمس التيار الكهربائى.. وأحست بهذه اللمسة الكهربية فى قلبها.. أو بالقرب منه.. ولكن سرعان ما تغلبت على هذا الشعور أو نسيته.. وعادت تضربه على قفاه.. وأنه أحد أقاربها وهى تراه وتعرفه وتعاشره منذ أكثر من عشر سنوات.. وقد أصبح طبيبا الآن.. ولكنه فى عينى فاطمة لا يزال محسن الذى تلعب معه.. وتلقى عليه الماء.. وترميه بالورق على شكل كور.. وتفتش جيوبه وتسأله ببرءاة عن غرامياته.

وحاولت أم فاطمة أن تنهى هذا اللعب.. ولكن فلت الزمام من يدها.. بينما كان أبو العريس وأمه فى الصالون.. ولم تجد الأم دليلا على فشل هذا الزواج من دعوة والد العريس ووالدته لرؤية محسن وفاطمة وماذا يفعلان.

لقد خرجوا جميعا ليروا فاطمة وقد لفت منديلا على عينى محسن.. وربطت ذراعيه إلى الخلف وهو واقف ينتظر.. ثم ربطت رجليه.. وطلبت منه: يا شمشون الجبار تحرر من قيودك..!

ومزق شمشون الخيوط من يديه ورجليه بسهولة..

وتضايقت فاطمة.. من هذه اللعبة..

وهى لا تعرف ما الذى ضايقها.. لكن قوته هى التى ضايقتها.. إنه رجل بلا مشاكل وبلا متاعب.. كل شيء يستطيع أن يتغلب عليه.. إنه يحطم القيود والحبال والعقبات.. ليس فى حاجة إلى أحد.. ولو كان فتاة ما احتاج إلى خادمة أو صديقة ترفع له سوستة الفستان أو تزرر له الزراير.. إنه قوى.

.. إننى أكره الأقوياء.. أكره الذى يجعلنى أشعر بأننى لا ضرورة لى.. إننى لا فائدة منى.. إنه يمكن أن يستغنى عنى فى أى وقت.. ولا يمكن أن يتم الزواج على هذا الأساس: لقد تزوجت فاطمة، لأن فاطمة لا قيمة لها.. لا دور لها فى حياتى..!!

لا يمكن أن أتزوجه.. هكذا تقول فاطمة لأمها وهى تسألها.. عن: إيه رأيك بقى فى محسن.. مفيش أحسن من كده.. ابن عمتك.. دكتور قد الدنيا.. وشاب.. وبتلعبى معاه وإنت لسه قد كده..

والأم تقول: يا رب ساعدنى.. على البت دى..

ولم تكن الجوابات قد ظهرت بعد وإنما الأم تطلب المساعدة من اللّه منذ وقت بعيد.. وكأن قلب الأم كان يعرف أن هناك مشاكل ستحدث.. ومصائب ستقع.. ولابد من التعجل بزواج فاطمة بأى شكل محترم.. وكل الأشكال محترمة.. ولكن فاطمة هى العقدة.. فيارب ساعدنى على فاطمة.

وكان رد فاطمة: العيل ده.. إنت فرحانة علشان بيلعب حديد.. إيه ده.. حصان حمار.. إيه ده.. يا شيخة بلا قرف.. ده حتى دايما يتفتف فى الكلام.. قولى له يمسح جزمته.

وتضحك فاطمة كأن أمها هى التى قالت لها نكتة قبيحة.. فهى تضحك وتدارى كسوفها بين يديها وتندهش كيف أن أمها هى التى أطلقت هذه النكتة.. ودون خجل.

كل العرسان لهم نفس الوجوه.. ونفس المواقف.. العرق والرجفة وأفندم ووجوههم فى الأرض.. والإصرار على أنهم لا يدخنون ولا يعرفون البيرة ولا الرقص.. إيه الحيوانات دول عايشين ليه.. رجال وعندهم حرية والمجتمع لا يفتح فمه أمام أى تصرف لهم.. ومع ذلك يصرون على أن يكونوا بنات بلا حرية وبلا شجاعة ولا جرأة ولا ممارسة لحرياتهم.. كلاب كذابون.. منافقون.. ومن الذى

يرضى برجل لا يدخن.. ولا يشرب.. ولا يرقص.. كيف تكون رائحة رجل يستخدم الكولينوس عشرين مرة فى اليوم.. كولينوس هو سر السعادة الزوجية.. والنوم مبكرا.. من المكتب للبيت.. ومن البيت للمكتب.. هذه السعادة الزوجية.. أن يكون العريس معجبا بطبيعة أمى وعقلها الذكى.. أمى عقلها ذكى.. من إمتى؟

كل العرسان متشابهون.. إنهم يذهبون إلى أبى عادة.. وبعد ذلك يذهبون إلى أمى.. ثم الصالون.. وأدخل أنا ولا أعرف ماذا يقال.. فقد مللته.. ولكنى أعرف ماذا أقول بعد ذلك: لا مش عاوزه..

ـ إزاى يا بنت؟

ـ أهو كده تجوزونى بالقوة..

ـ اعقلى يا فاطمة.. الناس يقولوا علينا إيه..

ـ ما يقولوا.. وهم مش بيقولوا..

ـ حيقولوا إيه يا بنت..

ـ انكم عاوزين تجوزونى بالقوة.. زى ما أكون عامية.. ولا عرجة..

ـ يا فاطمة اعقلى..

ـ أنا عاقلة.. ما أعرفش مين اللى ما عندوش عقل..

ـ يا قليلة الأدب.. أنت بتشتمينى يا بت.. هيه دى التربية.. بتشتمينى يا فاطمة.. أنا اللى واخدة كل حاجة فوق دماغى.. أنا اللى مش راضية أخللى أبوكى يكلمك كلمة واحدة.. الحق على.. أنا اللى أستاهل.. إنت حرة بقى.. وخليك منك لأبوك.. وآخرتها تشتمينى..

ـ أنا مش باشتمك.. أنا عارفة إنك مالكيش دخل فى جوازى.. ده حد تانى.. وأنا عارفة مين الحد التانى ده..

ـ حيبقى مين.. غير أبوك..؟

ـ ما أعرفش..

وينتهى كلام الأم وفاطمة فى كل مرة بأن تهددها أمها بإحالة هذه المشكلة إلى الأب.. ولكن الأب له طريقة خاصة فى حل مشاكل البيت.. إنه يضرب.. لا يعرف غير الضرب والطرد.. أو التهديد بأن يسكن لوحده.. وأن يتزوج لأنه تعب.. والحقيقة أن الأب لم يتعب.. لأنه لم يدخل طرفا فى أى مشكلة.. إنه يتخذ القرار ويطالب بتنفيذه فورا وبلا مناقشة.. وغالبا ما يكون رأيه خاطئا.. ولا يتمشى مع

العقل.. فهو عصبى.. مندفع.. ويكره أن تكون هناك مشاكل بأية صورة من الصور.. فإذا تقدم لفاطمة عريس.. مادام من عيلة ومادام شابا مستقيما يبقى إيه المانع.. لازم الجواز يتم وفى أسرع وقت.. وواضح أن فاطمة ليست فى الحساب.. ولكن الأم تضع فاطمة فى الحساب.. وتضعها بحساب أيضا.. وهذا هو الفارق الوحيد بين الأم والأب.. ولكن فاطمة تفضل الأب.. لأن الأب سيكره فاطمة على شىء لا تحبه.. يكرهها على الزواج. إن هذا الإكراه يريح فاطمة من الوقوف كل أسبوع أو كل شهر كجاموسة أو كبقرة أو كسيارة أو كقطعة أرض أمام ناس لا تعرفهم.. يعاينونها.. ويتفقون على الثمن.. ويخرجون.. وكأن فاطمة لا شىء.. إن هذا الإكراه يريح فاطمة من الهوان.. يريحها لأنه يقضى عليها تماما.. يقضى على عقلها وعلى قلبها.. إنه حكم بالإعدام.. بإعدام العقل والقلب وكل أمل.. إنه موت بالنسبة لها.. ولكنه موت أفضل من هذه الحياة التى كلها هوان وذل..

ففاطمة تتمنى هذه المرة أن يكون أبوها موجودا مع هؤلاء الأقارب.. ليقول لها: يا فاطمة خليك فى أوضتك.. لمى هدومك وأنا جاى لك بعد ساعة.. يكون كل شىء جاهز.. لأننا رايحين بنها.. بيتك هناك مبروك يا بنتى مبروك!

بس كده تريد أن يختار لها الزوج والبيت والبلد.. ويضع منديلا على عنقها ويربط يدها وراء ظهرها.. ورجليها بالحبال.. ويحملها بعضلاته ويرميها فى عربة الكلاب.. مع الكلاب أو فى صندوق الزبالة.. مع كتبها وكراريسها الممزقة.. ومع خطاباتها الممزقة.. وتنتهى مأساة فاطمة ومئات الألوف من البنات فى سنها.. وكل ذلك لأن هناك نوعا من الآباء لا يتصورون أن هناك وجهات نظر أخرى.. أن الأب له حق.. وأن البنت لها حق أيضا.. وأن الأب ليس إلا فردا كبيرا محترما.. ولكن هناك أفرادًا أصغر ويجب أن يحترموا أيضا.. ولكن الأب يتصور لأنه أب، ولأنه صاحب بيت، ولأنه أطعم وألبس.. فهو صاحب حق فى كل شىء.. وليس لأحد أى حق.. لا الأم، ولا الأولاد.. ولا البنات.. هذا هو الطغيان.. طغيان باسم العاطفة.. باسم الأبوة التى تمتص كل حريات وإنسانية كل فرد فى هذه العائلة.. وأية عائلة أخرى.

ولا تعرف فاطمة كم مضى من الوقت.. حتى جاء الظهر ودخل فيما بعد الظهر.. ودقات هادئة على غير العادة على باب غرفتها.. وفى نهاية صوت الأم: هه.. خلاص يا فاطمة..؟

ولا تعرف فاطمة ماذا تقول.. إنها لا تزال ممددة على السرير فى بيجامتها المفتوحة الصدر.. ووضعت ساقا على ساق.. وقد انتهت أخيرا من حلمها الطويل.. لقد كانت تحلم بأنها مع «جاكلين فورد» فى جزيرة.. جزيرة لا تعرف اسمها.. وهل من الضرورى أن تعرف أسماء الجزائر التى تحلم بها.. جزيرة صغيرة.. بها عدد قليل جدًا من النخيل.. وعلى رأسها برنيطة من الخوص.. وترتدى مايوه بيكينى.. وقد لاحظت أن المايوه واسع.. لقد نقص وزنها إلى النصف.. ويبدو أن هذا هو أملها.. وبشرتها نحاسية قاتمة سوداء.. وأسنانها بيضاء.. وحول رقبتها عقود من الورد الأحمر.. وفى أذنيها عجلتان من الذهب.. وفى أنفها.. لقد أحست أن أنفها مثقوب.. وبه عجلة.. من الذهب.. وفى أصابعها خواتم.. ضخمة..

وبينما هى تسير فى رمال الجزائر والجو حار.. والسماء صافية.. ليست زرقاء، ولكنها بيضاء، كسقف غرفتها.. سمعت صوتا وراءها، لقد كان طفلها الصغير.. إنه جميل.. له عينا والده.. وله شفتاه.. ويصفعها بالقلم بشىء من الكبرياء.. تماما كما فعل جلين فورد مع ريتا هيوارث فى فيلم جيلدا.. نفس الملامح المتكبرة.. ولكنه ليس قويا.. إنه لا يكاد يمشى حتى يسقط.. ويسقط قلبها معه.. وترفعه إلى صدرها.. وتنفض الرمل عن رجليه الصغيرتين..

ـ هه يا فاطمة.. مش خلاص يا حبيبتى..

وتتشبث فاطمة بصورة الجزيرة حتى لا تهرب منها.. الجزيرة طائرة فى الهواء كأنها بالونة.. وفاطمة تطاردها حتى لا تهرب عند سماعها: هه.. ويا فاطمة.. ومش خلاص.. وجاء طفلها وركب كتفها وراح ينادى: بابا.. ولكن بابا كان مشغولا بصيد السمك.. وكان السمك غريبا.. إنه يمسك السمكة ويضع فى أنفها السنارة.. مع أن السمكة جاءت من البحر وألقت بنفسها بين يديه.. مش فاهمة فاطمة.. ولكنها سعيدة بالجزيرة.. بالطفل.. بالورد.. بالرجل.. بتونى بركنز.. إن جلين فورد قد اختفى وظهر تونى بركنز.. إنه رقيق.. نحيف.. وجهه جميل.. عيناه.. وخصوصا عينيه.. إنها لا تنسى كيف كان طبيبا عاطفيا ساذجا فى فيلم «هل تحبين برامز».. إنه يسألها نفس السؤال. ولكنها تؤكد له أنها تحب برامز.. وأنها تحبه هو.. وأنها تعذبت من أجله فى هذا الفيلم.. وأن الفتاة كانت قاسية عليه لأنها أكبر منه.. لأنها لا تفهم فى الحب ولكنها تحبه.. هه يا فاطمة وبعدين وينفتح الباب.. كما تضىء الشاشة لانقطاع الشريط.. ويصفر الجمهور.. نفس الصفير كان

فى أذنى فاطمة لتنهض.. وتخلع البيچاما.. وتمط شفتيها لصرخة أفلتت من أمها.. عندما لاحظت أن فاطمة قد ارتدت البيچاما على اللحم.. مع أن الجو ليس حارا..

ونظرت لها فاطمة.. كأنها تطلب منها أن تخرج من الغرفة لكى ترتدى ملابسها.. وفى يأس هزت الأم رأسها وكأنها تقول: حاضر يا ست فاطمة.. حاضر كلها كام يوم وربنا يريحنا منك..

وعندما أقفلت الباب وراءها.. نظرت فاطمة إلى السرير.. لا يزال هناك نفس التجويف.. فى المرتبة.. إنه يشبه الزورق الذى كانت تراه فى جزيرة الأحلام.. هذا التجويف يشبه الحضن.. حضن من الحرير المشجر.. كانت تنام فيه فاطمة.. كل ليلة.. وأحيانا يصبح السرير كله حضنًا كبيرًا.. إن فاطمة تشعر بحنين غريب إلى غرفتها.. إنها تتمنى أن تأخذها معها إلى المدرسة.. إنها تتمنى أن تصبح هذه الغرفة صغيرة جدا لكى تحضنها وتقبلها.. تحتضن دولابها.. ومخدتها.. ومرتبتها ونافذتها.. والقطعة من السماء التى تظهر من نافذتها.. وتتمنى أن تكبر هذه الغرفة لتتسع للدنيا كلها.. فيكون فيها حمام سباحة.. وملعب تنس.. وحديقة صغيرة.. ومرجيحة وألف قبقاب ملون وعصافير.. وكلب كبير جدًّا يجر هذه المرجيحة وينتقل بها من مكان إلى مكان.. وأحيانا تتمنى أن تمشى مغطاة بأوراق التوت.. وفى كل مرة تسمع صوت أحد يهمس وراء أشجار الحديقة.. فإنها تصرخ وتطلق كلبها على هذا الشاب القليل الأدب الذى جاء يتلصص عليها.. ويطارده الكلب ويمسكه ويأتى به أمامها.. وتجلس فاطمة فى ملابس رجل يشبه والدها وتقول له.. مين اللى جابك هنا.. يا قليل الأدب.. أنت فاكر نفسك بقيت راجل.. أنا اللى أكلتك وأنا اللى شقيت فى تعليمك.. أنت دلوقت عايش فى بيت.. فى الدور السابع.. وفى أوضه لوحدك.. وعندك نور وخدامين وفى جيبك مصروف.. أنا كنت فقير.. أبويا كان يضربنى بالجزمة.. وكنت أقوم أدِّى له الجزمة علشان يضربنى.. وكان برضه يضربنى.. سامع يا قليل الأدب.. أنا عارف مين اللى خسر أخلاقكم.. أنا عارف أمك.. يا ابن أمك..

ويجىء صوت الأم:

ـ هيه وبعدين يا فاطمة.. أنت كل مرة تعملى فضيحة يا فاطمة.. مش خلاص..

ـ لا..

ـ أمال بتعملى إيه يا فاطمة..

ـ بأغير هدومى..

ـ لسه؟..

ـ أيوه لسه.. أخرج عريانة..

ـ يا ستى ياللَّه.. بلاش طولة اللسان.. ياللَّه أحسن أبعتلك أبوك..

ـ ابعتيه.. اشمعنى هو اللى ما جاش يخبط على الباب.. دبيحة العيد.. ابعتى الجزار..

ـ وألقت فاطمة بنفسها على السرير بعيدا عن الحضن الحريرى المشجر.. فإنها تريد أن تحتفظ به لأحلامها فى الليل.. وراحت تبكى.. ساعات لا أول لها ولا آخر على هذا الجانب من السرير.. بكت فاطمة، لو كان هذا الزورق الصغير يحتفظ بدموعها لامتلأ.. لو كانت هذه الغرفة تحتفظ بآهاتها لطارت.. إنها كانت تحلم بأن تنتفخ فى الهواء فتجىء سحابة كالبالون تخطفها من هنا..

ـ فاطمة..

ـ نعم يا بابا..

ـ لسه..؟!

ـ حالا يا بابا..

ـ ياللَّه يا أمورة.. عندك ضيوف.. ما يصحش..

ـ حاضر يا بابا..

ـ أدخل؟

ـ لسه يا بابا..

ـ أمال ماما بتقول إنك لابسه ومش راضية ليه؟

ـ بس الجزمة..

ـ مالها..

ـ شوفى غيرها وتعالى.. وأنا واقف مستنيك..

ـ حاضر..

ـ مش سامع.. بتقولى لا؟

ـ أنا يا بابا ما قلتش..

ـ لا مش أنت يا حبيبتى دا أنا بأكلم ماما..

ـ ....

فاطمة لا تعرف كيف سيكون وجه أبيها عندما تفتح الباب.. إن وجهه عادة

مكشر.. وعادة متضايق.. من شيء.. وعادة يحس كل إنسان يجلس معه، بأنه هو السبب.. وأنه يحب أن يبتعد عنه فورا.. أو يعتذر له فورا.. أو يضربه فورا..

إن المسافة بين فاطمة ووالدها هذه المرة قريبة جدا.. فهو فى هذه المرة أمام الباب.. وهو فى هذه المرة يقف مع أمها فى صف واحد.. ضدها..

ونظرة أخيرة إلى المرأة.. لنرى فاطمة المسكينة.. مسكينة والله يا فاطمة.. إنهم يعاملونك كأنك فتاة فى الثلاثين أو الأربعين، لم يتقدم لك عريس واحد.. وأن كل يوم يمضى هو نهاية حياتك.. وأن عريسا فى اليد خير من عشرة فى الشارع.. عانس فى السادسة عشرة.. ومن الذى جعلك عانسا.. لا أعرف.. وحشة أبدا حلوة.. كبيرة.. أبدا.. إيه بس.. مش عارفه.. اخرجى يا فاطمة.. شوفى وعدك..!

وفتحت فاطمة الباب لترى شبحا لابد أنه والدها.. وتمتد يد غليظة حول ذراعها.. وتسحبها كأنها نائمة.. كأنها ذبيحة وكأنه جزار.. كأنها جاموسة تدور معصوبة العينين فى ساقية الزواج.. اقعدى يا فاطمة.. قعدت مكشرة ليه يا حبيبتى.. ابتسمت.. مش تسلمى.. سلمت.. حلوة فاطمة.. جميلة قوى.. إزاى مش عارفه.. مش عارفه توتو.. مين توتو؟.. مين توتو..؟

فاطمة الآن تجلس فى مقعد إلى جوار الباب. إنها دائما إلى جوار الباب.. فى غرفتها.. والباب الخارجى.. إنها تحس دائما أن أحدا سيطردها من البيت.. أن أحدا سيتسلل إلى غرفتها لأى سبب ويفتح النوافذ والأبواب ويلفها فى ملاية السرير ويصنعها كرة ليضربها أى أحد.. غير مطمئنة فى هذا البيت. ولا مع هذا الأب الجامد.. وهذه الأم الموسوسة.. مع أن الذى فعلته لا شيء.. إلا أنها فتاة وإلا أنها فى السادسة عشرة.. وأنها تسرح وفى حالة عزلة.. وعندها خطابات ومكالمات تليفونية.. ودماغها ناشفة ولها رأى وشخصية.. ومن جيل آخر غير جيل أمها.. بس آدِى كل ما هناك..!

وتوتو الذى أمامها هو ابن خالتها.. أو ابن عمة جوز خالتها.. قريبها.. هكذا يقال لها.. من لحمك ودمك.. وفاطمة مندهشة كيف أن أمها تستخدم مثل هذه العبارات.. لحمك ودمك.. وإيه يعنى لحمك ودمك.. طيب ماهى أمها من لحمها ودمها.. وأبوها أيضا.. وإخوتها.. وإيه يعنى.. ما الفرق بين هذا اللحم وأى لحم آخر.. ودم هذه العائلة ودم أية عائلة أخرى.. إن فاطمة لا تنسى الفيلم الذى رأته منذ شهور.. وتقف فيه صوفيا لورين.. ابنتها الصغيرة من عدوان الجنود.. ثم

اعتدى الجنود عليها.. وبكت صوفيا لورين.. وهى تقول: دمى ولحمى.. ابنتى.. اعتدوا عليها..!

إن صوفيا لورين تحمى دمها ولحمها.. ولكنها لم تقدم دمها ولحمها لأحد من الناس كده بالقوة.. والدم واللحم.. كلمات لا معنى لها.. والدم واللحم جلس على المقعد.. فى حالة انتظار لأى شىء.. فستان من الشيفون.. آخر موضة.. وجزمة بيضاء.. كل شىء أبيض.. وتضايقت فاطمة عندما لاحظت أنها ارتدت ملابس بيضاء.. كأنها عروسة.. أو كأنها توحى لأمها وأبيها أنه لا مانع عندها من أن تكون عروسة لواحد لا تعرفه.. واحد لا تعرف من أين جاء ولا لماذا جاء.. كان فى إنجلترا وتعلّم ثم عاد إليها.. عاد من إنجلترا ليتزوج قريبته.. قريبة خاله.. وقريبته من بعيد جدا.. وكانت فاطمة تتمنى أن تضع ولو زرارا واحدا أسود.. ولو حزاما أسود.. نسيت فاطمة..

وجاء صوت أبيها الغليظ يذكرها: أنت يا فاطمة يا بنتى مش تفرفشى كده.. ولاّ بس لما ييجوا صاحباتك تخلوا البيت هيصه.

ويضحك بالقوى.. ويسحب الضحكة قبل نهايتها.. كأنه هو الآخر أحس بأن ضحكته كاذبة.. أو خشى بأن تنظر إليه فاطمة من تحت لتحت فتنبهه إلى أنه كذاب..

وعاد يقول: أهى فاطمة دى غير إخواتها بالمرة.. يمكن أنا باقعد خمس دقايق فى اليوم.. لكن بأحس دايما زى ما تكون معايا.. أو زى ما أكون معاها:.. وعمرى ما اشتكيت منها.. إخواتها عفاريت.. لكن هيه حاجة تانية وعلشان كده أنا دايما مشغول بالبنت دى.

كذاب.. كذاب.. كلمة ترن فى رأس فاطمة.. كذاب.. إننى لا أراك ولا دقيقة فى أى يوم.. أنت كمجلة الهواء.. أسمعك ولا أراك.. وأنت خايف على.. تماما كما تخاف على أى واحد من أولادك.. ولأننى بنت ولأنك صعيدى.. وأنت اشتكيت منى ألف مرة.. وأقربها النهاردة بالذات.. اشتكيت من قلة أدبى.. وأنى أقفل الباب على نفسى وأنى لا أفتح الباب بمجرد وقوفك.. مهما كنت عارية.. نائمة.. كأننى زوجتك.. تضرب الباب برجلك فتجد أمى جالسة فى السرير تماما كاللعب اليابانية.. كذاب..

وجاء صوت آخر يقول وهو يتنحنح: أيوه.. أنا سمعت كده وأكثر من كده.. وضحك هو الآخر.. إيه يعنى سمع كده.. سمع من مين.. وإيه يعنى أكثر من كده..

كلمات لا معنى لها.. ولا أحد يضحك عليها.. ورفعت فاطمة عينيها هذه المرة.. ونظرت إلى مصدر الصوت.. إلى العريس.. إلى القريب البعيد.. وباختصار كان فى نيتها أن توزعه على كل الحاضرين.. ولكنها ألقته كله فوق رأس اللى سمع كده.. سمع مين.. فى لندن.. من مين.. فى زحام لندن وبنات لندن.. سمع عن فاطمة.. واهتم بما سمع عن فاطمة.. آدِى فاطمة.. إيه اللى بتعمله فاطمة أكثر من النوم والنوم والنوم.. والبكاء والسرحان.. والأحلام الطويلة.. والراديو تحت المخدة.. وقبلة للمخدة.. وقبلة للتليفون.. ونظرة إلى ذراعها الأبيض المليان وتقبله هو أيضًا.. وأحيانًا تتمنى أن تطبع على خدها قبلة.. مش عارفه إيه الشعور الغريب الذى ينتاب فاطمة وهى تنظر إلى نفسها فى المرآة.. إنها تتمنى أن تحتضن نفسها.. هذا هو كل ما تفعله فاطمة كل يوم.. إيه الغريب فى تصرفات أو حياة فاطمة ولا حاجة..!

كذاب أنت أيضًا.. كذاب.. كلكم كذابون.. جزارون.. سفاحون.. تجار ماشية.. تجار أبقار.. تجار لحم ودم..

وعاد أبوها يقول وهى تنظر إليه هذه المرة كأنها أفاقت من حلم طويل وكأنها قررت أن تضرب الذين أزعجوها: أحكى لحضرتك حكاية غريبة.. فى مرة من المرات وفاطمة صغيرة جدًا «ويضحك بقوة» ـ كأن فاطمة مش مفروض أن تكون صغيرة أو كأنها كانت صغيرة أكثر من اللازم، أو بيضحك.. ويقطع ضحكته.. والآخر يتابعه بضحكة أو بحشرجة: خد بال حضرتك.. وهيه كانت بنت ناجحة قوى.. ويظهر البنات أنصح شوية من الأولاد.. زى حضرتك ما أنت عارف.. أنت رجل درست فى أوربا «وينظر إلى فاطمة نظرة خاصة.. معناها اسمعى وخدى بالك من الكلام..» وعارف نشأة الأولاد.. إيه الفرق بين البنت والولد.. خد بال حضرتك.. فى يوم لقيت فاطمة قاعدة تعيط.. نحاول نسكتها مفيش فايدة أبدًا.. مالك يا حبيبتى.. مالك يا بنتى.. «كذاب.. كذاب».. تعالى هنا على حجر بابا حبيبك «كذاب» تعالى أبوس إيدك.. أبوس رجلك «يا ريت هى تبوس إيدك ورجلك».. تفتكر فاطمة كانت زعلانة ليه.. زعلانة علشان كل واحد بيدخل من الباب يشيلها ويقعد يبوس فيها وهى تصرخ.. و«يضحك».

وجاء صوت العريس الذى درس فى أوربا: الأطفال فى السن دى بيبقوا حساسين جدًا، يمكن السبب يا بيه هو إن البنت الصغيرة.. فاطمة هانم.. صدمت

صدمة عاطفية.. وإن واحد من اللى كانوا بيشيلوها ويقبلوها جرح شعورها.. لأن الطفل برضه عنده مشاعر خاصة..

وقاطعه الأب: مضبوط كده.. اللى حصل يا سيدى هوه إن واحد من الأولاد قرايبنا كان عنده شنب طويل.. أو ذقن.. والشعر جه فى بقّها.. قعدت تصرخ..

ونظرت فاطمة فوجدت العريس الذى درس فى أوربا يمسح شفتيه بيده.. كأنه هو الآخر يشير إلى أنه بلا شارب.. حركات سخيفة وكلام أسخف.. وأن المطلوب من فاطمة دلوقتى.. أنها تقول: آه.. أتجوزه أنها تقوم وتأخذه بالحضن.. من غير مقدمات.. مفيش حاجة اسمها احترام الإنسان.. احترام الإنسان لنفسه.. لغيره.. لإنسانيته.. إزاى بس يا ناس.. يا متعلمين هنا وفى أوربا.. واحدة تمد إيدها لواحد لا تعرفه لتكون زوجته وأم أولاده طوال عمرها.. إزاى.. ليه.. تعرفه منين.. بس علشان أتعلم فى أوربا.. وإيه يعنى.. بس علشان قريبها.. علشان مالوش شنب.. ويقترب أبوها عندما يدخل الخادم بعصير الليمون: مالك يا فاطمة؟

ـ متضايقة..

ـ من إيه؟

ـ تعبانة (بإصرار أنها تريد أن تقول أى حاجة).

ـ أنت بتسهرى يا فاطمة كتير.. لازم البنت ترحم نفسها شوية.. وحاولت الأم التى ظلت ساكتة طوال الوقت أن تصلح الجو.. أن تقوم بدور المروحة فى هذا الجو الحار.. الخانق.. فقالت وهى تضحك: إنت عارف بقى.. دلع البنات.. البنات اليومين دول حاجة تانية.. أرق منا.. إحنا بالنسبة لهم زى الرجالة.. دول ما بيستحملوش حاجة أبدًا.. شوية هوا يناموا فى السرير.. شوية مية سائعة يبقى مغص.. أنا عارفه إيه ده.. وفاطمة بالذات يعنى رقيقة أكثر.. واللّٰه يا دكتور ـ «هو ده كمان دكتور يا دى المصيبة!» ـ فاطمة محتاجة لعناية خاصة..

ورد الدكتور: ضعيفة شوية مش كده.. وأكلها..

ـ يعنى مش بطال.. معظم الحاجات بتأكلها.. بس فيه أطعمة ما تحبهاش أبدًا.. واللبن والجبنة وأى حاجة معمولة باللبن.. والكوسة.. والفواكه معظمها ما تكلهاش.. الموز خصوصًا.. والمانجو والبلح.. أنا عارفه بقى..

ـ ويا ترى بتنام كويس..

ـ أنا عارفه. أسألها..

ـ الهانم بتنام كويس..

ـ ردى يا فاطمة..

ـ نعم يا ماما..

ـ بيقولك يا حبيبتى.. ردى عليه.. الدكتور بيسألك.

ـ أيوه كويس خالص..

ـ إن شاء اللّه كويس.. فرصة سعيدة.. وأنا مضطر أنزل دلوقت علشان عندى موعد.. لكن أنا سعيد جدًا.

ـ كده مرة واحدة.

ـ معلهش كويس قوى كده.. فرصة سعيدة..

ـ كده.. طيب.. مع السلامة.. آه.. فرصة سعيدة..

وصوت الباب.. وصوت الجزم قبل الباب.. وصوت الأسانسير.. وصوت.. هاها.. وآه.. وليه.. ومع السلا.. والسلا.. وحروف من كلمات وكلمات من جمل مقطوعة.. تمامًا كالأصوات الغريبة التى تسبق الحكم بالإعدام على أى إنسان.. فاطمة لم تنم فى تلك الليلة التى قرأت فيها قصة إعدام شاب قتل زوج أمه.. قتل الزوج لأنه اغتصب منه أمه.. قتل الزوج لأنه اغتصب منه الأم واعتدى عليها بالزواج.. لم تنم ليالى كاملة وهى تبكى من أجل هذا الشاب المسكين.. إنها فى لحظة من اللحظات تمنت أن تتزوجه.. أن تكون له.. وتهرب به من السجن إلى أى مكان بعيد..

وصوت الباب.. وهمس.. أقفلت الباب فى وجه هذا الهمس.. لم تعد تسمع وهى تجلس على سريرها.. وقد خلعت حذاءها.. وتمنت لو أن فردة واحدة طارت فى الهواء وأصابت هذا الدكتور فى رأسه.. وسمعت دقات على بابها.. وصرخت فاطمة دون أن تدرى من الذى يدخل: مش عاوزه يا ناس.. مش عاوزه.. أنتم مش عاوزنى.. اطردونى من البيت.. موتونى.. وهوه أنا اللى قلت لكم هاتونى.. إنتم اللى جيبتونى.. مش عاوزه جواز.. مش بالقوة يا ناس.. إنتم مش طايقنى..

وارتمت على السرير وراحت تصرخ.. وتبكى وتتمرغ.. وانقفل الباب.. لقد كان أبوها.. وعاد والتكشيرة على وجهه قد تربعت بوضوح.. تربعت كأى عمدة يجلس على مصطبة أمام بيته.. وأمام المصطبة جلس الفلاحون يتشاجرون تمامًا كشعر شاربه.. منكوش ومنفوخ.. وكانت هذه الصرخات أكثر من الصفعات والشلاليت.. وكل أحذية فاطمة كأنها طارت من الدولاب وأصابته فى وجهه.. ولولا أن صرخات

فاطمة كانت صدمة.. ولولا أنها بكت وسقطت على السرير تمزق نفسها بيدها.. لولا ذلك لانهال عليها.. لسقط فوقها كبيت.. أو كجبل.. فإنه رجل عصبى ولا يعرف ما الذى يبدأ به.. هل يضربها بيديه.. برجليه.. هل يضربها بكل جسمه.. إن هذا الاضطراب والارتباك هو الذى جعله ينسحب.. إنه احتار ماذا يفعل.. هل يخلع الباب ويضربها به.. لقد فعل ذلك مرة.. لقد ضرب والد زوجته بالباب.. حادثة معروفة أيام كان عصبيًا جدًا.. وأيام كان قويًا.. وقبل أن يخجل من تصرفاته هذه أمام الناس.

ودخلت أمها إلى الغرفة.. وجلست إلى جوار فاطمة على السرير.. هى الأخرى تبكى.. وتأكدت الأم من أنها هى الأخرى قد أقفلت الباب جيدًا.. ثم قفزت من السرير ولبست حذاءها الذى خلعته وذهبت إلى زوجها.. وقبل أن تدخل غرفته فتحت دولابًا صغيرًا وأخرجت بعض الحبوب وزجاجة الكورامين.. ودخلت لتقدمها إلى زوجها فنظر إليها نظرة قرف وفيها لمحة من الارتياح.. وأعطته الزجاجة.. ونظرتها تربت عليه وتعتذر له بما حدث من فاطمة.. فهى صغيرة.. وهى لا تعرف ماذا تفعل.. وهى مدللة.. ولولا أن لها «عشم» فى أبيها ما فعلت ذلك.. وفى هذه السن تتظاهر البنات بأنهن لا يردن العرسان.. لكن على مين.. إن كل واحدة تريد أن يقف على بابها ألف عريس.. وأن تقول لهم جميعًا: أيوه موافقة.. ثم تتركهم يقتلون بعضهم البعض وهى تتفرج عليهم فى سعادة من النافذة.. وتلقى عليهم بقشر اللب.. أو بالماء والصابون.. أو تقفل النافذة فى وجوههم.

ولكن كل هذه الكلمات لم تدخل أذن زوجها.. فقد كانت أذنه مسدودة بصرخات فاطمة.. تصرخ فى وجهه هو.. وتقول له هو هذا الكلام.. دون خوف أو خجل.. إن أذنه قد امتلأت بمظاهرة صاخبة تهتف بسقوطه..

وتمدد الأب هو الآخر على الفراش.. وانطلقت الأم إلى غرفة فاطمة.. وأقفلت الباب وراءها.. وكانت فاطمة قد تمددت وغطت وجهها بملاية بيضاء.. وراحت تبكى وتندب حظها.. ثم تسكت فجأة.. كأن النور انقطع.. ثم تجلس فى مواجهة أمها وتقول لها: اسمعى لأول مرة أكلمك بصراحة.. أنا تعبت منك.. وتعبت من البنت دى.. أنتو عاوزين إيه.. جواز مش حتجوز أبدًا.. وتقدروا تحبسونى هنا.. ترمونى فى الشارع.. تضربونى.. لكن جواز لأ..

وانزعجت الأم ولكنها كانت تتوقع هذا الكلام.. ونظرت الأم إلى عينى ابنتها.. ونظرت إلى شعرها الذى أصبح منكوشا.. وإلى صدرها الذى ازداد احمرارًا.. وعليه آثار أظافر.. وأصابع..

وقبل أن تنطق بكلمة عادت فاطمة تقول: أى واحد حاشوفه هنا.. أنا حاضربه بالجزمة.. أنا كنت عاوزه الراجل الطور اللى انتو جايبينه النهاردة يناقشنى بس.. يكلمنى.. أنا وهو لوحدنا.. كنت نفسى أسمع الدكتور المتعلم يتجوزنى إزاى.. يعرفنى منين.. وأنا بقول لك دلوقت..

ـ يا فاطمة إنت مش عارفه أبوك..

ـ أبويا ماله.. أنا عاملة إيه لأبويا..

ـ هوه دماغه كده..

ـ دماغه.. كده يعنى إيه.. أختى ما تجوزتش وهى عندها ١٦ سنة. اتجوزت وهى عندها ٢٠ سنة ليه. اشمعنى.. أنا عملت لك إيه.. أنتم مستعجلين عليه ليه.. لا عاوزنى أقعد.. ولا أتعلم.. ولا أسكت..

ـ هوه رجل صعيدى..

ـ ما كانش صعيدى لما خلانى ألبس فساتين ضيقة.. ما كانش صعيدى وهو قاعد على البلاچ بيتفرج على البنات اللى رايحه واللى جايه وأنا كنت باعكسه وأنا لابسه مايوه.. وأقول له أنا خطبت لك واحدة يا بابا.. ما كانش كده.. مش كده.. مش كنت برقص قدامه.. وحصل ولا لأ.. أنا شايفه إنك أنت اللى عاوزه الجواز يتم.. أنت اللى مش عاوزانى.. زى ما أكون أنا ضرتك.. أنت بتغيرى ليه.. أنا واخداه منك.. أنت مش مبسوطة من أبويا.. أنا واخداه منك.. مش فاهمة.. أنا مش عارفة.. أنا سمعتك وأنتى بتتحايلى عليه أن يحضر النهاردة مع العريس.. هو مش عاوز ييجى.. وأنا كمان مش شايفه أبويا جامد وقديم زى أنت ما بتقولى.. البنت دى بنت راجل قديم.. أنا شايفه كل حاجة كويسة فى أبويا.. مش بتخرجى لوحدك.. مش بتقعدى تتكلمى فى التليفون بالساعة.. وترقعى الضحكة مترين.. وبتشربى سجاير.. ومرة رقصت..

ـ إمتى ده يا بنت يا قليلة الأدب..

ـ إمى.. مش عارفة إمتى.. مين اللى كانت بترقص مع أبيه فتحى فى عيد ميلاده.. أنا اللى كنت بأرقص..

ـ يا بنت يا قليلة الأدب.. أبوك يسمعنا..

ـ أبويا يسمعنا.. كان أبويا قاعد وما قلش حاجة.. لكن أنت مطلعة فى أبويا كل العيوب.. كل العيوب.. كل حاجة تعمليها وتقولى أبوك.. أبوك.. عاوزه

تستريحى منى.. قولى كده.. خايفة من إيه.. مش عاوزه واحدة تتجوز أحسن منك.. أنا نفسى أتجوز واحد زى أبويا.. يا شيخة حرام عليك.. دا أنا بنتك.. لحمك ودمك.. زى ما بتقولى..

ـ يا فاطمة يا حبيبتى.. أنا باحبك..

ـ آه.. أنا بحبك.. باموت فيك.. وعلشان كده.. عاوزاكى تسيبى البيت النهاردة قبل بكره.. باحبك ولازم أجوزك أى واحد من الشارع.. والخدامة اللى كانت عندنا.. مارضتش تتجوز الطباخ اللى كان عندنا.. راحت اتجوزت واحد غفير فى البلد.. بعد ما لبست وبقت شيك.. مارضتش تتجوز الطباخ أبو بدلة.. دى برضه أبوها صعيدى.. أبوها عاوز كده.. تقومى أنت تجوزينى.. كل يوم تجيبى لى عريس.. ما تلتفتى لبيتك وأولادك.. بدل ما أنت عاملة خاطبة.. عيب.. دى فضيحة.. الناس يقولوا إيه.. ما بتسأليش نفسك كده.. اسكتى.. اسكتى يا شيخة..

ورفعت الأم رأسها ومسحت دمعتين على خدها ونظرت إلى فاطمة لأول مرة.. اسكت.. آدينى ساكته.. على نار.. أنا جبت لك دلوقت سيرة الجوابات اللى عندك يا بت.. مش ساكته أنا.. أقول لأبوك وتشوفى حيعمل إيه..

وهنا نهضت فاطمة من سريرها.. واتجهت إلى الباب ومدت يدها تحت المخدة وأخرجت مفتاح الباب وأقفلت الباب بالمفتاح.. وجلست على مقعد فى مواجهة أمها.. أيوه جينا للجوابات.. مالها الجوابات عاوزه أعرف.. جوابات من شبان.. عاوزه تعرفى مين الشبان دول علشان تستريحى.. جوابات سى شوقى.. ابن اختك.. جوابات.. من سى سليم جوز بنت اختك.. جوابات من عيال لا أعرفهم ولا حاجة.. كل بنت بيريل عليها الناس.. أى بنت.. مفيش بنت ما سمعتش كلمة فى الشارع أو فى التليفون.. مفيش بنت ما حدش ضغط على أيديها وهو بيسلم عليها.. ما تحطيش إيدك على ودنك.. شيلى إيدك.. أنا لازم أقول لك كل حاجة.. علشان ما تقوليش أبوك.. أبوك.. جوابات باليد.. جوابات بالبوستة.. لكن أنا عملت إيه بالجوابات.. ولا حاجة.. إنتى فتحتى دولابى قلت لك حاجة.. قريت الجوابات قلت لك حاجة.. أخذت بعض الجوابات سألتك.. عاوزه تعرفى حاجة كمان.. فيه أسطوانات عندى.. وأغانى.. وفيه صور.. وفيه ورد أحمر وأبيض.. بيترمى من الشبابيك.. عمارة كبيرة ساكنين فيها.. وفيها أسانسيرات طالعة ونازلة ومليانة.. والناس عندها عنين ويتسأل ويتحاول.. فى كل مكان فى الدنيا كده.. لكن أنا

عملت إيه ولا حاجة.. باسمع من هنا وأنسى من هنا.. آدى فاطمة اللى محيراك.. وفاضحاك.. وبتجيب لك كل يوم عريس علشان ينقذ سمعتها!! هوه ممكن واحدة تبقى سمعتها أسوأ من كده.. ومين اللى بيحط الطين والزفت على سمعة فاطمة وأم فاطمة وأبو فاطمة؟ أنت.. كل يوم تجيبى عريس لبنتك.. ليه.. علشان عندها جوابات.. وقبل الجوابات أنا عملت إيه؟ أنا مش فاهمة.. أنا عاوزه أعرف منك.. إنتى كنت زمان صريحة..

وأحنت الأم رأسها.. ولكنها لم تيأس.. فهى تعرف بالتجربة أن فاطمة قلبها رقيق وأن فاطمة هى وحدها التى كانت تسهر إلى جوار سريرها عندما تمرض: اسمعى يا فاطمة.. بصراحة كده يا بنتى أنا عاوزه أفرح بيك.. قبل ما أموت يا بنتى.. أنا يا فاطمة حاسة إنى حاموت قريب.. أنا تعبانة يا بنتى.. القلب بيجى لى ويروح.. بس آدى كل اللى عندى..

وكأن فاطمة سمعت نكتة أثناء المشى فى جنازة.. فهى لا تستطيع أن تضحك بصوت مرتفع.. ولا أن تضحك وحولها المشيعون وأمامها النعش.. انتى كبيرة فى السن.. عندك تلاتة وأربعين سنة.. وكبيرة فى السن وخايفة تموتى.. والقلب ده طلع إمتى يا ماما.. بلاش كده.. يا ماما خليكى صريحة.. ما تلفيش.. أنا لا يمكن أموت نفسى علشان كلام مالوش معنى.. مش حاتجوز.. يا ماما مش معقول.. تجيبوا واحد يعتدى علىَّ.. ده مش جواز يا ماما.. ده اغتصاب.. ده خطف.. ودفن بالحيا.. ليه خليك صريحة.. إيه بس..

ومن خلال دموع الأم وتشنجات وجهها راحت تقول لفاطمة: أبوك.. يا فاطمة.. أبوك..

ـ ما تقوليش أبويا تانى..

ـ أبوك.. يا فاطمة مديون..

ـ يعنى إيه..

ـ مديون.. ومحتاج لحد يساعده..

ـ مش فاهمة.. حد زى مين.. أى حد.. أى واحد يتجوزنى.. ويسدد ديون أبويا.. مش فاهمة..

ـ أيوه..

ـ اللَّه! وحكاية القلب! وإنك كبرت وعاوزه تفرحى بيه.. أنت اللى كبرت ولا أنا اللى كبرت.. إنت خايفة إنى كل ما أكبر تمنى يرخص.. بيع وشرا.. لحم ودم.. إيه

ده مش فاهمة.. وإنتى عاوزه تفرحى بأبويا قبل ما تموتى.. عاوزه تفرحى بتسديد ديونه قبل ما تموتى.. يعنى أنت عاوزه تفرحى بموتى قبل ما تموتى.

- يا فاطمة وأخوك..

- وأخويا مين.. وإيه كمان أخويا.. برضه عاوز يفرح قبل ما يموت ولا عاوز يموت قبل ما يشوف فرحى.. وأختى مالهاش حاجة.. الخدامة ما فيش فى نفسها حاجة.. البواب والمكوجى.. هيه ليلة فرحى دى تبقى ليلة القدر.. أد كده أنا واقفة فى طريق كل الناس.. وسعادة كل الناس متوقفة على تعاستى.. كده..؟

تسمع صوت والدها ينادى من بعيد فتقول: حاضر يا بابا..

- يا فاطمة أرجوك يا حبيبتى.. بلاش الكلام ده مع أبوك.. أبوك عنده القلب.. أبوك صحيح عنده القلب..

- حاضر يا بابا.. يا بختك يا بابا.. عندك القلب.. عندك قلب.. ومفروض إن أنا ما عنديش حاجة.. لا قلب ولا عقل.. حاضر.. جايه يا بابا.. يا حبيبى يا بابا.. أنا وأنت مظلومين فى البيت ده..!!

ولم تكد تمتد يد فاطمة إلى الباب، حتى سبقتها يد أمها وهى تقول: خدى بالك.. أبوك عيان.. كلمة منك وكلمة منه.. يموت بين إيديك يا فاطمة..

وكأن فاطمة لم تسمع شيئًا.. أو كأنها قررت ألا تسمع كلمة من كلام أمها.. لا كلامها ولا دموعها ولا قصصها الملفقة.. أبوك عنده القلب.. أخوك عنده المعدة.. أنا عندى الجنب.. كلام فى كلام.. ليه.. مش فاهمة.

وخرجت الأم من الغرفة بعد أن مسحت دموعها وسوت شعرها.. واتجهت إلى غرفة زوجها.. ووقفت فاطمة وراء الباب.. وأسندت ظهرها عليه.. كما يحدث فى الأفلام.. وبسرعة نظرت فى الغرفة.. وأخرجت كيسًا من الورق ووضعت فيه لفة صغيرة.. ثم مدت يدها تحت المخدة وأخرجت شنطة صغيرة.. وفتحت دولابها.. وبسرعة كأنها لص..

وخطرت لها فكرة أن تضع قناعًا على وجهها وتمسك مسدسًا وتتجه إلى غرفة والدها وتقول له: ارفع إيديك..

ويرفع الأب يديه..

وتقول له: مش عاوزه فلوسك.. ومش عاوزه حاجة منك.. أنا عاوزه منك حاجة واحدة..

ثم تتجه إلى أمها: وأنت ارفعى إيديك.. مش عاوزاك تفتحى بقك.. ولا كلمة ولا دمعة.. ابعدى عن الباب..

ثم تعود إلى الباب: ابعدى إيدك عن التليفون.. كلمة واحدة.. أنت عاوزه تجوزى بنتك ليه.. وعاوزه تجوزيها من واحد هى ما تعرفوش ليه.. وتقاليد الصعيد.. إيه يعنى تقاليد الصعيد.. مش فاهمة.. الصعيد ماله ومالى.. الوجه البحرى.. الوجه القبلى.. إيه علاقتى أنا بأن النيل ينبع من الجنوب ويصب فى الشمال.. إيه علاقتى بأن محافظة قنا تقع قبلى محافظة سوهاج.. أنا مالى.. كلمة واحدة..!

ولكن فاطمة وظهرها إلى الباب تتخيل أن والدها يصاب بحالة إغماء وأن أمها تسقط إلى جوارها.. ويسقط المسدس من يدها.. ولا تعرف منهما إصرارهما على الزواج.. ليه..؟

ولكن فاطمة قررت أن تمشى وحدها وأن تعرفها بنفسها السبب.. ولا يهمها السبب إذا عرفته.. كل الذى يهمها هو أنها لن تتزوج إلا عن حب.. عن حب.. ووضعت يدها على الباب وهى تضغط عليه وتقول: عن حب..

وفتحت الباب.. ونظرت يمينًا وشمالاً.. لم تجد أحدًا فى الصالة.. وكانت لها رائحة غريبة.. رائحة حبيسة.. الهواء راكد.. أو أنه كان متحركًا وهم الذين جمدوه.. والمقاعد ملقاة هنا وهناك.. ألوانها صفراء مريضة.. الساعة على الحائط كأنها مشنوقة.. المصابيح تتدلى من السقف كأنها جثث.. البيت كله شكله غريب.. ورائحته غريبة كأنها تشمه لأول مرة..

وحذاؤها فى يدها.. وحقيبتها وملابسها فى يدها.. وكانت غرفتها قريبة من الباب.. وفتحت الباب.. واتجهت إلى السلم الخارجى.. وكان باب الشقة المجاورة مفتوحًا.. ولم تكن هناك غير الخادمة الصغيرة.. رأتها فابتسمت وكادت تقول لها شيئًا.. ولكنها لم تقل.. واتجهت الخادمة إليها لتقول لها إن الأسانسير سيعود حالاً.. ولكن فاطمة نزلت السلم بسرعة.. لا تزال هناك عشرات السلالم قبيل أن تصل إلى الباب.. وقبل أن تضحك على عم عبده البواب.. ثم تتجه إلى اليمين.. حيث توجد محطة الأوتوبيس.. وبالقرب من محطة الأوتوبيس يوجد بيت يسرية عندها أربعة من الإخوة.. وواحد منهم يعاكسها.. ولكن أم يسرية طيبة جدًا.. وقد طلبت منها أكثر من مرة أن تجىء للمذاكرة مع يسرية وأن تبيت معها.. ولكن فاطمة رفضت لأن إخوة يسرية يذاكرون بصوت مرتفع.. ولأن سرير يسرية صغير.. ولأن

يسرية لا تنام إلا إذا أخذت فاطمة بالحضن.. ووضعت إحدى ساقيها على جسمها.. وفاطمة تقرف.. وتؤكد فاطمة أن والد يسرية بيشخر بالليل.. وأن إخوتها يضحكون عليه وهم يذاكرون.. ولذلك فهم يذاكرون فى غرفة الصالون.. فى غرفة قريبة من غرفة يسرية.. ومعنى ذلك أنه لا يمكن أن تنام فاطمة مادام إخوة يسرية يذاكرون.. ثم إن بيت يسرية قريب جدًا من بيتها.. ولن يمضى وقت طويل حتى تجىء أمها أو يجىء واحد من إخوتها لاستدعائها.. فضيحة.. ولكن المهم أن فاطمة يجب ألا تبقى فى البيت.. إلا عن حب.. كل شىء عن حب.. البيت عن حب.. والشارع عن حب.. والمدرسة عن حب.. والزواج عن حب فى حب فى حب..!

لا يمكن أن تذهب إلى بيت يسرية.. فأخوها الأكبر عاكسها فى يوم.. وطاردها فى الشارع وهو يقول لها: اشمعنى أنا.. طيب ما أنا شفتك فى النادى.. هو ده اللى عاجبك شكله.. التخين أبو مناخير كبيرة.. طيب يا ست فاطمة..!

ونظرت فاطمة ثائرة وهى تقول: أنت مالك.. أيوه عاجبنى.. أنت عايز منه إيه.. ويعنى أنت اللى ذوقك عدل.. وهيه نوال اللى عاجباك.. الخناقة اللى فى مناخيرها.. دى بتمشى تنط زى الزمبلك.. وأنت مالك يا أخى..

وعلى الرغم من أن أحدًا لا يعرف هذه الواقعة، فإن فاطمة تلاحظ أنه كلما رآها سلم عليها وضغط على يدها بشكل معناه: أنا عارف كل حاجة.. مش حتغيرى رأيك؟ مش أنا أحسن..!

ووصلت فاطمة إلى الباب الخارجى.. وهى لا تدرى إن كان عم عبده البواب كان هو الذى يجلس إلى جوار الباب.. أو هو الذى كان يصفق بيديه ينادى على الأسانسير.. أو إن الواقف عند الباب هو أحد الخدم فى العمارة.. إن فاطمة حرصت على أن تمشى إلى جوار الحائط.. وتفادت المرور بمحطة الأوتوبيس.. إنها تحس كأن كل سكان العمارة والعمارات المجاورة يعرفون أنها هاربة من البيت.. وأنها لن تعود.. وهى لا تعرف بالضبط ماذا سيحدث.. ولكن لابد أن تهرب.. إن بقاءها فى البيت لا يحل المشكلة.. إنها تعرف أن الناس كلهم ضدها.. وأن الناس جميعا ضد الظلم.. وضد الإكراه فى الحب، والإكراه فى الزواج.. ولكن إذا اجتمع الناس معا، فإن شيئا غريبا يحدث.. إنهم يتخلون عن كل آرائهم ويقولون كلاما آخر..

إنها لا تنسى يوم تشاجرت مع والدتها بسبب وقوفها فى البلكونة وكلامها مع أحد الجيران لم تقل له أى شىء.. ولا هو قال شيئا.. إنه رجل متزوج.. وزوجته

صديقة فاطمة.. أو من الممكن أن تكون صديقتها.. وثارت أمها.. وأصرت فاطمة على أنها لم تغلط.. وأنه سألها عن المحل الذى تشترى منه شبشبها.. واندهشت الأم كيف يجرؤ رجل على هذا السؤال.. وكيف تجرؤ فتاة على هذه المناقشة.. وكيف تخلع فاطمة شبشبها لكى يراه بوضوح.. وتؤكد لها فاطمة أنها لم تخلع الشبشب له، وإنما لزوجته.. وبكت الأم كما هى العادة.. دموعها الكريهة.. دموعها التى لا نهاية لها.. دموع.. كلها دموع.. ضحكها دموع.. إن رأسها ليس إلا كرة مملوءة بالدموع.. إن فاطمة تؤكد أنها رأت الدموع تنزل من أذنى أمها أيضا!!

وثار كل من فى البيت واحدا واحدا على الأم.. وقالوا: إن فاطمة لم تغلط.. ولكن حدث أنهم عندما جلسوا إلى العشاء وسقطت فوطة فاطمة على الأرض.. وامتدت يدها لتأتى بها.. تنحنحت الأم وقالت لها: قومى اغسلى إيديك..

وبصوت الفتاة التى كبرت قالت فاطمة: غسلتهم..

وعادت الأم تقلد صوتها المبحوح.. اغسليهم تانى.. علشان إيدك جت فى الشبشب.. ونطقت كلمة الشبشب بمعنى خاص..

وضحك إخوة فاطمة.. وسأل الأب عن إيه الحكاية.. وقالوا له إيه الحكاية.. واندهشت فاطمة كيف أنهم جميعا قد أصبحوا ضدها لمجرد أن الأب روى قصة.. لا أحد يعرف هل هى صحيحة أو كاذبة.. لكن القصة كانت مقنعة.. قصة المنديل الذى سقط من إحدى البلكونات فلم يخرج المنديل إلا ومعه كل سعادة هذه الأسرة.. لقد بدأت العلاقة بين فتاة ورجل متزوج بسبب المنديل.. وأحبته وأحبها.. وانفصل الزوج عن زوجته وبعد ستة شهور تم زواجه بصاحبة المنديل.

وتندهش فاطمة كيف يتغير رأى الناس بسرعة هكذا.. والقصة التى رواها والدها سخيفة وليس لها هذا المعنى الكبير.. ولا تعرف إن كان سبب تغيرهم بهذه السرعة أنهم جلسوا معا.. أو أنهم يأكلون أو أنهم يكذبون.. ويجاملون والدهم.. أو يخافون منه.. لا أحد تثق فيه فاطمة.. لا إخوتها ولا أمها ولا أختها.. إنها سافرت وإنها لن تعود قبل أربعة شهور..

حتى الناس لم تعد ترى لهم قيمة.. كلامهم.. إذا كانوا وحدهم مختلف عن كلامهم إذا كانوا معا.. وهى الآن تقابل الناس وحدهم.. وتقابلهم معا.. ولا تعرف ماذا سيحدث.. ولا تريد أن تعرف.. إنها تريد أن تهرب من هذا البيت المذعور المريض..

ليس أمامها إلا بيت صاحبتها نوال.. بيت مجانين.. مستشفى أمراض عقلية..

إنهم يقضون النهار كله نائمين.. فإذا جاء الليل ظلوا ينتظرون من يفسحهم فى أى مكان.. وإذا خرجوا فلابد أن يخرجوا مع ابن خالة أو ابن عمة.. أو الأخ الأكبر.. أو أى إنسان.. حاجة تقرف.. وكلهم ينامون معا.. وكلهم يعرفون كل شىء.. ولا أسرار.. ولو دخلت فاطمة بيت نوال فسيلتف حولها فى لحظة واحدة كل اللى فى البيت.. وهات يا سين جيم.. وهه.. وحصل إيه.. وليه.. وإمتى.. ويا نهار.. وإنت إزاى ساكتة.. وحد طايل.. عرسان.. يا شيخة اتجوزى.. وانت عاوزه المدرسة ليه.. ما تشوفى إحنا.. قاعدين إزاى.. وأن الجواز أحسن من القعدة.. المصيبة أهون من انتظارها.. وبعد لحظات تكون حكاية فاطمة فى كل بيت..

ونوال تمد يدها إلى التليفون وتقول: عايدة.. مش فاطمة عندنا.. يوه.. إنت ما عرفتيش.. دى حكاية طويلة.. والنبى ما تقوليش لحد.. بعدين أبقى أقول لك.. بعدين..!

فضيحة فى كل مكان.. ومش بعيد أن نوال تطلب البيت عند فاطمة وتقول: لسه برضه فاطمة زعلانة.. كده.. مش عارفة.. أصل فيه ناس شافوها.. أنا سمعت..

فضيحة وشماتة.. وإذا كانت فاطمة قد هربت من بيت فيه اثنان من المجانين.. فذهابها إلى بيت نوال هو دخول لمستشفى الأمراض العقلية.. ثم إن نوال قد عرفت من فتحى شقيق يسرية أنها تطلق عليها اسم: نوال زمبلك..

لا يمكن أن تذهب إلى هذا البيت المجنون..

ولم يبق أمامها إلا بيت واحد.. وترددت قليلا.. ولكن ساقيها كانتا أسرع من تفكيرها.. فقد مرت بتاكسى ورآها تتجه إليه ففتح الباب واندفعت فاطمة إلى داخل السيارة.. ونظر إليها فى المرآة وسألها إلى أين.. وقالت بلهجة جادة فيها قليل من الجفاف حتى لا يظن أنها صغيرة أو أنها هاربة.. ولكى ينظر أمامه: طوالى من فضلك..

وانطلقت السيارة فى ميدان الجيزة.. وهزت فاطمة كتفيها عندما التفتت إلى اليمين ووجدت أحد المقاهى البلدية.. فقد كانت ترى والدها أحيانا فى انتظار أحد هناك.. ونزلت السيارة فى النفق.. وتمنت أن تنزل وتنزل وتنزل وتغوص ولا تظهر إلى وجه الأرض.. وفى أعلى النفق اعترضت الطريق عربة كارو عليها عدد من الأطفال الصغار يطبلون.. ويرقصون.. وابتسمت لهم.. وضحكوا لها.. إنها زفة عروس متوسطة الحال جدا.. أو عروس ليس لها حال.. وتمنت فاطمة أن تنزل من السيارة وتسأل الأطفال عن العروسة.. وأين هى وأن تسأل إحدى السيدات اللاتى

ارتدين الجلاليب السوداء فوق الجلاليب الحمراء المشجرة: والعروسة دى أبوها عنده القلب..!!

ومضت السيارة طوالى.. طوالى.. وفى منتصف الطريق إلى الهرم أشارت إليه أن يعبر الشارع وأن يتجه إلى اليسار.. وأمام فيللا حمراء.. وقفت السيارة ونظرت فاطمة فلم تجد أحدا.. ونظرت إلى النوافذ.. لا أحد.. إلى الحديقة الصغيرة.. لم تجد أحدًا.. واتجهت إلى الباب الخلفى.. وهناك وجدت مسعدة الدادة.. وأشارت إليها فاطمة أن تسكت: مين فوق يا دادة..

فقالت لها الدادة وهى تضحك وتحاول أن تخفض صوتها: كلهم يا ست هانم.. إنت عاوزه مين.. انتوا انستونا النهاردة.. ماما جاية..!!

وقطبت فاطمة وجهها: ماما إيه.. أنت كمان.. مين فوق.. يعنى عاوزه أعرف أميرة فوق.

وقالت الدادة: فوق.. فى الحمام.. حالا حتخرج.

واقتربت منها فاطمة: روحى اطلعى قولى لها إن أنا هنا.. وعاوزاها ضرورى ومش حاقدر أطلع.. أنا عاوزه أقعد فى أوضتك يا دادة لحد هى ما تيجى..

وحاولت الدادة أن تقول لها شيئا.. ولكن فاطمة منعتها.. وعادت تنبهها: مش عاوزاك تقولى لأى أحد إنى هنا.. واخدة بالك..

ولم تفهم الدادة شيئا.. وإن كانت الدهشة بدت عليها.. وتركتها وتسللت من الباب الذى يفضى إلى السلم.. ورغم أن الشمس طالعة.. فإن غرفة الدادة كانت مظلمة.. ولكنها ليست كريهة.. إن فاطمة لم تضق بهذه الغرفة.. إنها منخفضة كأنها زنزانة.. ولكن زنزانة مفتوحة على الحديقة.. زنزانة ليس فيها قيد واحد.. ليس فيها أحد عنده القلب.. ليس فيها دموع.. سرير دادة صغير وقديم ولكنه نظيف.. لابد أن تكون دادة هذه سعيدة.

وفجأة أفاقت فاطمة على أصوات مثيرة.. وعددها تقريبا حوالى سبعة.. رجال ونساء.. وأصوات تعرفها.. وأصوات لا تعرفها.. وجلست فاطمة وحمدت ربها أنها لم تتجه إلى الباب الأمامى وتصعد الدرج إلى الفيللا.. وسمعت وقع أقدام على السلم تقترب.. وتوارت فاطمة فى حجرة الدادة وأسندت ظهرها على الحائط فى استسلام تام.. مهما كانت النتيجة.. إن فاطمة تعبت وقرفت.. وهى وحدها لا أحد معها.. وحدها تواجه كل هؤلاء وحدها.

وكانت هذه أميرة.. طويلة سمراء.. مليانة.. شعرها لايزال مبللا.. وقد ارتدت «روب» لونه غريب.. ولا تعرف لماذا جاء على لسان فاطمة أن تقول لها: مبروك يا أميرة..!

واندهشت أميرة جدا.. وقالت لها: اللّه؟.. مرسى.. وإنت إزاى عرفت؟

وضحكت فاطمة: أنا ما أعرفش حاجة.. دا مجرد شعور.. أنا لما شفتك اتهيأ لى إنك عروسة..؟

ولم تصدق أميرة وقالت لها: مين والنبى اللى قال لك.؟ على كل حال أنا حأقولك النهاردة على فكرة أخوك فوق..

امتقع وجه فاطمة: أخويا؟ مين؟..

وأشارت أميرة إلى شفتيها ترسم شاربا..

واقتربت فاطمة منها وقالت: اسمعى أنا هربانة، إنت عارفة القرف اللى أنا فيه.. أنا مش عاوزه حد يعرف إنى هنا.. ولا حتى إخواتك.. إنت لسه أوضتك لوحدها مش كده.. بس النهاردة وبكرة.. أنا تعبانة وأنا أكيد حاهرب وأروح لجدتى فى الفلاحين.

وسألتها أميرة: فيه حاجة جديدة؟

وردت عليها فاطمة.. زى ما أنت عارفة.. كلام وحكايات وناس داخلة وطالعة.. صعايدة وفلاحين.. وقرايب.. وناس كلهم بيعرقوا وأيديهم بترتعش.. ويا هانم ويا بيه.. ويا أونكل.. ويا فاطمة.. يا حبيبتى.. واللى ما يشترى يتفرج.. التقاليد.. تقاليد إيه مش عارفة.. طيب المدرسة لازمتها إيه.. والفساتين لازمتها إيه.. مش فاهمة.. أنا حاموت نفسى.. والله لازم أموت نفسى إذا كانوا حيغصبونى على كده.

وعانقتها أميرة وهى تقول لها: اسمعى ولا يهمك.. يعنى إيه حيعملوا فيك.. ولا حاجة.. استنى أنا أشوف الشقة.. وبعدين نطلع فوق.. وأنا حاخد التليفون عندنا.. هه..

ولاحظت أميرة ابتسامة على وجه فاطمة.. وقبل أن تتركها قالت لها: لسه يا فاطمة..

ومسحت فاطمة الابتسامة وقالت لها: لسه إيه؟

وهزت أميرة رأسها مداعبة: لسه إيه؟ مش عارفة لسه إيه؟ لسه هشام؟

وتوردت وجنتا فاطمة لأول مرة وقالت: يعنى إيه؟ آه لسه.. واللّه ما شفته يمكن من أسبوع.. وأنا عارفة إنه بيسأل.. لكن أعمل إيه.

وتركتها.. واندهشت فاطمة كيف أنها انكشفت بسرعة.. وكيف أنها لم تفلح فى إخفاء حكاية هشام مع أنها اعترفت لأميرة قبل ذلك أن هشام عيل.. وأن أفكاره كلها عيال.. خيال وأحلام.. وكلام عن القمر.. وعن صوابع فاطمة وعن شعرها.. وعن صوتها.. وكيف يحلم بها فى الليل.. كلام عيال.. يا سلام لو كان هشام عنده ٢٥ سنة.. يا سلام كان يبقى زى الفارس الأبيض اللى فاطمة تهرب معاه لآخر الدنيا.. يا سلام لو كان تلميذا مجتهدا وأخذ البكالوريوس السنة دى أو حتى السنة القادمة..

فى يوم من الأيام كانت تكره هشام لأنها كانت تراه كل يوم.. ولكنها الآن تراه قليلا ولا تسمع عنه إلا قليلا.. إنه مشغول الآن فى الكلية.. وهو ينتقل من مستشفى إلى مستشفى.. ومن معمل إلى معمل.. ولكنه هو الوحيد الذى يقول لفاطمة أجمل كلام.. لو كان شوقى يقول لفاطمة نفس الكلام الذى يقوله هشام.. يا سلام لكان الزوج العالمى.. فشوقى كله رجولة.. طويل.. عريض.. أسمر.. غنى.. مركز.. ولكنه معظم الوقت ساكت لا يتكلم.. ولو كان جلال له نفس مركز شوقى.. إنه شاب رياضى لطيف كل جلساته ضحك ونكت ورقص.. لا يمله أى إنسان يجلس معه.. ولكن جلال يعيش على أموال أبيه.. يا خسارة.. كل شىء ناقص.. وتظل تجرى من هنا إلى هنا لكى تكمل هذا النقص فتقع فى نقص جديد.

أميرة مثلا.. طيبة.. حلوة.. لطيفة.. ولكن عيب أميرة أنها مغرورة جدا.. وفاطمة متأكدة أن أحدا لم يتقدم لها.. ولكن إحساس أميرة بأن فاطمة يتقدم لها عرسان كثيرون يجعلها فى غيظ.. يجعلها تغلى من الداخل. وتخترع القصص والمغامرات التى لا أساس لها.. مجرد غيرة.. مجرد غرور منها.. فهى تعتقد أنها أجمل بنت فى الدنيا.. وأن العرسان عميان إلى أن يتقدموا لها.. وترفضهم جميعا..

وأميرة هذه حلوة ولكنها ناقصة وإذا حاولت فاطمة أن تكمل النقص الموجود عند أميرة فإنها لن تجد أحسن منها.. إن فاطمة منذ سافرت صديقتها الوحيدة صفية إلى الإسكندرية لم يعد لها أحد.. إن الجوابات المتبادلة بينهما لا تكفى.. لو كانت صفية هنا لأنقذتها من هذه الورطة.. أى كلام كانت تقوله صفية كانت فاطمة تنفذه حرفيا ودون مناقشة.. وصفية جريئة.. رغم أنها لا تزال فى التاسعة عشرة.. وأم لطفلة جريئة بينها شبه كبير من فاطمة.. وخصوصا شفتيها المضمومتين فى مرارة..

وجاءت أميرة وأشارت إلى فاطمة أن تتبعها.. وقبل أن تتسلل فاطمة إلى أحد الأبواب الخلفية التفتت أميرة تقول لها: أخوك ده مجنون..!

وتوقفت فاطمة لتقول: ليه.؟

وعادت أميرة تقول: أنا كنت حاأقوله اننى انخطبت.. وبعدين قلت مفيش داعى دلوقت.. أخليها مفاجأة.. وأنت ما تقوليش لحد.. خليها مفاجأة يا فاطمة.. ومش حا أقول لك مين هو.. مفاجأة..

وسألتها فاطمة: وهو جاى ليه..

وردت أميرة: إنت عارفة إنه من شلة أخويا.. وطول النهار ضحك وكوتشينة ومعاكسة بنات فى التليفون.. على فكرة أخوك واقع لشوشته.. يظهر مش قادر يتكلم فى التليفون عندكم.. بيجى يتكلم فى التليفون هنا بالساعات.. والمصيبة إنه بعد كده يقول لى: إيه.. مش حنتجوز بقى؟ تصورى!

ووقفت الاثنتان أمام باب غرفة أميرة.. وأقفلت أميرة الباب وراءها وطلبت من فاطمة أن تقفله بالمفتاح من الداخل إلى أن تأتى بالتليفون من تحت..

ولم تمض لحظات حتى عادت أميرة ومعها التليفون.. وبعض المجلات.. وسمعتها فاطمة وهى تقول: أنا يا ماما.. بس حاسأل الخياطة عن التفصيلة دى.. عشر دقائق بس.. ونقرت أميرة بأصبعها على الباب وقالت: أنا أميرة.. افتحى..

وفتحت فاطمة الباب وأعطتها التليفون وأشارت إليها أن تأخذ حريتها.. وفى لهفة واضحة أمسكت فاطمة التليفون وأدارت رقما ورفعت السماعة إلى أذنها.. وجاءها الصوت وارتدت فاطمة إلى الوراء وعلى وجهها بعض الارتياح: هشام.. أهو.. عند واحدة صاحبتى.. بعدين حاأقول لك..

ويدور هذا الحديث بينهما: إنت نازل أمتى يا هشام..!

- مش دلوقتى.. إنت بتتكلمى منين.. صاحبتك مين؟

- أميرة..

- أجى لك..

- لأ.. أرجوك.. اسمعنى بس.. دلوقتى أنا متخانقة فى البيت..

- وأنا كمان..؛

- هه.. تقدر تعمل أى حاجة.. تقدر تنام فى اللوكاندة.. فى الشارع.. تسيب البيت.. لكن أنا أعمل إيه؟

- خليك عند أميرة..

- عند أميرة؟ قد إيه؟

ـ أمال حتعملي إيه.؟
ـ مش عارفة..
ـ تروحي لأختك..
ـ هي.. أختي.. أبقى زي اللي هربان من العسكري وبروح يستخبى في القسم..!
ـ أمال إيه.؟
ـ مش عارفة..
ـ أنا عاوز أشوفك..
ـ مش عارفة.. جالك جوابي..
ـ أيوه..
ـ أمال ما ردتش عليه ليه.. يخص عليك.. حاتقول لي المستشفى والعيانين.. يعني أنا مش ضمن العيانين.. تلات دقائق.. ما تقدرش تكتب لي جواب زي الروشتة..
ـ آسف يا حبيبتي.. واللّهً غصب عني..
ـ آلو.. آلو.. آلو..

ووضعت السماعة.. وابتسمت وهي تقول: كل مرة كده.. هو اللي بيقفل السكة.. السكة هي اللي بتتقفل.. ما عندوش كلام يقوله.. عندي حاجة تانية.. بقى اشمعنى هشام اللي حيبقى عدل.. كلهم قرف..

وأمسكت قرص التليفون وأدارته.. ووضعت السماعة على أذنها.. وغطته باليد الأخرى.. واستمعت إلي.. آلو.. آلو..

إنه صوت أمها.. حزين كما هي العادة.. دامع كما هي العادة وأقفلت السكة..!

□ □ □

....

....

....

وعند هذه السطور توقفت حوادث القصة..

وتوقفت أنا عن متابعة أحداثها.. وقررت ألا أكملها فأنا لا أعرف بالضبط ما الذى عساه أن أفعله..

هل استمر فى مطاردة فاطمة.. هل أضع لها العقبات الزائفة ثم أحاول أن أقضى عليها.. أن أضعها فى المشاكل، ثم بجرة قلم أذيب هذه المشاكل.

فأنا الذى اخترت هذا الوضع.. هذه الأسرة.. هذه المواقف.. هذه المشاكل.. اخترت لها هذه السن.. وهذه الحالات التعسة.. وهذه العزلة.. وأفراده أسرتها.. وغرفتها.

ومن المفروض أن أخلصها من كل ما تعانيه..

وأقول من المفروض لأن هذه قصة. هذه حكاية من خيالى.. أعرف أولها.. ووسطها.. ومن المفروض أن أعرف آخرها..

ولكن شعرت بشىء من الضيق بفاطمة هذه.. لقد حبستنى معها.. فأنا أختنق فى غرفتها.. وأكاد أنهار وراءها وهى تنطلق على السلم.. وأتلعثم بلسانها أمام أمها وأختها..

ومع أننى أنا الذى اخترت لها قيودها وسجنها ومشاكلها إلا أننى مقيد بقيودها وسجنى فى سجنها، وواقع فى مشاكلها..

وحتى لو كانت هى السجن، وكنت أنا حارس سجنها، فأنا واقف أمام سجنها.. مربوط بها.. فكلانا مربوط بالآخر.. وكلانا سجين للآخر..

وقررت أن فاطمة مشكلة.. وأننى عاجز عن أن أجد لها حلا.. ومع أن مشكلتها من صنعى فإن حلها أيضًا من صنعى.. والمشكلة يجب أن تكون كالمنديل المعقود، أنا الذى عقدته، وأنا الذى يجب أن أحله..

أو أنا الذى عقدته لكى أحله..

مفروض هذا من الناحية الفنية..

ولكن الحقيقة أن فاطمة هذه مشكلة. إنها موضوعة فى مشكلة وأنا لا أعرف كيف أحلها.. ولا أعرف كيف اخترتها.. ولماذا اخترتها! إنها أصبحت تشغل خيالى.. وتلح.. كأنها كتكوت فى بيضة.. راح ينقر البيضة حتى كسر غلافها.. وراح يطل برأسه.. يريد أن يخرج.. أو يريد أن يجد من أمه أية مساعدة له لكى يخرج.. لكى يعيش..

وفاطمة هذه كتكوت فى رأسى.. وقد أطلت من رأسى.. جزء منها أطل من

رأسي.. وهى تطلب منى أن أعينها على الخروج.. أن أعينها على الوجود.. وعلى أن يكون لها وجود..

ولكن فاطمة تخرج من بيضة لتجد نفسها فى بيضة أخرى..

وهذه المشاكل هى البيض الذى تطل منه كل يوم.. وتطلب منى أن أعينها على هذا البيض الذى لا ينتهى.

ولكن من الذى اختار لها هذا البيض اللانهائى؟ من الذى اختار لها أن يكون البيض لا نهائيا؟ من الذى رفض أن يجعل وجودها فى بيضة واحدة تنكسر وبعدها تخرج للحياة؟ أنا ولا أحد سواى!

وفى يوم قررت أن أعود إلى فاطمة وأن أحل مشكلتها وهناك عشرات الحلول لمشكلة فتاة فى سنها مفروض أن تتزوج. أن تتزوج وتحس هذا أن تحب الرجل الذى تزوجته أو تحب رجلا غير الذى تزوجته أو تحب رجلا وبعد ذلك تتزوجه.. وهناك حلول سريعة لإنهاء هذه القصة بإنهاء حياة فاطمة بشكل ما. فهناك كثيرا جدًا من الفتيات قد انتهت حياتهن بالزواج. انتهت متاعبهن بالزواج أو انتهت حياتهن تمامًا بالزواج أى بأن أصبح الزواج مقبرة لهذه الحياة، أو أنه انتحار لكل عاطفة وكل حب.. أو انتهت بانتحار عادى جدا.. أو انتهت نهاية سعيدة..

وهناك نهايات أبسط جدًا مما تصورت أنا..

فأنا أرى أن فاطمة واقعة فى مشاكل كثيرة جدًا..

إننى جعلت موقف فاطمة صعبًا جدًا. وأعتقد أن هذه الصعوبة من صنعى أنا.. فأنا أنظر إليها تحت الميكرسكوب.. فأرى كل صغير كبيرًا جدًا. ولو نظرت أصبعك تحت الميكرسكوب لوجدته عبارة عن ملايين الملايين من الخيوط المتشابكة.. ملايين الأنسجة.. فما بالك إذا نظرت إلى جسم إنسان.. أو إلى شىء أعرض من هذا كله.. إلى نفس إنسان منفصلة ومطوية على صالة دائمة بالآخرين، وفى صراع مستمر مع الآخرين.. إن هذا الذى تراه تحت الميكرسكوب شىء رهيب مخيف. وقد تصورت أن فاطمة لكى تتحرك وتنتقل لابد أن تحرك كل هذه الأنسجة نسجًا نسجًا وعصبًا عصبًا.. يجب أن تتحول إلى قائد جيش من نوع غريب.. قائد يصدر أوامر لكل جندى..

إن هذه الصعوبات التى تصورتها قد أخافتنى وأفزعتنى وأغرقتنى. فى حين أن فاطمة، وكل فاطمة، أبسط بكثير جدًا مما أتصور.. إننى قد أجد صعوبة فى أن أجعلها تقتل شابًا لا تعرفه.. مع أن هذا ممكن جدًا.. وذلك بأن تفاجأ بشاب يقبلها.. وفجأة أخرى تجد نفسها وحدها معه.. فتقبله وبلذة!

لقد جلس عدد من العلماء يتباحثون فى عشرين طريقة للاستفادة من التفاحة.. على شكل عصير أو فطير أو مربى.. أو وضعها فى العلب.. وطالت المناقشة بينهم.. واستغرقتهم المناقشة فلم يلتفتوا إلى طفل صغير دخل الغرفة ومد يده إلى التفاحة وبدأ يأكلها..

واندهش العلماء لبساطة العمل الذى قام به طفل.. إنه عمل بسيط وصادق.. وكذلك من الممكن أن تتصرف فاطمة بشكل أبسط وأصدق مما تصورت أو تخيلت.. إننى عقدت حياتها وأدخلت فى رأسها أفكارًا ومشاكل لا تعرفها.. وإنما قد انتقلت عدوى مشاكلى إلى رأسها وإلى حياتها..

وعندما توقفت عن إكمال قصتها، أحسست أن فاطمة بلامشاكل.. وأننى أنا الذى غارق فى المشاكل وهى ليست فى حاجة إلى من يساعدها وإنما أنا الذى فى حاجة إلى من يساعدنى..

وبينما أحاول أن أمنع قلمى وأجمع أوراقى وأكتب هذه العبارة: لم تنته قصة عريس فاطمة بسبب صعوبة المشاكل التى أعانيها أنا..

فى هذه اللحظة رأيت وجهًا.. ورأسًا.. وجسدًا.. يخرج من الورق الذى أمامى.. ويبتعد قليلا قليلا.. وأبتعد أنا قليلا كأنى أفسح لها الطريق..

وعلى المقعد الذى يجاور مكتبى وجدتها.. وقبل أن أتمكن من معرفة ملامحها..

سألتها: من أنت؟

قالت: أنا فاطمة!

قلت: فاطمة؟!

قالت: نعم فاطمة التى لم تنته قصتها.. ألا تعرفنى؟

قلت: ولكنك مختلفة عن صورتك فى القصة.. شعرك ليس أصفر.. ونحيفة.. وكنت أظن أن صوتك ليس صارخا هكذا.. غريبة.. وتدخنين أيضًا؟

وأخرجت من حقيبتها علبة سجائر وقالت: هل تريد سيجارة.

قلت لها: أشكرك..

قالت: ولماذا تندهش لأننى أدخن..

قلت: لم أكن أعرف أنك تدخنين..

قالت وهى تتراجع برأسها إلى الوراء: إنها عادة تكتسبها الفتيات سرًا..

قال: سرًا بالنسبة لى أنا أيضًا..

قالت: وما الذى يمنعنى من أن أخفى عنك أشياء كثيرة.. هل تظن أنك تعرف عنى كل شىء.. إنك لا تعرف إلا القليل جدًا من حياتى.. صحيح أنك خلقتنى.. ولكنك لست من الآلهة..

قلت: فى هذه الحالة فأنا من الآلهة..

قالت: ألا يحدث أن تصاب بمرض لا تعرف متى دخل جسمك..

قلت: ممكن.

قالت: ألا يحدث أن تجرى أحداث فى بيتك أو فى عملك لا تعرفها.. ألا يحدث وأنت تكتب أن تنسى كلمة أو تصف كلمة خطأ..

قلت: ومن الذى علمك هذا الكلام أيضًا؟ إننى لم أعلمك هذا الكلام..

قالت: اسمع يا حضرة.. أريد أن أسألك بوضوح ما الذى تريده منى؟ ما الذى تريد أن تقوله.. أنت اخترت لى مشاكلى ومتاعبى.. ووضعتنى فى أسرة جامدة.. واعتقدت أنك تنوى أن تخرجنى من هذه المشاكل.. ما الذى تريد أن تقوله.

قلت: الحقيقة لا أعرف..

قالت: لا تعرف ما الذى تريده منى..

ثم نهضت من مكانها طويلة القامة ممتلئة. وشعرها أسود ناعم. وفى رأسها وردة.. ولم تكن ترتدى فستانًا ولكنها ترتدى روبًا حريريًا شفافًا. واقتربت منى.. (وهى تقول فى دلال وفى حيرة أيضًا): أنت وحدك هنا!

قلت لها: ماذا تقصدين؟

قالت: لست خائفًا.

قلت: ممن؟

قالت: أنت تعرف..

قلت: قصدك أننى خائف منك.

قالت: طبعًا ألست فتاة. ألست صغيرة. هل نسيت أنك قد زودتنى بأسلحة كثيرة من الإثارة والخيال.. وزودتنى بتجربتك أنت أيضًا.. هل نسيت.. أنت صحيح أكبر منى بعشرين عامًا ولكنى ما أزال قادرة على أن أكون..

قلت: تكونين ماذا؟ اجلسى.. أريد أن أتحدث إليك..

قالت: قبلة واحدة وأجلس..

قلت: اجلسى. وأنت لست فاطمة..

قالت: كلهم يقولون مثلك: لست فاطمة التى تعرفها.. إننى واحدة أخرى.. لا أعرف كيف كنت؟ أو كيف يريدوننى أن أكون.. أو كيف كنت قبل ذلك.. أنا متأكدة أننى الآن فاطمة.. أما قبل ذلك فلم أكن شيئًا ولا أحدًا.. أنت خائف منى.. خائف من الفتاة التى صنعتها.. التى رسمتها.. هل رأيت إلى أى حد أنت لست شجاعًا.. هل عرفت إلى أى حد أنت تقسو على الناس.. أنت تخاف منى ومع ذلك لا تريد أن يخاف منى غيرك من الناس.. أمى وأبى وأخوتى.. حتى جلال أصبح يخاف منى..

قلت فى دهشة: ومن هو جلال؟

قالت فى استخفاف واضح وقد جلست وشدت ثوبها من فوق ركبتيها: طبعًا أنا لست فى حاجة إلى أن أضع كتابًا فوق حجرى لكى ينسحب الروب من فوق ركبتى.. وهذه حيلة تعلمتها منك.. أنا سأسحب الروب من فوق ركبتى.. أو أسحبه كله.. لاخوف على.. ولا خوف منك.. أقول لك حكاية جلال هذا.. إنه صديق..

قلت: صديق لمن؟

قالت: لى.. طبعًا. وطبعًا أنت لا تعرفه..

قلت: فعلا لا أعرفه.

قالت: يبدو أنك لا تعرفنى أيضًا.. أنت خلقتنى ونسيتنى.

قلت: بل أريد أن أنساك.. إننى حائر بك وحائر فيك.. ولا أعرف ما الذى أفعله معك.. إنك مجموعة مشاكلى التى لم أجد لها حلا.. لا أعرف ما معنى حرية الفتاة؟ لا أعرف ما هى حدود حرية أهلها؟ لا أعرف ما مدى حدود حرية الناس؟ لا أعرف إن كان الحل الذى أختاره لك هو الحل الذى يناسب كل الفتيات؟ لا أعرف إن كانت الفتيات الأخريات يفكرن بالضبط مثلك.. أن يفكرن على طريقتك.. إنك لا تساعديننى..

قالت: أنا أساعدك؟! لقد حاولت.. ألا ترى أننى لم أناقشك كثيرًا.. لقد قلت كل ما أردتنى أن أقوله.. لقد أغمضت عينى ورحت أرى بعينيك.. وعندما حاولت أن أرى بعينى لاحظت الآن أنك تستنكر هذا التصرف منى..

ورحت أفرك فى عينى كأننى لا أصدق ما أراه.. وفتحت عينى لأجدها فى مكانها وهى تنظر ناحيتى فى دهشة وفى ثقة وهدوء..

وعادت تقول وقد وضعت ساقًا على ساق: هذه أول مرة أضع ساقًا على ساق وأتراجع فى مقعدى أمام رجل.. ولكن الذى بيننا يسمح لى بأن أفعل ذلك مادمت لا تمانع.. وما دمت سأعمل على مساعدتك فى إخراجى من المأزق الذى وضعتنى فيه.. ووضعت نفسك فيه.. لاشك أنك تريدنى أن أتزوج.

قلت: نعم.

قالت: وأن يحقق هذا الزواج أقصى قدر من السعادة لى ولأهلى..

قلت: نعم.

قالت: وتريد أن تجعل هذا الزواج نموذجيًا.. يعنى نموذجًا لكل فتاة ولكل أسرة..

قلت: أتمنى..

قالت: ولا تريد أن يكون الزواج هو النهاية.. وإنما هو بداية لحياة أخرى.. وتكون هذه الحياة هى الأخرى منسجمة..

قلت: أتمنى.

قالت: وتصبح كل مشاكل الزواج بعد ذلك ضئيلة تافهة.. العقل والإرادة. التسامح هو وحده الذى يذيب هذه المشاكل.. ويذيب الفوارق بين وجهات النظر..

قلت: شيء من هذا.

قالت: الحل فى رأيى أن أتزوجك أنت!

قلت: مستحيل..

قالت: لماذا؟

قلت: لأننى إنسان وأنت وهم.. أنا إنسان من لحم ودم.. إنسان بينما أنت خيال إنسان..

قالت: ولكنى لست خيالا.. إنك ترانى وتمشى بى.. وتعيش معى.. وتتعذب بى.. وأشغل فكرك وأشاركك نومك وأكلك وأرقك.. وأنا سعادتك أيضًا.. وأنا دليل على وجودك.. ودليل على قوتك.. ودليل على عجزك عن إكمال قصتى وحل مشكلتى.

قلت: أنت لست دليلا على عجزى.. وإنما أنت صورة متكررة لى.. لمتاعبى ومشاكلى التى لا أعرف لها حلا.. مع أنك لم تتعرضى إلا لمشكلة واحدة.. ولكنى لا أعرف ما الذى أفعله.. إننى أكثر حيرة منك.. بل إنك أنت لست حائرة.. ففيك روح مرحة.. وعندك خفة وفيك استخفاف.. ولكنى أشعر بأنى ثقيل وأننى بليد.. وأننى أتخبط على الورق.. وأدبدب على الأرض. وعندما أنام أحس أننى أدفن.. وعندما أصحو أشعر بأننى أصحو من الموت.. وأننى شبح.. وعندما أتخيلك وأفكر فيك أشعر بشيء من الحسد لك.. فأنت تجدين من يفكر فيك بصدق.. ومن ينشغل بهمومك عن همومه.. ومن يحاول أن يخلصك وأن يرسم لك طريقًا للنجاة.. ومع ذلك فأنت وهم.. كل هذا الذى أعمله من أجل وهم..

ونهضت واقفة وقد وضعت يديها فى خصرها واقتربت منى وأطفأت السيجارة فى فنجان القهوة الذى أمامى وقالت: إننى أقوى من أية حقيقة.. إننى لست وهمًا.. ولكن يسعدك أن تجعلنى وهمًا لكى تهرب من الحقيقة.. من حقيقة أننى أنا حقيقة مثلك.. وأنك أنت هارب منى..

قلت لها: إننى لست هاربًا منك.. وإنما أنا هارب بك.. هارب إلى عالمك الذى هو أحسن من عالمى.. ففى عالمك كل شىء له معنى.. له هدف.. كل شىء مقدمة لحوادث بعد ذلك.. حياتك قصة مرتبة.. قصة مفروض أن تكون فيها مشاكل ولها حلول.. أما عالمى أنا فلا أعرف له أولا من آخر.. عالم ليس فيه أى شىء مؤكد.. لا شىء دقيق.. ولا شىء محدود.. كل شىء فى عالمى بالتقريب.. حتى هذا الذى أقوله لك بالتقريب..

وفى هدوء أحسدها عليه.. التفت حول مكتبى.. وجلست على المكتب فى مواجهتى.. والآن أستعير بعض هدوئها وأنظر إليها بوضوح.. إنا ليست سوداء العينين.. إنما زرقاء العينين.. وفى عينيها قسوة.. ولا أعرف كيف كنت أرى عينيها هادئتين.. لا أعرف.. وأرى أنفها صغيرًا وأراه حادًا مرفوعًا.. وأرى شفتيها ملتصقتين بشىء من المرارة.. أرى شفتيها رفيعتين.. مزمومتين.. مثل سوستة الفستان.. وكأنهما لا تطيق الواحدة الأخرى.. كأنهما أطلقتا صرخة وحتى لا يكتشف أمرهما أحد فقد انطبقتا فى سرعة وفى لا مبالاة.. ولاحظت أن شفتيها تشبهان إلى حد كبير شفتى.. مع أننى كنت حريصًا على أن أجعل شفتيها أكثر صراحة وأكثر بساطة.. أما رقبتها فهى مرفوعة عالية منصوبة.. وصدرها عال.. ولكنه يعلو ويهبط.. إنها تتنفس بشىء من الصعوبة.. وأنقل عينى من صدرها إلى عينيها.. لا شىء فى عينيها يدل على ما تعانيه.. ففى عينيها حياد شديد.. وأحسست بإحدى يديها حول عنقى.. ولم تنس أن تضع ساقًا على ساق.. ونظرت إلى ركبتها وساقيها.. واندهشت جدًا.. لم أكن أتصور أن ساقيها رفيعتان هزيلتان إلى هذه الدرجة.. ولم يكن هذا الذى ترتديه روبًا حريريًا شفافًا.. وإنما كانت ترتدى بيچامتى..

ووضعت يدها على رأسى وقالت: الآن بعد أن تحققت منى هل من الممكن أن تعود إلى ما كنت فيه.. أريد أن أسألك أى عالم هذا الذى وضعتنى فيه.. أى عالم هذا؟ إنه عالم أشياء.. مزدحم بالأشياء.. أشياء بلا أحياء.. غرفتى ملأى بسرير كبير أنام فيه وحدى.. أتمرغ فيه وحدى.. سرير جاف كأنه من البلاط البارد.. ودولاب وصور على الحائط ومقاعد ودولاب آخر لأحذيتى.. وجعلت غرفتى بالقرب من دورة المياه وبالقرب من الباب.. فكل ما فى عالمى.. أبواب ونوافذ وأجراس باب وأجراس تليفون وصوت أحذية وقباقيب.. وصوت حلل وشوك وسكاكين.. ومين..

وأنت مين.. وأدخل وأخرج.. ولا ليس موجودًا.. وأيد تمتد ناحيتى.. جافة ومرتعشة.. وأيد تبصق فى يدى.. وأيد تخنق يدى.. كل ما حولى أشياء.. حتى أمى فيها شبه كبير جدًا من الدولاب الذى فى غرفتى.. صوتها يشبه صوت المفتاح الصدىء وهو ينحشر فى القفل.. وأبى فيه شبه كبير من النافذة.. له منظار غليظ كزجاج النافذة.. وإخوتى.. تشبه الشوك والسكاكين.. كل ما حولى أشياء.. أما أنا فجعلتنى كتلة من النار.. جعلتنى كتلة من الأعصاب الوالعة.. ثم قررت بصورة دكتاتورية أن أعيش فى هذا الجو البارد.. دون أن أنطفئ ودون أن يشتعل هذا الجو نفسه.. وأمام هذه المعادلة الصعبة تحيرت أنت وقررت أن تقفل عينيك.. وأن تطفئ النور وأن تحبسنى فى قلمك وتعلن نهاية حياتى.. وهل بدأت حياتى لكى تنهيها؟. أى حق لك فى أن تنهى هذه الحياة.. أى فضل لك فى أن تعقد عقدة ثم لا تحلها.. إن كل إنسان يستطيع أن يعمل مثلك.. أى عظمة فى أن تلقى بإنسان فى النيل.. أى عظمة فى أن تطلق الرصاص على إنسان فيموت.. وإنما العظمة أن تجفف لها النيل قبل أن سقط فيه.. أن تفرغ المسدس من الرصاص قبل أن تطلقه.. هذه هى المعجزة الفنية.. هذا هو المفروض أن تعمله أنت.. وتلفت إلى فاطمة لأقول لها: ولكن هذه مشاكل وهمية.. وهذه حلول وهمية.. ليست هذه حلول.. هذا الذى تسمعين عنه كذب.. إنهم يكذبون عليك.. كل هؤلاء الكتاب.. كل هؤلاء الفنانين كاذبون.. إنهم يخترعون عالمًا ويخترعون فيه مشاكل ومخلوقات لا وجود لها..

واعتدلت فاطمة لتقول بلهجة قاطعة: هذه هى الواقعية.. إنهم يختارون صورًا من الواقع ثم يضعونها فى الإطارات الفنية.. ولكنهم صادقون..

وقلت: لا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومات.. ولكن كل إنسان فى الدنيا يقول عن نفسه إنه واقعى.. وهو صادق فيما يقول. ولكن كل واحد يختار من الواقع ما يعجبه.. ويختار من الواقع ما يتفق مع ذوقه ومزاجه، ويعبر عن الواقع بطريقته هو.. والناس ليسوا متشابهين تمامًا.. والفنانون ليسوا متشابهين. فكل واحد له واقع خاص به.. واقعه الخاص.. وكل واقع مختلف عن الآخر.. وكلها صادقة.. كلهم صادقون فى التعبير.. ولكن لا يوجد شىء مؤكد وقاطع ويقينى.. هل يوجد إنسان مرسوم ومدروس وكل تصرفاته لها أول ولها آخر.. أين هذا الإنسان.. إننى لا أعرفه؟ ثم كيف يستطيع أى إنسان أن يكون معقولا فى عالم لا معقول. مش معقول.. كيف يكون منطقيًا ويحتفظ بطابعه فى عالم مجنون.. كيف؟ أريد أن أعرف؟ أنا تصورت أننى أستطيع أن أجعل حياتك معقولة.. أخوتك أدهشونى.. إنهم

يسخرون من أفكارك.. ومعهم حق.. فأفكارك سخيفة ومنطقك أسخف.. فلماذا لا يكونون هم أيضًا على حق.. ولماذا أنت دائمًا على حق.. ولا أعرف كيف أتحدث إليك.. ولا كيف استمر فى هذه المناقشة. لابد أنك قابلت شخصيات قصص كثيرة اكتملت وانحلت مشاكلها.. لابد أنك قابلت شخصيات دستوفيسكى.. وشخصيات بلزاك.. هل رأيت إلى أى حد حياتهم مرسومة ومدروسة.. ليست حياتهم.. بل بيوتهم وملابسهم والأرض التى يمشون عليها.. من الممكن أن يحدث كل هذا فى القرن التاسع عشر.. فى جو البورجوازية.. فى عصر البورجوازية كل شىء محدد وكل شىء ثابت.. السماء فوق دائمًا.. والأرض تحتها دائمًا.. والغنى فوق دائمًا والفقير تحت دائمًا.. وكل شىء ثابت ويجب أن يبقى ثابتًا إلى الأبد.. فالثبات صفة مقدسة.. ويجب أن يقدسها الناس.. أما الآن.. فالشىء المقدس هو التغير.. كل شىء يجب أن يتغير وأن يتبدل.. فالغنى يجب ألا يكون كذلك مهما كانت ثروته وأسرته.. والفقير يجب ألا يبقى كذلك.. فليس بالحق المقدس أن يكون الغنى غنيًا والفقير فقيرًا.. كل شىء ممكن.. ومحتمل.. وقد زاد عدد الناس الصغار.. الناس الذين لم يكن لهم وزن ولا قيمة.. واختفى هؤلاء الأبطال الزائفون.. أبطال القصص الذين لم يعد لهم وجود فى حياتنا.. ولم يعد العقل الإنسانى يحدد كل شىء بصورة نهائية.. فالعقل أصبح أقل يقينًا من ذى قبل.. فلا شىء محدد.. ولا شىء نهائى.. وإنما كل شىء يتغير ويتبدل.. القيم والناس وحركة الناس فى المجتمع.. والمجتمع الآن يغير إطارته.. تمامًا كسيارة قديمة بدأت تغير إطاراتها وموتوراتها وسائقيها.. ففى لحظات التغيير والتبديل هذه بدأت أنا أيضًا أغير ريشى.. وأنفخ عجلاتى.. وأغير منظارى وأبحث عن خريطة وأتطلع حولى عن حل لمشكلتى.. لمشاكلى.. ورأيت فيك صورة لمشاكلى.. وصورة لمشاكل غيرى.. وحاولت أن أرسم على الطريقة القديمة وأن أجد لك حلا جديدًا.. ووجدت أننى يجب أن أبحث لى أنا عن حل.. قبل أن أبحث لك أنت عن حل.. وازددت حيرة.. وازددت تعبًا.. وتمنيت لو كنت مثلك..

وبهدوء شديد قالت: تقصد أن تكون وهمًا مثلى..

قلت: وهم له قوة الحقيقة.. وحقيقة لها جمال الوهم..

قالت: أنت أيضًا بالنسبة لى لك جمال الحقيقة، ولك قوة الوهم.. إننى أتمنى لو كنت مثلك قادرة على التنقل من الحقيقة إلى الوهم.. ولكن مع الأسف أنا ورقة على شجرتك.. أنا قطرة من قلمك.. أنا دمعة على خدك.. أنا بريق فى عينيك.. أنا مشكلة فى رأسك.. ومع ذلك فالأمر ليس صعبًا كما تراه..

قلت وكأننى أتلمس منها الحل: هل وجدت حلا؟
قالت : وكيف أجد حلا؟ إننى لا أعلم إلا ما علمتنى.. فأنا صورة لعجزك ونموذج ليأسك، وإحدى ضحاياك.. ومع ذلك ليس الأمر صعبًا.
قلت: لا أفهم ماذا تقصدين..
فنهضت من فوق المقعد.. ورأيتها عن قرب من ظهرها.. إنها أقصر مما تصورت.. إنها ممتلئة.. وتمشى حافية القدمين.. وترتدى فستانًا قصيرًا.. ليس بيچامة كما رأيتها من قبل.. ثم أسندت ظهرها إلى الباب وأشعلت سيجارة..
ونظرت ناحيتى وهى تقول: ألم تر الحل.
فقلت: لا أفهم..
وأخرجت عود كبريت آخر وأشعلته.. وعادت تقول: لم تره.
قلت: ما هو؟
قالت: هذا..
وأشارت إلى يدها.. وقد أدنت عود الكبريت من أصبعها..
قلت: ما هذا؟ دبلة؟
قالت: نعم.. ألا يحق أن أضع فى أصبعى دبلة؟
قلت: مخطوبة؟ غريبة!
قالت: لا.. لست مخطوبة.. إنها يدى اليسرى..
قلت: متزوجة؟ ممن؟
قالت: منه؟
قلت: من هو؟
قالت: نفس الشخص الذى جعلتنى أكرهه.
قلت: تزوجت من كنت تكرهين؟
قالت: لأننى لا أجد من أستطيع أن أحبه.. ثم إننى لم أجد سببًا معقولا يجعلنى أكره هذا الرجل..
قلت: لم تجدى سببًا.. وهل وجدتى سببًا لكى تحبيه؟
قالت: أنت الذى تكرهه.. أما أنا فلا أكرهه.. ولكنى كامرأة لم أجد فيه عيبًا.. إنه رجل لا يرقص.. وأنت ترى أن هذا عيب.. إنه رجل لا يشرب وأنت ترى أن هذا عيب.. وهو رجل قد تزوج قبل ذلك وفشل فى زواجه.. وأنا أرى أن هذا الرجل يستحق الشفقة وأنت تكره ذلك.. ثم إنه رجل لم يعرض علىَّ الزواج..

قلت: أنت التى طلبت منه الزواج؟

قالت: نعم.

قلت: أنت تطلبين منه الزواج؟ غريبة!

قالت: لابد أن أحدًا يطلب الزواج من أحد.. هو لم يطلب.. فتقدمت أنا.. ما المانع.. هل اختلفت الآن عن الصورة التى فى ذهنك!. أعتقد أن هذه فرصة معقولة لكى تغير ما فى رأسك..

قلت: انتهت.

قالت: لا أفهم.

قلت: انتهت. وليس من الضرورى أن تفهمى.

قالت: فعلا ليس من الضرورى أن أفهم.. ولكن من الضرورى أن تفهم أنت.. أعتقد أنك تريد أن تقول إن القصة قد انتهت.. وأن علاقتك بى قد انتهت.. على كل حال أنت حر.. وإنما أردت فقط أن أعاونك.. أن آخذ بقلمك من هذه المشكلة.. حاولت أن أسبقك إلى الحل.. وإذا لم تكن هذه النهاية قد أعجبتك..

قلت: لا! لا!.. إنها أحسن مما كنت أتصور.. لقد تصورت نهايات كثيرة جدًّا.. إنها نفس حكاية التفاحة والطفل..

وقفزت فاطمة وجلست على مكتبى واقتربت منى وقالت: أسمعنى حكاية التفاحة والطفل..

فابتعدت عنها قليلا وعاودنى قرفى ومللى وضيقى وقلت لها: إنها حكاية طويلة.. حكاية قديمة..

قالت: أنسيت أننى طفلة.. أنسيت أننى ما أزال صغيرة.. أنسيت أننى أحب الحكايات.. فإذا لم أسمعها فإننى أتخيلها.. وأخترعها..

قلت: لا أعرف.. نسيت.. وأريد أن أنسى..

قالت: هل تصورت أننى تزوجت.. كيف تنخدع بهذه السهولة..

قلت: إذن لم تتزوجى.

قالت: طبعًا لا..

قلت: ولماذا؟

قالت: كيف أتزوج.. أنت وحدك القادر على أن تزوجنى.. أنت الذى خلقتنى.. أنت الذى وضعت المشاكل أمامى.. أنت الذى يجب أن يحلها..

وفى فرحة من وجد الحل النهائى قلت لها: ولماذا لا تتزوجين؟

قالت: من؟

قلت: نفس هذا الرجل! ما المانع؟ إنه إنسان طيب.. وغدًا سيجيء إليكم مع أمه.. وغدًا تسمعين قصة انفصاله عن زوجته الأولى.. لقد ماتت.. ولم ينجب منها أطفالا.. ثم إنه كان يراك كثيرًا وأنت طفلة صغيرة. وكان يحلم بك.. ثم إنه إنسان مكافح.. إنه لا يملك الكثير من المال..

قالت: وديون أبى.

قلت: سأجعلها وهمية.. غدًا تنتهى ديون أبيك..

قالت: يعنى سأتزوج.

قلت: مؤكد.

قالت: متى؟

قلت: غدًا.

قالت: ولماذا بهذه السرعة؟

قلت: إنها نهاية سريعة وسعيدة ومريحة..

قالت: وتستريح أنت.

قلت: أبدًا.

قالت: لماذا؟

قلت: لأنها نهاية غير طبيعية.. نهاية أدبية.. ومشاكل فنية..

قالت: يعنى لن أتزوج؟

قلت: أنت تتزوجين. لابد.. أما أنا فمشكلتى أصعب من أن أجد لها حلا.. أما أنت فيجب أن أجِد لك حلا.. وسأبحث لى عمن يجد لى حلا..

قالت: علّى أساعدك؟

قلت: تستطعين.

قالت: كيف.

قلت: تزوجى!

قالت: إذن انتهت قصتى..

قلت: ولكن قصتى أنا لم تنته..

واختفت فاطمة كما ظهرت.. ومن الممكن أن تتزوج وأن تعيش سعيدة.. عن حب أو عن غير حب.. فى قصة وبخيال كاتب، وفى الحياة العادية بلا قصة وبلا خيال..!

□ □ □

عندك فرصة لتكون مجرمًا!!
(قصة للسينما)

شاب يمشى فى منظر عام فى الطريق.. أى طريق أمام أى منازل.. فى مكان غير محدد بعد..

خطواته تدل على أنه فى غاية السرور والنشاط يداه فى جيوبه.. سيجارته فى فمه.. تحت ذراعه لفة صحف..

يخرج السيجارة من فمه.. ويردد إحدى الأغنيات..

فجأة يتوقف.. ثم يعود ويسير على مهل ثم يقف مرة أخرى أمام أحد المنازل.. يلقى بلفة الصحف على الأرض وبقدمه يسوى اللفة.. ثم يجلس عليها.. ويسند ظهره إلى الحائط.

يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة، ويضع يده على خده، فى تفكير عميق..

(منظر كبير بوجهه فقط.. ويظهر عليه علامات التفكير.. يحدث نفسه).

على إيه كده فرحان.. على إيه..؟ إيه اللى حتاخده.. حتسافر إسكندرية.. ياه إسكندرية مرة واحدة.. وإن شاء الله كده حتسافر بالطيارة ولا بالقطار..؟

لوحدك ولا مع السيدة حرمك.. ومين حيكون فى توديعك.. كل الناس دول.. **(وهو يشير إلى الناس فى الشارع).**

طبعًا لازم يكون فى توديعك كل الناس اللى بتتعامل معاهم.. الناس اللى انت مرتبط بيهم ارتباط حيوى.. حياة أو موت..

والسؤال هو: حياة مين.. وموت مين.. أيوه صحيح..

الجواب: حياتهم همه وموتى أنا.. آه

وحضرتك بقى مسافر إسكندرية.. إيه الأملة دى يا واد.. أمك داعية لك.. حظك من نار إسكندرية مرة واحدة.. يا بختك.. يا بختك.

(يقوم مرة واحدة ويشوط اللفة بقدمه).

يخص على دى شغلة.. يخص.. أنت ناسى أنت فين دلوقت.. فين دلوقت..؟ على الأرض.. على الحديدة..

(يضحك ضحكة ملؤها السخرية من الوضع الذى نراه عليه حيث يعود مرة أخرى إلى مكان جلوسه على الأرض).

وهو فين دلوقت؟ أنا عارف هو فين واللا فين؟ مع مين واللا مع مين.. بياكل إيه.. واللا إيه؟ لكن أنت معروف مكانك.. معروف مرتبك.. معروف مركزك..

(يضع يده فى جيبه ويخرجها وهى خالية.. إلا من بعض القروش.. ويدق بيده على الأرض).

روح إسكندرية.

(ينهض واقفا من مكانه ويرفع يده محييا).

حاضر يا فندم.. أروح إسكندرية.. حاضر

وتيجى بعد ثلاثة أيام.. فاهم..

(ينهض واقفا مرة أخرى أكثر انتباها من ذى قبل).

حاضر يا أفندم.. حاضر..

(يعود مرة أخرى ويجلس فى نفس المكان وقد ضرب الصحف برجليه.. وأخرج منديلا من جيبه ونشره على الأرض وجلس فوقه يفكر).

(يقلد لهجة رئيس التحرير).

امش اطلع بره.. اطلع بره..

أنا باقول لك اطلع بره..

(يقف).

عملت إيه.. لنفرض أن الجو كان مش مناسب.

وإيه يعنى.. دقيقة واحدة يكلمنى فيها وبعد كده يبقى مناسب جدًا.. كنت عاوز أفهم منه.. أعمل إيه؟.. أكتب إيه؟؟

أدور ازاى على الناس اللى باعتنى ليهم.. ألاقيهم فين.

(يضع يده فى جيبه وتخرج خالية)

الفلوس.. مافيش فى جيبى مليم واحد.. طيب يقوللى أجيب فلوس منين.. فاكر إن عندى فلوس.

(يضحك ضحكة طويلة جدًا مملوءة بالسخرية.. يخرج من جيبه بعض

القروش ويضعها على الأرض أمامه فى شكل زخرفى بجانب بعضها البعض. ويضيف إليها طوابع البريد التى كان يحملها أيضًا. ثم يضحك ضحكة عريضة من القلب).

يا ترى انت فين يا أستاذ.. ومين قاعد على يمينك ومين قاعد على شمالك.

(لافتة على باب «رئيس التحرير» ونرى الحجرة وفى داخلها مكتب عريض جدًا وقد جلس عليه الرجل الصارم. ونرى إحدى الفتيات وهى تجلس بجوار رئيس التحرير.. حلوة..).

هى اللى على يمينك... آه... سوسن..

ودى تبقى اسمها سوسو.. والنبى حلوة. ومقطقطة يا بت.

أهى دى قاعدة دايما على يمينك يا أستاذ.. يا خسارتك يا سوسن.

(سوسن تضحك ضحكة عالية بدون صوت).

لو كنت سمعت كلامى مش كان أحسن لك من اللى أنت فيه دلوقتى.. واللّه يا سوسن كلهم بيقولوا نفس الكلام.

(رئيس التحرير ينحنى وهو يخاطب سوسن فى أذنها وهى تضحك)

الرجالة كلها بريالة يا سوسن.. أنا واحد منهم وبرضة بريالة يا سوسن مش قادرة تكتشفى يا سوسو إن كلامهم واحد..

(الكاميرا عليه وهو يسند رأسه إلى فانوس نور فى الشارع).

ودنك دى ما عندهاش تمييز أصوات.. ودنك عندها عمى أصوات يا سوسو يخص عليك..

(يسكت ويمط شفتيه)

آهى دى كل ليلة تقعد جنب الأستاذ.

(يترك العمود ثائرًا ويعود إلى المكان الذى كان يجلس فيه ويقف أمامه).

الأستاذ مش قادر يشوف وش.. الأستاذ اسمه فرج وأنا اسمى توفيق..

(رئيس التحرير وهو يشير بيده فى حالة هياج شديد ويأمر ويأتى إشارات يفهم منها مدى غضبه).

(الكاميرا على توفيق).

ليه بس.. أنا عملت إيه.. أنا أقدر أعمل لك إيه.. أنا فين وأنت فين.. آدى الأرض وآدى السما..

(يترك جسده يهوى على الأرض).

معلهش يا أستاذ.. حقك عليًّ..

(وكأنه يستعطف الأستاذ أمامه).

(بصوت هادئ..)

برضه حايجى يوم..

(يكاد يبكى وهو يردد الكلمة مرات ومرات).

حايجى يوم.. حايجى يوم.. حايجى يوم

(يخرج علبة السجائر من جيبه ويأخذ منها آخر سيجارة)

آخر واحدة.. آخر سيجارة.. زى بعضه، واللّه ما أنا عارف مين اللى بيحرق التانى.. أنا واللا أنت يا سوسو..

حتى السيجارة اسم الدلع بتاعها سوسو

(لحظة صمت).

(المنظر عام وتوفيق يظهر وهو يطوح السيجارة فى الهواء وينظر إليها متفائلا).

أشرب السيجارة دى وأقوم بقى.. أشوف حأسافر ازاى.. وحاروح لسوسو ازاى.. قصدى إسكندرية حتى إسكندرية كمان اسمها سوسو والنبى مكانش يومك يا توتو..

(ينظر إلى الكاميرا)

توتو ده اسمى أنا.. اسم الدلع بتاع توفيق والدلع ده من عندى ما حدش دلعنى.. وحيدلعونى على إيه..

قوم يا حبيبى.. قوم يا سيدى قوم.. اسم اللّه عليك..

(يقوم ويمد يده كأن أحدًا يأخذ بها ويقف مواجها الكاميرا).

تعرف يا توتو.. لولا معزتك عندى.. ما كنت شفت الغلب اللى شفته.. ولا اللى حانشوفه ولا وطيت دى..

(يشير إلى رأسه).

تحت دى

(يشير إلى حذائه).

علشان خاطر دى

(يخرج صورة سوسن من جيبه).

وعلشان خاطر دى كمان.. سوسو..

(يخرج ساندوتش فول من جيبه كان فى لفة معه ويبدأ فى الأكل)

لكن كله على اللّه.. كله عند اللّه

(يأكل قطعة صغيرة من الساندوتش ثم يضع الساندوتش جانبا.. ويبتلع ريقه على صوت أغنية أم كلثوم من بعيد يتردد صدى الصوت فى أذنه).

سامحت بيك الزمن.. نسيت معاك أيامى يا سلام عليك يا ست ثومه.. بتقول سامحت بيك الزمن.. يبقى لازم تسامح الزمان والمكان واللى يسوى واللى ما يسواش: سوسو وأبو سوسو والأستاذ وحبايب الأستاذ، وكل المحررين اللى فى الجرنال.. وأنا وأنت.. رقصنى يا جدع..

(موسيقى بلدية مناسبة للكلمات التى تقال، ثم تقف الموسيقى دقيقة واحدة وهو يقول): وصلت للدرجة دى.. أنا أرقص على المزيكة دى.. أنا الصحفى الصاعد.. والله العظيم صاعد..

(يطلع سلمة).

واللّه صاعد جدًا.. بس مش لاقى اللى يزقنى زقة واحدة.. واحدة.. صاروخ يشلنى لفوق صاروخ المرحلة الأولى وأنا أكمل المراحل الثانية والثالثة والرابعة والميه..

صاروخ واحد يا رب.. كتير عليك يا رب

اسمع ياتوتو.. والنبى تسمع يا توتو.. إذا ما كنتش حاتطلع على رجليك.. مفيش فى الدنيا رجل تانية حتشيلك.. هو حد قادر يشيل نفسه لما حيشيلوك.

بص.. بص.. شوف الناس بتجرى ازاى..

(الكاميرا وهى تتزاحم فى الشوارع.. كل فى حاله.. الشارع مزدحم جدًا).

تقدر بقى تقول لواحد من دُول.. ولع لى السيجارة من فضلك.. ده أنت حتى لو اللّه لا يقدر وقعت فى الشارع مش حتلاقى واحد يشيلك ويوديك بتكم.. الكل حيتفرج عليك..

وبعد كده يجروا على الأتوبيس..

ويمكن وده طبيعى حيلعنوا أبو خاشك..

(على وجهه بانت علامات الاستدراك السريع والألم وهو يعود إلى الحالة الأولى).

والله يا بنى أنا مجنون.. يا حتجنن.. كل يوم أقعد القعدة دى.. أبكى على حالى.. كل يوم.

(يضع يده على خده.. يتكئ برأسه إلى الخلف).

آل سامحت بيك الزمن..

آه سامحت بيك الزمن..

آه يا وعدى..

واللا أقولك يا توتو.. قوم أحسن لك قوم يا حبيبى بقى شوف شغلك.

(يقف أمام ڤيلا أنيقة وقد راح توفيق يلف حولها من بعيد.. ينظر إلى الباب وإلى الشباك.. ثم يعود يدور حولها يتأكد من رقم الڤيلا وينظر إلى ورقة فى جيبه ونلاحظ أنه قد علق كاميرا حول رقبته.. ويلتقط صورًا للڤيلا وفى هذه الأثناء يتقدم رجل مسن ويضع زجاجة لبن.. توفيق يلتقط صورًا لبائع اللبن وهو يضع اللبن ويتقدم منه).

توفيق : أنت عم إسماعيل.

بائع اللبن : لا أنا أبو سالم.

توفيق : وأنت بتشتغل بقالك قد إيه يا أبو سالم هنا.

بائع اللبن : من زمان قول عشر سنين أهو.. والله ناس كويسيين قوى يا بنى بس..

توفيق : بس إيه..

بائع اللبن : الولاد الصغيرين أشقيا قوى.. واحد فيهم ضربنى بالنبلة فى عينى.

توفيق : كام واحد يا أبو سالم.

بائع اللبن : ثلاثة يا بنى الصغير مسكين قوى.. ربنا الشافى يا بنى..

توفيق : عيان.

بائع اللبن : الأعمار بيد الله يا بنى..

توفيق : إيه مات؟

بائع اللبن : يا ريته يموت يا بنى.. سلام عليكم.

توفيق : رايح فين....؟

بائع اللبن : ما أنت شايف.. لازم أوزع اللبن.

(يلتفت إليه أبو سالم فى شىء من الارتباك ويكاد يتجه إليه.. ثم يتردد ويمضى لحاله).

(توفيق يقترب من الڤيلا.. ويعاود الجلوس على السلم.. تمامًا كما كان يجلس من قبل).

(يخرج من جيبه علبة سجاير وولاعة.. ويقرأ على الولاعة).

توفيق : أول حرف من اسم البيه.. حامل الولاعة.. أمال.. أصول الصنعة: الوجاهه..

(ينظر إلى نفسه وإلى ملابسه جيدًا).

توفيق : طبعا مفيش أحسن من كده.. الولاعة مش بتاعتى والبدلة لسه بالتقسيط.. يعنى لسه برضه مش بتاعتى.. أنا بس اللى بتاعى.. اللى تحت الهدوم دى هو اللى ملكى.. هو ده اللى مش بالتقسيط.. ومش ممكن يبقى بالتقسيط وأنا بس اللى حزين على نفسى.

(يبدأ فى النهنهة والبكاء ولكنه يستدرك فجأة ويضرب نفسه على خده).

اخص عليك.. كده برضه.. مش اتفقنا إننا نبطل بكا ودموع.. مش نبطل نواح خلاص بقى.. مدام مفيش حد مات يبقى نعيط على مين؟

أنا ولسه عايش أهو.. ولا عيان ولا تعبان يبقى إيه بقى..

(يكلم نفسه وهو ينظر إلى جسمه ويشير).

عندك الكبد؟ لا هو عنده الكبد.

عندك المرارة؟ لا هو عنده المرارة.

عندك المصران؟ لا هيه عندها المصران.

عندك كرامه؟ أيوه هيه ما عندهاش كرامه.

(لحظة صمت ثم ينظر إلى الفضاء حوله ثم يخرج من جيبه منديلا ويجفف عرقه ثم يخرج ورقة ويقرأ).

هذا الرجل قد تزوج أخته وهو لا يعرف.. يا خبر اسود تزوج أخته وهو لا يعرف.. وعاش معها عشر سنوات وأنجب منها ثلاثة أولاد.. يا خبر اسود طب أعمل إيه أنا؟ واحد متجوز واحدة وسعيد وياها.. أخته مش أخته وأحنا مالنا هو مش عارف أنها أخته واتجوزها.. خلاص يبقى راجل حسن النية.. وهى طبعا مش عارفة.. ويمكن سعيدة جدًا فى حياتها..

هو زمان مش كان الواحد يتجوز أخته.. الفراعنة مش كانوا بيتجوزوا اخوتهم.. يا ريتك أختى يا سوسو.

ما كنتش لا فكرت فيك.. ولا رميت نفسى عليك..

(يستدرك مرة أخرى موقفه).

ما بلاش زفتة الطين دى يا أخى خليك فى حالك دلوقتى.. خليك فى الغم اللى أنت فيه..

(يشير إلى الڤيلا).

والغم والهم اللى الناس دول حيبقوا فيه.

الناس السعدا من عشر سنين

ممكن يا اخواتى الواحد يبقى سعيد رغم أن أساس السعادة غلط.. آه ممكن.. ممكن يا سوسو..

(يستدرك).

وبعدين يا أبو تيفة ما قلنا بلاش سوسو..

ممكن يا سوسو.. سعادتك دلوقت أساسها غلط.. النبيذ أساسه عنب فسدان.. السكر الأبيض إيه اللى بينضفه.. بينضفه لما يمر على عضم البقر والجاموس.. عضم الجاموس يخلى السكر أبيض.. ممكن واحد يتجوز أخته.. وده حرام قطعا.. ويبقى سعيد لأنه مش عارف.

(يخرج ورقة أخرى من جيبه)

والمطلوب منى دلوقت.. أولا.. حديث كامل مع الزوجين.. حديث كامل مع الزوجين.. لازم أكلم الزوجة.. وأكلم الزوج.. مع بعض.. وكل واحد لوحده. شكلهم إيه. هل هناك تشابه بين الاثنين.. هل هذا التشابه يدل على أن الاثنين أخوان.. ألا يحدث كثيرًا جدًّا أن يتشابه الزوجان فى ملامح الوجه. لأنهما متشابهان فى الحالات النفسية والجسيمة.. كتب علم النفس بتقول كده.. وصف الملابس الزوجية حتى من اللحظة اللى دخلت فيها إلى البيت.. ووصف الزوج.. أطول منها.. أقصر منها.. مرح.. طريف.. يحب النكتة.. بيقرا إيه من الجرائد.. ويسمع الراديو.. يشوف التليفزيون.. يحب إيه من الأغانى إيه رأيه فى أغنية أنت عمرى.. حاول أن تجعل الزوجين يتفقان فى الرأى.. فيحب الاثنان نفس الأغنية.. كان هذا يؤكد التشابه الثانى فى كل شىء.. الأولاد شكلهم.. صورهم التشابه بينهم.. أن أى

شيء عن حياة هذين الزوجين يعتبر وثيقة تاريخية.. صحة وعادات هذين الزوجين.

كيف كانت صحة ألوف الناس الذين يتزوجون من أخواتهم إنها وثيقة خطيرة.. كشف عالمي.. رأى الزوجة فى اشتغال المرأة.. رأى الزوج فى التدخين..

(يبتلع ريقه ويقرأ)

وبعد كده.. يا خبر أسود.. بعد كده أنا أقول لهم.. أن هم الاتنين أخوات ومتجوزين بعض.. وأن الجريدة بتاعتنا عندها الدليل على كده.. يا خبر أسود.. أنا أهدم السعادة دى.. أنا أحول الاثنين من زوجين إلى عشيقين إلى مجرمين.. اثنين من المجرمين.. وأى جريمة.. يا خبر أسود.. ليه؟ كل ده ليه.. ليه يا أستاذ علشان أعمل إيه؟ والنبى دى قضية غريبة.. هل تقول لهم.. ولا ما تقولش لهم.. تقول ولا ما تقولش.. ياخبر أسود.. لكنه خبر مهم جدًا.. خبر صفحة أولى.. واسمى كده على الموضوع من فوق.. وسبق عالمى.. وثيقة تاريخية.. وعاوز تقول يا توتو إن الأستاذ ما بيحبكش.. هو ده لو كانش بيحبك كان يدى لك أكثر من ده يا توتو.. طبعًا لا.. أكيد بيحبك ويشجعك.

(يتحدث إلى نفسه)

لكن مش باين عليه.. وهوه ضرورى يبان عليه.. يعنى أنت باين عليك إنك بتكرهه.. إيه.. باين عليك أنك حتطق من سوسو. إيه.. لكن أنت بتكره الراجل.. وبتكره البنت.. وآدى اثنين حيكرهوك كراهية لا نظير لها فى التاريخ.. آه يا خرابى.. أعمل إيه أنا حشوف العينين السعيدتين.. والخبر يحول العينين دول إلى شرر نار.. شرر أسود.. إلى حقد.. إلى مقابر اندفن فيها وأنا حى.. وننظر الأولاد الصغار.. ثمرة الخطيئة. ثمار حلوة.. لكن هذه الثمار خرجت من أى أرض.. عجيبة يا ناس.. حكمتك يا رب.. الأرض السودة تطلع التفاح ده.. أرض سودة تخرج منها ثمار حلوة بريئة.. الأولاد أبرياء.. والأب والأم فى غاية البراءة.. والمجرم أهوه.. يشير إلى نفسه.. والمجرم هناك.. الأستاذ.. هوه المجرم.. لكن إيه السبب.. السبب أن احنا لازم نقول للناس حاجات غريبة.. الناس تحب الحاجات الغريبة.. الناس زى ما تكون نايمة.. وعاوزة اللى يهزها بخبر غريب.. بقصة مثيرة.. بجريمة قتل.. الناس عاوزة.. واحنا فاتحين دكان بنبيع فيه أخبار.. الزبون عاوز.. الزبون على حق دائما.. الزبون عاوز جرائم.. عاوز قصص.. عاوز جثة.. نكتب له.. أو نعمل له قصص.. طيب دلوقت الزبون عاوز إيه..

(يشير إلى نفسه)

(يلف الجريدة حول وسطه كأنه خادم.. ويمسك الكاميرا بيده.. ويضعها فوق يده كأنها جثة ويتقدم وينحنى).

يا حضرة الزبون.. طلباتك اللى أنت عاوزه رأس مين.. قتل مين.. دم مين.. اللى يريحك.. أموت لك نفسى.. أسهل حاجة فى الدنيا..

(يعتدل فى وقفته ويلف الصحيفة ويعلق الكاميرا فى رقبته من جديد).

دلوقت ألقى القنبلة.. هذه القنبلة انفجرت فى قلبى من امبارح.. أما أول ضحايا هذه الجريمة.. الجريمة اللى ما ارتكبتهاش.. واللى ما ارتكبهاش حد.. راجل اتجوز أخته وهو لا يعرف.. القانون يقول: جريمة.. والواقع يقول إنهم سعداء.. وأنا جاى باسم القانون اللى نام عشر سنين عند مدخل الباب ده.. جاى زى غراب البين.. زى البومه.. أقول لهم.. باسم صاحبة الجلالة الصحافة.. أقول لكم إن زواجكم باطل.. وأن علاقتكم حرام.. وأن أولادكم جريمة هذه الخطيئة.. أن البيت ينهد.. وأن السعادة لازم تنهار.. وأن القانون أمر بخراب هذا البيت السعيد.. وأنك أخوها.. وأنك أخته.. وأن الأولاد دول يبقوا ولاد أختك.. الأولاد دول يبقوا ولاد أخوك.. ولاد أختك اللى هيه مراتك.. ولاد أخوك اللى هو جوزك..

(يستدرك).

بقى حا أقدر أقول كده.. أقدر أقول للناس دى كده.. ده الراجل اللى بيحكم بالإعدام على مجرم حقيقى بيفضل ضميره يرتعش.. وجسمه يتنفض أيام.. الراجل اللى بيشنق المحكوم عليه بالإعدام بيغطى عينين المحكوم عليه لأنه بيخاف من عينيه.. بيخاف منه.. بيخاف من العينين اللى بتبرق لآخر مرة.. بيخاف من العينين اللى بتقول: اللّه يسامحك.. اللى بتقول: أنت بتموتنى.. أنت كمان حتموت.. بالمشنقة من غير مشنقة حتموت.. مفيش حد دايم.. اللى بيتشنق ولا اللى بيحكم بالشنق.. واللى بيشنق.. أقوم أنا أدخل هنا.. وأحكم بالإعدام على خمسة من الناس.. وأقف معاهم وأكلمهم بعد كده.. أو قبل كده أنا أعدم خمسة.. خمسة يا أستاذ.. أنت فين دلوقت يا أستاذ.. أنت فين.. مع مين وبتأكل إيه.. وبتقول إيه.. وسعيد طبعا بالخبر.. اللى حيهز البلد.. أنا مفروض اللى حاجيب الخبر ده.. أنا مفروض السلك الرفيع اللى بينقل الكهرباء من الشركة للبيت.. سلك رفيع جدًا.. ولما تبقى الصدمة شديدة أنحرق أنا.. والبيت يفضل هادئ سعيد.. بيت

الأستاذ طبعا.. الجريدة سعيدة كلها لأنها انفردت بهذا الخبر.. يا ريت كل الجرائد تيجى تصور الحكاية.. المأساة دى.. علشان ما أبقاش أنا المجرم الوحيد..

(يجلس على السلالم مرة أخرى).

وبيقولوا الأستاذ بيحبك.. بيحبك.. ولا بيعزك.. طيب يمكن باعتك هنا علشان تروح فى ستين داهية.. علشان الراجل ده يضربك بالرصاص.. أنا عارف إن كان الخبر ده صحيح ولا كدب.. وحتى لو كان صحيح.. فمنظر الراجل السعيد اللى يتحول فى لحظة إلى رجل مجرم والزوجة والأولاد.. كل دول عينيهم حتكون زى المسدسات.. زى بطاريات تكشفنى وتصيبنى فى نفس الوقت.. قطعا الأستاذ ده بعتنى هنا علشان أموت.. قطعا علشان أموت.. علشان يخلص منى.. علشان سوسو تفضل له لوحده.. سوسو هى اللى بعتتنى هنا.. طب هوه يقدر يرفدنى.. بسيطة جدًّا.. وبالشكل ده يستريح منى.. لكن لا.. لازم يخلينى أموت وأنا أؤدى عملى.. موتة شريفة.. موتة شريفة.. لكن الهدف سيئ.. الهدف سيئ والوسيلة شريفة.. ممكن تكون الوسيلة نضيفة.. والنتيجة قذرة.. ممكن؟ ممكن تكون النتيجة سعيدة.. والوسيلة قذرة.. ممكن.. ما هو ده اللى أنا رايح له..

(يقلب فى أوراق أخرى فى جيبه ويقرأ).

ومطلوب أيضًا أن نأخذ اعترافا بخط الرجل.. ويخط زوجته أيضًا.. اعتراف؟! اعتراف بإيه؟.. كمان الرجل أموته.. وبعد كده أسحب إيده وأقول له أكتب لنا كلمتين علشان إيه؟ علشان الناس تقول أن ده خطه.. يعنى إنه مجرم مع سبق الإصرار؟.. كمان؟! واللّه حرام يا ناس.. فيه نفس علشان أقول له أكتب هنا.. أنا عمرى ما سمعت عن عشماوى طلب من المحكوم عليه أن يكتب له اعترافات.. اعترافات رجل منهار بالضبط زى ما أرمى واحد من طيارة.. وهو نازل من الجو.. أقول له ما تنساش تبعت لى جوابات.. دى نكتة.. ولامأساة.. ومين اللى بينكت هنا.. الأستاذ.. وللا القدر.. وللا الاثنين.

(ينهض واقفا).

دلوقت أبدأ فى ارتكاب الجريمة.. يا رب ساعدنى.. ساعدنى.. على ارتكاب أبشع جريمة فى حق زوجين سعيدين وأطفال أبرياء وفى حق صحفى صاعد.. واللّه صاعد يا رب.. وأقدر أصعد على رجلى دول..

(ويضع القلم فى دماغه).

وده الإيريال.. وده اللى يمنع الصواعق.. صواعق الأستاذ.. واللّه ما أنا عارف اتلخبطت.. طبعا لازم اتلخبط.. هوه فيه مجرم بيمسك أعصابه.. حتى لو كان مجرم محترف..

(يدق الجرس.. وينتظر.. ويمسح العرق من وجهه.. ويضع الأوراق فى جيبه.. ويخرج المشط ويسوى شعره بحركة لا شعورية ويضع المنديل بعناية فى جيبه فى حركة لا شعورية ويدق الجرس.. ويبتعد عن الباب.. ويربط الكرافتة).

كليوباترة قبل ما تموت كانت بتعمل زى كده.. بس.. بس كليوباتره هيه اللى ماتت.. لكن أنا رايح أموّت خمسة.. بقى أنا مجرم لهذه الدرجة.. مجرم وأنا مش عارف.. مجرم بإصرار.. مجرم بكاميرا وقلم.. ومجرم وأنتظر ترقية بسبب هذه الجريمة. عايش على بلاوى الناس زى الدكاترة.. الناس تعيا وهم يكسبوا.. الناس تموت وهم يكسبوا.. وأنا دكتور وقاتل وحانوتى وصحفى.. يخص عليك.. يخص عليكم كلكم.. يخص.

(يدق الجرس وينفتح الباب.. ويطل طفل صغير لطيف ويمد يده يسلم على توفيق.. وباليد الأخرى يأخذ زجاجة لبن.. ويمسك توفيق بالزجاجة الأخرى.. ويفتح الطفل الباب ويقول له: اتفضل يا أونكل أنت أونكل توفيق).

ويظهر الارتباك الشديد على توفيق جدًا.. ولكن أمام الأبواب المفتوحة لا يتراجع.. وجد نفسه فى صالون.. وينظر إلى اللبن الذى فى يده.. ويهز رأسه من شدة التأثر.. ويعود الطفل الصغير ويأخذ منه الزجاجة ويقول له.. **(أنا قلت لماما.. أن عمه توفيق جه)..**

(يضحك توفيق ضحكة مريرة ويحاول أن يحتفظ بهدوئه ويلتفت حوله وينظر إلى الصور على الحائط.. ويرى صورة للعروسين.. ويخرج من جيبه ظرفًا آخر ويحاول أن يفتحه وهو يقول): عندما تكون فى البيت افتح الظرف ده.. إيه الأسرار والألغاز دى.. هو أنا فى حالة حرب.. ظرف مقفول.. وظرف مفتوح.. كل ده ليه.. فن.. فن تخريب البيوت.. فن هدم السعادة الزوجية.. فن.

(وبعد لحظات يدخل طفل آخر.. أصغر من الأول.. ويقول):

توتو.. عيان.. علشان كده مش حيقدر يجى.. لكن أنت مش أونكل توفيق.. أنت مين..؟

(يخرج الطفل ويقف وراء الباب.. وفى هذه اللحظة ينهض توفيق.. وينزع صورة من على الحائط ويضعها فى جيبه ويعود الطفل يصرخ وراء الباب).

الطفل : ده مش أونكل توفيق يا ماما.. ده حرامى حرامى يا ماما.. جاى يسرقنا.. يا بابا حوش يا بابا..

(يتقدم الأب وهو يحمل الطفل على صدره ويداعبه).

(وهو يشير إلى البيچاما والروب)..

الأب : أنا آسف..

توفيق : الحقيقة أنا اللى آسف جدًا.. دخلت كده مرة واحدة من غير ميعاد.. ابن حضرتك لطيف خالص..

الأب : أصل احنا قلنا له إن عمه توفيق جاى يزورنا النهاردة.. كان بيدرس طب فى إنجلترا.. ومن يوم ما اتولد ما شافوش علشان كده كل واحد يخبط على الباب يقول أونكل توفيق جه..

توفيق : غريبة أنا اسمى كمان توفيق.

الأب : كده يبقى أنت عمه توفيق.

الأب : يا سمير.. تعال.. تعال سلم على أونكل توفيق.

(الأب ينادى).

سمير : أزيك يا أونكل.. أنت عارف إن احنا النهاردة عندنا حفلة كبيرة.

توفيق : كده..

سمير : حفلة عيد ميلاد بابا وماما.

توفيق : صحيح..؟

الأب : أيوه صحيح.. بالصدفة أنا مولود يوم ١٧ ومراتى مولودة يوم ١٨ وتلقينا بدل ما نعمل حفلتين اتفقنا إننا نعمل حفلة واحدة يوم ١٧ اللى هو يوم عيد ميلادى..

(ينادى على زوجته).

الأب : يا أميرة.. أميرة.. تعالى شويه..

الأب : أنت بعتك الأستاذ شوقى..

توفيق : شوقى مين..؟

الأب : أصل أنا طلبت من واحد صاحبى أنه يبعت لنا مصوراتى علشان الحفلة لكن قلت له يجى بعد الظهر..

توفيق : واللهِ الحقيقة.. يظهر.. إن فيه سوء تفاهم.. أو فيه شوية لخبطة حصلت أو حتحصل..

(.. تدخل الزوجة أميرة تلاحظ وجود توفيق يقف توفيق وجلال).

أميرة : أيوه يا جلال.. متأسفة.. أهلا وسهلا..

جلال : الأستاذ توفيق..

أميرة : أهلا وسهلا.. الأولاد عاملين هيصه.. النهاردة..

توفيق : ربنا يخلى يا أفندم..

أميرة : سمير فاكرك عمه توفيق.. أصله جاى النهاردة..

جلال : أنا كنت باقول له دلوقتى..

(يلاحظ الارتباك الشديد على وجه توفيق).

توفيق : واللَّه يا ست هانم أنا مش عارف أعمل إيه.. مش عارف أبدأ منين.. أنا أصل حكايتى غريبة شوية..

أميرة : أيوه الدنيا مليانة حكايات..

توفيق : فعلا.. فعلا..

(مرتبك).

أميرة : وحضرتك.. حضرتك..

توفيق : حضرتى..

أميرة : حضرتك بتشتغل إيه..؟

توفيق : أهى ده الحكاية الغريبة..

(يزداد اضطراب توفيق جدًا.. ويخرج المنديل من جيبه مرات عديدة وهو يجفف عرقه).

جلال : فيه حاجة يا أستاذ توفيق.. الحقيقة زيارتك مفاجأة لنا..

(جلال يقدم سيجارة لتوفيق الذى يزداد اضطرابه).

جلال : أنت فعلا باين عليك تعبان..

توفيق : أيوه أنا تعبان من زمان قوى.. ومش عارف أستريح ازاى.

جلال : حاسس بحاجة.. أجيب لك أسبرين..

توفيق : واللَّه يا ريت استريح.. لكن أصل الوجع مش عارفه فين.. ولا الدوا إيه..؟ واللَّه يا أستاذ جلال.. أنا متأسف جدًا.. لكن..

جلال : خير يا أستاذ توفيق فيه حاجة..؟

توفيق : لا أبدا.. هو فيه.. بس..

جلال : بس إيه..؟

توفيق : الضرورة.. لقمة العيش.. أعمل إيه قسمتى.. مش عارف أقولك إيه..

(يخرج المنديل من جيبه ويجفف العرق السائل بغزارة).

جلال : تحب نشرب قهوة يا أستاذ توفيق.

توفيق : بلا ش حاجة..

جلال : نفسك فى إيه..؟

(توفيق يهز رأسه بتأثير شديد).

توفيق : أنت اللى بتقول لى نفسك فى إيه.. حاجة غريبة يا ناس..

(لنفسه).

أعمل إيه.. يا رب.. يا رب ساعدنى..

جلال : مش فاهم حاجة.. فيه إيه يا أستاذ توفيق أنت دلوقتى وغوشتنى..

أرجوك يا أميرة سبينا لوحدنا شوية..

(تخرج الزوجة)

فيه حاجة حصلت.. لا سمح اللّه..

أرجوك تتكلم.. قول أنا أعصابى مش ممكن تستحمل أكثر من كده.

(توفيق يهز رأسه بالنفى ويقوم جلال ويغلق باب الحجرة).

جلال : اتكلم يا أستاذ توفيق.. فيه حاجة حصلت؟

توفيق : أيوه.. فيه حاجة فظيعة حصلت..

جلال : يا ساتر يا رب.. ولازم فى يوم زى النهاردة.

توفيق : أيوه فى يوم زى النهاردة..

جلال : أخويا جرى له حاجة..؟

توفيق : حاجة زى كده..

جلال : المركب غرقت..

توفيق : حاجة زى كده..

جلال : مش فاهم.. حاجة زى كده يعنى إيه..؟ يعنى مات واللا ما ماتش..

توفيق : ما ماتش..

جلال : فى المستشفى..

توفيق : ما دخلش مستشفى..

جلال : أمال إيه..؟

توفيق : اتجوز..؟

جلال : بتقول إيه يا أستاذ توفيق.. أنت بتلعب بأعصابى.. يعنى إيه اتجوز..؟

توفيق : يعنى اتجوز..

جلال : اتجوز مين..؟

توفيق : اتجوز أخته..

جلال : أختى؟.. مين..؟

توفيق : أخته هو..

جلال : إيه ده.. مش فاهم.. أخويا توفيق اتجوز أخته..

(الذهول واضح جدًا على وجه جلال والارتباك يشتد بتوفيق، ولكنه يشعر بأنه أحسن حالا من الناحية النفسية ويمد يده ليخرج سيجارة يسحبها ثم يعيدها إلى مكانها ويضع العلبة فى جيبه.. ويخرج منديلا يمسح به العرق.. وينهض ويجلس ويأتى بحركات كلها ارتباك)

توفيق : هو ده اللى حصل.

جلال : أخته تبقى أختى.. يعنى توفيق أخويا اتجوز أخته.. لكن ده أحنا كانت لنا أخت وماتت..

توفيق : ما ماتتش..

جلال : إزاى..؟

توفيق : أنا اسمى توفيق سليم.. صحفى.. وأنا جاى علشان أقولك الخبر ده..

جلال : لكن برضه مش فاهم.. أختنا ما ماتتش طيب.. اتجوزها أزاى..؟ مش فاهم واتجوزها فى إنجلترا.

(وهو أهدأ من ذى قبل).

توفيق : لا مش فى إنجلترا.. أنتم كانت لكم أخت.. لكن الأخت دى فى الحقيقة بعد وفاة والدك الحاج سليم عبد اللطيف وهى..

جلال : مظبوط الاسم كده..

توفيق : ووالدتك..؟ ووالدتك السيدة توحيدة عبد السلام.

(يخرج ورقة من جيبه).

جلال : أيوه.. المرحومة كان اسمها كده..

توفيق : بعد وفاة والدك. كانت ولدتك حامل فى شهر واحد.. وبعدين كان فيه خلافات عائلية جامدة بين أعمامك على التركة. كويس كده..؟

جلال : كويس قوى..

توفيق : واتفق أعمامك وحرموا ولدتك من الميراث الشرعى لها.

جلال : أيوه صحيح..

(وهو يقرأ الورقة).

توفيق : وعمك عبد السميع طلب أن يتجوزها.

جلال : أيوه حصل..

توفيق : وولدتك رفضت.

جلال : أيوه حصل..

توفيق : وولدتك رفضت..

جلال : مظبوط.. حاجة غريبة المعلومات دى كلها يا أستاذ توفيق.

توفيق : وبعدين ولدتك سافرت إسكندرية..

جلال : مظبوط..

توفيق : وهناك ولدت أختكم.. وبعدين والدتك اتجوزت واحد من قرايبها..

جلال : تمام

توفيق : وكان جوزها ده ما بيحبش العيال أبدا لأنه كان متجوز قبل كده ومات له ثلاثة عيال. واحد فى النيل.. وواحد تحت القطر والثالث نزل ميت..

جلال : غريبة كل ده مظبوط.. لكن أيه علاقة ده بحكاية أخويا توفيق..

توفيق : ما أنا جايلك أهو.

جلال : أتفضل..

توفيق : وجت ولدتك بعد البنت ما اتولدت خافت إن جوزها يقتلها.. واتفقت مع الحكيمة أنها تأخذ الطفلة وتربيها هيه.. وتحط جنبها فى السرير أى طفل ميت.

(الدهشة والذهول على وجه جلال.. والارتباك على وجه توفيق).

توفيق : وبعدين جوز والدتك عرف الحكاية دى.. وارتاح لما عرف أن الطفل اتولد ميت.. المعلومات اللى عندنا يا أستاذ جلال بتقول إن الحكيمة أخذت الطفلة. وكان اسمها فتحية.. وفضلت والدتك تصرف على

الطفلة وتشوفها بانتظام وتدفع للحكيمة مرتب شهرى وكبرت البنت.. ودخلت البنت المدرسة ودخلت ثانوى والجامعة.. واتخرجت وبعد ما ماتت والدتك سابت للحكيمة وصية.. وانفتحت الوصية الأسبوع اللى فات لأن الحكيمة نفسها ماتت.

جلال : الحكيمة ماتت.. الحكيمة اللى هى تبقى حماة توفيق أخويا.. وقالت إيه فى الوصية..

توفيق : ما قالتش حاجة.. وإنما اعترفت إن البنت دى مش بنتها إنما هى بنت واحدة صحبتها.. وشرحت الظروف الغريبة.

(الذهول واضح على وجه جلال).

جلال : أرجوك توضح أكثر من كده يا أستاذ توفيق أرجوك..

توفيق : الحكيمة عاشت فى الريف وفتحية عاشت لوحدها فى إسكندرية فى مدرسة داخلية وبعدين جت مصر ودخلت الجامعة. وكانت فتحية، بتقول دائما أن أمها ماتت وأبوها كمان وأن ما لهاش حد، لكن الحقيقة مش كده.. الحقيقة أن الحكيمة دخلت مستشفى الأمراض العقلية من كام سنة بعد صدمة عنيفة، وبعد ما ماتت اكتشفوا بالمصادفة من هدومها ودواليبها وأوراقها أن فتحية دى مش بنتها وتؤكد حاجة أخطر إن فتحية اتجوزت أخوها.. وخلفت منه كمان.

(توفيق ينهض واقفا).

جلال : غريبة اتجوزت توفيق أخويا.. وخلفت منه كمان.. لكن ده توفيق دايما بيقول لى عن أخباره.. مش ممكن أصدق أبدا إن توفيق أخويا اتجوز..

توفيق : فعلا توفيق ما اتجوزش..

(الصمت يخيم على الغرفة وعلى الاثنين مرة واحدة.. وينظر كل إلى الآخر).

توفيق : أنت اللى اتجوزت أختك..

(وجه جلال قد تقلص.. والعرق يتصبب.. ويتراجع فى مقعده يسمع طرقًا على الباب.. أميرة زوجته.. ثم تدخل بحذر شديد).

أميرة : فيه إيه.. مالك.. ماله.

جلال : فتحية!!

أميرة : إيه اللى خلاك تنادينى بالاسم ده.. فيه إيه.. جرى إيه؟؟

(جلال يشير إلى توفيق أن يخبرها)

أميرة : تليفون علشانك يا أستاذ توفيق.

(توفيق يشعر بشىء من الارتياح فقد أتيحت له فرصة أن يهرب من الموقف)

(يقوم توفيق ويخرج خارج الحجرة فى طريقه حيث التليفزيون فى الصالة الكبرى).

توفيق : ألو.. مين.. أيوه يا أستاذ.. أنا قلت له.. دلوقت.. حاضر يا أستاذ.. واللّه ما أنا عارف أعمل إيه دلوقتى.. الموقف صعب جدًا.. نعم أنا واللّه ما ضيعت وقت يا أستاذ أطلبك فين.. فين.. حاضر.. مع السلامة..

(توفيق يقفل السكة ويبدو عليه التأثر الشديد ويضع يده فى جيبه ويخرج المظروف الذى لم يفتحه وبسرعة ويفتح المظروف ويقرأ التعليمات بصوت هامس).

إذا طلب منك أى مبلغ فالجريدة على استعداد لدفعه حاول إذا هرب الزوج أو أصيب بحالة هيستيرية أن تتصل بنا، لا تنس أن الخبر بعد أن ينشر فى الصفحة الأولى ستجد مئات الشبان على استعداد لأن يتزوجوا فتحية وعليك إذا قبلت الزواج أن تتصل بنا.

عليك بعد ذلك أن تأتى بالزوج الأول.. أخوها ليحضر الزواج ويكتب لنا شعوره بأى ثمن.

(توفيق ينظر حوله مرتابا).

بس.. دى أحسن فرصة إنى أجرى فيها دلوقتى..

(وتوفيق يسرع خارجا من الباب).

(اليوم الثانى.. الجرائد وفى صفحاتها الأولى صور للأخوين وعناوين ضخمة.. الرجل الذى تزوج أخته وأنجب منها ثلاثة أولاد).

(أمام باب الڤيلا.. أبو سالم موزع اللبن يضع اللبن كالعادة أمام باب الڤيلا.. نرى الصحفيين والمصورين أمام المنزل، كاميرا التليفزيون والسينما وميكروفونات الإذاعة، وفى وسط هؤلاء جميعا يقف توفيق وهو أهدأ حالا)..

صحفى ١ : أيوه مين قدك يا عم توفيق.

صحفى ٢ : طبعا خبطة العمر يا حلو.

صحفى ٣ : دى فيها علاوة طبعا.. واللّه حاتتجوز ياتوفى.. طبعا.

صحفى ١ : بقى أنت تطلع منك الحاجات دى يا توفيق.

صحفى ٢ : يا أخى الواد الساهى ده.

مصور ١ : أوعى شوية خلينا نأخذ الصورة دى.

مصور ٢ : إيه يا أخى قدامك البيت أهو.. أنت مش شايف.

مصور٣ : صور لك يا توفيق وأنت جنب الباب.

مندوب الإذاعة: كلمة واحدة يا أستاذ توفيق.

(يتقدم مندوب الإذاعة وهو يحمل الميكروفون)

المندوب: ومعانا الآن الأستاذ توفيق.. بطل مأساة اليوم.. وهو الصحفى الذى اكتشف هذه المأساة الإنسانية.. زواج سعيد لأخوين لا يعرفان أنهما أخوان.. قوللى يا أستاذ توفيق.. إيه شعورك دلوقت؟

توفيق : واللّه أنا فى غاية الألم.

المندوب : طبعا أنا مقدر موقفك.. لكن إيه شعورك بعد أن انفردت بهذا الخبر العالمى.

توفيق : طبعا سعيد جدًّا!!

(يقول هذه الكلمة بصوت متهدج وهو يكاد يبكى.. يبكى).

المندوب : أنا آسف سيداتى سادتى.. لكن فيه زحام شديد جدًّا حولى من الصحفيين والمصورين.. الباب انفتح دلوقتى.. ومن شرفة الباب تطل سيدة أنيقة تلبس الأسود حسناء وعلى صدرها طفل وأمامه طفلان.. سيداتى سادتى.. إنها الأخت التى تزوجت من أخيها أو الأخت التى نكبت فى أخيها..

(ضوضاء وزحام شديدان.. يتجه توفيق ناحية فتحية ويحاول أن يمنع الزحام ثم يتسلل وراءها داخل الڤيلا ثم يطل من شباك فى الداخل.. يتكلم إلى زميل له).

توفيق : إسماعيل.. معاك فلوس.

إسماعيل : أيوه عاوز إيه.

توفيق : أى فلوس.. اللى معاك هاته.

إسماعيل : ٢٠ جنيهًا كفاية.

توفيق : كفاية.. أصل جوزها هرب.. أخوها هرب.

إسماعيل : وبعدين.

توفيق : حاخليها تهرب دلوقتى يوم واللا يومين لحد ما تشوف الأستاذ عاوز إيه كمان..

إسماعيل : حتقعد كتير.. بيقولوا إنك حتقعد أسبوع.

توفيق : مين اللى بيقول؟

إسماعيل : هناك.

توفيق : استنى دلوقت.

(تتعالى الأصوات.. يتجه توفيق إلى الباب الخارجى.. ويسحب فتحية إلى الداخل ويقفل الباب وراءه وتتعالى الأصوات أكثر.. ويتقدم توفيق من فتحية).

توفيق : إحنا لازم نهرب ليومين ثلاثة.. كل حاجة أنا رتبتها.. لحد الدنيا ما تهدأ شوية اسمعى.. خذى الأولاد واطلعى من الباب الورانى واستنى عند أول الشارع الكبير.

فتحية : حاضر..

توفيق : وأنا حاكون اتفاهمت مع إخوانًا الصحفيين.

فتحية : حاضر..

توفيق : ياللا قومى دلوقت..

(تقوم فتحية وتتجه إلى ناحية أخرى من الصالة بينما يتجه توفيق إلى الصحفيين ويغلق الباب بالمفتاح).

توفيق : يا جماعة.. يا ناس.. يا اخوانى.. اسمعونى أنتم عارفين أن دى مأساة.. مصيبة.. ادوها فرصة شوية.. وبعد كده خدوا اللى أنتم عاوزينه.. ادوها.. فرصة.. اعذروها..

(يتقدم مندوب الإذاعة يحاول أن يأخذ الكلام من توفيق).

توفيق : يا جماعة أنتم فاكرين أن الحكاية صور فى صور وكلام فى كلام.. دول بشر.. ناس ليهم لحم ودم.. دمهم ساح.. اتخرب بيتهم.. أقول لكم خبر.. جوزها.. أخوها.. هرب.. راح بورسعيد.

(أصوات..)

الصحفيون والمصورون: بورسعيد.. فين.. عند مين.. عنوانه إيه يا توفيق.. إمتى.. سافر بإيه.. خد هدومه.. هددها بالقتل.. انتحر هوه انتحر..

توفيق : لحظة واحدة.. إدونى فرصة أقول لكم كل حاجة.. وبعدين حافتح لكم البيت وأنتم حرين فيه..

(وبحركة تمثيلية يفتح باب البيت.. وينظر فى داخله فيجد النافذة مفتوحة ولكن لا يوجد أحد).

توفيق : اتفضلوا ادخلوا.. آدى البيت.. وآدى الناس اللى فيه.

(ويدخلون جميعا).

***

(وفى أحد الفنادق فى الإسكندرية نجد توفيق يمسك ورقة وقلما ويتحدث فى التليفون).

توفيق : إمتى يا أستاذ.. اسمه.. فاروق الشريف مهندس سيارات.. أيوه ما عندوش مانع يتجوزها.. كده.. طيب يا أستاذ.. يعنى نروح البيت تانى.. إمتى يا أستاذ تحت أمرك.. حاضر.. فيه حاجة تانية أنا متأسف يا أستاذ.. أنا متشكر يا أستاذ.. بفضل تشجيعك يا أستاذ.. ربنا يخليك يا أستاذ.

(يقفل السكة ويجلس يتحدث إلى نفسه).

دلوقت طلقناها.. ودلوقت حيجوزها.. الأستاذ لقى لها عريس.. خرب بيتها ودلوقت عاوز يعمر بيتها..

اللّه يعمر بيتك يا أستاذ..

(بمرارة شديدة يرتدى ملابسه.. ويرفع سماعة التليفون).

أوضه نمره ١١١ من فضلك.. أميرة.. ألوه.. صباح الخير يا ست فتحية.. إن شاء اللّه تكونى كويسه.. آه.. طبعا.. معلهش.. أنت عارفة مبروك يا ست.. فيه واحد مهندس عاوز يتجوزك.. أنا عارف.. صعب قوى.. أنا عارف طبعا..

الجريدة تعلن خطبتك بكره.. إن شاء اللّه فى بيتك برضه.. وكل شىء حيكون كويس إن شاء اللّه.. ها ها..

(يفتعل الضحك والسعادة).

إن شاء اللّه يا مدام فتحية.. معلهش.. ما هو الواحد لازم يتغلب بقى على المصاعب.. والبلاوى طبعا.. معلهش.. كأنك فى فيلم.. حاجة أكثر من الأفلام.. حاجة عجيبة.. معلهش.. آه.. أنا أبدًا واللّه.. أنا بأؤدى واجبى.. ومش عاوز أقول لك.. أنا زيك واللّه يا مدام.. روح.. روح.. تعالى.. تعالى.. كلنا كده.. يا مدام ما

حدش عارف إيه المقدر.. حأقول لك إيه واللا إيه يا مدام.. حاضر.. حاضر.. اللّه يحفظك.. حاضر.. تحت أمرك!

(يقفل السكة ويرتمى على مقعده ويضع يديه على وجهه ويدق جرس التليفون).

توفيق : ألو.. ألو.. أعمل إيه.. نعم.. حاضر يا أستاذ.. مش كثير شوية.. مش صعبة عليها كل ده..

(باحتداد).

يا أستاذ أنا مش باعترض.. أنا بس بأقول وجهة نظر فقط.

(يقفل السكة).

(يدق جرس التليفون).

توفيق : أيوه.. ألو.. مين؟ موجود؟ يتفضل.. أهلا وسهلا..

(يضع السماعة).

هوه ده العريس.. عريس لواحدة كانت متجوزة أخوها وهرب منها.. والله جدع.. يا واد.. راجل.. وفيك شهامة.. ولا راجل بتحب الشهرة.. والجرايد تكتب عليه.. والسينما والتليفزيون..

(دق على الباب).

(يتقدم ناحية الباب ويفتحه ويدخل العريس الجديد).

فاروق : أنا فاروق الشريف.

توفيق : أهلا وسهلا..

فاروق : غريبة شوية..

توفيق : شوية..

فاروق : لكن لازم يقف مفيش حد..

توفيق : أيوه..

فاروق : خصوصا فى ظروف صعبة زى دى.. ظروف غريبة ومعروضة على الناس.. أنا واللّه قريت المقال اللى أنت كتبته وقلبى انقطع.. أنا تصورت موقفك وأنت بتقول لها.. إن هذا الرجل أخوك.. وتقول له إن هذه الزوجة أختك.. وأنت بتقول للأطفال إن ده مش أبوكم ده خالكم.. وإن دى مش أمكم دى عمتكم..

توفيق : أيوه أنت متقدرش تتصور اللى حصل لى.. لكن الحمد للّه اللى لقينا

حل.. اللى لقينا واحد عنده قلب زى قلبك وشهامة زى شهامتك..

فاروق : الحقيقة مش مسألة شهامة.. هيه شكلها حلو.. ومأساة.. ولابد أن واحد ينقذ.. لابد أن واحد يصحح غلط حد.. أنا كمان حياتى تعبانة.. أنا كمان اتجوزت غلط..

توفيق : هوه فيه حد يتجوز صح.. الجواز نفسه تصليح لغلطة العزوبية.. وبعدين الجواز نفسه غلطة تتصلح بالعزوبية كمان مرة.. وبعدين العزوبية تتصلح بجواز.. تانى آه يا سوسو..آه لو تعرفى..

(يسرح بعيدا).

فاروق : نعم.

توفيق : لا مؤاخذة.. أنا سرحت فى حاجة تانية خالص.. دلوقت أنت مفروض تعمل إيه.

فاروق : تحت أمرك.. وأنا قابلت مدام فتحية دلوقت..

توفيق : كده.. ما كنتش أعرف الحكاية دى.. وقالت لك إيه..

فاروق : مش بالسرعة دى.. أصلى أنا كنت عارفها من زمان.. وكان نفسى أتجوزها.. لكن هى مارضيتش وقالت لى أما أخلص دراسة.. وخلصت دراسة وتخرجت واشتغلت.. وكل واحد راح فى ناحية..

توفيق : كده.. بقى هيه مش غريبة عليك ولا أنت غريب عليها.. طيب كويس قوى.. يا الله بينا..

(ينزل الاثنان من الفندق.. وننتقل إلى حفلة كبيرة فيها صحفيون وكاميرات سينما وتليفزيون وورد.. ويتقدم العروسان وإلى جوارهما توفيق.. وتتعالى الصيحات والزغاريد، ويضع العريس الدبلة فى أصبع العروس وتدور العدسات وتلمع عدسات التصوير).

ومن بعيد نرى صورة أخيها الذى كان زوجها السابق.. وقد ارتدى بدلة قاتمة ويبدو على وجهه التردد والاضطراب.. وبسرعة يتقدم من توفيق.. والناس ينظرون إليه فى دهشة وفى ذهول.. وتنظر إليه العروس.. ويبدو عليها الاضطراب ولكنها تتماسك.. ومازال أخوها يتقدم نحوها.. وتنهض العروس.. وينهض عريسها.. ويتقدم الأخ ويقبل أخته فوق جبهتها والدموع فى عينيه.. ويصافح العريس وينسحب وراءه توفيق.. وعند الباب الذى دخل منه الأخ تدخل فتيات وسيدات كلهن كن صديقات أو زميلات لها فى الجامعة.. ومن الابتسامات والنظرات نفهم أنهن طبعا سعيدات..

(وننتقل مرة أخرى إلى بيت فتحية.. يجلس على السلم.. وقد فك الكرافتة.. ونكش شعره.. والتعب واضح على وجهه.. والساعة مبكرة جدًا ونجد الرجل بائع اللبن.. يضع زجاجتى لبن.. وإلى جوارهما الصحف الصباحية وفاتورة الحساب القديم.. وينظر بائع اللبن العجوز إلى توفيق).

بائع اللبن : أنت لسه هنا؟

توفيق : وأنت لسه بتلف على البيوت.

بائع اللبن : أمال حاعمل إيه..

توفيق : أيوه حتعمل إيه.. كل شىء يتكرر.. النهار يطلع.. والليل يجى.. يطلع النهار وناس تتولد.. وناس تموت.. وننتقل من فرح لميتم.. ومن ميتم لفرح.. والدنيا بتجرى.. بتجرى.. الناس دى رايحة فين.. جايه منين.. مين دارى بمين حاسس بمين.. أهوه..

(ويشير بيده إلى الباب).

ناس داريين بناس.. عايشين مع ناس.. كان هنا إيه من كام يوم.. فيه هنا إيه دلوقت.. تعبت أنا قوى.. والنبى تعبان جدا.. مش عارف إيه اللى تعبان منى.. دماغى ولا قلبى.. ولا جسمى.. ولا الدنيا كلها بتضغط علىَّ إيه هنا فى الدنيا بيضغط علىَّ مش عارف.. يمكن الدنيا تعبانه.. طهقت منى.. يمكن أنا تاعب الدنيا.. أنا مغص فى بطن الدنيا.

(يمدد رجليه).

آه يانى..

(يضع يده فى جيبه ويقلب فى أوراق ويخرجها ويقرأ بعضها ويمزق الأوراق واحدة وراء واحدة).

وأنت كمان برضه..

(يمزق البطاقة الشخصية)

خليهم يدوروا علىَّ.. خلى واحد يلاقينى..

ولما يعرفنى ياخد حلاوة.. ياخد علاوة..

(ويخرج أنبوبة من جيبه وفيها أقراص ويبتلع هذه الأقراص بصعوبة.. ويمدد رجليه ويديه).

لازم حد يجد سعادة فى البحث عنى.. ويجد سعادة فى أن يجدنى..

ويجد كلام يقوله.. ويلاقى له صورة.. وتنشروا صورتى وحتقولوا إيه.. كل اللى حيتقال علىَّ كذب.. مفيش حد حيقول الحقيقة.. مفيش حقيقة بالنسبة لواحد مات.. كل واحد يقدر يقول أى حاجة عنى.. يقول طيب.. وغلبان.. يقول مجتهد.. ويقولوا مديون.. ويقولوا حب ولا طالش.. ويقولوا مجنون.. وكل الناس اللى ما وصلوش لأى حاجة.. كلهم مجانين.. اللى نجحوا مش همه اللى عندهم حق.. اللى لهم تاريخ.. وأنا لا هنا ولا هناك.. لا هنا ولا هناك.. يا أستاذ.. لا هنا ولا هناك يا سوسو..

(والدموع على خده ويتمدد ويتساقط على الأرض.. كأنه مات).

ويخرج من جيبه بيضتين.. كل الناس زى البيض مليان من جوه.. وناعم من بره.. ومهما تقربنا من بعض ما بنحسش إلا بحاجات صغيرة.. لكن كل واحد لوحده.. لوحده.. كل واحد لوحده..

ويقترب منه زميل له ويتفرس فى وجهه:

يا توفيق.. طلع بيان رسمى إن القصة كلها كذب.. وأنه مجرد تشابه فى الأسماء..

توفيق (دائخ) يعنى مش أخته.. يا نهار أسود..

الزميل : مالك.. عملت فى نفسك إيه.

توفيق : عملت إيه.. عملت اللى لازم يعمله كل اللى بيشتغلوا فى الكتابة.. عملت إيه.. تعيش أنت.. وصيتك..

الزميل : إيه اللى بتقوله ده..

توفيق : وصيتك زوزو!

الزميل : مين زوزو

توفيق : أنا قلت زوزو؟ يمكن زوزو ده اسم الدلع بتاع جزمتى.. وصيتك سوسو..

الزميل : مين سوسو؟.

توفيق : هيه سوسو مش مقررة عليكم..

الزميل : مش فاهم..

توفيق : ولا أنا.. بكره تفهم (ويسقط ميتا)..

□ □ □

الفهرس

كلمة أولى ٣
فى شارع السلام ٩
دنياى الصغيرة ١٣
بيتنا الجديد ١٧
خطأ لغوى ٢٣
من غير نهاية ٢٨
ثلاث قصص ٣٤
ابن فلان ٣٧
دماء لا تجف ٤٢
شبر أرض ٤٧
قطرة لبن فى ليلة مظلمة ٥١
عزيزى فلان ٥٥
حلم ليلة شتاء ٦٠
رسالة منها ٦٤
شجرة على ترعة ٧٠
قصة حبيبى ٧٤
قل كلمتك وانتظر ٧٧
لا شىء ينتهى ٨٠
خرجت ولم تعد ٨٥
بفلوس ٩٠
كانت النهاية ٩٦
وراء الباب ٩٩
كلنا أمهات ١٠٤
رجولة تعيسة ١٠٨
إنها زوجتى ١١٤
بلا ورق ١١٨
منه للّه جاجارين ١٢٣
الرسالة الأخيرة ١٣٠
الذى لا يطاق ١٣٦
غلطة عمرى ١٤١
منتهى السعادة ١٤٧
القلب لا يمتلئ بالذهب ١٥٤
أطفال عواجيز ١٦٩
فى تلك الليلة ١٧٦
بمناسبة عم سيد ١٨٢
الطبيب مجنون ١٨٧
خطاب إلى ولدى ١٩٠
الدنيا برد ١٩٣
قصة ما ١٩٥
يوم جديد ٢٠١
القاضى سرق ٢٠٤
كان.. ومات ٢٠٧
غنى حرب ٢٠٩
صراخ فى الليل ٢١٢
عم سيد ٢١٤
ثلاث نساء ٢١٧
خناقة بين نجوم السماء ٢٢١
عريس فاطمة ٢٢٧
عندى فرصة لتكون مجرما ٣٠٦

أحدث إصدارات
الأستاذ
أنيس منصور

(ا) ترجمة ذاتية:

١ – فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ – عاشوا فى حياتى.
٣ – إلا قليلاً.
٤ – طلع البدر علينا.
٥ – البقية فى حياتى.
٦ – نحن أولاد الغجر.
٧ – من نفسى.
٨ – حتى أنت يا أنا.
٩ – أضواء وضوضاء.
١٠– كل شىء نسبى.
١١– لأول مرة.
١٢– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣– الحائط والدموع.
١٤– وجع فى قلب إسرائيل.
١٥– الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
١٦– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترِى علينا.
١٧– فى السياسة (٣ أجزاء).
١٨– الدين والديناميت.
١٩– لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
٢٠– السيدة الأولى.
٢١– التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣– على رقاب العباد.
٢٤– ديانات أخرى.
٢٥– وكانت الصحة هى الثمن.
٢٦– الغرباء.
٢٧– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨– عزيزى فلان.
٢٩– هى وغيرها.
٣٠– بقايا كل شىء.
٣١– يا من كنت حبيبى.
٣٢– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:
٣٣– رومولوس العظيم.
٣٤– زيارة السيدة العجوز.
٣٥– زواج السيد مسيسبى.
٣٦– الشهاب.
٣٧– هى وعشاقها.
** للأديب السويسرى ماكس فريش:
٣٨– أمير الأراضى البور.
٣٩– مشعلو النيران.
** للأديب الفرنسى جان جيرودو:
٤٠– من أجل سواد عينيها.
** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:
٤١– بعد السقوط.
** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:
٤٢– فوق الكهف.

** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:

٤٣- الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

٤٤- تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسى أداموف:

٤٥- الباب والشباك.

** للأديب الإسبانى أرابال:

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- ألوان من الحب.

٥١- شباب.. شباب.

٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.

٥٤- جسمك لا يكذب.

٥٥- الذين هاجروا.

٥٦- غرباء فى كل عصر.

٥٧- أظافرها الطويلة.

٥٨- هموم هذا الزمان.

٥٩- زمن الهموم الكبيرة.

٦٠- الحب الذى بيننا.

٦١- عذاب كل يوم.

٦٢- كيمياء الفضيحة.

٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.

٦٥- الذين عادوا إلى السماء.

٦٦- القوى الخفية.

٦٧- أرواح وأشباح.

٦٨- لعنة الفراعنة.

٦٩- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.

٧١- وداعًا أيها الملل.

٧٢- كرسى على الشمال.

٧٣- ساعات بلا عقارب.

٧٤- مع الآخرين.

٧٥- شيء من الفكر.

٧٦- لو كنت أيوب.

٧٧- يعيش.. يعيش.

٧٨- الوجودية.

٧٩- طريق العذاب.

٨٠- وحدى.. مع الآخرين.

٨١- ما لا تعلمون.

٨٢- لحظات مسروقة.

٨٣- كتَاب عن كتب.

٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.

٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

٨٦- أوراق على شجر.

٨٧- فى تلك السنة.

٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.

٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.

٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.

٩١- فلاسفة وجوديون.

٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.

٩٤- بلاد الله خلق الله.

٩٥- غريب فى بلاد غريبة.

٩٦- اليمن ذلك المجهول.

٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.

٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.

٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٠- مدرسة الحب.
١٠١- حلمك يا شيخ علام.
١٠٢- مين قتل مين.
١٠٣- جمعية كل واشكر.
١٠٤- الأحياء المجاورة.
١٠٥- سلطان زمانه.
١٠٦- العبقرى.
١٠٧- كلام لك يا جارة.
١٠٨- فوق الركبة.
١٠٩- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٠- يوم بيوم.
١١١- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٢- إلا فاطمة.
١١٣- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٤- حقنة بينج.
١١٥- اتنين.. اتنين.
١١٦- عريس فاطمة.
١١٧- من الذى لا يحب فاطمة.
١١٨- غاضبون وغاضبات.
١١٩- هى وغيرها.
١٢٠- هى وعشاقها.
١٢١- العبقرى.
١٢٢- القلب أبدًا يدق.
١٢٣- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٤- ثم ضاع الطريق.
١٢٥- النجوم تولد وتموت.
١٢٦- هناك أمل.
١٢٧- أحب وأكره.
١٢٨- الحيوانات ألطف كثيرًا.
١٢٩- مصباح لكل إنسان.
١٣٠- أتمنى لك..
١٣١- لعل الموت ينسانا.
١٣٢- اقرأ أى شىء.
١٣٣- ولكنى أتأمل.
١٣٤- حتى تعرف نفسك.
١٣٥- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
١٣٦- نحن كذلك !!
١٣٧- اللهم إنى سائح.
١٣٨- كائنات فوق.
١٣٩- تعال نفكر معًا.
١٤٠- آه لو رأيت !
١٤١- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٢- انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٣- هناك فرق.
١٤٤- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزء الأول والثانى.

(ل) الترجمات القصصية:

١٤٥- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.
١٤٦- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
١٤٧- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.
١٤٨- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.
١٤٩- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.
١٥٠- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

١٥١- الفلسفة الوجودية الألمانية لإميل تسلر.

١٥٢- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك روسو.

١٥٣- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.

١٥٤- مسرح العبث الفرنسي - لاتيان ماريبو.

١٥٥- الفيلسوف الروسى برديائف - لفيكتور لوزتسيف.

١٥٦- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.

١٥٧- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.

١٥٨- رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.

١٥٩- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.

١٦٠- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.

١٦١- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.

١٦٢- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.

١٦٣- كروتشه فيلسوف الحرية - لايرابيلا دلورنتس.

